قِصَصٌ مِنْ شكسبير

كتبها

تشارلس لام، مبري لامم

تقديم ومراجعة

محمد بَدرَان

الكتاب: قِصَصٌ مِنْ شكسبير

الكاتب: تشارلس لام، مبري لامم

تقديم ومراجعة: محمد بَدرَان

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

قِصَصٌ مِنْ شكسبير/ تشارلس لام، مبري لامم، تقديم ومراجعة: محمد بَدرَان

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٥٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٧٨ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٩٢٩ / ٢٠٢٠

قِصَصٌ مِنْ شكسبير





مقدمة الترجمة

شكسبير وشعره

في الثالث والعشرين من شهر إبريل من عام **١٥٦٤** كان طفل ينام في مهد حياة شكسبير من الخشب، ببيت ليس بالعظيم ولا بالحقير، في مدينة استرتفرد — على — الإيفن Stratford on Avon. وما من شك في أن أباه وأُمه كانا يظنانه طفلًا مُدهشًا، وما من شك أيضًا في أن منشأ هذا الظن أنهما أبواه، أما الجيران والأصحاب الذين جاءوا ليهنئوا بهذا المولود الجديد فلم يروه يفترق في شيء عن سائر الأطفال. على أنه مهما يكن من إعجاب الأبوين بطفلهما، فلو أنهما نبئًا في ذلك الوقت أن وليم William الصغير سيذكر اسمه بالإجلال ما بقيت اللغة الإنجليزية ينطق بها إنسان، وأن مسرحياته ستُقرأ وتُمثل في بلاد العالم كله، لو انهما نبئا ذلك لما كان أحد أكثر منهما دهشة.

ولما بلغ وليم الخامسة من عمره كان له إخوة يلعبون معه، وجاءت في هذا الوقت فرقتان مُتنقلتان من المُمثلين إِلى مدينة استرتفرد، وأذن لهما أبوه — وكان رئيس البلدية — بتمثيل بعض المسرحيات في بلده؛ وكانت إحدى أُوليفرقتين مشمولة برعاية الملكة إيصابات وتُسمى «خدم الملكة»، والأُخرى مشمولة برعاية أحد النُبلاء الإنجليز. وأكبر الظن أن الممثلين جاءوا إلى بيت شكسبير ليرتبوا فيه أعمالهم، ولعل وليم قد أُخِذَ مع أحد أبويه ليشاهد التمثيل، نقول لعل وأكبر الظن لأن ما نعرفه عن حياة وليم شكسبير جد ضئيل، ولأن معظمه مستمد من إشارات غامضة يلقيها عرضًا بين ثنايا السطور في رواياته.

وما من شك في أن وليم قد ذهب إلى مدرسة بلده كما يذهب سائر الأطفال، وتعلم فيها القراءة والكتابة وقليلًا من اللغتين اللاتينية واليونانية، فاستطاع بذلك أن يقرأ بعض الكُتب اللاتينية لشعراء النهضة بلغتها الأصلية، وأن يقرأ أيضًا بعضها مُترجمًا في الكُتب التي كان يعيره إياها مُدرسوه حين رأوا أنه يعنى بقراءتها أكثر من غيره من التلاميذ.

وكان في ساعات فراغه وفي أيام العُطلة المدرسية يسير في المزارع والغابات حول مدينة استرتفرد، يُشاهد الأزهار والطير والحيوان التي ذكر عنها في مسرحياته الشيء الكثير، مُستمدًا بعضه من مُشاهداته وكثيرًا منه من الخرافات والأوهام التي كان يسمعها من عامة الشعب ويُزين بها هذه المسرحيات على أنها حقائق لا يتطرق إليها الشك؛ لأن معرفته بعلم الأحياء كانت جد ضئيلة.

ولم يكن وليم يقضي كل فراغه وحده بين المزارع والغابات، فقد كان يغشى المجتمعات في بلده، ويُشاهد القصص التي تُمثل في أيام الأسواق، ويصغي إلى أحاديث الناس ويتحدث إليهم، ويستمع إلى ما يقصه كبير من أهل القرية عن الأعوام الماضية وعن حوادث حرب الوردتين. ومرت الأيام والسنون وتورط أبوه في الدَّين، واضطرته أحواله إلى منع ولده وهو في الثالثة عشرة من عمره أن يتم تعليمه المدرسي ليعينه على كسب معاشه.

ولسنا نعلم شيئًا عن حياة شكسبير في الخمس السنين التالية، ولكننا نراه في الثامنة عشرة من عمره؛ أي في عام ١٥٨٢، رجلًا مُتزوجًا بآن هثواي Anne Hathaway التي كانت تكبره بثمان سنين. ويلوح أنه لم يكن مُوفقًا في هذا الزواج، ولكن ثمرته كانت بنتين وولدًا. وبعد ثلاث سنين من زواجه

غادر موطنه وسافر إلى لندن ليبحث فيها عن عمل، ولعل سفره من استرتفرد كان عقب متاعب نشأت له من جراء سرقة بعض الغزلان من مراعي أحد النُبلاء. واشتغل في لندن بالتمثيل، ثم أصبح شريكًا في عدد من دوره. وفي عام ١٥٩٤ نشر أول أعماله وهو قصيدة «الزُّهَرَة وأدنيس Venus and Adonis»، وكان قبل ذلك قد اقتبس بعض مسرحيات من روايات قديمة وأنشأ مسرحيات أُخرى جديدة، أدرت عليه المال وقربته من الملكة إليصابات ثم من جيمس الأول، وجعلته صديقًا لكثير من أُدباء العصر وعُظمائه. وفي عام ١٥٩٧ اشترى بيتًا وأرضًا في استرتفرد، وذاعت شهرته وأقر له مُواطنوه بأنه أعظم من كُتب المآسي والملاهي من الإنجليز. وفي أواخر حُكم إليصابات عانى شكسبير بعض المتاعب الخاصة، منها موت ولده الوحيد، وموت أبيه، وسقوط صديقه ونصيره إيرل سوثميتن Earl of Southampton. وكان هذا هو الوقت الذي كتب فيه مآسيه الأخيرة. وعاد شكسبير إلى مسقط رأسه بعد جلوس جيمس الأول على عرش إنجلترا في عام ١٦٠٣، وعاش هُناك في هدوء حتى وافاه أجله عام ١٦١٦.

مسرحيات شكسبير

لسنا نعرف بالضبط متى كتب شكسبير كل مسرحية من مسرحياته، ذلك أنه هو نفسه لم ينشرها، وأن طبعتها الأُولى لم تصدر إلا بعد سبع سنين من وفاته، لكن السنين العشرين التي كتب فيها هذه المسرحيات يُمكن أن تُقسم إلى أربعة أقسام لكل قسم منها صفاته الخاصة:

فالقسم الأول يشمل الفترة الواقعة بين سنتي ١٥٩٠، ١٥٩٦ وهو دور التجارب، وأهم ما كُتِبَ فيه من المسرحيات التي تشملها المجموعة التي

بين أيدينا هي مسرحية «حلم ليلة في مُنتصف الصيف»، ومسرحية «رميو وجليت»، ومن المسرحيات التاريخية مسرحية هنري السادس بأجزائها الثلاثة ومسرحية رتشرد الثالث.

ويشمل الدور الثاني الفترة الواقعة بين ١٥٩٦، ١٦٠١، وهو دور المسرحيات التاريخية وملاهي الحب المسلية. ومما كُتِبَ في هذا الدور من المسرحيات التاريخية رتشرد الثاني وهنري الرابع وهنري الخامس، ومن الملاهي مسرحية تاجر البندقية وهي أنضج وأرقى من الملاهي التي كُتِبَتْ قبلها، وتدل على براعة في تصوير الأشخاص، كما يتبين القارئ من صورة شيلك وصورة بورشيا، ومنها أيضًا ملهاة «الليلة الثانية عشرة».

ويشمل الدور الثالث ما بين سنتي ١٦٠١، ١٦٠٨ وهو دور الملاهي الجدية والمآسي العُظمى. وفيه كتب ملهاة «إن الأُمور بخواتيمها» ومآسي يليوس قيصر وهملت وعطيل ومكبث والملك لير وكريلينس Coriolanus، وتدل كلها على تفكير ناضج ودراسة عميقة لأخلاق الناس.

ويقع الدور الرابع والأخير بين عامي ١٦٠٨، ١٦١٢، وهو دور مسرحيات الحب الهادئة الرزينة، وقد كتب فيه مسرحية العاصفة وقصة الشتاء.

شعر شكسبير

ولشكسبير غير المسرحيات قصيدة الزهرة وأودنيس Venus and Adonis وقصيدة Lucrece، وهما جياشتان بالعاطفة، وفيهما قطع وصفية جميلة في الحب والصيد وغيرهما.

وله فوق ذلك عِدة أغانٍ يبلغ عددها مائة وأربعًا وخمسين أُغنية، نشرت

في مجموعة واحدة حوالي عام ١٦٠٩، وأكبر الظن أنها تصف أحوال الشاعر نفسه وكلها قوية العاطفة رائعة الجمال.

عظمة شكسبير

تلك كلمة صغيرة عن حياة شكسبير تكاد تشمل كل ما يعرفه العالم عنه. أما عبقريته فقد أقر بها العالم كله وأقر بها مُواطنوه في أيام حياته، فهو من العبقريين الأفذاذ الذين لا يختص بهم عصر واحد، بل هو رجل جميع العصور على السواء. وترجع عظمته إلى عِدة أسباب أهمها: جمال شعره القوي الذي يُلائم العصور جميعها والناس على اختلاف أنواعهم، وفكاهته العذبة، وخياله الواسع الذي جعل من شخصيات مسرحياته الخيالية رجالًا ونساء حقيقيين، وبراعته في وصف المآسي براعة لا يُضارعه فيها إلا كبار الكتاب اليونانيين الأقدمين، وعطفه على الإنسانية في جميع أشكالها ودرجاتها ونقائصها وفضائلها، لا يأخذ الناس بجريرة ارتكبوها أو خطأ وقعوا فيه، وحرصه على معرفة أسباب فضائلهم ورذائلهم على السواء.

مسرحيات شكسبير

وقد يسأل الإنسان عن المصادر التي استمد منها شكسبير قصصه وأشخاص مسرحياته. ومن حسن الحظ أن هذه المصادر قد عُرِفَتْ كلها ودُرِسَتْ، وأن في وسعنا أن نذكر عددًا كبيرًا من الكُتب التي قرأها أو رجع إليها. ويجدر بنا أن نقول من بادئ الأمر إن شكسبير كان قارئًا نهمًا، وإن لم يكن عميق الدرس لما يقرأ. وقد قرأ في مدرسة استرتفرد لكثير من شعراء النهضة اللاتينيين؛ لأنه هو نفسه كان وليد النهضة، ولما ذهب إلى لندن قرأ كثيرًا من الكُتب التي ظهرت في عصره، ومنها التراجم الإنجليزية للكُتب

اللاتينية واليونانية القديمة، والقصائد والمسرحيات والقصص التي كتبها خريجو الجامعات الإنجليزية وغيرهم من معاصريه. وفي وسعنا أن نتبين القصص التي استمد منها بعض مسرحياته في كتابات هؤلاء المعاصرين «فقصة الشتاء» و«حلم ليلة في مُنتصف الصيف» و«كما تحب» وأجزاء كثيرة من المسرحيات الأُخرى وعباراتها مأخوذة من هؤلاء المعاصرين. وقرأ شكسبير الترجمة الإنجليزية لكتاب «التراجم» تأليف بلوتارخوس Plutarch، وقرأ كذلك التراجم الإنجليزية لقصص الكُتاب الإيطاليين وأخذ عن المؤرخين الإنجليز قصص الملك لير ومكبث وسمبلين.

على أن شكسبير لم يكن يتقيد كثيرًا بالمادة التي يقرأها، فقد كان يعمل فيها فكره وخياله، ويغير فيها ما يشاء، فيضيف إليها من عنده ما يُلائم غرضه، ويحذف ما لا يُلائمه، ويخلق فيها شخصيات جديدة من خياله، ويبدل الحوادث نفسها فيحيي من الأشخاص من يشاء ويميت من يشاء، سواء وافق ذلك الأصل الذي استمد منه أو لم يُوافقه. وهو يجع من القصة ملهاة أو مأساة حسب ما يُلائم غرضه ومزاجه في الوقت الذي كان يكتب فيه. لكنه اضطر أن يكون قريبًا جدًا من الأصل في المسرحيات التي تبحث في تاريخ إنجلترا، وكان من حسن حظه أنه استمد هذه القصص التاريخية من مصدر تاريخي في ظاهره لكنه روائي بطبيعته، وهو أخبار هلنشد The Chronicles of Holinshed، ولذلك تراه في هذه المسرحيات، أو في الكثير منها على الأقل، لا يحيد قط عن المصدر الذي يستمد منه حتى ليخيل إلى الإنسان أنه كان يكتب وهذا المصدر مفتوح أمامه. فالحوار الذي يدور بين ملكلم ومكدف في الفصل الرابع من مسرحية مكبث لا يختلف كثيرًا عمَّا هو وارد في كتاب هلنشد السالف الذكر. على أنه في المواقف الروائية الرهيبة التي

تتطلب الخيال الخصب أو الفكاهة اللطيفة، حتى في هذه المسرحيات نفسها، يترك مصدره ويطلق لخياله العنان، فيخترع من الحوادث والشخصيات والحوار ما يشاء، ويغير مصائر الناس كما يريد. واستمد شكسبير مسرحياته الإيطالية مثل «يوليوس قيصر» و«كليوباترا» من «تراجم بلوتارخوس». وهُنا تقيد شكسبير بالأصل إلى حد كبير. وذلك أن هذا الكاتب كان يعنى بتصوير أشخاصه أكثر مما يعنى بالحوادث، ولهذا لم ير شكسبير حاجة إلى كثير من التغيير، بل أخذ منه القصص التي كانت أساس مسرحياته وأخذ منه عبارات بنصها وضعها في قصصه الأُخرى التي لم يستمدها منه.

وأخذ شكسبير بعض قصصه عن مُعاصريه من الكُتاب أُوليفرنسيين والإيطاليين، ومن هذه مسرحية دقة بدقة وعُطيل وتاجر البندقية.

وجُملة القول أن شكسبير أخذ قصصه من بلاد مُختلفة، من بلاد اليونان وإيطاليا ودنمرك وغيرها، ولكن شخصياته إنجليزية وإن اتسمت بأسماء إيطالية أو فرنسية أو رومانية. وقد ابتدعها شكسبير مما ارتسم في خياله من الصور أثناء مقامه في استرتفرد وفي لندن، وفي أثناء تجواله في عاصمة إنجلترا، واختلاطه بجميع طبقات الشعب خاصته وعامته، أشراره وخياره، في الطُرق والحانات، وفي قصور العُظماء والملوك؛ فهو في هذه المسرحيات يصف أحوال عصره وأشخاص عصره. وهذا هو منشأ كثير من المتناقضات التاريخية التي نجدها فيها، فهو يذكر دقات الساعة في عصر يليوس قيصر، ومصنع الورق في عصر هنري السادس. على أن هذا كله لا ينقص من قيمة هذه المسرحيات، فهي في حقيقة أمرها قطع فنية وليست سجلًا للحوادث التاريخية.

وقد كتب شكسبير مسرحياته بالشعر المرسل؛ أي الشعر الموزون غير

المقفي الذي اخترعه كرستفر مارلو Christopher Marlowe (١٥٦٤ – ١٥٩٣) قبل أن يكتب شكسبير ببضع سنين.

الاختراع لا يستطيع أن يتمته به من جاء بعده من الكُتاب. فهو لا يتردد في خُلق ألفاظ جديدة للتعبير عن معانيه، واستخدام الكلمات القديمة في غير المعاني التي وضعت لها. ولم يكن يعرف ما يُسميه النحويون أنواع الكلام، فإذا احتاج إلى فعل اشتقه من أول اسم يدور بخلده أو أول صفة تخطر بباله، وهو يخرق كل قاعدة نحوية ويجعل أُذنه المخبار الذي يختبر به كلماته، فإذا رأى أن الكلمة حسنة الوقع عليها، وأعجبه رنينها، عدها صالحة لأداء غرضه، فاستعملها فعلًا أو اسمًا مهما يكن أصلها، واشتق منها ما يريد جامدة كانت أو منصرفة. ويصعب على القارئ في بعض الأحيان أن يُحلل كثيرًا من جُمل شكسبير، ليعرف الأصلية منها والتابعة لغيرها، وليعرف فيها المسند إليه والمسند، ولكن الذي يقرأ جُملة على عجل لا يصعب عليه أن يدرك معناها. أما الذي يقف عندها ليقسمها أصلية وتابعة وليطبق عليها القواعد المألوفة، فإنه يُحار في أمره لكثرة ما يجده فيها من التعقيد، ومن تدخل بعضها في بعض. على أن هذا كله لا يعيب لغة شكسبير ولا يضعف من أثرها في نفس السامع أو القارئ.

وأهم ما يمتاز به أُسلوبه هو كثرة ما فيه من الاستعارات، وغِنك لتجد في الجملة الواحدة، وبخاصة في مسرحياته الأخيرة، استعارتين أو ثلاث استعارات مُختلفة، فترى زوجة مكبث مثلًا حين أرادت أن تُؤنب زوجها وتعيب عليه ضعفه تقول له: «هل كل الأمل الذي اكتسيت به من قبل ثملًا».

غير أن شكسبير لا يبتعد في أُسلوبه عن القواعد المألوفة إلا ليقترب

بذلك من حقائق الأشياء. وأقرب شخصية في مسرحيات شكسبير إلى أخلاق شكسبير نفسه هي شخصية برسبر في مسرحية العاصفة، ولعلها كانت آخر مسرحياته.

تلك كلمة مُوجزة عن حياة شكسبير وعن لغته. أما من شاء أن يستزيد فعليه أن يقرأ المسرحيات نفسها بلغتها الأصلية، وأن يدرس حياة شكسبير وشخصيات شكسبير في المطولات التي كُتِبَتْ ولا تزال تُكْتَبْ عنه إلى هذا اليوم.

تشارلس لام

ويجدر بنا بعد ذلك أن نقول كلمة مُوجزة عن تشارلس لام وأُخته ميري اللذين كتبا قصص شكسبير نثرًا بالصورة التي ترجمناها في هذا الكتاب.

وُلِدَ تشارلس لام Charles Lamb في سنة ١٧٧٥ من أب رقيق الحال، كان كاتبًا لأحد المحامين في لندن، ولما شب دخل مدرسة Christ's Hospital وصادق فيها الشاعر الكبير كولردج، ثم تركها وتقلب في عِدة مناصب صغيرة، كان آخرها في «إدارة المصالح الهندية» بلندن. ثم استقال في سنة ١٨٢٥ وعاش في ضنك مع أبيه وأُمه وأخته ميري التي كانت تكبره بعشر سنين. وفي عام ١٧٩٦ حدثت في الأُسرة حادثة مروعة، فقد اعترت ميري نوبة جنون فجائية، قتلت في أثنائها أُمها بإِحدى سكاكين المائدة، وعندئذ عدل تشارلس عن فكرة الزواج نهائيًا، وكرس حياته للعناية بأُخته، وهي التي يرد ذكرها في مقالاته باسم ابنة العم بردجت Cousin Bridget.

وكان أول ما كتبه تشارلس طائفة من القصائد نشرت مع قصائد صديق له في مُجلد واحد بعنوان «الشعر المرسل» Blank Verse، وخير هذه

القصائد كلها قصيدة «الوجوه المألوفة القديمة» The old Familiar Faces وهي من القصائد السهلة التي تلذ الأطفال. وفي عام ١٨٠٧ طلب إليه أحد الناشرين أن يشترك في إخراج «مكتبة الشبان»، فكتب هو وأُخته ميري هذه القصص الذائعة الصيت التي يجد القارئ ترجمتها في هذا الكتاب، فكتب هو المآسي وكتبت ميري الملاهي.

وفي عام ١٨٠٩ طلبت إليه شركة لنجمان للنشر Longman أن يختار لها نماذج من مسرحيات عصر الملكة إليصابات، ونشرت هذه المجموعة المختارة وعليها شروح ونقد، دلت كلها على أن تشارلس من أعظم النُقاد الذين كتبوا في أدب ذلك العصر.

وكان تشارلس يُراسل كثيرًا من المجالات الأدبية، وخير ما كتبه من هذا النوع «مقالات إليا Essays of Elia» وهي من المقالات اللذيذة الممتعة، وكانت في الحقيقة أساس شهرة تشارلس لام.

وفي عام ١٨٣٤ أخذت صحته تضمحل شيئًا فشيئًا، وأثر فيه كثيرًا حزنه على موت صديقه كولردج Coleridge. وبينما هو يتنزه في يوم من الأيام سقط على الأرض وأُصيب بجرح في وجهه، وتسمم الجرح ومات منه في تلك السنة ثم ماتت أخته ميري في عام ١٨٤٧ وبعد لام من أعظم النُقاد وكتاب المقالات الإنجليز، وهو يدخل شخصيته في مقالاته بطريقة تلذ القارئ وتستثير إعجابه. وفي وسعنا أن نتبين من هذه المقالات صفات لام كلها، عيوبه وفكاهته وأهواءه، كأننا نرى رأي العين.

وقد قلنا من قبل إنه هو وأخته اشتركا في كتابة قصص شكسبير للشبان من القراء، فهما لم يكتباها للأطفال كما يظن؛ لأن الأطفال يعجزون عن فهم

المعاني التي أبرزها فيها شكسبير، كما يعجزون عن فهم العبارات الكثيرة التي اقتبسها الكاتبان منه كما يقولان في مُقدمة الكتاب. وليس في مقدورنا أن نجد فرقًا كبيرًا بين أُسلوب تشارلس في المآسي وأُسلب ميري في الملاهي، فأُسلوبهما واحد أو مُتقارب، وكلاهما يلجأ إلى الجُمل المعقدة الطويلة التي تبلغ أحيانًا عشرين سطرًا من سطور الكتاب. وهذا الأُسلوب إن جاز في اللغة الإنجليزية لا يستسيغه قراء العربية، ولذلك حاولنا قدر طاقتنا أن نبسط هذه الجُمل ليسهل فهمها على القراء.

وقد اضطررنا في كثير من الأحيان أن نرجع إلى روايات شكسبير نفسها لفهم العبارات الغامضة التي اقتبسها الكاتبان منها بنصها أو بتغيير قليل، ولم نسمح لأنفسنا بحذف التمهيد الذي كتبه تشارلس وميري لقصصهما، وإن كان كثير مما جاء فيه ينطبق على الأصل الإنجليزي دون الترجمة العربية، ولكنه جُزء من كتاب تشارلس وميري، ومن حقهما على من يتصدى لترجمة كتابهما ألا يغفل شيئًا مما جاء فيه.

ولعلنا نكون قد استطعنا أن نقدم لقراء العربية، كما قدم تشارلس وميري لقراء الإنجليزية «وشلا من ذلك السرور الغمر الذي ينتظرهم في مُستقبل أيامهم» حين ينعمون بقراءة مسرحيات شكسبير، فيدركون بأنفسهم عظمة هذا الشاعر الكبير.

محمد بدران

يناير سنة ١٩٤٣

تمهيد

كتبنا هذه القصص لنُمهد بها للنشء من القراء طريق دراسة شكسبير، ولذلك حرصنا على أن نستعمل فيها كلماته نفسها كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وعنينا كل العناية فيما أضفناه إليها من ألفاظ نربط بها حلقات القصة بعضها ببعض بِأَن نختار من الكلمات أكثرها انسجامًا مع روعة اللغة التي كتب بها شكسبير، ومن أجل هذا تجنبنا قدر المستطاع ماجد في اللغة من ألفاظ بعد عصر الشاعر العظيم.

وإذا ما بلغ النشء السن التي تمكنهم من أن ينعموا بقراءة مآسي شكسبير في صورتها الأصلية، فسيجدون في القصص المأخوذة من هذه المآسي ألفاظه نفسها تتكرر على مسامعهم في سياق القصة وفيما يدور على لسان أشخاصها من حوار، وسيرون أن هذه الألفاظ على كثرة تكرارها لم يدخل عليها من التغيير إلا القليل. أما القصص المأخوذة من الملاهي فقد شق علينا فيها أن نصوغ عبارات شكسبير نفسها في القالب القصصي، ولذلك نخشى أن يجد النشء الذين لم يألفوا أُسلوب المسرحيات أننا قد أسرفنا في استعمال الحوار، ولكن الذي يغفر لنا هذا الخطأ – إذا صح أن نُسميه خطأ – أن الباعث عليه هو حرصنا الشديد على أن نضمن هذه القصص أكثر ما نستطيع من ألفاظ شكسبير. فإذا ما ملَّ النشء سماع «قال» و«قالت»، وثَقُلَ على آذانهم الغضة تِكرار السؤال والجواب، فليعفوا عن ذلك وليصفحوا، فلقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن نُقدم لهم وشلًا من ذلك السرور الغمر الذي ينتظرهم في مُستقبل أيامهم، حين يغترفون من ذلك الكنز الثمين، الذي أخذنا منه هذه الدريهمات الزياف، وهي دريهمات

تنحصر قيمتها في أنها تحمل أثرًا من صورة شكسبير الفذة. وهذا الأثر مع ذلك معيب وضئيل؛ لأن ما تمتاز به لغة شكسبير من روعة وجمال كثيرًا ما تبلي جدته حين تحتم علينا الظروف أن نستبدل بألفاظه الموفقة الممتازة ألفاظًا لا تُعبر عن معانيه الحقة تعبيرًا صادقًا صحيحًا، وذلك حين نجعل من هذه الألفاظ قصة شبه منثورة. وقد نقلنا في مواضع قليلة شعر شكسبير المرسل بنصه، لعلنا نستطيع أن نخدع النشء فيظنوه نثرًا لسهولته ووضوحه، ولكنا لا نشك في أن تلك العبارات نفسها تفقد كثيرًا من جمالها الأصيل حين تنتزع من منبتها الأول في روضة الشعر البرية.

ولقد كانت جل رغبتنا ونحن نكتب هذه القصص أن نجعل منها مُطالعات سهلة للصغار، وظل هذا الغرض ماثلًا على الدوام أمام أعيننا، ولكن موضوع مُعظم القصص مما يجعل تحقيقه شديد المراسة صعب المرام، فلم يكن من السهل الهين أن نَعْرض على القارئ قصص رجال شكسبير ونسائه في عبارات قريبة التناول تدركها بسهولة عقول النشء الصغار. كذلك كان أهم أغراضنا أن نجعل هذه القصص صالحة لأن تقرأها الفتيات؛ وذلك لأن الفتيان يسمح لهم عادة بالاطلاع على ما تحتويه مكتبات آبائهم قبل أن يُؤذن بذلك لأخواتهم بزمن طويل. ومن ثم نرى الفتيان قد استظهروا خير مناظر روايات شكسبير قبل أن يُباح لأخواتهم الاطلاع على كُتب الرجال. ولذلك لا ترانا نُوصي الفتيان بقراءة هذه القصص؛ لأنَّا نعتقد أن خيرًا لهم وأعود بالنفع عليهم أن يقرأوها كما كتبها شكسبير نفسه. ولكننا نرجو منهم أن يعينوا أخواتهم على قراءتها، بِأَن يشرحوا لهن ما كان منها مُعْجِز الدرك مُمتنعًا عليهن، فإذا ما أناروا لهن الشبهات وذللوا الصعاب، فقد يكون خليقًا بهم أن يختاروا من إحدى هذه القصص فقرات ارتاحوا هم لها وأعجبوا بها، ويعرضوها عليهن في صورتها الأصيلة بعد أن يُراعوا في هذا الاختيار ما يليق وما لا يليق أن تسمعه أخواتهم الصغار. وإنَّا لنرجو أن تكون هذه المختارات الجميلة، وتلك النخبة المنتقاة، أحب إلى أخواتهم وأدنى مُلتمسًا لهن إذا كُن قد ألممن من

قبل بالقصة كلها بقراءتها في هذه الملخصات البتراء. وإذا كُنا قد واتانا الحظ فأفلحنا في كتابة هذه القصص بحيث تغتبط بها إحداهن، فإنَّا لنرجو ألا تعدو أسوأ آثارها في نفسها أن تتمنى لو أنها كانت أكبر مما هي سنًا حتى تستطيع أن تقرأ روايات شكسبير المطولة. وتلك أُمنية لا تنطوي على شيء من السفاهة أو الامتعاض. وإذا ما أوفين على السن التي يستطعن فيها تحقيقها، وسمحت لهن بتحقيقها حكمة الكبار من الأصدقاء، فسيجدن فيما لخصناه لهن من القصص في هذا الكتاب، وفي قصص أُخرى لم نُلخصها لهن ولا تقل عنها عدًا، سيجدن في هذه وتلك كثيرًا من الحوادث المختلفة ومن تصاريف الأقدار ما لم تتسع له صُحف هذا الكتاب الصغير. وسيجدن كذلك في روايات شكسبير عددًا لا يُحصى من الشخصيات المرحة البهجة، رجالًا كانت أو نساءً، تفقد بلا ريب ما حباها من فكاهة حلوة لو أننا حاولنا أن نقص عليهن سيرتها في إيجاز.

وإنَّا لنرجو أن يجد النشء متى كَبِروا في قصص شكسبير الأصيلة مثل ما وجدوه وهم صغار وأكثر مما وجدوه في هذه القصص المنثورة، فتكسبهم قوة في الخيال، واستمساكًا بالفضيلة، وبُعدًا عن الطمع والأنانية، وترشدهم إلى سبيل الشرف، وتغرس في نفوسهم حلو الطباع ونبيل الخصال، وتلقي عليهم دروسًا في دماثة الخُلق، ورقة الشمائل، وكرم السجايا، والعطف على الناس؛ وذلك لأن صحف هذه الروايات غاصة بالحوادث التي تضرب لهذه الفضائل أحسن الأمثال.



العاصفة

كانت في البحر جزيرة لا يسكنها إلا شيخ مُسن يُدعى برسبرو Prospero وابنة له تُدعى مرندا Miranda، وهي فتاة بارعة الحُسن جاءت هذه الجزيرة وهي صغيرة السن، لا تذكر أنها رأت وجهًا من البشر إلا وجه أبيها.

وكانا يسكنان معًا في كهف أو غار منحوت في صخرة، ومُقسم إلى عِدة غرف، وكان برسبرو يُسمي واحدة منها حجرة دراسته، وكان يحتفظ فيها بكتبه التي يبحث مُعظمها في السحر، وهو فن كان يُمارسه كل العُلماء في تلك الأيام. وأفاد برسبرو من علمه بهذا الفن فائدة عظيمة، فقد ألقته المصادفات في هذه الجزيرة التي سحرتها عجوز تُدعى سكراكس Sicrorax ماتت قبل أن يفد إليها بزمن قليل، واستطاع بفضل هذا الفن أن يطلق كثيرًا من الأرواح الطيبة التي سجنتها سكراكس في جذوع الأشجار الضخمة، حين أبت أن تصدع بما أمرتها به من سيئ الفعال، فلما أطلق برسبرو هذه الأرواح اللطيفة ظلت بعد ذلك تطيعه وتخضع لإرادته، وكان زعيمها كلها ورحًا يُدعى إيريل Ariel.

ولم يكن في طباع هذا العفريت النشيط شيء من الخبث، اللهم إلا أنه كان يغتبط كل الاغتباط حين يعذب ماردًا بشعًا يُدعى كلبن Caliban، وهو مخلوق مُشوه الخلق ذو هيئة فظيعة غريبة، أقل شبهًا بالإنسان من القردة. وكان إيريل يحقد عليه لأنه ابن عدوته القديمة سكراكس، وقد وجده برسبرو بين الأشجار فأخذه إلى غاره وعلمه الكلام، ولولا ما طبع عليه من ورثه عن

أُمه سكراكس، وحال بينه وبين تعلم أي شيء صالح أو نافع، لأشفق عليه ورأف به. أما وتلك سجيته فقد استخدمه كما يستخدم الرقيق، يحتطب من الجزيرة ويقوم بأشق الأعمال، ووكل به إيريل يُراقبه ويرغمه على العمل إرغامًا، فإذا ما كسل كلبن وأهمل واجبه تسلل إليه إيريل — وكان لرقته لا تراه إلا عينا برسبرو — وقرصه أو ألقاه في الوحل، ثم انقلب بعد ذلك قردًا وجلس يلوي شدقه استهزاءً به، ثم أسرع فبدل صورته واتخذ شكل قنفذ يتقلب في طريق كلبن، فلا يجرؤ على المشي لئلا تصيب أشواكه الحادة قدميه العاريتين فتخرمهما. وبهذه الألاعيب المغيظة وكثير من أمثالها كان إيريل يُعذب كلبن كلما توانى عن أداء ما أمره به برسبرو.

وكانت هذه الأرواح القوية طوع أمر برسبرو يسخر بها الرياح وأمواج البحار، وأمرها يومًا فأثارت عاصفة هوجاء، كان في وسطها سفينة كبيرة جميلة تُغالب الأمواج المتلاطمة، التي كانت في كل لحظة تُوشك أن تطبق عليها وتبتلعها في جوفها. وقال برسبرو لابنته وهو يشير إلى هذه السفينة إنها ملأى بالأحياء من الآدميين أمثالهما، فقالت له: «يا أبت العزيز، إذا كنت قد أثرت بسحرك هذه العاصفة الرهيبة فارحم من فيها وأشفق عليهم في محنتهم، ألا تراها تكاد تتحطم وتتطاير إربًا؟ ألا ما أشقى هؤلاء البائسين وأشد بلواهم! إنهم لا محالة هالكون عن آخرهم، ولو أن لي قوة لأمرت ماء البحر أن يغيض في جوف الأرض، قبل أن تغرق هذه السفينة الطيبة، ويهلك كل من فيها من أنفس عزيزة».

فأجابها برسبرو: «لا تُراعي يا ابنتي مرندا فلن تُصاب السفينة بأذى، لقد دبرت الأمر بحيث لا يمس أحدًا ممن فيها مكروه، وأنا لم أفعل ما فعلت إلا من أجلك يا بُنيتي العزيزة، إنك لتجهلين من أنت ومن أين جئت إلى هذا

المكان، ولا تعرفين عني إلا أنني أبوك وأني أعيش في هذا الكهف الحقير، فهل تذكرين زمنًا لم تكوني قد جئت فيه إلى هذا الغار؟ أظنك لا تذكرينه لأنك لم تكوني قد بلغت الثالثة من عمرك وقتئذ».

فقالت مرندا: «بلى إني أذكره ما في ذلك شك».

فقال لها برسبرو: «بأي شيء تذكرينه؟ ببيت غير هذا أو بشخص غير أبيك؟ خبريني أي شيء تذكرين؟».

فأجابته مرندا: «إن هذه الذكريات لتبدو كأنها حلم من الأحلام، ولكن قل لي، ألم تكن لي في يوم من الأيام أربع نساء أو خمس يرعينني ويقضين حوائجي؟».

فقال لها أبوها: «بلى، قد كان ذلك هذا وأكثر منه، ولكن كيف بقيت هذه الذكرى حية في مُخيلتك؟ وهل تذكرين معها كيف جئت إلى هذا المكان؟».

فأجابته مرندا: «كلا يا أبت لست أذكر غير هذا».

فواصل برسبرو حديثه قائلًا: «كنتُ يا مرندا مُنذ اثنتي عشرة سنة دوق ميلان، وكنتِ أنتِ ترثين وحدك عرشها من بعدي، وكان لي أخ أصغر مني يُدعى أنطونيو Antonio ائتمنته على كل شيء، وكنتُ مُولعًا بالعزلة والدرس العميق، فتركت تدبير أُمور الدولة لعمك، أخي الغادر، (ولقد أثبت أنه غادر حقًا.

فأما أنا فقد صرفت كل وقتي في تثقيف عقلي، وأعرضت عن مشاغل الدنيا، وقضيت حياتي بين كُتبي؛ وأما أخي أنطونيو فقد استحوذ على ما كان

لي من سلطان، وبدأ يظن أنه الدوق حقًا، وهيأتُ له أُوليفرصة التي أمكنته من أن يحبب نفسه إلى شعبي، فأثار ذلك في طباعة الذميمة رغبة جامحة في أن يغتصب مني ملكي. وقد نال آخر الأمر مُبتغاه، وأعانه على ذلك ملك نابلي، وهو أمير شديد البأس كان بيني وبينه عداوة».

فقالت مرندا: «ولِمَ لَمْ يقضيا علينا في تلك الساعة؟».

فأجابها أبوها: «لم يكونا يجرؤان على ذلك يا ابنتي؛ لأن شعبي كان يحبني حُبًا جمًا، ولذلك حملنا أنطونيو على ظهر سفينة، ولما أصبحنا على مُسافة بضعة فراسخ من البر أنزلنا بالقوة في قارب صغير لا حيال له ولا سارية ولا شراع، وظن أنه أسلمنا إلى الهلاك. وكان من كبار رجال حاشيتي رجل رحيم يُدعى جنزالو Gonzalo، دفعه حبه وإخلاصه أن يضع في القارب خلسة ماء وطعامًا ولباسًا وكُتبًا هي أعز عليّ من مُلكي».

فقالت مرندا: «يا أبتِ ما أكثر ما عانيت يومئذ بسببي!».

فأجابها برسبرو: «كلا يا حبيبتي، لقد كنتِ أنتِ ملاكًا صغيرًا يرعاني ويحفظ حياتي، وكانت بسماتك الطاهرة هي التي أعانتني على احتمال شقائي. وقد كفانا ما كان لدينا من الطعام حتى نزلنا في هذه الجزيرة الجرداء، ومن ذلك الحين كان أكبر أسباب مسرتي أن أُعلمك يا مرندا، وما أكثر ما أفدتِ من تعليمي».

فقالت له مرندا: «أثابك الله على حُسن صنيعك يا أبي العزيز، والآن أرجو منك يا سيدي أن تخبرني لِمَ أثرت هذه العاصفة في البحر؟».

فقال لها أبوها: «اعلمي إذًا أن هذه العاصفة ستُلقي بعدوي ملك نابلي

وبأخي غليظ الكبد في هذه الجزيرة».

قال ذلك ومس ابنته مسًا لطيفًا بعصاه السحرية، فنامت نومًا عميقًا؛ وذلك لأَن إيريل مثل في هذه الساعة بين يدي مولاه، ليقص عليه نبأ العاصفة وما فعله هو بركاب السفينة، ومع أن عين مرندا لم تكن ترى الأرواح قط، فإن برسبرو لم يشأ أن تسمعه يتحدث، كما كان يبدو لها، مع الهواء.

وقال برسبرو لإيريل: «والآن أيها الروح المقدام، قل لي كيف أديت واجبك؟».

فأخذ إيريل يقص عليه نبأ العاصفة ويصور له تصويرًا باهرًا شائقًا ما شاهده من ارتياع الملاحين، وقال إن فردنند ابن الملك كان أول من ألقى بنفسه في اليم، وظن والده أن الأمواج قد ابتلعت ابنه العزيز وأغرقته.

ثم قال: «ولكنه قد نجا، وهو يجلس الآن في ركن من أركان الجزيرة مطوي الذراعين، واجمًا يندب فقد أبيه الملك، فهو يعتقد أنه غريق، والأمير سليم لم يمسسه أذى، وثيابه وإن بللها ماء البحر تبدو أزهى مما كانت»

فقال برسبرو: «ما أظرفك يا إيريل! ائتني به، فلا بُد أن ترى ابنتي هذا الأمير الشاب. وأين الملك وأخي؟».

فأجابه إيريل: «لقد تركتهما يبحثان عن فردنند، وهما قليلًا الرجاء في أن يعثرا عليه، إذ يظنان أنهما قد شاهداه يغرق، وتلك أيضًا حال بحارة السفينة، لم ينقص أحد منهم، وإن كان كل واحد يظن أنه لم ينج أحد غيره، والسفينة نفسها آمنة في مرساها، وإن كان أحد لا يستطيع أن يراها».

وعندئذ قال برسبرو: «لقد كنت يا إيريل أمينًا في أداء واجبك، ولكنك

لم تفرغ من عملك بعد».

فأجابه إيريل: «لقد ولدت في مدينة الجزائر!».

فقال برسبرو: «عجبًا! أحق ما تقول؟ لا بُد لي أن أحدثك بسيرتك الأُولى لأنك نسيتها: لقد أخْرِجَت هذه الساحرة الشريرة من مدينة الجزائر بعد أن اقترفت فيها من ضروب السحر ما تقشعر من هوله الأبدان، وتركها الملاحون في هذا المكان، وكنت أنت روحًا لطيفًا لا تقوى على القيام بتنفيذ ما تأمرك به من سيئ الأعمال، فسجنتك في جذع شجرة وجدُتك فيه تعوى وتتأوه. لا تنس أن هذا هو العذاب الذي أنجيتك منه».

فأجابه إيريل وقد عز عليه أن يظهر بمظهر الجاحد بنعمة مولاه: «عفوًا يا سيدي العزيز، سوف أصدع بما تأمرني به».

فقال له برسبرو: «إن فعلت أطلقتُ سراحك». ثم أمره بما يجب عليه أن يفعله بعد، وانطلق إيريل فذهب أولًا إِلى حيث ترك فردنند، فألفاه لا يزال جالسًا على الكلأ لم يُفارقه حزنه وكآبته.

فلما رآه إيريل قال له: «أي سيدي الشاب، سأنقلك الساعة من هذا المكان، فلقد عَلِمت أن لا بُد من ذهابك إلا الآنسة مرندا لترى محياك الجميل. قم معي يا سيدي واتبعني»، ثم أخذ يُغني:

«يرقد أبوك وفوقه خمس قامات طوال، ومن عظمه ينشأ المرجان، ومن عينيه تتكون اللآلئ، وكل ما يتساقط منه يصبح من خلق البحر شيئًا عجيبًا ثمينًا، وفي كل ساعة يدق حور البحر أجراس موته، وهأنذا أسمع صلصلتها الآن».

ولم يكد الأمير يسمع هذا النبأ الغريب عن أبيه حتى تنبه من نوبة الخمول التي غشيته، وسار مدهوشًا وراء صوت إيريل حتى قاده الصوت إلى حيث كان برسبرو ومرندا يتفيآن ظل دوحَة مِحْلال، ولم تكن مرندا قد رأت بشرًا من قبل إلا أباها.

وقال لها برسبرو: «خبريني يا مرندا، إلى أي شيء تنظرين عن بُعد؟». فأجابته مرندا في دهشة عجيبة: «يا أبتِ لا شك أني أرى روحًا من الأرواح؛ رباه! إنه يتلفت من حوله، صدقني يا أبي إنه مخلوق جميل، أليس هو روحًا حقًا؟».

فأجابها أبوها: «كلا يا ابنتي إنه بشر يأكل الطعام وينام، وله من الحواس مثل ما لنا. إن هذا الفتى الذي ترينه كان في السفينة، وقد شفه الحزن فغيره، وإلا لكان في نظرك إنسانًا جميلًا. لقد ضل عنه رفقاؤه، وهو يجوس خلال هذه الجزيرة يبحث عنهم».

وأُعجبت مرندا بمنظر هذا الأمير الشاب الجميل، وهي التي كانت تظن أن الرجال كلهم كأبيها، لهم وجوه وقورة ولحى شيب. ورأى فردنند هذه الفتاة الجميلة في ذلك المكان القفر، فظن أن المقادير ألقت به في جزيرة مسحورة؛ وذلك لأنه لم يكن يتوقع بعد ما سمعه من الأصوات العجيبة أن يرى شيئًا غير عديب، وخال مرندا ربة المكان فأخذ يُخاطبها كما تُخاطب الأرباب.

فأجابته في حياء بأنها ليست من الأرباب، وإنما هي فتاة كغيرها من الفتيات، وهمت أن تقص عليه قصتها ولكن أباها قطع عليها الحديث. وسره أن يُعجب بها فردنند وتُعجب به، فقد أدرك من فوره أنهما قد تحابا مُنذ

وقعت العين على العين، لكنه أراد أن يَخْبُر فردنند ليعرف مقدار ثباته على حبه، فقرر أن يقيم في طريقهما بعض الصعاب، ولذلك دنا منهما وخاطب الأمير في جفاء، واتهمه بأنه أتى الجزيرة ليكون عينًا على من فيها، ولينتزعها منه وهو صاحب الأمر فيها. ثم قال له: «سر ورائي، فلأقيدن رجليك وأضع الأغلال في عنقك، وستسقى ماء البحر الأُجاج، وتطعم الأصداف والجذور الذابلة وقشور ثمار البلوط».

فأجابه فردنند: «كلا لن أقبل هذه الضيافة، أو أرى عدوًا لي أشد منك بأسًا». ثم استل سيفه، ولكن برسبرو أشار إليه بعصا سحره فجمد في مكانه لا يستطيع حراكًا.

وتعلقت مرندا بأبيها وقالت له: «لِمَ هذه القسوة؟ أشفق عليه يا أبتِ وأنا ضمينة بحسن مسلكه، إن هذا الفتى ثاني اثنين رأيتهما من الرجال، ويلوح لي أنه رجل بحق».

فأجابها أبوها: «صه! ولا تزيدي على ما قلت كلمة واحدة، وإلا حاسبتك على ما تقولين. ألا ما أغرب أن تُدافع مثلك عن هذا المخادع الخاتل، إنك لتظنين أن ليس في الناس من يُماثله في رقته ولطفه؛ لأنك لم ترى أحدًا غيره إلا كلبن، ولكني أقول لك أيتها الفتاة الغرة إن أكثر الناس يُفضلون هذا الشاب بقدر ما يُفضل هو كلبن». وكان يقصد بهذا أن يتبين مقدار ما في حبها من ثبات، فأجابته بقولها: «إن عواطفي لمن العواطف المتواضعة، ولستُ أرغب في أن أرى رجلًا أبهى منه طلعةً».

وقال برسبرو للأمير: «سر معي أيها الشاب، فإنك لا طاقة لك اليوم بمُخالفة أمرى».

فأجابه فردنند: «لا طاقة لي حقًا!». وقد دهش حين رأى نفسه مُرغمًا على السير وراء برسبرو؛ لأنه لم يكن يدري أن السحر هو الذي سلبه كل ما له من قدرة على المقاومة، وظل وهو سائر يلتفت إلى الوراء ليرى مرندا ما دام قادرًا على رؤيتها، ثم قال وهو يدخل الكهف في أثر برسبرو: «إن جميع قواي مغلولة كأني في حلم، ولكني سأستخف بكل ما ينطق به هذا الرجل من وعيد وبما أشعر به من ضعف إذا استطعت وأنا في سجني أن أرى هذه الفتاة الحسناء مرة واحدة في كل يوم».

ولم ير برسبرو أن يطول بقاء فردنند في سجنه، فأخرجه منه بعد قليل، وعَهِدَ إليه بعمل مضن يُؤديه، وحَرِصَ على أن تعرف ابنته ما فرضه عليه، ثم تظاهر بالذهاب إلى حجرة درسه وأخذ يُراقبهما من حيث لا يشعران به.

وكان برسبرو قد أمر فردنند أن يجمع كتلًا ثقيلة من الخشب، وسرعان ما رأت مرندا حبيبها يكاد يودي به التعب؛ لأن أبناء الملوك لم يألفوا مثل هذا العمل الشاق.

فقالت: «أسفي عليك، لا تُكلف نفسك كل هذا العناء، إن أبي الآن مُنكب على كتبه، فأنت في مأمن منه ثلاث ساعات، أرجو أن تستريح فيها من عناء العمل».

فأجابها فردنند: «كلا يا عزيزتي، إني لا أجرؤ على ذلك، بل يجب عليّ أن أفرغ من عملي قبل أن أمتع نفسي بشيء من الراحة».

فقالت له مرندا: «إن أنت جلست لتستريح، قمت أنا في أثناء ذلك بنقل الأخشاب».

ولكن فردنند رفض ذلك العرض رفضًا باتًا، ومن ثم فإن مرندا لم تعنه على عمله، بل عاقته عن أدائه؛ لأنهما أخذا يتحدثان حديثًا طويلًا سار العمل في أثنائه سيرًا بطيئًا.

أما برسبرو، الذي فرض على فردنند هذا العمل ليختبر به حبه، فلم يكن مُنصرفًا إلى درسه وكُتبه كما ظنت ابنته، بل كان واقفًا على مقربة منهما يستمع لما يقولان وإن كانا لا يريانه.

وسألها فردنند عن اسمها فأخبرته به وزادت عليه قولها إنها تبوح به وإن كان والدها قد نهاها عن ذلك بصريح العبارة.

وكل ما فعله برسبرو حين سمع ابنته تعصى أمره لأول مرة أن ابتسم؛ لأنه هو الذي أوقعها بسحره في حب فردنند، فلم يغضبه أن تَظْهِر له هذا الحب فتغفل عن إطاعة أمره، وسره أن يصغى إلى فردنند وهو يُحدثها حديثًا طويلًا يعلن فيه أنه لم يحب أحدًا من النساء اللائي وقعت عينه عليهن كما أحبها هي.

ولما أخذ يمتدح جمالها ويقول إنه يفوق جمال سائر نساء العالم، أجابته بقولها: «لست أذكر أني رأيت وجه امرأة قط، وأما الرجال فلم أر منهم إلا أنت أيها الصديق الوفي وأبي العزيز، ولا أدري كيف تكون وجوه غيركما من الناس، ولكنني أُؤكد لك يا سيدي أني لا أُريد غيرك من الخلق رفيقًا، وأن ليس في طاقة خيالي أن يتمثل صورة أستطيع أن أحبها غير صورتك، ولكنني أخشى يا سيدي أن أكون قد عدوت طوري في حديثي إليك ونسيت أمر والدي».

فلما سمع برسبرو هذا القول ابتسم وأومأ برأسه ولسان حاله يقول: «إن الأُمور تسير وفق ما أشتهي، وستصبح ابنتي ملكة نابلي».

ثم أخذ فردنند يُحدث مرندا الطاهرة البريئة حديثًا آخر طريفًا — ومن عادة الشُبان أبناء الملوك أن يكون حديثهم ظريفًا — قال لها في خلاله إنه وارث عرش نابلي وإِنها ستكون مليكته، فتنهدت مرندا وقالت: «ألا ما أقل عقلي حين أبكي مما يثلج به صدري، وسأفصح لك عن ضميري في صراحة وطُهر لا حرج فيهما، إِنني أنا زوجتك إِذا ارتضيتني لك زوجة».

وتراءى برسبرو وقتئذ لهما، وحالت رؤيتهما إِياه بين فردنند وبين شكره لها، ثم حدثهما بقوله: «لا تخشى شيئًا يا بُنيتي، لقد سمعت كل شيء وأنا راضٍ عن كل ما سمعته منك، وأما أنت يا فردنند فإِذا كنت قد قسوت عليك فإِني سأجزيك الجزاء الأوفى، وستكون ابنتي لك، وإِني لم أسيء إِليك إِلا لأخبُرك وأعرف قدر حبك. ولقد تبين لي أنك صادق المخبر، وهأنذا أهدي إِليك هدية قد استحققها بصادق حبك: إِن ابنتي لك، ولا تبتسم إِذا سمعتني أفخر بأن محامدها يقصر عنها كل ثناء»، ثم أخبرهما أن لديه من الأعمال ما يتطلب وجوده، ورغب إِليهما أن يجلسا ويتحادثا حتى يعود إِليهما. ولم يبد من جانب مرندا ميل لمخالفة أمر أبيها في هذه المرة.

ولما فارقهما برسبرو دعا إِليه الروح إيريل، فجاءه من فوره يريد أن يُحدثه عمَّا فعله مع أخيه وملك نابلي، وقال إيريل إنه تركهما بعد أن أراهما وأسمعهما ما كاد يستطير منه لبهما روعًا. ولما أعياهما السير وأنهكهما الجوع بسط أمامهما على حين غفلة مائدة شهية، فلما هما بتناول الطعام تراءى لهما في صورة مريدة مجنحة نهمة التهمت كل ما كان على المائدة في لمح البصر.

ولشد ما كانت دهشتهما حين أخذت هذه المريدة، كما ظناها، تحدثهما وتذكرهما بما اقترفاه من قسوة حين أخرجا برسبرو من ملكه، وتركاه هو وابنته يقضيان نحبهما في لجج البحر، وقالت إنهما الآن يلقيان هذه الأهوال جزاء ما جنته أيديهما. وندم ملك نابلي والأخ الغادر أنطونيو على ما ارتكباه من ظُلم، وقال إيريل لسيده إنه لا يشك في أن توبتهما كانت توبة نصوحًا، وإنه لا يسعه إلا أن يرثى لحالهما وإن كان روحًا.

وحينئذ قال له برسبرو: «إذًا فجئ بهما إلى هذا المكان، وإذا كنت وأنت روح قد رثيت لحالهما فخليق بي وأنا بشر مثلهما أن تأخذني بهما الرأفة، جيء بهما على الفور أيها الروح الظريف».

وعاد إيريل من فوره ومعه الملك وأنطونيو ومن خلفهما الشيخ جنزالو وهم دهشون مما كان يملأ به إيريل الهواء من موسيقى عجاجه يدلهم بها على موضع سيده، وجنزالو هذا هو الذي أخذته الرأفة ببرسبرو فجاءه بالكتب والطعام حينما ظن أخوه الغادر أنه تركه ليلقى حتفه وسط البحر في قاربه المكشوف.

وذهب الرعب والحزن بمشاعرهم، فلم يعرفوا برسبرو حين قدموا إليه، ثم أظهر نفسه أول الأمر للشيخ الطيب جنزالو ووصفه بأنه مُنقذ حياته، وعندئذ أدرك أخوه وأدرك الملك أن الذي يحدثهما هو برسبرو الذي ظلماه وآذياه.

ودنا أنطونيو من أخيه والدمع يفيض من عينيه، والحزن والندم الصحيح يبدوان في أقواله، وأخذ يتوسل إليه أن يغفر له ذنبه، وأظهر الملك أشد الأسف على ما قدم لأنطونيو من مُساعدة لخلع أخيه عن عرشه، وعفا برسبرو

عنهما وعاهداه على أن يردا له ملكه. قال بعدئذ لملك نابلي: «إن لك عندي فوق ذلك هدية»، ثم فتح الباب فرأى من داخله فردنند يلعب الشطرنج مع مرندا.

وبعثت هذه المقابلة المفاجئة في نفس الوالد وولده سرورًا لا يُعادله سرور؛ لأن كليهما كان يظن الآخر قد لاقى حمامه حين ثارت العاصفة.

وقالت مرندا حين رأتهما: « يا عجبا! ما أحسن خلق هؤلاء الناس! ولا شك في أن العالم الذي يعيش فيه أمثال هؤلاء عالم كله أبطال».

ولم يكن إعجاب ملك نابلي بجمال مرندا وظرفها أقل من إعجاب ابنه فردنند، وقال حين أبصرها: «من تكون هذه الفتاة؟ يلوح أنها هي الإلهة التي فرقت بيننا ثم عادت فجمعت شملنا».

وابتسم فردنند إذ وجد أن أباه قد وقع في نفس الخطأ الذي وقع هو فيه من قبل حين أبصر مرندا لأول مرة، ثم قال وهو يبتسم: «كلا يا أبت إنها بشر، ولكن العناية الإلهية وهبتها لي. لقد اخترتها زوجًا لي حين لم أكن أستطيع أن أستأذنك لأني لم أكن أظنك حيًا. إن تلك الفتاة ابنة برسبرو وأمير ميلان الشهير، الذي طالما شاد الناس بذكره، ولكني لم أكن رأيته، وقد وهب لي حياة جديدة وكان لي أبًا ثانيًا، إذ أنعم عليّ بهذه الفتاة العزيزة».

وقال الملك: «فلأكونن إذًا أباها، ولكن ما أغرب أن أطلب المغفرة من ابنتي!».

وقال برسبرو: «كفى ولننس ما صادفنا من شقاء ما دام قد انتهى إلى ما نحن فيه من سعادة»، ثم عانق برسبرو أخاه وأكد له مرة أُخرى أنه يصفح

عنه، وقال إن الإله المدبر القدير قد أذن أن يخرج من دوقية ميلان الحقيرة لكي ترث ابنته تاج نابلي؛ لأن حب فردنند لمرندا كان نتيجة التقائهما في هذه الجزيرة».

ولما سمع أنطونيو هذه الكلمات الطيبة التي أراد بها برسبرو أن يطمئن أخاه، فاض الدمع من عينيه لفرط خجله وندم ولم يقوَ على الكلام. وكذلك بكى الشيخ الرحيم جنزالو حين رأى الأخوين يصطلحان على هذا النحو السار، ودعا للزوجين الناشئين بالسعادة والهناءة.

ثم خبرَّهم برسبرو أن سفينتهم آمنة في الميناء وعليها جميع بحارتها، وأنه هو وابنته سيركبانها معهم في صباح الغد ويعودون جميعًا إلى وطنهم، وقال لهم: «وإلى أين يحين ذلك الوقت دونكم ما في كهفي الحقير من طعام وشراب، وسأُسليكم في المساء بِأَنْ أقص عليكم ما جرى لي مُنذ وطئت قدماي هذه الجزيرة الجرداء»، ثم دعا إليه كلبن وأمره أن يُهيئ الطعام ويصلح من شأن الكهف. ولشد ما دهش الصحاب من صورة هذا المخلوق البشعة الذميمة وهيئته الفظيعة، فقال لهم برسبرو إنه ليس لديه من يقوم بخدمته سواه. وقبل أن يبرح برسبرو أرض الجزيرة أطلق سراح إيريل وأعفاه من خدمته، ولشد ما سر من ذلك هذا الروح الصغير الظريف، فقد كان خادمًا مُخلصًا لمولاه، ولكن نفسه طالما تاقت لأن يتخلص من الأسر ويصبح حُرًا طليقًا يسبح في الفضاء كيف شاء، كما يسبح الطير بين الأشجار الخضراء وبين يانع الثمار وشذا الأزهار.

وقال برسبرو لإيريل حين وهب له حريته: «أيها الروح العجيب، لست في غنى عنك، ولكنك ع ذلك ستنال حريتك».

فأجابه إيريل بقوله: «شكرًا لك يا سيدي العزيز، ولكن خادمك الروح الأمين يستأذنك، قبل أن تعفيه من خدمتك، أن يحوط السفينة التي ستقلكم إلى بلادكم بريح طيبة، فإذا ما أصبحتُ بعد ذلك حرًا طليقًا ثلج بذلك صدري وطابت به حياتي».

ثم غنى إيريل هذه الأُغنية اللطيفة:

أنـــا والنحـــل نمـــتص الرحيـــق ســـويًا،

وفـــي كـــؤوس زهـــرا الربيـــع نثـــوى مليًـــا،

أهجـــع فيهـــا حـــين ينعـــق البـــوم،

وإذا انقضى الصيف طرت مُستبشرًا على ظهر

ألا ما أبهج عيشي وقتئذ تحت الأزهار العالقة

ثم دفن برسبرو في باطن الأرض كتب سحره وعصاه؛ لأنه اعتزم ألا يعود إلى السحر بعدئذ، ولم يبق من أسباب سعادته بعد أن ظفر بأعدائه وتصالح مع أخيه وملك نابلي إلا أن يعود إلى وطنه، ويستوي على عرش ملكه، ويشهد زواج ابنته بالأمير فردنند، وقد قال الملك إن معالم أفراحهما ستُقام في نابلي ساعة وصوله إليها. وفي الحق أنهم لم يلبثوا إلا قليلًا حتى وصلوا إليها سالمين بعد رحلة سارة مُمتعة في حراسة الروح إيريل.

حلم ليلة في مُنتصف الصيف

كان في شريعة أثينا قانون يجيز للآباء أن يرغموا بناتهم على أن يتزوجن بمن يرغبون في زواجه بهن، فإذا أبت إحدى بناتهم أن تتزوج بمن يختاره لها أبوها جاز له بمقتضى هذا القانون أن يأمر بقتلها. ولكن الآباء لا يرغبون عادة في موت بناتهم وإن أظهرن في بعض الأحيان شيئًا من التمرد وعدم الإذعان لمشيئتهم، ولذلك فإن هذا القانون قلما كان ينفذ فيهن، أو قلْ إنه لم ينفذ على الإطلاق، وكل ما في الأمر أن الآباء في هذه المدينة كانوا في كثير من الأحيان يرهبون بناتهم بما في هذا القانون من هول وقسوة.

ولكن حدث مرة أن شيخًا مُسنًا يُدعى إجيوس Egeus مثل أمام الدوق تسيوس Theseus حاكم أثينا في وقته، وشكا إليه ابنته هرميا Hermia لأنه أمرها أن تتزوج بشاب يُدعى دمتريوس Demetrius من من أُسرة أثينية نبيلة فلم تطع أمره؛ لأنها كانت تحب شابًا آخر من أهل أثينا يُسمى ليسندر Lysander، وطلب إجيوس إلى تسيوس أن يأخذ العدل مجراه وأن ينفذ هذا القانون القاسي في ابنته.

ودافعت هرميا عن نفسها واعتذرت عن عصيانها أمر أبيها بِأَن دمتريوس قد جهر من قبل بحب صديقة لها عزيزة تُدعى هلنا Helena، وأن هذه الصديقة كانت تحب دمتريوس حُبًا يبلغ حد الجنون، ولكن هذا العذر النبيل الذي اعتذرت به هرميا عن عصيانها أمر أبيها لم يبعث في قلب إجيوس القاسي شيئًا من الحنان والرأفة.

وكان تسيوس أميرًا عظيمًا رحيمًا، ولكنه لم يكن يملك تغيير شريعة بلده، وكل ما كان في وسعه أن يفعله أن يمهل هرميا أربعة أيام تفكر خلالها في أمرها، فإذا أبت بعد هذه الأيام الأربعة أن تتزوج دمتريوس حق عليها القتل.

ولما انصرفت هرميا من مجلس الدوق ذهبت إلى حبيبها ليسندر وأطلعته على ما كان يحدق بها من خطر، وقالت إنها بين اثنتين: فإما أن تنفض يدها منه وتتزوج دمتريوس، وإما أن يقضي عليها بعد أربعة أيام.

وسمع ليسندر بهذا النبأ المشئوم فأحزنه وأمر عيشه، ثم تذكر أن له عمة تقيم في مكان قريب من أثينا، وأن ذلك القانون القاسي لا يُستطاع تطبيقه على هرميا حيث تقيم العمة؛ لأن سلطانه لا يمتد خارج حدود المدينة، فعرض على هرميا أن تتسلل من دار أبيها في تلك الليلة وتذهب معه إلى بيت عمته، وفيه يتم زواجهما. وقال لها في حديثه: «سألقاك على بُعد بضعة أميال من المدينة في الغابة البهيجة التي طالما سرنا فيها مع هلنا في أيام شهر مايو اللطيفة».

ووافقت هرميا على هذا الاقتراح وهي فرحة مُغتبطة، ولم تخبر أحدًا بما اعتزمته من الهرب إلا صديقتها هلنا، لكن الفتيات كثيرًا ما يدفعهن الحب إلى أسخف الفعال، وقد فعلت هلنا من أجل الحب فعلة لا تتفق مع النُبل والشهامة إذ اعتزمت أن تبوح بسر صديقتها البائسة إلى دمتريوس، وإن لم تكن ترجو من وراء إذاعته إلا أن تنال شيئًا من المسرة الحقيرة بالذهاب إلى الغابة مع حبيبها الغادر، وكانت لا تشك في أن دمتريوس سوف يذهب إليها في أثر هرميا.

وكانت الغابة التي اتفق ليسندر وهرميا على أن يتقابلا فيها هي المأوى الذي اختارته لنفسها الخلائق الصغيرة المعروفة باسم «الجن».

وكان أُبرن Oberon ملك الجن وتيتانيا Titania ملكتهم، هما واتباعهما الصغار، مُجتمعين كعادتهم في مُنتصف الليل يمرحون ويقصفون في هذه الغابة.

واتفق أن كان بين ملك الجن الصغير وملكتهم في ذلك الوقت شقاق مُحزن، فكانا كلما اجتمعا في ضوء القمر في طُرقات هذه الغابة البهيجة المظللة بالأشجار، تنازعا وتخاصما، وكان خصامهما يدوم حتى يزحف كل أتباعهما من الجن ويختفون داخل قشور ثمار البلوط من شدة الخوف.

وكان منشأ هذا النزاع المشئوم أن تيتانيا أبت أن تعطي أُبرن طفلًا مبدولًا كانت أُمه صديقة لتيتانيا، فلما ماتت الأُم سرقت ملكة الجن طفلها من مربيته، وقامت هي على تربيته في الغابة.

وكانت تيتانيا تسير في الغابة مع بعض وصيفاتها في الليلة التي اتفق العاشقان على أن يتقابلا فيها، وإذا هي تلتقي بأبرن تحوطه حاشيته من الجن.

فلما رآها بادرها بقوله: «لقاء مشئوم لقاؤك في ضوء القمر يا تيتانيا المتغطرسة» فأجابته الملكة بقولها: «أهذا أنت يا أبرن؟ أهذا أنت أيها الحسود؟».

ثم قالت لوصيفاتها من الجن: «اقفزن وابعدن عن هذا المكان فقد أقسمت ألا يكون لي بأبرن صلة»، فرد عليها بقوله: «على رسلك أيتها الجنية الحمقاء، ألست صاحب الأمر عليك؟ فلم إذًا تغاضب تيتانيا سيدها أبرن؟

هيا أعطني طفلك المبدول ليكون لي غلامًا».

فأجابته الملكة بقولها: «أرح نفسك من هذا العناء يا أبرن، إنك لن تنال هذا الولد ولو أعطيتني مملكة الجن بأسرها»، ثم تركت زوجها محنقًا مغيظًا ومضت في طريقها، فقال لها أبرن: «اذهبي أنَّى شئتِ ولأجزينك قبل مطلع الفجر على ما أسأت إليّ شر الجزاء»، ثم دعا أبرن إليه بك Puck كبير أصفيائه ومشيره الخاص. وكان بك (أورُبن طيب القلب) عفريتًا ماكرًا خبيثًا اشتهر بألاعيبه الهزلية في القُرى المجاورة، فتارة يدخل الملابن وينزع قشدة اللبن، وطورًا يدفع بجسمه الرقيق الغازيّ في الممخضة ثم يشرع يرقص فيها رقصة العجيب، فلا تستطيع حلابة اللبن مهما أجهدت نفسها أن تحول القشدة إلى زبد. ولم يكن فتيان الريف أحسن حظًا من فتياته، فإذا ما حلِيَ لك أن يخص بألاعيبه معاصر الخمر، تلفت الخمر لا محالة، وإذا اجتمع بعض الجيرة ليروحوا عن أنفسهم باحتساء شيء منها قفز بك إلى الكئوس في صورة سرطان مشوي، وإذا شاءت ربة الدار أن تشرب اهتز فوق شفتيها وسكن الخمر على ذقنها المجعد، فإذا جلست هذه السيدة بعد ذلك بقليل تقص على جاراتها في هدوء ووقار قصة محزنة نزع بك من تحتها كرسيها ذا الأرجل الثلاث فوقعت العجوز المسكينة على الأرض من فورها، وأخذت جاراتها القواعد الثرثارات يسخرن منها ويغرقن في الضحك عليها، ويقسمن أنهن لم يكنّ قط أكثر ابتهاجًا منهن في تِلك الساعة.

وقال أبرن لهدا العفريت المرح الساري في جوف الليل: «تعال يا بك وجئني بالزهرة التي تُسميها الفتيات (الحب الكَسِل)؛ وهي زهرة صغيرة أرجوانية اللون إذا عصر ماؤها على جفون النائمين هاموا بحب أول شيء تقع عليه أعينهم عندما يستيقظون؟ وسأعصر شيئًا من ماء تلك الزهرة على جفني

نيتانيا وهي نائمة، فإذا فتحت عينيها شغفها حب أول شيء تراه، ولو كان هذا الشيء أسدًا أو دبًا أو نسناسًا لعوبًا أو قردًا دءوبًا، وسأرغمها على أن تعطيني ذلك الغلام ليكون من خدمي قبل أن أمحو أثر هذه الرقية، وفي وسعي أن أمحوه برقية أُخرى أنا بها عليم».

وكان بك يحب الخبث من صميم قلبه، ولذلك سرّه كل السرور هذا الهو الذي أراد أن يلهو به سيده، وذهب من فوره ليأتيه بالزهرة المطلوبة. وبينا كان أُبرن ينتظر عودة بك سمع دمتريوس يُؤنب هلنا لمجيئها إلى الغابة في أثره، ويغلظ لها في القول، وهي تُعاتبه في رفق وتُذكره بحبه القديم، وما كان يجهر به من صادق الود والإخلاص، ثم أعرض عنها وقال لها إنه يتركها للذئاب الضارية تفترسها أو ترحمها كما تشاء، وراحت هي تجري وراءه بأسرع ما تستطيع.

وكان ملك الجن طول حياته صديقًا للمحبين الأوفياء، ومن أجل ذلك أخذته الرأفة بهلنا، ولعل أُبرن قد رآها من قبل في تلك الأيام السعيدة حين كان دمتريوس يهواها، وقد سمع من ليسندر أنهما كانا يجوسان خلال هذه الغابة الجميلة في ضياء القمر.

وسواء كان ذلك أو لم يكن، فقد قال أُبرن لبك ناصحه الأمين حين عاد إليه ومعه الزهرة الأرجوانية الصغيرة: «خذ معك جُزءًا من هذه الزهرة، فقد جاءت إلى هذا المكان غادة أثينية حسناء تهيم بحب شاب صغير، فإذا رأيته نائمًا فضع بضع قطرات من عصير الحب في عينيه، واحرص على أن تفعل ذلك وهي قريبة منه، حتى تكون هذه الفتاة التي يزدريها أول ما تقع عليه عيناه حين يصحو من نومه، وستعرف هذا الشاب من الثياب الأثينية التي يرتديها».

وقال بك إنه سيمضي في هذا العمل بكل ما وهب من حذق ومهارة، ثم تركه أُبرن وجاء إلى تيتانيا في عريشها من غير أن تراه، وكانت وقتئذ تستعد للنوم. وكان عريش الجنينة جسرًا ينبت عليه الصعتر البري وزهر الربيع والبنفسج النضير، وتظلله قبة من اللبلاب وورد المسك وورد الجبال، وكان من عادة تيتانيا أن تنام في هذا المكان بعض ساعات الليل، وغطاؤها ثوب ثعبان مبرقش يحسبه الرائي صغيرًا ولكنه يتسع لأن تلتف فيه جنية.

وألقى تيتانيا تأمر تابعاتها من الجن بما يجب عليهن أن يفعلنه وهي نائمة، ومما قالته جلالتها: «ليمض بعضكن ويقتلن الأساريع في براعم ورد المسك، وليحارب بعضكن الخفافيش ليأخذن منها أجنحتها الجلدية يصنعن منها أردية لصغار الجن، وليراقب بعضكن البوم كثير النعيق فلا يسمح له بالاقتراب مني، ولكني أحب أولًا أن أنام على صوت غنائكن».

وأخذت الوصيفات يُغنين هذه الأُغنية:

أيتهـا الأفـاعي الرقطـاء ذات اللسـانين،
ويـا ايتهـا القنافـذ ابعـدي فـلا تقـع عليـكِ
ويـا أيهـا الـورل الصـغير والـدود الأعمـى،
اكففـن كلكـن شـرَّكن،
ولا تقـربن ملكـة الجـن.
ويـا ايتهـا البلابـل غـنِ واطربيهـا بصـوتك
لُولا، لُولا، لُولا باي. لولا، لولا، لولا باي.

وليبعـد عـن سيدتنا الجميلـة كـل أذى وكـل

ألا نـــــــامي وعمـــــــي مســــــاءً.

ولما نامت ملكة الجن على غناء وصيفاتها وانصرفت الوصيفات ليقمن بما عهدت به إليهن من مهام، اقترب أُبرن في خفة من تيتانيا وألقى بقليل من عصير الحب على جفنيها وهو يقول: «هيمي بحب من ترينه عندما تستيقظين من نومك».

والآن فلنعد إلى هرميا التي خرجت من بيت أبيها في تلك الليلة، لتنجو بنفسها من الموت الذي قدر لها جزاء رفضها الزواج بدمتريوس. فلما جاءت إلى الغابة وجدت حبيبها ليسندر في انتظارها ليأخذها إلى بيت عمته، وقبل أن يجتازا نصف الطريق داخل الغابة أحست بتعب شديد، فأشار عليها ليسندر أن تستريح فوق كثيب من الأشنة الرطبة حتى الصباح. وكان ليسندر يعز هذه الفتاة ويحرص على راحتها بعد أن أثبتت له حبها بتعريض حياتها للخطر من أجله. ورقد هو على الأرض بالقرب منها، وسرعان ما أخذ الكرى بمعاقد أجفانهما. وجاء بك إلى هذا المكان فرأى شابًا وسيمًا نائمًا وعليه ثياب من الطراز الأثيني، ورأى غادة حسناء نائمة بالقرب منه، فلم يشك في أنها هي الفتاة الأثينية وأن الشاب الذي ينام بالقرب منها حبيبها الغادر الذي أرسله أُبرن للبحث عنه، وظن بطبيعة الحال أن أول ما ستقع عليه عين الشاب بعد أن يصحو من نومه هو هذه الفتاة، إذ لا ثالث لهما في هذا المكان. وعمد من فوره إلى وضع شيء من ماء الزهرة الأرجوانية الصغيرة في عينه، واتفق أن مرت هلنا بهذا المكان فكانت هي لا هرميا أول ما وقعت عليه عين ليسندر حين صحا من نومه. وكان من أغرب الأشياء أن قوة العصير السحرية بلغت من الشدة حدا ذهب معه كل ما كان في قلبه من حب لهرميا، وحل مكانه حب هلنا.

ولو أن هرميا كانت أول من رأى حين استيقظ من نومه لما كان للخطأ الذي وقع فيه بك أثر ما؛ لأن حبه لهذه الفتاة الوفية لم يكن يعلو عليه حب، ولكن أصعب الأُمور على النفس وأدعاها للحسرة أن يخضع ليسندر لرقية حب من عمل الجن، فينسى هرميا حبيبته الوفية ويجري وراء فتاة غيرها، ثم يتركها هي في مُنتصف الليل نائمة وحدها بين أشجار الغابة، ولكن هذا ما جرى به القدر المشئوم. لقد حاولت هلنا أن تلحق دمتريوس بعد أن أساء إليها بتركها في الغابة، ولكنها لم تستطع أن تُجاريه طويلًا؛ لأن الرجال على الدوام أقدر من النساء على الجري الطويل. وسرعان ما غاب دمتريوس عن عين هلنا، وظلت هي تسير في الغابة حزينة كاسفة البال حتى جاءت إلى المكان الذي ينام فيه ليسندر، فلما رأته قالت: «عجبًا! هذا هو ليسندر ملقي على الأرض، ترى أميت هو أم نائم؟». ثم مسته بلطف وقالت: «إذا كنت حيًا يا سيدي فاصح من نومك»، وعندئذ فتح ليسندر عينه وبدأت رقية الحب تعمل عملها، فخاطبها من فوره خطاب المحب الواله، وأبدى إعجابه بها، وقال إن أُوليفرق بين جمالها وجمال هرميا كأُوليفرق بين الثريا والثرى، وإنه يدخل النار من أجلها، إلى غير ذلك من عبارات الوجد والهيام. وسمعت هلنا ليسندر يُخاطبها بهذه اللهجة فغَضِبَتْ أشد الغضب، فقد ظنت أنه يستهزئ بها، وكان خليقًا بها أن تظن ذلك لأنها كانت تعرف أن ليسندر حبيب صديقتها هرميا، وأن بينه وبينها عهدًا صريحًا بزواجها، فقالت: «واحسرتاه! هل جئت إلى هذه الدنيا ليسخر مني ويستهزئ بي كل إنسان؟ أما كفاني أيها الشاب ألَّا أحظى بنظرة عطف أو كلمة حنان من دمتريوس حتى تأتي أنت فتتظاهر بحبي هذا التظاهر المزري؟ لقد كنت أظنك يا ليسندر أكرم مما رأيت»، قالت هذا في حنق شديد، ثم جرت من ذلك المكان فأخذ ليسندر يعدو خلفها، ونسى حبيبته هرميا التي كانت لا تزال نائمة.

ولما استيقظت هرميا وألفت نفسها بمفردها وجلت من ذلك أشد الوجل، وأخذت تجوس خلال الغابة وهي في حيرة لا تدري ما حل بليسندر، ولا تعرف أين تذهب للبحث عنه.

وكان دمتريوس في ذلك الوقت قد عجز عن العثور على هرميا وغريمه ليسندر، وأنهكه بحثه غير المجدي فنام نومًا عميقًا، ورآه أبرن على هذه الحال، وكان قد عَرِفَ من أسئلة له ألقاها على بك أنه قد وضع رقية الحب في غير العينين المقصودتين، فلما أن وجد طلبته مس عيني دمتريوس بماء الحب فاستيقظ من فوره، وكانت هلنا أول ما أبصر فأخذ يُحدثها حديث الوجد والهيام كما فعل ليسندر من قبله. وفي هذه اللحظة أقبل ليسندر ومن ورائه هرميا، وكانت هي التي تجري الآن وراء حبيبها بسبب الغلطة المشئومة التي ارتكبها بك، وشرع ليسندر ودمتريوس جميعًا يُغازلان هلنا؛ لأن كليهما كان مُتأثرًا بالرقية السحرية القوية.

ودهشت هلنا من ذلك أشد دهشة، وظنت أن دمتريوس وليسندر وصديقتها القديمة هرميا كلهم يأتمرون بها ويسخرون منها.

ولم تكن هرميا أقل دهشة من هلنا؛ لأنها لم تكن تعرف كيف أصبح ليسندر ودمتريوس يحبان هلنا، وقد كانا من قبل يحبانها هي، ولاح لهرميا أن الأمر جد لا هزل، وأخذت الفتاتان اللتان كانتا من أعز الأصدقاء تتبادلان قوارص الكلم.

فقالت هلنا: «ما أقساكِ يا هرميا! إنكِ أنتِ التي حملتِ ليسندر على أن يُغاضبني بمديحه الساحر. وأما حبيبك الآخر دمتريوس، فإنكِ أنتِ التي أمرته أن يُسميني إلهة وحورية ودرة فريدة بارعة الحسن قدسية الجمال، ولولا

أنكِ قد أغريته بِأَن يسخر مني ما قال لي هذا القول لأنه كان يمقتني من قبل. وهل بلغ من قسوتك يا هرميا أن تشتركي مع الرجال في الاستهزاء بصديقتك البائسة؟ وهل نسيتِ صداقة أيام الدراسة؟ فكم من مرة يا هرميا جلسنا على وسادة واحدة نُغني معًا أُغنية واحدة، وننقش معًا زهرة واحدة على قطعة من القماش واحدة، وقد مضت بنا الأيام ونحن لا نفترق كأننا فرقدان للمُتأمل، أو كأنما شققنا من نبعة واحدة. ليس من الصداقة يا هرميا، بل ليس مما يليق بالفتيات، أن تتآمري مع الرجال على السخرية من صديقتك البائسة».

وقالت هرميا: «إِني ليدهشني منك هذا الكلام المحنق، لست أسخر منك، بل يلوح أنكِ أنتِ التي تسخرين مني».

فأجابتها هلنا قائلة: «أسدري في غوايتك، وتظاهري بالجد ما استطعت، فإِذا التفتّ فلوى شدقيك وتغامزي أنتِ ومن معكِ بالأجفان، ولا تنقطعوا عن الهذر والاستهزاء. لو كان في قلبك رحمة، أو كنت على شيء من الظرف وحُسن الخلق، ما عاملتني هذه المعاملة».

وبينا كانت هلنا وهرميا تتبادلان قوارص الكلم تركهما دمتريوس وليسندر يقتتلان في الغابة ليقررا من منهما يفوز بحب هلنا.

ولما رأت الفتاتان أن الشابين قد فارقاهما غادرتا مكانهما، وشرعتا تجولان في الغابة مرة أُخرى، تبحثان عن حبيبهما رغم ما حل بهما من تعب.

وكان ملك الجن وبك الصغير يستمعان حديث خصامهما، فلما ذهبتا قال الملك لبك: «هذه عاقبة إِهمالك، أو لعلك قد فعلت فعلتكَ عامدًا». فأجابه بك: «لا وحقك يا ملك الأطياف، لقد كان ذلك عن خطأ وقع مني.

ألم تقل لي أن أتعرف الرجل بملابسه الآثينية؟ على أنني لست آسفًا لما حدث لأن في خصامهم لذة أيما لذة». فقال أبرن: «لقد سمعت أن دمتريوس وليسندر قد ذهبا يبحثان عن مكان صالح يقتتلان فيه، فعليك أن تظلل الأرض طول الليل بضباب كثيف، وأن تضل هذين العاشقين في ظلام الليل حتى يعجز كلاهما عن لقاء صاحبه، وقلد أنت لكل منهما صوت ريمه، واسخر منهما سخرية تحمل كليهما على أن يسير وراءك وهو يظن أنه يسمع صوت خصيمه، ولا تنقطع عن عملك حتى يضنيهما التعب فيعجزا عن مُواصلة السير، فإذا وجدتهما قد استغرقا في النوم فضع ماء هذه الزهرة الثانية في عيني ليسندر، حتى إذا استيقظ نسى حب هلنا الجديد ورجع إلى حب هرميا القديم. وعندئذ ستعد كلتا الفتاتين بالشاب الذي تحبه، وسيظنون جميعًا أن كل ما حدث لم يكن إلا حلمًا من الأحلام المزعجة. أسرع بابك وافعل ما آمرك به، أما أنا فسأذهب لأرى أي حبيب وجدته تيتانيا».

وجاء أبرن إلى موضع تيتانيا فألفاها لا تزال نائمة، ووجد بجوارها مهرجا قد ضل الطريق فنام هو أيضًا بين الأشجار. وقال أبرن: «سيكون هذا الإنسان محبوب تيتانيا الحقيقي، ثم ألصق فوق رأس المهرج رأس حمار فوافقه كأنه قد خلق له، ووضع أبرن رأس الحمار في موضعه بخفة وعناية، ولكنه مع ذلك أيقظ الرجل فقام وهو لا يدري ما فعل به أبرن، ومشى نحو العريش الذي كانت ملكة الجن تنام فيه».

وفتحت تيتانيا عينها، وأخذ عصير الزهرة الصغيرة الأرجوانية يعمل عمله فقالت: «ما هذا الملاك الذي أرى؟ ترى هل فيك من العقل بقدر ما فيك من الجمال؟»، فأجابها المهرج الأبله بقوله: «لو أن لي يا سيدتي من العقل ما يدلني على الطريق الذي أخرج به من هذه الغابة لكفاني ولم أطلب مزيدًا».

فقالت له الملكة المستهامة: «لا تُفكر في الخروج من الغابة، أنا جنية من أرقى طبقات الجن، وقد أحببتك فتعالَ معي آتك بجنيات تخدمك». ثم نادت أربعًا من جنها، وهن زهرة القطاني ونسج العنكبوت والعث وبذرة الخردل، وقالت لهن: «قفن بين يدي هذا السيد الجميل، واقفزن في طريقه، والعين أمام ناظريه، وأطعمته عنبًا ومشمشًا، واسرقن له أكياس العسل من بطون النحل»، ثم قالت للمهرج : «تعال اجلس إلى جانبي، ودعني أعبث بخديك الأشعرين اللطيفين، وأقبل أُذنيك الكبيرتين الجميلتين، يا مصدر سروري وبهجتي».

ولم يكن لهذه العبارات، عبارات المودة والحب، أثر في نفس المهرج الذي استبدل برأسه رأس الحمار، ولذلك لم يعبأ بها، ولكنه أخذ يتيه عجبًا بخادماته الجُدد، فبدأ يُناديهن واحدة في إثر واحدة، وقال: «أين زهرة القطاني؟».

فأجابته: «»، فقال: «حكى بأظافرك رأسي، وأين نسيج العنكبوت؟»، فقالت هي الأُخرى: «لبيك يا مولاي».

فقال لها المهرج المغفل: «يا نسيج العنكبوت الطيبة، اقتلي هذه النحلة الوضيعة التي حطت على تلك العوسجة البعيدة، واحرصني يا نسيج العنكبوت الطيبة على أن تأتيني بمدخر عسلها، ولا تجهدي نفسك فوق ما يجب عليك يا نسيج العنكبوت، وإياكِ أن تُمزقي كيس العسل فلست أحب أن يغمرك ما فيه، وأين بذرة الخردل؟»، فأجابته: «هأنذا يا سيدي في انتظار أوامرك». فقال: «لست أريد منك يا بذرة الخردل الطيبة إلا أن تعيني زهرة القطاني على حك رأسي. لا بُد لي يا بذرة الخردل من الذهاب إلى الحلاق لأَني أظن أن شعر وجهي قد طال كثيرًا».

وقالت ملكة الجن: «ماذا تريد أن تأكل يا حبيبي؟ إن لدي جنية جريئة في وسعها أن تذهب إلى بيت السنجاب وتأتيك ببعض ما فيه من البندق الجديد».

فقال لها المهرج وقد أصبح له ما للحمار من شهوة للطعام، بعد أن ركّب عليه رأس حمار: «إني أفضل أن تأتيني بحفنة من حب القطاني الجاف. على أن أرجو ألا يقلقني أحد من أتباعك فإني أحب أن أنام».

فقالت الملكة: «فلتنم إذًا بين ذراعي، إني أحبك، وكم ذا أكابد من حبك».

ولما رأى ملك الجن المهرج نائمًا بين ذراعي ملكته اقترب منها حتى وقعت العين على العين، وأخذ يُؤنبها على ما أحاطت به الحمار من حب.

ولم يكن في مقدورها أن تنكر هذا الحب لأن المهرج كان وقتئذ بين ذراعيها، وقد كللت بالأزهار رأس الحمار الذي كان فوق كتفيه.

وظل أبرن يُضايقها بعض الوقت، ثم طلب إليها أن تعطيه الطفل المبدول، فلم تجرؤ على رفض طلبه بعد أن كشف ما كان من أمرها مع عشيقها الجديد.

ولما استحوذ أبرن بهذه الطريقة على الطفل الذي كان يريده خادمًا له، رثى لحال تيتانيا وما أصابها من بلاء أوقعها فيه بتدبيره المرح، فألقى ببضع قطرات من ماء الزهرة الثانية في عينيها، فاستعادت ملكة الجن حواسها، وعجبت أشد العجب من غرامها السابق، وقالت إنها الآن لا تطيق رؤية هذا المخلوق العجيب.

ثم انتزع أبرن رأس الحمار عن كتفي المهرج، وتركه يغط في نومه وعلى

كتفيه رأسه هو يحشوه الشخف.

ولما زال ما كان بين أبرن وتيتانيا من خلاف، أخذ يقص عليها قصة المحبين وما وقع بينهم من نزاع في مُنتصف الليل، واتفقا على أن تذهب معه لترى خاتمة أمرهم.

ووجد ملك الجن وملكتهم العاشقين ومعشوقتيهما الجميلتين، وكلهم نائمون على الكلأ مُتقاربين؛ لأن بك أراد أن يكفر عن ذنبه السابق فعمل على أن يأتي بهم جميعًا إلى مكان واحد دون أن يشعروا هم بذلك، وكان قد عُني بإزالة الرقية السحرية من عيني ليسندر بالعصير الذي أعطاه إياه ملك الجن.

وكانت هرميا أول من استيقظ من النوم، فوجدت ليسندر بالقرب منها بعد أن ضلت السبيل إليه في الغابة، فأخذت تنظر إليه وتعجب من تقلبه الغريب. ثم فتح ليسندر عينيه ورأى حبيبته هرميا فعاد إليه صوابه الذي ذهبت به رقية الجن، وعاد إليه معه حب هرميا، فأخذا يذكران ما جرى لهما في تلك الليلة وهما لا يدريان أكان ذلك حقيقة واقعة أم كانا يريان حلمًا واحدًا عجيبًا.

واستيقظ دمتريوس وهلنا بعد أن سكن النوم الهادئ اللذيذ من روعها وأزال ثورة نفسها واضطرابها، فأخذت تستمع في سرور إلى ما كان يجهر به دمتريوس من حب لها، وبدأت تدرك في غبطة ودهشة أنه صادق في حبه.

ولم يبقَ الآن سبب للتنافس بين هاتين الفتاتين اللتين كانتا تجوبان الغابة بالليل، فعادتا كما كانتا صديقتين وفيتين، ونسيت كلتاهما ما فاهت به الأُخرى من قوارص الكلم، وأخذتا تتشاوران فيما يجب عليهما أن تعملاه في موقفهما الجديد. وسرعان ما تم الاتفاق بينهما على أن يسعى دمتريوس لدى والد

هرميا في أن يستصدر منه عفوًا عن الحُكم القاسي الذي قضى بإعدام ابنته، بعد أن نزل هو عن حقه قِبَلها.

وبينا كان دمتريوس يتأهب للعودة إلى أثينا ليسعى ذلك السعي الحميد، إذ يفاجأ هو وزملاؤه بمقدم إجيوس والد هرميا، وقد جاء إلى الغابة في أثر ابنته الآبقة.

ولما عَلِمَ إجيوس أن دمتريوس لم يعد يرغب في الزواج بابنته، لم يُعارض في زواجها بليسندر، وقبل أن يعقد له عليها بعد أربعة أيام من ذلك اليوم؛ أي بعد مرور عام كامل على اليوم الذي صدر فيه الحكم بإعدامها. وقبلت هلنا بغبطة أن تتزوج في نفس اليوم حبيبها دمتريوس بعد أن وثقت من إخلاصه لها.

وسر ملك الجن وملكتهم أيما سرور من عودة المياه إلى مجاريها بين هؤلاء المحبين، وكانا في أثناء ذلك يُشاهدان خفية هذه الخاتمة السعيدة التي اختتمت بها قصتهم بفضل جهود أبرن الموفقة الطيبة. وبلغ من سرور هذين الزوجين الطيبين أن قر قرارهما على أن يحتفلا هم أيضًا بزفافهم، فيمرح الجن ويقصفون في جميع أرجاء مملكتهم.

والآن وقد انتهت هذه القصة إذا كان أحد قد ساءه ما قرأ فيها عن الجن وحيلهم، ورأى ذلك غريبًا لا يصدقه العقل، فليظن أنه كان نائمًا يحلم، وأن ما فيها من مخاطرات كان كله أضغاث أحلام. ولعل أحدًا من القراء لا يبلغ به السخف مبلغًا يحمله على الاستياء من ذلك الحلم اللطيف الذي لا ضرر فيه، حلم ليلة في مُنتصف الصيف.

قصة الشتاء

كان لينتيس Leontes ملك صقلية وهرميون Hermione ملكتها الطاهرة الحسناء يعيشان في وئام وصفاء كأحسن ما يعيش الزوجان. وكان لينتيس سعيدًا منعمًا يحب هذه السيدة الفاضلة حُبًا نال به كل ما يشتهي، ولم يكن ينقصه إلا شيء واحد يرغب فيه؛ ذلك أنه كان يود أحيانًا أن يرى رفيقًا له قديمًا كان زميلًا له في أيام الدراسة، وهو بلكسينس Polixenes ملك بوهيميا Bohemia، وأن يعرفه بزوجته. وكان لينتيس وبلكسينس قد درجا معًا مُنذ نعومة أظفارهما، ثم فرَّق بينهما موت أبويهما، فقد دعى كل منهما لأن يجلس على عرش مملكته، ولم يلتقيا مُنذ عهد طويل وإن كانا كثيرًا ما يتبادلان الهدايا والكُتب والرسائل الحبية.

ودعا لينتيس صديقه لزيارته مرارًا، وأخيرًا لبى بلكسينس دعوته وجاء من بلاد بوهيميا إلى بلاط ملك صقلية في زيارة لصديقه.

ولم تبعث هذه الزيارة أول الأمر إلا السرور الخالص في نفس لينتيس، وبلغ من سروره برقيق صباه أن أوصى الملكة أن تعنى به عناية خاصة. وكان يبدو في حضرة ذلك الصديق العزيز والزميل القديم وكأنه قد كملت أسباب سعادته. وأخذا يتحدثان عن العهود الخالية ويذكران أيام الدراسة ومرح الشباب، ويقصان حديث ذلك كله على هرميون، وكانت هي على الدوام تشترك في هذا الحديث وهي فرحة مُغتبطة.

وأقام بلكسنيس في ضيافة صديقه زمنًا طويلًا، ثم شرع بعد ذلك يعد العدة للرحيل، ولكن لينتيس أخذ يتوسل إليه أن يطيل المكث عنده،

وانضمت هرميون إلى زوجها في هذا الرجاء إجابة لرغبته.

ومن هذه الساعة بدأت أحزان هذه الملكة الطيبة، وذلك أن بلكسينس الذي أبى أن يطيل مقامه إجابة لرغبة لينتيس لم يستطع أن يرفض رجاء هرميون، بل تغلبت عليه برقيق لفظها وقوة حجتها، فرضى أن يُؤجل سفره بضعة أسابيع، وحينئذ تملكت لينتيس غيرة جامحة رغم ما كان يعلمه عن صديقه بلكسينس من شرف واستقامة، وعن الملكة من نُبل وطهارة. وكانت نيران الغيرة تزداد تأججًا في قلب هذا الملك البائس كلما أظهرت هرميون شيئًا من العناية ببلكسينس، وإن لم يكن ذلك إلا إجابة لطلب زوجها ورغبته في إدخال السرور عليه. وأصبح لينتيس بين يوم وليلة وحشًا ضاريًا غليظ الكبد، وهو الذي كان من قبل صديقًا مُحبًا مُخلصًا، وزوجًا هو خير الأزواج وأشدهم وفاءً. ومن أجل ذلك استدعى إليه كملو Camillo، وهو شريف من كبار رجال حاشيته، وأطلعه على ما يُساوره من شكوك، ثم أمره أن يدس السم لبلكسينس.

وكان كملو رجلًا طيب القلب، وكان يعرب أن الغيرة التي تأكل قلب لينتيس لا تستند إلى أساس صحيح، فلم يدس السم لبلكسينس، بل أطلعه على أوامر مولاه الملك، واتفق معه على أن يخرجا معًا من بلاد صقلية. وكذلك نجا بلكسينس بفضل معونة كملو ووصل هو وزميله سالمين إلى مقر ملكه في بوهيميا. وكان كملو يقيم بعض الوقت في بلاط الملك، وأصبح من ذلك الحين أعظم أصدقائه وأقرب المقربين إليه.

واستشاط لينتيس غضبًا حين عَلِمَ بهروب بلكسينس، فذهب إلى مخدع الملكة فرآها جالسة مع ابنها مملیس Mamillius الصغير، وكان قد بدأ في تلك اللحظة يقص على أُمه قصة من أمتع ما يعرف من القصص ليسليها بها، فدخل عليهما الملك وانتزع الطفل منها، وبعث بها إلى السجن.

وكان ممليس طفلًا صغيرًا، ولكنه كان يحب أُمه حبًا جمًا، فلما شاهد ما لاقته من مذلة ومهانة، وعَلِمَ أنها قد انتزعت منه لتُلقى في غيابة السجن، أمضه ذلك وآلم قلبه، وأكسف باله وضغضعه، وحرمه شهوة الطعام ولذة النوم، حتى ظن الناس أن الحزن لا محالة قاتلة.

ولما أرسل الملك هرميون إلى السجن أمر كليومينس Cleomenes وديون Dion، وهما من أشراف صقلية، أن يذهبا إلى دلفوس Delphos ليعرفا من مهبط الوحي في معبد أبلو أخانته الملكة أم لم تخنه.

أما هرميون فإنها بعد أن لبثت في السجن بعض الوقت وضعت طفلة صغيرة كان منظرها الجميل يبعث السلوى في نفسها؟ وقالت لها يومًا: «أيتها السجينة الصغيرة المسكينة إنني بريئة من الذنب براءتك منه».

وكان لهرميون صديقة رحيمة شريفة النفس تُدعى بولينا Paulina، وهي زوجة شريف من أشراف صقلية يُدعى أنتجون Antigonus، فلما سمعت بولينا أن سيدتها الملكة قد وضعت طفلة ذهبت إلى سجنها وقالت لإمليا Emila حارستها: «أرجو منكِ يا إمليا أن تُبلغي جلالة الملكة أني سآخذ طفلتها إلى أبيها الملك إذا رأت أن تعهد بها إليّ، ومن يدرينا! لعل قلبه يرق لها عندما يرى هذه الطفلة البريئة؟». فأجابتها إمليا قائلة: «أيتها السيدة الكريمة! سأنقل إلى الملكة هذا العرض النبيل. لقد كانت في هذا اليوم تتمنى أن تجد من الأصدقاء من يجرؤ على تقديم طفلتها إلى الملك». وواصلت بولينا حديثها قائلة: «وقولي لها إني سأُدافع عنها أمام لينتيس ولا أخشى شيئًا». فأجابتها إمليا بقولها: «بارك الله فيكِ طول حياتك جزاءً ما تحسنين لملكتنا الكريمة». ثم جاءت إمليا إلى هرميون وعرضت عليها الأمر، وسر الملكة السجينة أن تعهد بطفلتها إلى عناية بولينا لأنها كانت تخشى ألا تجد

إنسانًا يرضى أن يُجازف بتقديم الطفلة إلى أبيها.

وأخذت بولينا الطفلة المولودة ودخلت بها حجرة الملك قوة واقتدارًا، وحاول زوجها أن يمنعها من الدخول لخوفه من غضب الملك عليها، ولكنه لم يقوَ على ذلك. ثم وضعت الطفلة عند قدمي أبيها ودافعت أمامه عن هرميون دفاعًا مجيدًا، ولامته أشد اللوم على قسوته، وتضرعت إليه أن يرأف بزوجه وطفلته البريئتين. ولكن دفاع بولينا القوي لم يكن له من أثر إلا مُضاعفة غضب لينتيس، ولذلك أمر زوجها أنتجون أن يخرجها من حضرته.

وخرجت بولينا من حضرة الملك، ولكنها تركت الطفلة عند قدميه، ظنًا منها أنه إذا خلا إلى نفسه نظر إليها وأخذته الرأفة بها، فأثر فيه طهرها وضعفها.

ولكن بولينا قدرت فأخطأت التقدير. ذلك أنها لم تكد تخرج من عنده حتى أمر الوالد القاسي زوجها أنتجون أن يأخذ الطفلة ويخرج بها ويلقيها على شاطئ قفر لتهلك.

ولم يفعل أنتجون ما فعله الرجل الطيب كملو، بل فعله ما أمره به لينتيس، وأخذ الطفلة من فوره على ظهر سفينة وسار بها في البحر ليلقيها على أول شاطئ قفر يعترضه. وأيقن الملك بجريمة هرميون فلم يشأ أن يصبر حتى يرجع إليه كليومينس وديون، وهما اللذان أرسلهما إلى مهبط وحي أبلو في دلفوس، بل أمر أن يُؤتى بالملكة لتحاكم علنًا أمام جميع نُبلاء البلاط وأشرافه. ولما اجتمع أعيان البلاد وقضاتها ونبلاؤها لمحاكمة هرميون، وجيء بالملكة التعسة من السجن لتسمع حكم رعاياها عليها، أقبل كليومينس وديون على هذا الجمع الحاشد، وسلما الملك جواب الوحي في غلاف مختوم. وأمر لينتيس أن تفض الأختام وتقرأ رسالة الوحي جهرة، فإذا بها تقول:

«هرميون بريئة، وبلكسينس غير ملوم، وكملو من الرعايا الأوفياء الصادقين، ولينتيس ظالم حسود، وسيعيش الملك ولا وارث له إذا لم يُرَدَّ ما ضاع». لكن الملك لم يثق بقول الوحي، وأعلن أن ما جاء بالرسالة كذب اكتتبه أصدقاء الملكة، وطلب إلى القاضي أن يستمر في محاكمتها. وبينا هو في حديثه إذا برجل يدخل عليه ويخبره أنه لما سمع الأمير ممليس بأن الملكة قد وقفت أمام القضاء ليحكم عليها بالموت، فت الحزن والمهانة في عضده فقضى نحبه لساعته.

وسمعت هرميون بموت طفلها العزيز عليها الكلف بحبها، الذي قضى نحبه حُزنًا عليها في بؤسها، فخارت قواها وغشي عليها. وآلم هذا النبأ المحزن قلب الملك فبدأ يشفق على هذه الملكة التعسة، وأمر بولينا ومن كان حولها من نساء الحاشية أن يخرجن بها ويعملن على إعادة الحياة إليها. لكن بولينا عادت إلى الملك من فورها، وأبلغته أن هرميون قد قضت نحبها.

ولما سمع لينتيس بموت الملكة ندم على قسوته عليها، وعَرِفَ أن سوء فعاله هو الذي قطع نياط قلبها. وأيقن وقتئذ أنها بريئة، وأن الوحي قد نطق بالحق، وأنه لن يكون له من يرث ملكه من بعده «إن لم يُرَدَّ ما ضاع». وظن بعد أن مات الأمير ممليس أن ما ضاع هو ابنته، وكان يود لو عادت إليه هذه البنية المفقودة وإن نزل في سبيل ذلك عن جميع مملكته. وأكسف الحزن باله وقضى سنين طوالًا واجمًا تتوزعه الفكر وتتقسمه الهموم، ويعض بنان الندم على ما جنت يداه.

وهبت عاصفة على السفينة التي كان أنتجون يحمل فيها الطفلة الأميرة،

فدفعت بها إلى شاطئ بوهيميا[1]، وهي البلاد التي كان يحكمها الملك بلكسينس، فنزل أنتجون في أرضها وترك الطفلة المولودة فيها.

ولم يعد أنتجون إلى صقلية ليخبر لينتيس عن موضع ابنته؛ وذلك لأن دبًا خرج عليه من بين الأشجار وهو عائد إلى السفينة ومزقه إربًا، فنال بذلك ما استحقه من عقاب، إذ أطاع أمر الملك لينتيس الظالم الأثيم.

وكان لباس الطفلة فاخرًا غاليًا، وكانت قد زُيِّنت بالجواهر الثمينة؛ لأن هرميون جملتها قبل أن ترسلها إلى لينتيس، وألصق أنتجون على ميدعتها ورقة كتب فيها برديتا (perdita) ومعناها «المفقودة»، وبعض ألفاظ أُخرى تشير في غموض إلى منشأ الطفلة السامي وحظها السيئ.

وعثر راع على هذه الطفلة المنبوذة المسكينة، وكان رجلًا رحيمًا، فأخذ برديتا الصغيرة إلى داره وأسلمها إلى زوجته، فقامت على تربيتها والعناية بها. ولكن الفقر أغرى هذا الراعي أن يخفي هذه اللقية الثمينة، فنزح عن هذا المكان حتى لا يعرف إنسان مصدر ثرائه، وابتاع ببعض جواهر برديتا قطعانًا من الماشية والضأن، وأصبح من أكثر الرعاة ثروة، ونشَّأ برديتا على أنها ابنته، فلما كبرت لم تكن تعرف إلا أن الراعي هو أبوها.

وأصبحت برديتا الصغيرة بعد أن كبرت من أجمل الفتيات، ومع أنها لم تنل من التعليم أكثر مما يناله بنات الرُّعاة، فإن ما ورثته عن أُمها الملكة من شمائل بدا سناه في عقلها الذي لم يزنه نور العلم، و لذلك لم يكن يظن من رآها إلا أنها رُبيت في قصر أبيها.

---

[1] لا حاجة بنا إلى أن ننُبه القارئ إلى أن بوهيميا بلاد لا شاطئ لها، ولم يكن لها في ذلك الزمن شاطئ، ولكن شكسبير لا يعبأ بعلم الجغرافيا كما لا يعبأ بعلم النحو أو بفقه اللغة. (المترجم)

وكان لبلكسينس ملك بوهيميا ابن وحيد يُدعى فلرزل Florizel، وكان هذا الأمير يصطاد في يوم من الأيام على مقربة من بيت الراعي، فوقعت عينه على ابنته المزعومة، وأُعْجِبَ بجمالها وخفرها وسلوكها الذي ينم عن نشأتها الملكية، فأحبها لساعته، وأخذ من ذلك الوقت يتردد على دار الراعي الشيخ مُتنكرًا في زي رجل عادي، وسمى نفسه دركليز Doricles.

ولما تكرر غياب فلرزل عن بلاط بلكسينس أوجس الأب في نفسه خيفة، ورصد على ابنه العيون ليراقبوه وليوافوه بجلية أمره، فعَرِفَ منهم حبه لابنة الراعي الحسناء.

ومن أجل ذلك دعا إليه كملو الوفي الذي أنقذ حياته من غضب لينتيس، وطلب إليه أن يُرافقه إلى بيت الراعي والد برديتا المزعوم.

وجاء بلكسينس وكملو مُتنكرين إلى مسكن الراعي الشيخ، في يوم كان يحتفل فيه بعيد جز الأغنام، وأدخلهما الراعي إلى مسكنه ودعاهما إلى مُشاركته هو وأهله في حفلاتهم، ولم يمنعه من لك أنهما غريبان في داره؛ لأن من عادة الرُعاة أن يُرحبوا بكل زائر في عيد الجز.

وكانت الدار كلها تفيض مرحًا وسرورًا، وقد مدت فيها الموائد وأخذ أهلها يستعدون لذلك العيد الريفي. وكان بعض الفتيان والفتيات يتراقصون على الكلأ خارج الدار، وكان غيرهم من الشُبان يبتاعون من بائع جوال عند بابها أشرطة وقفازات وما إلى ذلك من الأشياء.

وبينا كان ذلك الهرج يحدث خارج الدار كان فلرزل وبرديتا يجلسان في هدوء في ركن بعيد من أركانها، وكان حديثهما أحب إليهما من الاشتراك مع من حولهما في لعبهم ولهوهم السخيف.

وبالغ الملك في تنكره حتى عجز ابنه عن أن يتبينه، واستطاع بذلك أن يقترب منهما ويسمع حديثهما. ولشد ما كانت دهشة بلكسينس حين رأى ظرف برديتا ورقة حديثها رغم ما فيه من سذاجة، فقال من فوره لكملو: «تلك أجمل فتاة من بنات السوقة رأتها عيناي، وما من شيء تقوله أو تفعله إلا وهو ينم عن شيء أعظم منها وأنبل من أن تحتويه هذه الدار».

فأجابه كملو: «حقًّا إنها زينة الفتيات ودرة تاجهن».

ثم قال الملك للراعي: «أتعرف أيها الصديق الطيب من هذا الفتى الوسيم الذي يتحدث إلى ابنتك؟». فأجابه الراعي: «إنهم يُسمونه دركليز وهو يقول إنه يحب ابنتي، ولست أدري أيهما يحب الآخر أكثر من صاحبه، وإذا استطاع الفتى دركليز أن يتخذها له زوجة فستأتي له بما لم يكن يحلم به»، وكان يشير بقوله هذا إلى ما بقى من جواهر برديتا التي ادخرها لتكون مهرًا لها عند زواجها، بعد أن أنفق بعضها في ابتياع غنمه.

ثم خاطب بلكسينس ابنه قائلًا: «أيها الشاب! يلح أن قلبك مُفعم بأشياء تصرفك عن الاستمتاع بهذا العيد، لقد كُنتُ في أيام شبابي أكثر من الهدايا لمن أحب، أما أنت فقد تركت البائع الجوال يذهب من هذا المكان ولم تشترِ منه ما تهديه إلى حبيبتك».

فأجابه الأمير الشاب وهو لا يعرف أنه يُحدث أباه الملك: «سيدي الشيخ! إنها لا تعبأ بهذه السفاسف؛ إن الهدايا التي تنتظرها مني مكنونة في قلبي». ثم التفت إلى برديتا وقال: «أي برديتا اصغَيْ إلى ما أُحدثك به أمام هذا الشيخ، وأكبر الظن أن طائف الحب قد طاف بقلبه في شبابه، سوف يسمع هذا الشيخ ما أُعاهدك عليه». ثم طلب فلرزل إلى الشيخ الغريب أن

يشهد عليه بِأَنه قد عاهد برديتا عهدًا مُقدسًا بِأَن يكون زوجًا لها. وقال له: «أرجو منك أن تكون شاهدًا على هذا العهد».

فأجابه الملك بعد أن كشف عن حقيقة أمره: «سأكون شاهدًا على طلاقها منك أيها الشاب». ثم أخذ بلكسينس يُوجه الليوم لولده على جُرأته فيما عاهد عليه هذه الفتاة الوضيعة وأنذرها بِأَنه سوف يقتلها هي وأباها الراعي الشيخ شر قتلة، إذا سمحت لابنه أن يراها بعد تلك اللحظة.

وتركهما الملك بعد ذلك وهو مغيظ محنق، وأمر كملو أن يلحق به ومعه الأمير فلرزل. وأثار تهكم بلكسينس ما كان في نفس برديتا من عِزة ملكية، فلما غادر الملك الدار قالت لحبيبها: «إنني ما خفت قط رغم ما يحيق بنا كلنا من مكروه، ولقد هممت مرة أو مرتين أن أخبره في صراحة أن الشمس التي تطلع على قصره الملكي لا تحجب وجهها عن كوخنا هذا، بل تطلع عليهما جميعًا».

ثم قالت والحزن ملء فؤادها: «والآن وقد تبدد ذلك الحلم اللذيذ فإني لن أكون ملكة بعد اليوم، فدعنى أيها الحبيب أحلب النعاج وأذرف الدموع».

وأعجب الرجل الطيب القلب كملو بشجاعة برديتا وحُسن تصرفها، ورأى أن الأمير الشاب يحب الفتاة حُبًا لا يستطيع معه أن يُفارقها طوعًا لأمر أبيه الملك، فأخذ يُفكر في وسيلة ينفع بها الحبيبين ويقضي بها حاجة في نفسه عزيزة عليه.

فقد كان كملو يعزف من زمن طويل أن لينتيس ملك صقلية نَدِمَ ندمًا صادقًا على ما فعل، وكان هو نفسه يحن إلى وطنه وإلى رؤية مولاه الملك رغم صداقته لبلكسينس وقربه منه؛ ولذلك عرض على فلرزل وبرديتا أن

يصحباه إلى بلاط ملك صقلية. وهو يُعاهدهما بأَن لينتيس سوف يحميها حتى يسعى هو لدى بلكسينس فيعفو عنهما ويُوافق على زواجهما.

ورضيا بذلك مُغتبطين، وهيأ كملو كل ما يلزم لهربهما، وسمح للراعي الشيخ بأن يصحبهما، وأخذ الراعي معه ما بقي من جواهر برديتا، وما كانت تلبسه من الملابس في طفولتها، والورقة التي عثر عليها مدبسة في ميدعتها.

ووصل فلرزل وبرديتا وكملو والراعي الشيخ سالمين إلى قصر لينتيس بعد رحلة جميلة موفقة. وكان لينتيس لا يزال حزينًا على موت هرميون وفقد طفلته، ولكنه أحسن استقبال كملو، ورحب بالأمير فلرزل وأكرم مثواه، وعرفه فلرزل بيرديتا قائلًا إنها أميرته.

ولاحظ الملك أن هذه الأميرة تشغل بال لينتيس وتملك عليه لبه، وأُضرم قلبه الحزن من جديد لما أن شاهد ما بينها وبين الملكة الميتة هرميون من شبه، وأعلن أنه لو لم يكن قد قسا على ابنته وأهلكها لقال إنها هي هذه الفتاة الجميلة بعينها، ثم التفت إلى فلزل وقال له: «وفي ذلك الوقت أيضًا فقدت صُحبة أبيك الشهم وصداقته، وإن رغبتي في أن أُشاهده الآن لأشد من رغبتي في حياتي».

ولما سمع الراعي الشيخ بما لقيته برديتا من عناية الملك، وعَرِفَ أنه فقد ابنة له تُرِكَتْ في العراء في أثناء طفولتها، أخذ يُفكر في الوقت الذي عثر فيه على برديتا الصغيرة والحالة التي لقيها عليها، وجواهرها وكل ما يدل على شرف محتدها، ولم يكن ثمة مفر من أن يُؤدي به تفكيره إلى الحكم بأَن برديتا هي بعينها ابنة الملك المفقودة.

واستمع فلرزل وبرديتا وكملو وبولينا المخلصة الأمينة للراعي الشيخ وهو يصف للملك حال الطفلة عندما عثر عليها، والظروف التي قُتِلَ فيها

أنتجون؛ لأنه شاهد الدب وهو يفترسه. ثم أظهر له الميدعة الثمينة فتذكرت بولينا أنها هي بعينها التي لفت فيها هرميون ابنتها، ثم أخرج له بعد ذلك جوهرة ذكرت بولينا أن هرميون علقتها حول عنق برديتا، وأطلعهم على ورقة مكتوبة عَرِفَتْ فيها بولينا خط زوجها، فلم يبقَ بعد ذلك شك في أن برديتا ابنة الملك حقًّا. ولشد ما عانت بولينا في نفسها من كفاح بين حزنها على وزجها، وسرورها من مُحقق نبوءة الوحي، إذ عادت إلى الملك وارثة عرشه، وهي ابنته التي طال العهد بفقدها. ولما سمع لينتيس أن برديتا هي ابنته استولى عليه الحزن لأن هرميون لم تكن حية فترى ابنتها، وظل وقتًا طويلًا واجمًا لا يقوى على النطق بشيء اللهم إلا قوله: «أملكِ! أملكِ!».

وبدَّلت بولينا هذا الموقف السار المؤلم معًا بأَن أخبرت لينتيس أن لديها تمثالًا قد فرِغَ الآن من نحته المثال الإيطالي الشهير جوليو رومانو Julio Romano، وهو لا يفترق عن الملكة في شيء، فإذا سَمِحَ جلالة الملك بالذهاب معها إلى منزلها ونظر إليه، ما تردد في الحكم بأَنه يرى هرميون نفسها. وذهبوا كلهم من فورهم إلى دار بولينا؛ لأن الملك كان شديد الرغبة في أن يرى تمثال هرميون؛ ولأن برديتا كانت تتوق إلى أن تعرف كيف كانت أُمها التي لم ترها قط.

وأزاحت بولينا الستار عن ذلك التمثال العظيم، فبدا كأنه هرميون نفسها، ولم يكد الملك يراه حتى عاد إليه حُزنه وظل برهة طويلة لا يقوى على الحركة أو الكلام.

وقالت بولينا: «إني أحب منك هذا السكوت يا مولاي؛ لأنه يفصح عن دهشتك أكثر مما يفصح عنها الكلام. أليس هذا التمثال شبيهًا كل الشبه بالملكة؟».

وقال الملك أخيرًا: «هكذا كانت وقفتها، وكذلك كانت عظمتها حين خطبتها، لكنها يا بولينا لم تكن قد بلغت هذه السن التي تبدو في هذا التمثال».

فأجابته بولينا: «وهذا دليل آخر على براعة المثَّال، فقد صنع التمثال بحيث يبدو كما كانت تبدو هرميون لو أنها عاشت إلى الآن. ولكن أيسمح لي مولاي أن أسدل الستار لئلا يظن الآن أن هذا التمثال يتحرك؟».

فقال الملك: «كلا لا تسدلي الستار. ليتني لم أعش إلى الآن! انظر إليه يا كملو، ألا تظن أنه يتنفس؟ إن عينها لتبدو وكأنها تتحرك».

فأجابته بولينا بقولها: «لا بُد أن أسدل الستار يا مولاي؛ لأنني أخشى أن يحملك ما أنت فيه من ذهول ودهشة على الاعتقاد بِأَن التمثال حي».

فقال لها لينتيس: «بحقك يا بولينا إلا ما جعلتني أعتقد هذا عشرين عامًا طوالًا، وإني ليُخيل إليّ أن الهواء يأتي إليّ من جهتها، فأي إزميل هذا الذي يستطيع أن ينحت الأنفاس، بحقكم لا تسخروا مني، لا بُد أن أقبلها».

فأجابته بولينا: «لا تقدم على ذلك يا مولاي، إن الصبغة الحمراء التي على شفتيها لم تجف، فإن قَبَّلتها لوثت شفتيك بهذه الصبغة الزيتية، فهل تسمح لي أن أسدل الستار؟». فقال لينتيس: «لا لن تسدليه قبل عشرين عامًا».

وكانت برديتا طوال هذا الوقت راكعة تنظر في سكون وإعجاب إلى تمثال أُمها العظيمة، فلما سمعت جواب أبيها قالت: «وفي وسعي أن أقيم هنا عشرين عامًا أيضًا أُمتع فيها ناظري برؤية أُمي العزيزة».

وقالت بولينا للملك: «إما أن تُهدئ من سورة عواطفك وتسمح لي أن أسدل الستار، وإما أن تستعد لما هو أعجب من ذلك؛ إن في وسعي أن أجعل التمثال يتحرك، أجل يتحرك وينزل عن قاعدته ويأخذ بيدك، ولكنك ستظن وقتئذ

أني أستعين على ذلك بقوى خفية شريرة، وتلك تهمة لا أقبلها».

فأجابها الملك في دهشة: «إني قانع بالنظر إلى ما تستطيعين أن تحمليها على فعله، وسماع ما تستطيعين أن تحمليها على قوله، وليس تحريك لسانها بأصعب من تحريك أطرافها».

وعندئذ أمرت بولينا بأن تعزف بعض قطع موسيقة هادئة أعدتها لهذه الساعة، وما كان أشد دهشة الحاضرين جميعًا حين نزل تمثال هرميون عن قاعدته، وتوجه تلقاء لينتيس وطوَّق عنقه بذراعيه ثم شرع يتكلم ويدعو الله أن يُباركه ويُبارك ابنته برديتا.

ولا عجب أن يطوق تمثال هرميون عنق لينتيس ويُباركه هو وابنته؛ لأَن التمثال لم يكن إلا هرميون الملكة الحية الحقيقية.

ذلك أن بولينا لم تكن صادقة حين نقلت إلى الملك نبأ وفاة هرميون، فقد نقلت إليه هذا النبأ لأنها لم تجد أمامها سبيلًا تُنجي بها سيدتها الملكة إلا هذه السبيل. وعاشت هرميون مع بولينا من ذلك الحين، ولم تشأ أن يعرف الملك أنها حية تُرزق حتى سمعت بعودة برديتا؛ لأنها وإن لم تستطع أن تُسامح الملك في قسوته على ابنته، قد عفت من زمن طويل عمَّا لحقها هي من أذى على يديه.

وفاض السرور والسعادة على لينتيس حتى لم يقوَ على احتمالها، بعد أن عادت زوجته إلى الحياة وردت إليه ابنته، وانتهى بهذا وذاك عهد أحزانه الطويل.

ولم تكن تسمع في هذا الوقت إلا التهاني تتردد على كل لسان، وعبارات الحب والعطف تنبعث من كل مكان، وأخذ الأبوان المغتبطان يشكران للأمير فلرزل حبه ابنتهما رغم ضعتها الظاهرة، وللراعي الشيخ الطيب عنايته بطفلتهما

ومُحافظته على حياتها. ولشد ما اغتبط كملو وبولينا لأنهما عاشا ليريا هذه الخاتمة السعيدة التي اختتمت بها جهودهما وإخلاصهما.

وكأنما أرادت الأقدار ألا ينقص شيء يتم به هذا السرور العجيب الذي لم يكن أحد يتوقعه، فقد دخل القصر في هذه اللحظة الملك بلكسينس نفسه.

ذلك أن هذا الملك تفقد ابنه وكملو فلم يجدهما، وكان يعرف أن كملو يرغب من زمن طويل في العودة إلى صقلية، وظن أنه سيجده هو وابنه فيها فجاء من فوره على أثرهما، وشاءت المصادفات أن يصل إليها في هذه اللحظة وهي أسعد اللحظات التي شهدها لينتيس في حياته كلها.

واشترك بلكسينس في هذا السرور العام، وعفا عن صديقه لينتيس وعن غيرته الباطلة منه، وعاد الحب بينهما قويًا كما كان أيام الصبا. ولم يكن أحد في ذلك الوقت يخشى أن يُعارض بلكسينس في زواج ابنه من بيرديتا، فلم تكن هي الآن خاطفة النعاج، بل كانت وارثة تاج صقلية.

وكذلك جوزيت هرميون على صبرها وفضائلها وآلامها الطويلة أحسن الجزاء، وعاشت هذه السيدة الفاضلة زمنًا طويلًا مع زوجها لينتيس وابنتها برديتا، وكانت أسعد الأُمهات والملكات.

جعجعة بلا طحن

كان يعيش في قصر ليوناتو Leonato حاكم مسينا Messina سيدتان تُسمى إِحداهما هيرو Hero وتُدعى الأُخرى بيتريس Beatrice. فأما هيرو فكانت ابنة الوالي، وأما بيتريس فكانت ابنة أخيه.

وكانت بيتريس ذات طبع مرح، وكان يسرها أن تروح بفكاهاتها اللذيذة عن ابنة عمها هيرو التي كانت أكثر منها جدًا ورزانة، وكانت لمرحها وبشرها ترى سببًا للبهجة والسرور في كل ما يحدث حولها.

وجاء لزيارة ليوناتو في الوقت الذي تبدأ فيه قصة هاتين الفتاتين جماعة من الشُبان، لهم مراتب عالية في الجيش، مروا بمدينة مسينا وهم عائدون من حرب وضعت أوزارها في تلك الأيام، وظهروا فيها على أقرانهم بما أبدوه من ضروب الشجاعة وأعمال البطولة. وكان من بينهم دن بدرو Don Prdo أمير أرغونة، وصديقه كلوديو Claudio من أشراف مدينة فلرنس Florence، ومعهم بندك Benedick من أشراف بدوا Padua وكان شابًا مُجازفًا فكهًا.

وكان هؤلاء الغرباء قد زاروا مسينا من قبل، فلما جاءوا إِليها هذه المرة قدمهم حاكمها المضياف الكريم إِلى ابنته وابنة أخيه، وقال لهما إِنهم من معارف الأُسرة وأصدقائها القدماء.

ولم يكد بندك يدخل حجرة الاستقبال حتى أخذ يتحدث إِلى ليوناتو والأمير دن بدرو حديثًا شائقًا مُمتعًا، وكانت بيتريس تحب أَلَّا يفوتها حديث

أيًا كان نوعه، ولذلك جاءت وقاطعت بندك بقولها: «من أعجب الأشياء أنك يا سيد بندك لا تزال تتحدث، إن أحدًا لا يصغى إليك».

وكان بندك لا يقل عن بيتريس طيشًا ونزقًا، ولكنه مع ذلك لم يعجبه ما تنطوي عليه هذه التحية من جرأة، وكان يرى أنه لا يليق بسيدة مُهذبة أن تطلق لسانها على هذا المنوال، وعاد إلى ذاكرته أنه حين جاء مسينا آخر مرة كانت بيتريس تختاره هدفًا لمزاحها ومجونها. ولما كان أكثرُ الناس كرهًا للاستهزاء به أكثرهم استهزاء بغيره، فإن بندك وبيتريس لم يشذا عن هذه القاعدة، فلم يكن هذان الفكهان المتوقدا الذهن يتلاقيان في الأيام الماضية دون أن تدور بينهما حرب من التهكم حقيقية لا تخبو نارها حتى يفترقا مُغضبين. ولما قطعت عليه بيتريس حديثه، وقالت له إن أحدًا لا يصغى إلى قوله، تظاهر بأَنه لم يلاحظ قبل ذلك وجودها، وقال لها: «ويك سيدتي المزدراة العزيزة ألا تزالين في عداد الأحياء؟»، ثم ثارت بينهما من جديد حرب من التهكم شعواء، أعقبها لجاج طويل، قالت بيتريس في خلاله إن في طاقتها أن تأكل جميع من قتله هُناك، مع علمها بأَنه قد أثبت في الحرب الأخيرة شجاعته ورباطة جأشه. ولما رأت الأمير مُصغيًا إلى حديثه مُشتاقًا لسماعه وصفته بأَنه مُضحك الأمير. وآلم هذا الاستهزاء بندك أكثر مما آلمه كل ما قالته بيتريس من قبل؛ فهو لم يعبأ بما ينطوي عليه قولها إن في وسعها أن تأكل جميع من قتله من وصف له بالجبن، وذلك لما يعرفه عن نفسه من الشجاعة وقوة الجنان، ولكن ما من شيء يخشاه كبار الفاكهين أكثر من أن يتهموا بالمجون؛ لأن هذه التهمة تكون أحيانًا قريبة كل القرب من الحقيقة، ومن أجل هذا كَرِهَ بندك بيتريس أشد الكره حين وصفته بأَنه «مضحك الأمير».

وظلت هيرو لحيائها صامتة أمام الضيوف الكبار، وبينا كان كلوديو ينعم النظر في جمالها الذي زادته الأيام حسنًا وبهاء، ويتأمل قوامها الرشيق لأنها كانت في الحق فتاة بارعة الجمال، بينا كان كلوديو يفعل هذا وذاك كان الأمير يصغى في بهجة وانشراح إلى ما كان يدور بين بندك وبيتريس من حوار لذيذ، وقد أسر إلى ليوناتو قوله: «تلك فتاة خفيفة الروح، وإنها لتكون زوجًا من أحسن الأزواج لبندك»، فأجابه ليوناتو: «مولاي! مولاي! لو أنهما تزوجا لجن جنونهما من حديثهما بعد أسبوع واحد من زواجهما».

وكان ليوناتو يظن أنهما لن يكونا زوجين مُوفقين مُتفقين، ولكن الأمير لم يعدل عن رأيه في أن يجمع بين هذين الفكهين.

ولما عاد الأمير من القصر مع كلوديو وجد أن الزواج الذي كان يُدبره بين بندك وبيتريس لم يكن هو الزواج الوحيد الذي تفكر فيه هذه الجماعة الطيبة، وذلك أنه رأى كلوديو يتحدث عن هيرو حديثًا عَرِفَ من خلاله ما كان يجيش في صدره. وسر الأمير من ذلك كل السرور وقال لكلوديو: «أتحب هيرو؟»، فأجابه كلوديو عن سؤاله هذا بقوله: «مولاي، إني حين كنت في مسينا آخر مرة كنت أنظر إليها بعين الجندي الذي يميل قلبه، ولكنه لا يجد من الوقت مُتسعًا للحب، أما الآن ونحن في وقت السلم السعيد فقد تركت كل أفكار الحرب مكانها في عقلي خاويًا، فازدحمت فيه أفكار أُخرى رقيقة لطيفة، تحدثني كلها عن جمال هيرو البارع، وتُذكرني بما كان في قلبي من ميل إليها قبل أن أذهب إلى ميدان القتال». وأثر في نفس الأمير اعتراف كلوديو بحب هيرو، فلم يتوان عن أن يرجو من ليوناتو أن يرضى بكلوديو زوجًا لابنته، وقَبِلَ ليوناتو هذا الرجاء، فلم يجد الأمير بعدئذ صعوبة في إقناع هيرو الفتاة الظريفة أن تقبل كلوديو النبيل صاحب المواهب النادرة، واستطاع

كلوديو بمعونة هذا الأمير الطيب الكريم أن يقنع ليوناتو بتحديد يوم قريب يحتفل فيه بزواج كلوديو وهيرو.

ولم يكن بينهم وبين اليوم الذي حُدِّدَّ لزواج كلوديو بهذه الغادة الحسناء إلا بضعة أيام قليلة، ولكنه أخذ يشكو السآمة والملل كما يفعل مُعظم الشُبان وهم ينتظرون إبرام أمر يطمحون إليه، ولذلك عَرَضَ الأمير عليه أن يمضيا تلك الفترة المملة في تدبير حيلة يشعلان بها نار الحب في صدر بندك وبيتريس. وسر كلوديو أن يشترك في تنفيذ هذا الخاطر الذي سنح للأمير، ووعدهما ليوناتو أن يُقدم لهما مُساعدته، ولم تُمانع هيرو نفسها في أن تعمل أي شيء لا يتعارض مع حيائها ويُمكِّن ابنة عمها من الحصول على زوج صالح لها.

وكانت الحيلة التي دبرها الأمير ومن معه أن يدخلوا في روع بندك أن بيتريس تحبه، وأن تقنع هيرو بيتريس بِأَن بندك مولع بحبها.

وكان الأمير وليوناتو وكلوديو هم البادئين بالعمل، وسنحت لهم أُوليفرصة حين رأوا بندك جالسًا يقرأ خلف العريش بين الأشجار، بحيث لم يكن في وسعه إلا أن يسمع كل ما يقولون. وأخذوا أول الأمر يتحدثون في موضوعات شتَّى، ثم قال الأمير: «يا ليوناتو ادن مني، ماذا كنت تقول لي في ذلك اليوم؟ أكنت تقول إن بيتريس ابنة أخيك تحب السيد بندك؟ إني لم أكن أظن أن في مقدور هذه الفتاة أن تحب أحدًا من الرجال».

وأجابه ليوناتو بقوله: «وكذلك كان شأني أيضًا يا سيدي، والحق أن شغفها ببندك لشيء غريب؛ لأن ظاهر الأمر كان يدل دائمًا على أنها تبغضه». وأكد كلوديو ذلك كله بقوله «إن هيرو حدثته بِأَن بيتريس تحب بندك، وبِأَنها

تموت كمدًا إذا لم يُبادلها الحب، وهو أمر يظن ليوناتو وكلوديو أنه في حكم المستحيل؛ لأن من طبيعة بندك أن يهزأ بكل الفتيات الجميلات، وبخاصة بيتريس نفسها».

وتظاهر الأمير بِأَنه يصغي إلى هذا كله وقد أخذته الرأفة ببيتريس وقال: «إن من الخير أن يخبر بندك بهذا». فقال كلوديو: «وماذا يُرجى من هذا؟ لا شك في أنه سيتخذه وسيلة للهوه ويعذب به قلب هذه الفتاة المسكينة أكثر مما عذبها من قبل».

وأجاب الأمير: «إنه إن فعل فقد استحق الشنق؛ لأن بيتريس فتاة من أجمل الفتيات وأحسنهن، وأكملهن عقلًا، وأصوبهن رأيًا، إلا في حبها بندك». ثم أشار الأمير إلى أصحابه أن يُغادروا المكان ويتركوا بندك يُفكر فيما سمعه.

وكان بندك في أثناء ذلك مصغيًا إلى هذا الحديث لا تفوته منه كلمة، فلما سمع أن بيتريس تحبه قال في نفسه: «أهذا مُستطاع؟ أحق هو؟».

ولما بعدوا عنه أخذ يُقلب الأمر في فكره ويُجادل نفسه بالطريقة الآتية: «لا يُمكن أن تكون هذه حيلة؛ فقد كان حديثهم جدًا لا هزل فيه، وقد عرفوا حقيقة الأمر من هيرو، ويلوح أنهم مُشفقون على الفتاة، إنها تحبني ولا بُد أن أُبادلها حُبًا بحب، إني لم أُفكر قط في الزواج ولكنني حين قلت إني سأموت عزبًا لم أكن أظن أني ستطول بي الحياة حتى أتزوج، إنهم يقولون إن الفتاة فاضلة جميلة، والحق أنها لكذلك، ويقولون إنها حكيمة في كل شيء إلا في حبها إياي، وليس هذا دليلًا قويًا على ضعف عقلها، وها هي ذي بيتريس مُقبلة، لعمري إنها فتاة جميلة، وإني لأتوسم فيها دلائل الحب».

واقتربت بيتريس منه وخاطبته بلهجتها اللاذعة المألوفة قائلة: «قد أرسلوني على الرغم مني لأدعوك إلى تناول الطعام». ولم يكن بندك قبل الآن يشعر بأقل ميل في نفسه لأن يتجمل في حديثه لها، ولكنه في هذه المرة أجابها بقوله: «بيتريس! أيتها الفتاة الحسناء، إني شاكر لكِ ما تحملتِ من مشقة». ولما غادرت بيتريس المكان بعد أن ألقت على سمعه بعض الكلمات اللاذعة الجافة، ظن بندك أنه يستطيع أن يتبين من ثنايا حديثها الجاف معاني من العطف عليه، فقال جهرة: «إنني إذا لم أرحمها كنت نذلًا، وإذا لم أحبها كنت يهوديًا، سأذهب من فوري وآتي بصورتها».

وهكذا وقع بندك في الشرك الذي نصبوه له، ولم يبقَ إلا أن تنهض هيرو بالعبء الذي ألقى على عاتقها، ولذلك بعثت في طلب وصيفتين من وصيفاتها هما أورسولا Ursula ومرجريت Margaret، فلما جاءتا قالت لمرجريت: «يا مرجريت أسرعي إلى حجرة الاستقبال وستجدين فيها ابنة عمي بيتريس تتحدث إلى الأمير وإلى كلوديو، فأسرى إليها أني أنا وأرسولا نمشي في البستان، وأن حديثنا كله يدور حولها، ثم اطلبي إليها أن تتسلل إلى هذا العريش الجميل الذي يُظلله زهر العسل، وقد تفتح من ضياء الشمس ولكنه كفر بنعمتها فمنع هذا الضياء من أن ينفذ إلى العريش». وكان هذا العريش الذي طلبت هيرو إلى مرجريت أن تغري بيتريس بالمجيء إليه هو نفس العريش الجميل الذي جلس فيه بندك من زمن قليل يصغي إلى حديث الأمير وأصدقائه، وقالت مرجريت: «لست أشك في أني سآتي بها من فوري إلى هذا العريش».

وذهبت هيرو ومعها أرسولا إلى البستان وقالت: «والآن يا أرسولا إذا جاءت بيتريس فسنسير في هذا الطريق الضيق جيئة وذهابًا، وسيدور حديثنا

كله حول بندك، فإذا ذكرت اسمه فعليك أن تثني عليه ثناء ليس بعده ثناء، وسيكون موضوع حديثي هو حب بندك لبيتريس. هيا ابدئي فها هي ذي بيتريس تتسلل خفية لتستمع إلى حديثنا». وبدأ الحديث على الفور، فقالت هيرو كأنما هي تجيب عن سؤال ألقته عليها أسولا: «في الحق يا أرسولا أن الأمر ليس كذلك، إنها لشديدة الازدراء لغيرها من الناس، وإنها لحيية كل الحياء».

وقالت أسولا: «ولكن أأنت واثقة من أن بندك يحب بيتريس هذا الحب كله؟».

فأجابتها هيرو: «هذا هو ما يقوله الأمير وسيدي كلوديو، وقد طلبا إليّ أن أفضي به إليها، ولكنني أقنعتهما بأَن لا يطلعا بيتريس على جلية الأمر إذا كانا يحبان بندك حقًا».

فردت عليها أرسولا قائلة: «إنكِ مُحقة بلا شك، وإن من الخير ألَّا تعرف شيئًا عن هذا الحب لئلا تتخذه موضوعًا لسخريتها». ثم قالت هيرو: «وفي الحق أنني لم أرَ رجلًا مهما كان عقله ونبله، ونضرة شبابه وجمال خَلْقه، إلا ذمته وعابته». فأجابتها أرسولا: «لا شك أن مذمة الناس أمر غير محمود». فقالت هيرو: «هو غير محمود حقًا، ولكن من يجرؤ أن يخبرها بذلك؟ إنني إذا قلت هذا القول سخرت مني وسلقتني بألسنة حداد».

فأجابتها أرسولا: «إنك تظلمين ابنة عمك بهذا الاعتقاد، إنها لن يصل بها الحمق إلى أن ترفض الزواج بسيد مثل بندك قل أن يوجد له نظير بين الرجال». فقالت هيرو: «حقًا إن له بين الرجال أعظم مقام، ولست أقول إلا الحق إذا أخبرتك أنه صاحب المقام الأول في إيطاليا كلها إذا استثنيت

بالطبع حبيبي كلوديو». ثم أشارت هيرو إلى صديقتها إشارة فهمت منها أن الوقت قد حان لتغيير مجرى الحديث، فقالت أرسولا: «ومتى يتم زواجك يا سيدتي؟». فأجابتها هيرو بأَن زواجها بكلوديو سيكون في اليوم التالي، وطلبت إليها أن تذهب معها لتطلعها على ثياب جديدة لأنها تحب أن تعرف رأيها فيما يحسن أن تلبسه في غد.

وكانت بيتريس في أثناء ذلك تصغي إلى حديثهما وتعيه، فلما غادرتا المكان قالت جهرة: «كأني أحس بنار هذا الحب تحرق قلبي، أحق هو؟ وداعًا للاحتقار والسخرية وكبرياء العذارى، وليدم حبك يا بندك، سأُبادلك حبًا بحب وأخضع قلبي النفور إلى حبك».

وما من شك في أن منظر بندك وبيتريس بعد أن تبدلت عداوتهما حُبًا كان منظرًا مُمتعًا حقًا، وما كان أجمل لقاءهما بعد أن خدع كلاهما وأدخل في وهمه أن زميله يحبه، وذلك بفضل تدبير الأمير وظرفه وحسن فكاهته. ولكن حدث في ذلك الوقت أن أكب الدهر على هيرو ورماها بسهم من سهامه، فنزل في اليوم المحدد لزفافها ما أمر عيشها وعيش أبيها الشيخ الطيب ليوناتو.

وذلك أن الأمير كان له أخ غير شقيق يُدعى دن جون Don John، جاء معه من ميدان الحرب إلى مسينا. وكان هذا الأخ رجلًا كئيبًا ساخطًا على العالم، طبعت نفسه على الشر كأنه خُلِقَ لتدبير المكائد، وكان يبغض أخاه الأمير ويبغض كلوديو لأنه صديق الأمير، ولذلك عول على أن يحول بينه وبين زواجه بهيرو. ولم يكن يقصد بتدبيره هذا إلا أن يشفي غله بشقاء كلوديو والأمير؛ لأنه كان يعرف أن رغبة الأمير في إتمام هذا الزواج لا تقل عن رغبة

كلوديو نفسه. واستخدم في الوصول إلى غرضه الدنيء رجلًا يُدعى بوراكيو Borachio لا يقل عنه خُبثًا ومكرًا، وأغراه على ذلك بجائزة سنية. وكان بوراكيو هذا خطيب مرجريت وصيفة هيرو، وكان دن جون يعرف ذلك، فأقنعه بِأَن يطلب إلى مرجريت أن تعده بِأَن تطل عليه من نافذة غرفة سيدتها في تلك الليلة وتُحدثه بعد أن تنام هيرو، وأن ترتدي في أثناء ذلك ثياب هيرو نفسها حتى لا يُخامر كلوديو شك في أنها هي هيرو ذاتها. وكان هذا هو الغرض الذي يريد أن يصل إليه بتلك المؤامرة الدنيئة.

ثم ذهب دن جون بعد ذلك إلى الأمير وكلوديو وأخبرهما أن هيرو فتاة طائشة، وأنها تتحدث إلى الرجال من نافذة غرفتها في مُنتصف الليل. وكانت هذه هي الليلة السابقة ليوم الزفاف فعرض عليهما أن يأخذهما معه إلى حيث يستمعان إلى هيرو تحادث رجلًا من نافذة غرفتها، ورضيا أن يذهبا معه، وقال كلوديو: «إذا رأيت في هذه الليلة من الأسباب ما يمنعني من زواجها فسأفضح أمرها غدًا في الجمع المعد للاحتفال بزفافها». وقال الأمير: «وكما أني قد أعنتك على الزواج بها فسأعينك على إذلالها بكشف سرها».

وجاء بهما دن جون في تلك الليلة بقرب مخدع هيرو، فرأوا بوراكيو واقفًا تحت نافذتها ومرجريت تطل منها وتتحدث إليه، وكانت ترتدي نفس الثياب التي كانت ترتديها هيرو، فلم يبقَ لدى الأمير ولدى كلوديو شك في أنها هي هيرو عينها. واستشاط كلوديو غضبًا عندما كشف ما كان في اعتقاده سرًا خطيرًا، واستحال حبه السابق لهيرو البريئة كرهًا ومقتًا، وعول على أن يفشي هذا السر الخطير في الكنيسة في اليوم التالي كما وعد بذلك من قبل. ووافق الأمير على ذلك لاعتقاده أن هذه الفتاة الغادرة جديرة بكل عقاب ينزل بها بعد أن تحدثت مع رجل من نافذتها في الليلة السابقة ليوم زفافها لكلوديو الكريم النبيل.

ولما اجتمعوا في اليوم التالي للاحتفال بهذا الزواج ووقف كلوديو وهيرو أمام القسيس، وهمَّ القس بِأَن يتلو صيغة عقد الزواج، أعلن كلوديو في حنق وغضب جريمة هيرو الطاهرة البريئة، ودهشت هيرو أشد دهشة من الألفاظ الغريبة التي نطق بها كلوديو، فقالت في رقة ووداعة: «ماذا أصاب سيدي فأنطقه بهذه الألفاظ؟».

فقال ليوناتو للأمير وهو في أشد حالات الرعب: «سيدي لِمَ لا تتكلم أنت؟». فأجابه الأمير: «وماذا عسى أن أقول؟ لقد لوث شرفي إذ هممت بِأَن أربط صديقًا لي عزيزًا بِامرأة حقيرة، أقسم بشرفي يا ليوناتو اني أنا وأخي وكلوديو هذا الرجل الحزين قد رأيناها وسمعناها في مُنتصف الليلة الماضية تتحدث إلى رجل واقف تحت نافذة حجرتها».

وقال بندك وهو مُندهش مما سمع: «ما أبعد هذا عن حفلات الزفاف!». وقالت هيرو وقد أكسف الحزن بالها وهدَّ كيانها: «إي والله يا إلهي». ثم سقطت هذه الفتاة البائسة مغشيًا عليها، وظن الجميع أنها قضت نحبها، وغادر الأمير هو وكلوديو الكنيسة دون أن ينتظرا حتى تفيق من نوبتها، أو يهتما بالمصيبة التي أوقعا فيها ليوناتو؛ وذلك لأَن الغضب ملأ قلبيهما حتى لو يبقَ فيهما موضع للرحمة. وبقى بندك مع بيتريس ليساعدها على أن تفيق هيرو من غشيتها، ولما سأل بيتريس عن حالها أجابته بقولها: «أظن أنها قضت نحبها»، وقالت ذلك في حزن وألم لأنها كانت شديدة الحب لابنة عملها، واثقة من طهرها وعفافها، ولم تصدق شيئًا مما اتهمت به. ولم يكن هذا شأن والدها الشيخ الحزين، فإنه صدق قاله السوء عن ابنته، وكان منظره وهو يراها مطروحة أمامه لا حراك بها وهو يندبها ويدعو الله أن تكون هذه الساعة آخر عهدها بالحياة، كان منظره هذا يفتت الكبد.

لكن القس الشيخ كان رجلًا حكيمًا، ذا نظر ثاقب وخبرة واسعة بالطبائع البشرية، فكان في أثناء هذه الحوادث شديد اليقظة، يرقب وجه الفتاة وهي تصغى إلى ما تتهم به، فرأى أول الأمر حمرة الخجل بادية في وجهها، ثم شاهد هذه الحمرة يذهب بها بياض كبياض الملائكة، ولمح في عينيها وميضًا يكاد ينطق بكذب ما افتراه عليها الأمير، وقال القس للوالد الحزين: «إذا لم تكن هذه الفتاة الطيبة بريئة من الذنب وضحية فرية دنيئة فسمني أبله إذا شئت، ولا تثق بعلمي ولا بدقة مُلاحظتي، ولا بسني وتجاربي وطبيعة مهنتي».

ولما أفاقت هيرو من غشيتها قال لها القس: «من هو هذا الرجل الذي اتهموك بالاتصال به؟». فأجابته: «إنما علم هذا عند من يفترون عليّ. أما أنا فلا أعرف عنه شيئًا». ثم التفتت إلى ليوناتو وقالت له: «أي أبت، إذا استطعت أن تتثبت من أني قد تحدثت إلى رجل أيًّا كان في ساعة من ساعات الليل لا يليق أن يحدث فيها الرجال، أو أنني في الليلة الماضية خاطبت أي إنسان فتبرأ مني وأبغضني وعذبني حتى أقضي نحبي».

وقال القسيس: «إن في الأمر لخطأ خفيًا وقع فيه الأمير وكلوديو». ثم أوصى ليوناتو أن يذيع في الناس أن هيرو ماتت، وقال له إن الأمير ومن معه تركوها مغشيًا عليها، ولذلك لن يصعب عليهم أن يصدقوا هذا الخبر. وأشار عليه أيضًا أن يلبس ثياب الحزن ويقيم لابنته نصبًا، وألا يغفل شيئًا من المراسم التي تُتبع عادة في دفن الموتى. وسأله ليوناتو: «وماذا يفيد هذا؟ وما الغرض منه؟». فأجابه القسيس: «إن نبأ وفاتها سيبدل الحقد الناشئ من أُوليفرية التي افتريت عليها رأفة بها، وفي هذا بعض الخير ولكنه ليس كل ما أرجوه. إن كلوديو إذا عرف أنها ماتت حين سمعت ما قال عنها، عادت إليه

ذكرى حياتها، فيحزن عليها إذا كان حبها قد وجد سبيلًا إلى قلبه، وسيندم على ما اتهمها به حتى ولو كان يظن أنه حق لا مرية فيه».

وقال بندك وقتئذ: «افعل ما يشير به الأب يا ليوناتو، وأقسم بشرفي أني لن أفشي هذا السر للأمير أو لكلوديو رغم ما تعرف من حبي لهما».

واقتنع ليوناتو بهذا النصح ورضى به، وقال في حزن ولوعة: «لقد بلغ مني الحزن مبلغًا أسلس قيادي وأضعف في كل قدرة على المقاومة». ثم نقل القس الرحيم ليوناتو وهيرو من هذا المكان ليواسيهما ويخفف من أحزانهما، وبقيت بيتريس وبندك وحدهما، وكان هذا هو اللقاء الذي ينتظره أصدقاؤهما الذين دبروا المؤامرة المرحة عليهما، وتوقعوا أن يشهدوا فيه ما يسرهم ويثير ضحكهم، ولكنهم أصبحوا الآن وقد طغى عليهم الحزن ولم يبقَ لهم رغبة في المرح والسرور.

وكان بندك أول من تكلم فقال: «خبريني يا بيتريس، هل كنتِ تبكين طول هذه الفترة؟». فأجابته بيتريس: «نعم، بكيت وسيطول بكائي». وقال بندك: «لا شك عندي في أن ابنة عمك الحسناء مظلومة». فردت عليه بيتريس بقولها: «كم ذا يستحق مني ذلك الرجل الذي يدفع عنها هذا الظلم»، فقال لها بندك: «وهل من سبيل إلى إظهار هذه الصداقة؟ إنني لا أحب شيئًا في العالم بقدر ما أحبك، أليس هذا عجيبًا؟». وأجابته: «وفي وسعي كذلك أن أقول إني لا أحب شيئًا في العالم كما أحبك أنت، ولكن لا تصدق هذا القول وإن لم أكن فيه كاذبة، ولست بهذا أعترف بشيء أو أنكر شيئًا، إني لفي ألم مما أصاب ابنة عمي».

فقال لها بندك: «وحق سيفي، إنك تحبينني وإنني أحبك، فأمريني أن

أفعل أي شيء من أجلك، تجديني طوع أمرك». فأجابته بيتريس: «اقتل كلوديو». فرد عليها بندك بقوله: «لن أفعل ولو أعطيتني ملك العالم كله»؛ وذلك لأنه كان يحب صديقه كلوديو ويعتقد أن هذا الصديق قد خدع، ولكن بيتريس قالت له: «أليس كلوديو نذلًا دنيئًا افترى على ابنة عمي وحقرها ولوث شرفها؟ آه ليتني كنت رجلًا!». وقال بندك: «اصغَيْ إليّ يا بيتريس». ولكن بيتريس لم تصغ إلى شيء مما يقوله دفاعًا عن كلوديو وظلت تلح عليه أن ينتقم منه على ما أساء لابنة عمها، وقالت له: «هيرو تُخاطب رجلًا من النافذة؟ أهذا صحيح؟ إنك لمظلومة يا هيرو، وإن هذا لإفك افترى عليك وأصابوك به في الصميم. ليتني كنت رجلًا لأنتقم لك من كلوديو، أو ليت لي صديقًا يقف من أجلي موقف الرجال. ولكن شجاعة الرجال تذوب ولا تتمخض إلا عن تحيات وألفاظ حسان، إن التمني لا يجعلني رجلًا، ولذلك سأموت من الحزن وأنا امرأة». فأجابها بندك: «لا تعجلي يا عزيزتي بيتريس، أقسم بحق يدي هذه أني أحبك». فقالت له بيتريس: «إذن فلتستخدم يدك من أجل حبي لغرض آخر غير القسم بها». فسألها بندك: «أتقسمين أن كلوديو ظلم هيرو؟». فأجابته بيتريس: «أقسم أني واثقة من ذلك ثقتي بنفسي». فقال بندك: «كفى وهذا عهد عليّ، سأدعوه للبراز، وسأقبل يدك وأستودعك الله، وبيدي هذه سأحاسبن كلوديو حسابًا عسيرًا. ولا تظني فيَّ غير ما سمعته مني، والآن فاذهبي وواسي ابنة عمك».

وبينا كانت بيتريس تجادل بندك هذا الجدال العنيف، وتستثير بألفاظها الغضبى حميته وشهامته لتضمه إليها في الأخذ بناصر هيرو ومبارزة صديقه الحميم كلوديو، كان ليوناتو يدعو الأمير للبراز ليكفر عن الإهانة التي لحقت بابنته، ويُؤكد لهما أنها ماتت حزنًا وكمدًا. ولكنهما أشفقا عليه لحزنه وكبر

سنه، وقالا له: «لا تُقاتلنا أيها الشيخ الطيب». وجاء في هذه اللحظة بندك ودعا كلوديو للبراز لكي يغسل بسيفه الإهانة التي لحقب بهيرو، وقال كلوديو والأمير كلاهما لصاحبه: «لقد أغرته بيتريس على أن يفعل هذه الفعلة». ولم يكن بدٌّ مع ذلك أن يجيب كلوديو بندك إلى ما طلب، لولا أن العدالة الإلهية ساقت إليهم في تلك اللحظة دليلًا آخر على براءة هيرو، أقوى وأصدق من نتيجة البراز التي لا تميز الحق من الباطل.

ذلك أنه بينا كان الأمير وكلوديو يتحدثان عن دعوة بندك للبراز، أقبل على الأمير أحد رجال الشرطة ومعه براكيو مقيدًا؛ لأن بعض الناس سمعوه يتحدث إلى أحد زملائه عن الفعلة السيئة التي سخره دن جون للقيام بها، واعترف براكيو للأمير أمام كلوديو بالحقيقة كاملة، وقال إن الفتاة التي كان يحدثها من النافذة هي مرجريت في لباس سيدتها، وقد ظنها الأمير ومن معه هيرو نفسها. ولم يبق وقتئذ لدى كلوديو والأمير شك في براءة هيرو، وإذا كان قد بقى في نفسيهما أية ريبة فقد زالت بفرار دن جون، فإنه لما علم أن أمره افتضح خرج من مسينا لينجو من غضب أخيه وقصاصه العادل. وأمض الحزن كلوديو وأكسف باله حين عرف أنه افترى على هيرو الكذب فماتت — في ظنه — حين سمعت ألفاظه القاسية. وطافت بخياله ذكراها المحبوبة في صورتها الأُولى التي ارتسمت فيه حين أحبها أول مرة، ولما سأله الأمير ألم يخزَّ ما سمعه في قلبه حز النصال؟ قال إنه حين سمع كلام براكيو أحس كأن السم يسري في جسمه.

وندم كلوديو أشد الندم على فعلته، وتضر إلى الشيخ ليوناتو أن يعفو عن إساءته إلى ابنته، وقال إنه جدير بكل عقاب ينزل به جزاء له على تصديقه تلك التهمة الباطلة التي اتهمت بها خطيبته، وإنه يتحمله من أجلها. وكان

العقاب الذي فرضه عليه ليوناتو أن يتزوج في صبيحة اليوم التالي بابنة عم لهيرو شبيهة بها كل الشبه، وقال إنها أصبحت وارثته بعد وفاة ابنته. وقال كلوديو إنه برا بما وعد به ليوناتو يرضى بزواج هذه السيدة المجهولة، ولو كانت حبشية. ولكن قلبه كان في أثناء ذلك يفيض حزنًا وكمدًا، وقضى تلك الليلة عند القبر الذي أقامه ليوناتو لهيرو يبكي في حسرة وألم.

ولما أصبح الصباح مضى كلوديو ومعه الأمير إلى الكنيسة، وكان قد اجتمع بها القس الكريم وليوناتو وابنة أخيه ليحتفلوا بالزواج مرة أُخرى. وقدم ليوناتو إلى كلوديو زوجته الموعودة مقنعة الوجه حتى لا يعرفها، وخاطب كلوديو الفتاة المقنعة بقوله «مدي إليّ يدك أمام هذا الأب، إنني زوجك إذا ارتضيتني لك زوجًا». وأجابته السيدة المجهولة قائلة: «لقد كنتُ زوجك الأخرى حين كنت على قيد الحياة». ثم رفعت القناع عن وجهها فتبين أنها لم تكن ابنة عم لهيرو، بل كانت هيرو ابنة ليوناتو نفسها. ولا شك في أن كلوديو سر كل السرور من هذه المفاجأة، فقد كان يظن أن هيرو قضت نحبها، ولم يكد من فرط السرور يصدق عينيه. ولم تكن دهشة الأمير مما رأى أقل من دهشة كلوديو، فصاح قائلًا: «أليست هذه هيرو، هيرو التي ماتت؟». وأجابه ليوناتو بقوله «إنها لم تمت يا مولاي إلا حين أحاطت الأفائك بها». ووعدهم القس أن يكشف لهم عن سر هذا الأمر الذي خالوه معجزة بعد أن يتم الاحتفال بالزواج، ولقد هم فعلًا بإتمامه ولكن بندك قاطعه بقوله إنه يريد أن يتزوج بيتريس في نفس الوقت. ولما أظهرت بيتريس شيئًا من التردد قضى عليه بندك بقوله إنها تحبه وإنه عرف ذلك من هيرو، واتضح في ذلك الوقت سر المسألة كلها، وتبين كلاهما أنه خدع في حب رفيقه، وأن هذا الحب لم يكن له وجود من قبل، وأنهما أصبحا حبيبين بفضل دعابة كاذبة خُدِعَا بها

معًا، ولكن هذا الحب الذي قام على الخديعة نما وترعرع فلم يهن أو يتزعزع بعد أن كُشِف لهما عن حقيقة منشئه.

وطلب بندك أن يتوج هذا الحب بالزواج، وأبى أن يصغى لأي شيء يعترض به عليه، ولكنه ظل مع ذلك يُواصل دُعابته ويقسم لبيتريس أنه تزوج بها إشفاقًا عليها؛ لأنه سمع أن حبه يكاد يقضي عليها. واحتجت بيتريس على هذا الادعاء بقولها إنها لم تجب طلبه إلا بعد إلحاح ورجاء، وإنها لم تتزوجه إلا لتنقذ حياته بعد أن سمعت أن نار الحب تحرق قلبه. وهكذا جمع الصحاب بين هذين الفكهين المتوقدي الذكاء، فتزوجا بعد أن تم زفاف كلوديو وهيرو.

وانتهت القصة بالقبض على دن جون مُدبر المكيدة، فجيء به إلى مسينا. وكان عقاب هذا الرجل النكد البرم بالحياة أن يرى علائم السرور والأفراح قائمة على قدم وساق في قصر الأمير بمسينا، بعد أن حبطت مؤامرته كلها وردَّ كيده في نحره.

كما تحب

في الوقت الذي كانت فيه فرنسا مُقسمة إلى ولايات أو دوقيات، كما كانوا يسمعونها في ذلك الوقت، كان يحكم إحدى هذه الدوقيات مغتصب خلع أخاه الأكبر الدوق الشرعي وأخرجه من البلاد.

ولجأ الدوق بعد أن خرج من ملكه هو وعدد قليل من أتباعه الأوفياء إلى غابة أردن Arden، وعاش فيها هو وأصدقاؤه الذين خرجوا من بلادهم طائعين لتعلقهم به، وتركوا فيها أرضهم وأموالهم لينعم بها المغتصب. وسرعان ما تعودوا عيش الدعة الخفيض، حتى أصبح هذا العيش أهنأ لهم من حياة البلاط التي لا راحة فيها ولا نعيم، وعاشوا كلهم في ذلك المكان كما كان يعيش ربن هود Robin Hood الإنجليزي. وكان يفد على الغابة في كل يوم كثير من الشبان ذوي المراتب الرفيعة في البلاط، ليقضوا فيها أوقاتهم في هدوء، كما كان يقضيها الذين يعيشون في العصور الذهبية الماضية؛ فكانوا في الصيف ينامون في ظلال الأشجار الوارفة، يمتعون أبصارهم بمرأى الغزلان البرية تمرح في الغابة، وقد أولعوا بحب هذه الحيوانات البلهاء ساكنات الغاب، ولذلك كان يحزنهم أن يضطروا إلى قتلها ليتخذوا من لحمها طعامًا لهم. فإذا جاء الشتاء برياحه الباردة وأشعر الأمير بحظه المكنود، صبر على بلواه وقال في نفسه: «إن هذه الريح الصرصر العاتية التي تهب على جسمي أصدق ما يشير علي وينصحني؛ فهي لا تتملقني بل تصور لي حالي أحسن تصوير، وهي رغم قسوتها لا تؤلمني كما تؤلمني قسوة الصحاب وكفرهم

بالنعمة، ومهما قال الناس في ذم الشدائد فإن فيها بعض الخير، فهي أشبه بالجوهرة الشافية، تُؤخذ من رأس العلجوم السام الحقير». وعلى هذا النحو كان الدوق الصبور يستمد من كل ما يراه دروسًا خلقية نافعة، وقد استطاع بفضل تفكيره الفلسفي في حياته الجديدة البعيدة عن المهام الرسمية أن يجد ألسنة في الأشجار، وكتبًا في مجاري الأنهار، ومواعظ وحكمًا في الأحجار، وخيرًا في كل شيء.

وكان للدوق المنفي ابنة وحيدة تُدعى روزلند Rosalind استبقاها الدوق فردرك Frederick المغتصب في بلاطه بعد أن نفى أخاه، لتكون رفيقة لابنته سليا Celia، ونشأت بين الفتاتين صداقة دائمة وثيقة العرى، لم يوهنها ما كان بين أبويهما من خلاف، وبذلت سليا كل ما في وسعها لتخفف عن روزلند أثر الجرم الذي ارتكبه أبوها بخلع والد روزلند واغتصاب ملكه، وكانت كلما رأت روزلند كئيبة كاسفة البال تُفكر في والدها المنفي وفي اعتمادها على من اغتصب منه ملكه، لم تدخر وسعًا في مواساتها وتخفيف آلامها.

وبينا كانت سليا في يوم من الأيام تتحدث إلى روزلند حديث الود والعطف كعادتها وتقول لها: «أرجو منكِ يا ابنة عمي أن تروحي عن نفسك».، إذا رسول من عند الدوق يدخل عليهما ويخبرهما أن مصارعة بين شابين ستبدأ توًا، فإذا شاءتا أن تشهدا هذا المنظر فعليهما أن تخرجا من فورهما إلى الفناء الواقع أمام القصر، ووافقت سليا على الذهاب لتشهد المصارعة لأنها ظنت أنها ستسر روزلند وتفرج همها.

ولم تكن المصارعة في تلك الأيام مقصورة على الفلاحين من أبناء الريف، بل كانت من الألعاب المحبوبة التي تُقام حفلاتها في بلاط الأُمراء،

وتشاهدها النواني والأميرات الحسان.

وجاءت سليا وروزلند لتشهدا هذا الصراع، فتبين لهما أنه سوف يفضى إلى مأساة مروعة؛ وذلك لأنهما رأتا رجلًا قويًا مارس الصراع ومرن عليه من زمن طويل، وقضى فيه على حياة كثير من الرجال، يوشك أن يُنازل شابًا صغير السن قليل التجارب في هذا الفن، وظن النظارة أن هذا الشاب هالك لا محالة.

ولما رأى الدوق سليا وروزلند قال لهما: «هل جئتما يا ابنتي ويا ابنة أخي لتريا هذا الصراع؟ إنكما لن تتمتعا به كثيرًا لأن أُوليفرق بين قوة المتصارعين كبير، فليتكما تقنعان هذا الشاب بِأَن يعدل عن عزمه رأفة به، فكلماه في ذلك لعله يستمع لنصحكما».

وسر الفتاتين أن تضطلعا بهذا الواجب الإنساني، وتقدمت سليا أولًا ترجو من الشاب الغريب ألَّا يُحاول مُنازلة خصمه. ثم جاءت بعدها روزلند وتحدثت إلى الفتى في رقة وحنو، وأظهرت له مبلغ الخطر المحدق به، ولكنه بدل أن ينتصح بألفاظها الرقيقة وينثني عن غرضه صمم على أن يظهر شجاعته وصدق بأسه أمام هذه الفتاة الحسناء، ورفض الشاب رجاء سليا وروزلند في لطف وتواضع زادا من إشفاقهما عليه، وختم رده عليهما بقوله: «يُؤسفنى أن أرفض طلب فتاتين في بهاء طلعتكما وكريم خصالكما، ولكني أرجو ألَّا تُفارقني في محنتي عيونكما الجميلة وأمانيكما الطيبة، فإذا غلبت فقد جلل العار إنسانًا لم يكن قط ظريفًا، وإذا قتلت فقد مات شخص راغب في الموت، ولن أسيء بموتي إلى أصدقائي لأني ليس لي أصدقاء يبكونني، ولن أضر العالم في شيء لأني ليس لي في العالم شيء، وكل ما في الأمر أني

أشغل فيه مكانًا سوف يشغله إذا خلا من هو أحق به مني».

ثم بدأ الصراع، وكانت سليا ترجو ألا يُصاب الشاب الغريب بأذى، أما روزلند فكانت أشد الناس إشفاقًا عليه. ذلك أن ما وصف به نفسه من أنه لا صديق له وأنه راغب في الموت جعلها تعتقد أنه بائس مثلها، فأشفقت عليه واهتمت بالخطر المحدق به في أثناء صراعه اهتمامًا لا يخطئ الإنسان إذا قال إنها شغفت من ذلك الوقت بحبه. وزاد العطف الذي أظهرته الفتاتان الجميلتان على هذا الشاب المجهول من قوته ورباطة جأشه، فأظهر من ضروب البسالة العجب العجاب وتغلب على خصمه آخر الأمر، وأصابه بجرح شديد أفقده النطق والحركة ساعة من الزمان.

وأعجب الدوق فردرك بشجاعة الشاب الغريب ومهارته، وأراد أن يعرف اسمه ونسبه لكي يأخذه في كنفه ويشمله برعايته.

وقال الفتى الغريب إن اسمه أرلندو Orlando، وإنه أصغر أبناء سير رولند ده بوي Sir Roland de Boys.

وكان سير رولند ده بوي والد هذا الشاب قد مات من بضع سنين، ولكنه كان وهو على قيد الحياة أعز أصدقاء الدوق المنفي ومن أخلص رعاياه، فلما سمع فردرك أن أرلندو ابن صديق أخيه المطرود تبدل كل ما كان يشعر به من حب لهذا الفتى الشجاع كرهًا له، فغادر حلبة الصراع مُغضبًا، وقال وهو يهم بمغادرتها إنه كان يود لو أن أرلندو لم يكن ابن هذا الرجل.

أما روزلند فقد سرها أن يكون هذا الفتى الذي بدأت تعطف عليه صديقًا قديمًا لأبيها، وقالت لسليا: «إن أبي كان يحب سير رولند ده بوي،

ولو أني عرفت أن هذا الفتى ابنه لأضفت دموع عيني إلى رجائي إليه بأن لا يُخاطر بنفسه في هذا الصراع».

ثم جاءته الفتاتان ورأتاه قد أثر في نفسه ما أظهره الدوق فجأة من غضب عليه، فألقتا عليه مسامعه بعض عبارات العطف والتشجيع، ولما همتا بالانصراف التفتت روزلند إليه لتحييه وتظهر حنوها عليه، ثم أخذت قلادة من عنقها ومدت بها يدها إليه وهي تقول: «أيها الشاب المهذب البس هذه تذكارًا مني، إن الحظ يُعاندني، ولولا ذلك لقدمت إليك شيئًا أثمن من هذه الهدية».

ولما خلت الفتاتان إحداهما إلى الأُخرى، ولم تنقطع روزلند عن ذكر أرلندو، تبينت سليا أن ابنة عمها وقعت في حب الشاب المصارع الوسيم، وقالت لروزلند: «أيمكن أن يقع حبه في قلبك بهذه السرعة؟». فأجابتها روزلند: «إن أبي الدوق كان يحب أباه حُبًا جمًا». فردت عليها سليا بقولها: «ولكن هل معنى هذا أن تحبي ابنه هذا الحب الشديد؟ لو صح ذلك لكان واجبًا عليّ أن أبغضه؛ لأن أبي كان يبغض أباه، ولكني لا أشعر بشيء من الكره له».

وكانت نار الحقد قد عادت تشتعل في قلب فردرك على ابنة أخيه؛ لأن منظر ابن سير رولند ده بوي أثاره حين ذكَّره بما للدوق المنفي من أصدقاء كثيرين بين أشراف البلاد، وقد كان من زمن غير قريب ساخطًا على ابنة أخيه لما كان يسمعه من مدح الناس لها وثنائهم على فضائلها، وإشفاقهم عليها لما أصاب والدها الطيب القلب. وبينا كانت سليا وروزلند تتحدثان عن أرلندو أقبل عليهما فردرك والغضب باد في وجهه، وأمر روزلند أن تُغادر القصر من

فورها وتذهب لتقيم مع والدها في منفاه. وأرادت سليا أن تثنيه عن عزمه فلم يصغ إليها وقال لها إنه لم يسمح ببقاء روزلند في القصر إلا إرضاءً لها. فقالت له سليا: «إنني لم أطلب إليك أن تبقيها لأنني كنت في ذلك الوقت صغيرة السن لا أستطيع أن أقدر فضائلها، أما الآن وقد عرفت قدرها وصاحبتها هذا الزمن الطويل، ننام معًا ونصحو معًا، وندرس ونلعب ونطعم معًا، فإني لا أستطيع أن أُفارقها». وأجابها فردرك بقوله: «إنها فتاة ماكرة لا تستطيعين أن تعرفي خبيئة نفسها، وإن دعتها وسكوتها وصبرها لألسنة ناطقة تتحدث إلى الناس فيشفقون عليها ويرقون لحالها، وإن من الحماقة أن تُدافعي عنها لأنها إذا ذهبت زاد ذهابها من بهائك وفضائلك، ولذلك آمرك ألا تنطقي بكلمة واحدة في معرض الدفاع عنها؛ لأن القرار الذي اتخذته بشأنها قرار لا رجوع عنه».

ولما وجدت سليا أنها لا تستطيع أن تقنع والدها بالرجوع عن قراره وإبقاء روزلند معها، دفعتها مروءتها إلى مُصاحبتها، فخرجت من قصر أبيها مع صديقتها في تلك الليلة لتبحثا عن الدوق المنفي في غابة أردن.

واعتقدت سليا قبل أن تبدآ سفرهما أن من الخطر على سيدتين مثلهما أن تسافرا في ثيابهما الغالية، فعرضت على صديقتها أن تخفيا حقيقة أمرهما بارتداء ثياب القرويات، وقالت روزلند إن مما يزيد في أمنهما وسلامتهما أن تلبس إحداهما ثياب الرجال. وسرعان ما اتفقتا على أن ترتدي روزلند أطول الفتاتين ثياب شاب قروي، وأن تكون سليا في زي قروية، وأن تقولا إذا سئلتا عن أمرهما إنهما أخوان. وقالت روزلند إنها ستُسمي نفسها جنميد Ganymede واختارت سليا لنفسها اسم ألينا Aliena.

واتفقت الأميرتان الجميلتان على ذلك كله ونفذتاه فعلًا، وأخذتا معهما كل ما كان لديهما من نقود وحلي لتنفقا منه في سفرهما. ثم بدأتا رحلتهما على الفور لأن غابة أردن كانت بعيدة الشقة تقع خارج حدود أملاك الدوق.

وكأن ثياب الرجال التي ارتدتها روزلند (أو جنميد وهو الاسم الذي يجب أن تُسمى به بعدئذ) قد خلعت عليها شجاعة الرجال أيضًا. وكان للصداقة التي أظهرتها سليا عندما اعتزمت أن تصحب روزلند في سفرها الشاق الطويل أثرها في بث روح النشاط والحبور في نفس أخيها الجديد ليجزيها بذلك على صادق حبها، وكأنما كانت روزلند بحق جنميد الأخ الفلاح لألينا الفتاة القروية الظريفة.

ولما انتهى بهما المطاف إلى غابة أردن لم تجدا فيها الفنادق الصالحة والغرف المريحة التي كانتا تجدانها في الطريق، وشعر جنميد بألم الجوع فلم يرَ بُدًّا من أن يعترف لألينا بِأَنه يوشك من شدة التعب أن يبكي مثل النساء رغم ما عليه من ثياب الرجال، مع أنه كان قبل يُسلي أُخته ويطربها بلذيذ حديثه وحلو فكاهته طول الطريق. وصرحت ألينا بِأَنها عاجزة عن مُواصلة السير، ولكن جنميد عاد فتذكر أن من واجب الرجال أن يواسوا النساء ويروحوا عنهن لأنهن أضعف الجنسين، وأراد أن يتظاهر بالشجاعة أمام أخته الجديدة فقال: «لا تحزني يا أُختي ألينا فقد وصلنا إلى غابة أردن محط رحالنا». ولكن الرجولة المتكلفة والشجاعة المصطنعة لم تعودا تكفيانهما؛ لأنهما لم تكونا تعرفان مقر الدوق وإن كانتا تسيران في غابة أُردن نفسها، ولولا أن الله لطف بهاتين الفتاتين المتعبتين لساءت عاقبة أمرهما، فقد كان يخشى أن تضلا الطريق وتقضيا نحبهما من شدة الجوع، ولكن الأقدار ساقت إليهما قرويًا عابر سبيل مر بهما وهما جالستان على الكلأ خائرتي القوى لا أمل

لهما في النجاة. وحاول جنميد مرة أُخرى أن يتصنع شجاعة الرجال فقال: «أيها الراعي، إن كان في الناس من يضيفنا حبًا فينا ورغبة في مالنا، فإنا نرجو منك أن تأخذنا إلى حيث نستريح؛ لأن أُختي هذه مُتعبة من طول السفر، منهوكة القوى من شدة الجوع».

وأجابه الرجل بقوله إنه خادم عند أحد الرُعاة، وإن بيت سيده يُوشك أن يُباع، وإنهما من أجل ذلك لن يجدا ما يطمعان فيه من الضيافة، فإذا شاءا مع ذلك أن يذهبا معه فإنه سيُقدم لهما ما يستطيع أن يقدمه على قلته. وسارت الفتاتان مع الرجل يحدوهما الأمل بأَنهما سوف تجدان الغَوث القريب، ويبعث فيهما هذا الأمل قوة جديدة. وابتاعت الفتاتان بيت الراعي وغنمه، واستأجرتا الرجل الذي أرشدهما إليه ليقوم بخدمتهما فيه. وهكذا أسعدهما الحظ بالعثور على هذا الكوخ الأنيق والطعام الوفير، فقر رأيهما على أن تبقيا في هذا المكان حتى تعرفا مستقر الدوق في الغابة.

ولما ذهب عنهما عناء السفر أخذتا تطمئنان إلى حياتهما الجديدة، وكادتا تعتقد أن أنهما راع وراعية حقًا، وليستا أميرتين في ثياب الرُعاة. ولكن جنميد كان يذكر أحيانًا أنه كان من قبل الفتاة روزلند الهائمة بحب أرلندو الشجاع ابن السير رولند صديق أبيها، وكان يظن أن أرلندو بعيد الدار عنهما وأن بينه وبينهما ما لا يقل بعدًا ومشقة عن الطريق الذي قطعاه من قصرهما إلى تلك الغابة، ولكنهما سرعان ما تبينا أن أرلندو يقيم أيضًا في غابة أردن، وكان وجوده فيها سببًا في وقوع هذا الحادث الغريب الذي سنقصه بعد.

كان أرلندو أصغر أبناء السير رولند دي بوي، وكان أبوه وهو على فراش الموت قد عهد به إلى أخيه الأكبر أوليفر Oliver وأوصاه أن يحسن

تربيته وأن يُعنى به العناية التي تليق بمكانة بيتهم القديم، حتى ينال بذلك رضاء أبيه. ولكن أُوليفر أثبت أنه غير جدير بهذه الأمانة وذلك الرضا، فلم يعمل بوصية أبيه ولم يرسل أخاه إلى المدرسة، بل أبقاه في البيت جاهلًا مُهملًا كل الإهمال. غير أن أرلندو كان يشبه أباه العظيم في حُسن خلقه، وفي قوة ذكائه ونُبل عقله، فكان لذلك يبدو كأنه قد لقى في تربيته أعظم ما يلقى أبناء الأُسر الكريمة من الرعاية، وإن حرم مزايا التربية والتعليم. وحسد أوليفر أخاه الجاهل على بهاء طلعته وهيبته، وما زالت نيران الغيرة تتأجج في صدره حتى عزم آخر الأمر على أن يهلكه ليتخلص منه. وكانتا لطريقة التي دبرها ليصل بها إلى غرضه أن يبعث إلى أخيه بمن يُزين له منازلة ذلك المصارع الشهير الذي قتل كثيرًا من الأقران كما ذكرنا من قبل. وكانت قسوة أوليفر وإهماله شأن أخيه هما اللذين انطقا أرلندو بقوله إنه يرغب في الموت لأنه لا يجد له في الحياة صديقًا.

فلما خابت آمال الأخ الغادر وظفر أرلندو بقرنه، استمرت نيران الحسد في قلب أوليفر، وأقسم أن يحرق بالنار حجرة نوم أخيه، وسمع هذا القسم صديق قديم وفيٌّ لأبيهما، يحب أرلندو لما كان بينه وبين أبيه من شبه عظيم. وخرج هذا الشيخ للقاء أرلندو وهو عائد من قصر الدوق، فلما رآه تصور الخطر المحدق بسيده الشاب، فثارت ثائرته وقال: «سيدي الكريم؛ أي سيدي العزيز، يا من يذكرني بسيدي سير رولند الكبير، لم كنت مجمع الفضائل؟ ولم كنت ظريفًا قويًا شجاعًا؟ ولم أولعت بهزيمة المصارع الذائع الصيت؟ لقد أسرع مديحك فسبقك إلى هذه الديار».

وعجب أرلندو من هذا القول ولم يدرك معناه، فسأل الرجل عن جلية الخبر، فقال له إن أخاه يحقد عليه من أجل حب الناس له، وإنه لما سمع بما

ناله من المجد بفوزه على غريمه في قصر الدوق صمم على أن يفتك به بإشعال النار في غرفته في تلك الليلة، وختم حديثه بأَن أشار عليه أن يُغادر المكان من فوره لينجو بنفسه من الخطر المحدق به. وكان هذا الشيخ الطيب (واسمه آدم) يعرف أن أرلندو ليس له مال، فأحضر معه جميع ما ادخره من مال قليل وقال له «إن معي مبلغًا ادخرته من أجري في السنين التي كنت أخدم فيها أباك؛ لأستعين به عندما يقعدني عن العمل ضعف الشيخوخة. فخذ هذا المال وليتولني في شيخوختي من يرزق الطير في أوكارها، هاك هو الذهب أقدمه إليك وأرجو أن ترضى بي خادمًا لك، فإني وإن بدت على علائم الكبر أستطيع أن أقوم بما يقوم به من هم أصغر مني سنًا، فأخدمك وأقضي حوائجك». وأجابه أرلندو بقوله «ما أطيب قلبك أيها الشيخ، إن الوقار الذي كان الناس يتحلون به في الأيام الخالية ليتجلى فيك، فلست أنت من أبناء هذا الجيل، وسنضرب في الأرض معًا، وقبل أن ينفد ما ادخرته من أجرك سأُوفق إلى وسيلة نستعين بها على العيش».

وسار الخادم الأمين في صُحبة سيده المحبوب، وأخذا يضربان في الأرض إلى غير مكان معروف، حتى ألقيا عصا التسيار في غابة أردن، وهناك ألفيا أنفسهما في حاجة إلى الطعام كحاجة جنميد وألينا إليه، فأخذا يجوسان خلال الغابة يبحثان عن ملجأ لهما حتى أعياهما الجوع والتعب، وعندئذ قال آدم لسيده «أي سيدي العزيز سأموت من ألم الجوع، إني عاجز عن السير». ثم ارتمى على الأرض وعول على أن يجعل من ذلك المكان قبرًا له، فحمله بين ذراعيه ووضعه في ظلال بعض الأشجار الظليلة وقال له «لا تبتئس أيها الشيخ واسترح هنا قليلًا، ولا تحرك لسانك بذكر الموت».

ثم أخذ أرلندو يبحث عن طعام، واتفق أن قاده البحث إلى ذلك

المكان الذي يقيم فيه الدوق، وقد هم هو وأصحابه بتناول الطعام وهو جالس معهم على الكلأ يستظل بوارف الأشجار.

وكان الجوع قد عض أرلندو بنابه وأذهل عقله، فاستل سيفه يريد أن يأخذ الطعام عنوة وخاطبهم قائلًا: «كُفوا أيديكم ولا تتناولوا شيئًا من الطعام، فلا بُد لي أن أستولى عليه كله». وسأله الدوق: «أهي المصائب التي ذهبت بلبه ففعل ما فعل؟ أم هي شراسة الطبع التي تجعله يحتقر الذوق والآداب؟». فأجابه أرلندو بقوله: «إن الجوع يكاد يهلكه». ودعاه الدوق إلى الجلوس وتناول الطعام معهم، وتأثر أرلندو من لطف الدوق ورقة لفظه، فأغمد سيفه وهو خجل أشد الخجل من الطريقة التي أراد أن يغتصب بها طعامهم وقال لهم: «عفوًا سادتي لقد ظننت أن كل ما في هذا المكان قد غلبت عليه الوحشية، ولذلك تكلفت العنف والجرأة؟ ولكن من تكونون يا تُرى؟ ولماذا تقضون حياتكم في هذا المكان المهجور في ظلال هذه الأغصان التي تشع منها روح الكآبة؟ فإذا كنتم قد مرت بكم في حياتكم أيام أحسن من هذه الأيام، وإذا كنتم قد أقمتم حيث تدق أجراس الكنائس تدعو المؤمنين لعبادة الله، وإذا كنتم قد جلستم ضيوفًا على موائد الكرام، وإذا كنتم يومًا من الأيام قد مسحتم من أعينكم دمعة شفقة وحنان وعرفتم كيف تَرحمون وتُرحمون، فلعل الرجاء يُحرك فيكم عاطفة الرأفة والحنان فتصنعوا الصنع الجميل». وأجابه الدوق قائلًا: «في الحق أننا كما قلت رجال قد مرت بهم أيام أطيب من هذه الأيام، وقد سكنا المدن العامرة قبل أن نسكن هذه الغابة الموحشة، وسمعنا أجراس الكنائس تدعونا إلى الصلاة، وطِعمنا على موائد الكرام، ومسحنا دموعًا فاضت من مآقينا شفقة على البائسين، ولهذا كله أدعوك إلى الجلوس معنا وأخذ ما يسد حاجتك من هذا الطعام والشراب». وأجابه أرلندو

بقوله: «إن معي رجلًا منهوك القوى، أجهد نفسه في السير خلفي لفرط حبه لي رغم ما يقعد به من ضعف الشيخوخة وشدة الحاجة إلى الطعام، ولن أذوق طعامكم حتى ينال منه كفايته». فقال له الدوق: «اذهب وائت به إلى هذا المكان، ولن نمد أيدينا إلى الطعام حتى تعود». وانطلق أرلندو كما تنطلق الظبية إلى صغارها بالطعام، وسرعان ما عاد يحمل آدم بين ذراعيه، فقال له الدوق: «ضع عنك حملك الشريف المبجل، مُرحبًا بك وبه». ثم أطعنا الشيخ الضعيف وروّحا عنه حتى انتعش واستعاد صحته وقوته.

وسأل الدوق أرلندو من يكون؟ فلما عَرِفَ أنه ابن صديقه القديم سير رولند دي بوي أخذه في كنفه، وعاش هو وخادمه الشيخ إلى جانبه في الغابة.

وكان مجيء أرلندو إلى الغابة بعد أيام قليلة من قدوم جنميد وألينا إليها وشرائهما بيت الراعي كما سبق القول.

ودهش جنميد وألينا حين وجدا اسم روزلند محفورًا على سوق الأشجار، وأغاني الحب مُعلقة على أفنانها، وكلها تتغنى بحب روزلند. وبينا هما في شدة العجب من هذا كله إذا هما يلتقيان بأرلندو، وتقع أعينهما على العقد الذي أعطته إياه روزلند يطوق جيده.

ولم يكن أرلندو يظن أن جنميد هو الأميرة الحسناء روزلند التي هام بحبها لتواضعها النبيل وعطفها عليه، فقضى وقته كله ينقش اسمها على سوق الأشجار ويكتب الأغاني في مدح جمالها، ولكنه أُعجب بظرف هذا الشاب الراعي ولطفه فأخذ يُجاذبه أَطراف الحديث، وظن أنه يرى كثيرًا من الشبه بين جنميد وحبيبته روزلند، وإن كان ينقصه هيبة تلك الفتاة النبيلة. ذلك أن جنميد قد تكلف الجرأة وقلة الاحتشام اللتين تلازمان الشبان بين الغلومة

والرجولة في كثير من الأحيان، وأخذ يحدث أرلندو بشيء غير قليل من الخبث والدعابة عن فتى مُحب يأتي إِلى غابتهم، ويتلف أشجارهم، فيحفر كلمة روزلند في لحاها، ويعلق الأغاني والمراثي على أغصانها، وكلها في مدح هذه الفتاة، وقال له «لو أني وجدت هذا المحب لأسديت إِليه من النُصح ما يشفي قلبه من غرامه».

وأقر أرلندو بِأَنه ذلك المحب الواله الذي يتحدث عنه، وطلب إِلى جنميد أن يسدي إِليه ما عنده من النصح، فأشار عليه أن يأتي في كل يوم إِلى الكوخ الذي يقيم فيه هو وأُخته ألينا، وقال له: «سوف أتظاهر بِأَني أنا روزلند، وستُخاطبني أنت كما لو كنتُ روزلند بحق، وسأقلد عبث الفتيات مع أحبائهن، حتى تستحي أنت من حبك وتقلع عنه، وذلك هو العلاج الذي أصفه لك».

ولم يُؤمن أرلندو بهذا العلاج، ولكنه رضى أن يأتي في كل يوم إِلى كوخ جنميد ويتظاهر بحبه، وأتبع القول بالفعل فصار يتردد على جنميد وألينا كل يوم، ويُخاطب الراعي باسم روزلند، ويسمعه كلما جاء من الثناء وحلو الكلام ما يلقيه الشبان على مسامع الفتيات اللاتي يُغازلونهن، ولم يبد في أثناء ذلك ما يدل على نجاح جنميد في شفاء أرلندو من حبه لروزلند. ولم يكن أرلندو يتصور أن جنميد هو روزلند نفسها، ولذلك كان يظن أن ما يدور بينهما كله عبث، ولكن أُوليفرصة التي أُتيحت له بِأَن يفرغ كل ما كان يمتلئ به قلبه من عواطف قد سرته وأذهبت عنه الحزن كما سرت جنميد نفسه. وكان يزيد من سرور جنميد علمه أن عبارات الحب التي ينطق بها أرلندو إِنما كانت تُلقى على مسامع من يجب أن تُلقى على مسامعه.

ومرت بهما أيام كثيرة وهما على هذه الحال السارة، ولم تشأ ألينا الطيبة القلب أن تحرم جنميد هذه المتعة، بل كان يسرها هي أيضًا أن تُشاهد الخطبة المزورة، فلم تلفت نظر جنميد إلى أن الفتاة روزلند لم تلق أباها الدوق بعد أن عرفت من أرلندو مقره في الغابة. على أن جنميد قابل الدوق في يوم من الأيام، ودار بينهما حديث قصير، سأله الدوق في خلاله عن أصله فأجابه بِأَنه من أُسرة لا تقل مكانة عن أُسرته، وتبسم الدوق ضاحكًا من قوله لأنه لم يكن يظن أن الفتى الراعي الوسيم من نسل الملوك، ورأى جنميد أن الدوق يتمتع بصحة الجسم وهناءة العيش، فاكتفى بهذا وأجل جلاء الموقف بضعة أيام أُخرى.

وذهب أرلندو في زيارة لجنميد يومًا من الأيام، فشاهد في الطريق رجلًا نائمًا على الأرض، ورأى ثُعبانًا ضخمًا أخضر اللون يطوق عنقه، فلما اقترب أرلندو من الثعبان ترك الرجل واتخذ سبيله بين الأعشاب. ولما دنا أرلندو من الرجل رأى لبؤة مُختفية بين الأشجار ورأسها على الأرض ترقب الرجل حتى يصحو من نومه؛ لأن الأُسْد كما يقول الناس لا تفترس الميت أو النائم، وكأن العناية الإلهية قد ساقت أرلندو لينقذ الرجل من الأفعى واللبؤة جميعًا. ولما تفرس في وجه النائم تبين أن الرجل الذي كان معَرَّضًا لذلك الخطر المزدوج هو أخوه أُوليفر الذي قسا عليه وأراد أن يقتله حرقًا، وهم أن يتركه فريسة اللبؤة الجائعة، ولكن عطفه الأخوي وكرم طباعه تغلبا على ما كان في نفسه من غضب على أخيه، فاستل سيفه وهجم به على اللبؤة وقتلها، وأنقذ حياة أخيه من الأفعى السامة واللبؤة الضارية، ولكن اللبؤة مزقت بمخالبها الحادة إِحدى ذراعيه قبل أن يتغلب عليها.

وبينا كان أرلندو يُصارعها استيقظ أُوليفر من نومه، ورأى أخاه الذي قسا

عليه ينقذ حياته من شر وحش ضار ويعرض نفسه للخطر، فخجل من فعلته وعض بنان الندم، وأخذ يتوسل إلى أخيه والدمع يفيض من عينيه أن يعفو عنه ويغفر له زلته. وسر أرلندو حين شهد أخاه يندم على ما اقترف، فعفا عنه لساعته، وتعانق الأخوان، ومن تلك الساعة أحب أُوليفر أخاه حُبًا صادقًا وإن كان قد أتى إلى الغابة في أثره ليقضي عليه.

وكان الدم الذي نزف من جرح أرلندو غزيرًا أضعفه فلم يستطع الذهاب لزيارة جنميد فطلب إلى أخيه أن يذهب إليه ويخبره بما حدث له، وأضاف إلى ذلك قوله: «إنه يدعوه من باب العبث والتسلية محبوبته روزلند».

وذهب أُوليفر إلى جنميد وألينا وأخبرهما بما فعله أرلندو لإنقاذ حياته، وحين انتهى من وصف شجاعة أخيه وقص عليهما كيف ساقته الأقدار لنجاته، قال لهما إنه هو أخو أرلندو الذي قسا عليه وعامله أسوأ مُعاملة، ثم أنبأهما بأنه هو وأخاه قد تصافيا، وعادت المياه بينهما إلى مجاريها.

وأثر في نفس ألينا الطيبة الرحيمة ما أظهره أُوليفر من ندم على ما اقترف في حق أخيه، فأحبته من فورها، وكذلك أحبها هو في تلك اللحظة بعد أن شهد تأثرها حين حدثها بندمه على فعلته. ولكن هذا الحب الذي أخذ ينبعث في قلبي ألينا وأُوليفر لم يشغلهما عن جنميد، فإنه لما سمع بالخطر الذي كان محدقًا بأرلندو وبما أصابه في صراعه مع اللبؤة، خر على الأرض مغشيًا عليه. ولما أفاق ادعى أنه إنما تصنع هذه النوبة لتتفق مع ما يتظاهر به من تمثيل شخصية روزلند، وقال لأوليفر: «صف لأخيك أرلندو بعد أن ترجع إليه كيف مثلت الغشية أحسن تمثيل».

ولكن أُوليفر أدرك من امتقاع لونه أنه قد غشي عليه حقًا، وقال له وهو

في شدة العجب من ضعف هذا الشاب: «إذا كنت حقًا تتظاهر فتظاهر أيضًا بِأَنك من الرجال». وأجابه جنميد جواب صدق: «إِني أفعل ذلك، وإِن كان من حقي أن أكون من النساء».

وأطال أُوليفر الزيارة عن قصد، ولما عاد بعدها حمل إِلى أخيه من الأخبار الشيء الكثير. فقد قص عليه حديث جنميد والنوبة التي غشيته حين سمع بِأَن أرلندو جرح، وأفضى إِليه بِأَنه قد وقع في حب الفتاة ألينا الحسناء وأنها بادلته في هذه الزيارة الأُولى حُبًا بحب، وقال لأخيه إِنه سيتزوج بها وإِنه من فرط حبه لها سيعيش معها معيشة الرعاة، وينزل له عن ضيعته وبيته.

وأجابه أرلندو بقوله: «إِني راضٍ بذلك، وليكن زواجك غدًا، وعليَّ أن أدعو الدوق وأصدقاءه، أما أنت فعليك أن تذهب لتقنع راعيتك فإِنها الآن بمفردها وها هو ذا أخوها حاضر إلينا». وتوجه أُوليفر تلقاء ألينا، وأقبل جنميد ليسأل عن صحة صديقه الجريح.

ولما أخذ أرلندو وجنميد يتحدثان عن الحب الذي نبت فجأة في قلبي أُوليفر وألينا، قال إِنه أشار على صديقه بِأَن يقنع الراعية الحسناء أن تتزوج به في اليوم الثاني، وأضاف إِلى ذلك قوله إِنه يتمنى لو استطاع أن يتزوج بروزلند في اليوم نفسه.

وقال جنميد إِنه مُوافق كل الموافقة على هذه الخطة، وإِن أرلندو سينال بغيته إِذا كان يحب روزلند ذلك الحب الذي يدعيه؛ لأن في وسعه أن يأتيه بروزلند ذاتها، وأن تكون راضية بزواجه.

ولم يكن يصعب على جنميد أن يُحقق هذا الأمر الغريب في ظاهره؛

لأنه هو روزلند بعينها، ولكنه ادعى أنه سيستخدم في تحقيقه السحر الذي علمه إياه عم له كان من السحرة الذائعي الصيت. وكان أرلندو المحب الواله بين مصدق لما سمع ومكذب، ولذلك سأل جنميد: هل هو جاد فيما يقول أو هازل؟ فأجابه جنميد بقوله: «وحق حياتي أني لا أقول إلا حقًّا، ولذلك أطلب إليك أن تلبس خير ما عندك من ثياب، وأن تدعو الدوق وأصدقاءه ليشهدوا حفلة زفافك، فإنك إن أردت أن تزف إلى روزلند غدًا فستكون هنا في غد».

وفي صباح اليوم التالي مثل أُوليفر وألينا بين يدي الدوق بعد أن رضيت ألينا بزواجه، وجاء معهما أرلندو.

واجتمعوا كلهم ليحتفلوا بالزواجين، ولكن العروسين لم تحضر منهما إلا واحدة، وأخذ العجب منهم كل مأخذ، واختلفت آراؤهم فيما عسى أن يكون، وكان الرأي السائد أن جنميد يسخر من أرلندو.

ولما سمع الدوق أن ابنته هي التي سيؤتى بها بهذه الطريقة العجيبة، سأل أرلندو هل يعتقد أن في وسع الراعي أن ينجز ما وعد؟ وبينا كان أرلندو يجيبه عن سؤاله بِأَنه لا يدري ما يقول، إذ يدخل جنميد ويسأل الدوق هل يُوافق إذا جاء بابنته أن يزوجها بأرلندو؟ فأجابه الدوق بقوله: «إني أُزوجها به، ولو كان لي مُلك الأرض لأمهرتها به». ثم قال جنميد لأرلندو: «وهل تقول أنت إنك ستتزوج بها إذا جئت بها إلى هنا؟». فأجابه أرلندو: «سأتزوج بها ولو كنت مَلِكًا على العالم كله».

وحينئذ خرج جنميد وألينا معًا، وخلع جنميد ما كان عليه من ثياب الرجال وعاد مرة أُخرى إلى لبس ثياب النساء، فكان هو روزلند دون أن

يستعين بقوة السحر. وكذلك خلعت ألينا ثياب بنات الريف وعادت إلى لبس ثيابها الغالية فكانت هي الفتاة سليا دون كبير عناء.

ولما خرج جنميد وألينا قال الدوق لأرلندو إنه يرى شبهًا كبيرًا بين الراعي جنميد وابنته روزلند، وقال أرلندو إنه هو أيضًا قد لاحظ هذا الشبه الكبير. ولم يتسع وقتهم للتفكير فيما سينتهي إليه هذا الموقف الغريب؛ لأن روزلند وسليا أقبلتا عليهم في لباسهما الحقيقي.

ولم تَدَّع روزلند أن قوة السحر هي التي جاءت بها إلى هذا المكان، بل خرت راكعة أمام والدها وطلبت إليه أن يدعو لها بخير. وعجب كل الحاضرين من ظهورها بينهم بهذه الطريقة المفاجئة، ولو أنها ادعت أن قوة السحر هي التي جاءت بها لما خالجهم شك في صدق دعواها، ولكن روزلند لم تشأ أن تطيل هذا العبث مع أبيها، فقصت عليه نبأ خروجها من بلدها وحياتها في الغابة كأنها فتى من الرعاة وكأن ابنة عمها سليا شقيقته.

وأكد الدوق رضاءه عن زواج ابنته، وتم زفاف أرلندو وروزلند، وأُوليفر وسليا كلهم في وقت واحد. ولم يكن في مقدورهم أن يحتفلوا بهذا الزواج في هذه الغابة الموحشة بما يليق به من العظمة والفخامة، ولكن يومه كان أسعد أيام الزفاف وأعظمها بهجة، وكأن العناية الإلهية قد شاءت ألا ينقص هذا الدوق الطيب وهؤلاء المحبين الأوفياء شيء تتم به سعادتهم، فساقت إليهم في هذه اللحظة رسولا أقبل على حين غفلة يُبشر الدوق بِأَن دوقيته ردت إليه.

ذلك أن الغاصب استشاط غضبًا حين عَرِفَ أن ابنته سليا هربت من قصره، وسَمِعَ أن كثيرًا من عُظماء البلاد يخرجون كل يوم إلى غابة أردن

لينضموا إلى الدوق الراعي في منفاه، وكره أن يرى الناس يعطفون على أخيه في محنته، فسار إلى الغابة على رأس قوة كبيرة ليقبض على أخيه ويقتله هو وأصدقاءه الأوفياء، ولكن العناية الإلهية قدرت غير هذا التقدير، فحولت هذا الأخ الغادر عن عزمه وبدلت شره خيرًا، فلم يكد يتخطى حدود الغابة الموحشة حتى لقيه شيخٌ مُسِن من رجال الدين، جرى له معه حديث طويل، نزع ما في قلبه من غل على أخيه، وجعله يندم على ما اقترف في حقه، ويُصمم على أن ينزل له عن مُلكه المغتصب ويقضي بقية حياته في بيت من بيوت الله. وكان أول ما فعله بعد توبته أن أرسل رسولًا إلى أخيه يعرض عليه أن يرد عليه ملكه الذي اغتصبه من زمن طويل، وأن يعيد معه أملاك أصدقائه الأوفياء الذين شاركوه في محنته، وجميع ما حصله من هذه الأملاك.

وجاءت هذه البشرى السعيدة التي لم تكن مُتوقعة في أنسب الأوقات، فضاعفت من سرور الجماعة وزادت بهجة حفلة الزفاف. وهنأت سليا ابنة عمها على هذا الحظ السعيد الذي وأتى أباها، ودعت لها بالخير والسعادة وإن كانت ولاية العهد قد انتقلت منها إلى روزلند؛ وذلك لأن الحب الذي كان بين هاتين الفتاتين لم يكن يُخالطه شيء من الغيرة أو الحسد.

وسنحت للدوق الفرصة لمكافأة أصدقائه الأوفياء، ولشد ما سَرَّ هؤلاء الأصدقاء المخلصين أن يعودوا إلى قصر الدوق الشرعي ليعيشوا هُناك في هناءة وسلام، بعد أن لازموه في منفاه وشاركوه في محنته، وصبروا معه على البلوى صبر الكرام.

سيدان من أهل فيرونا

كان يعيش في مدينة فيرونا Verona شابان من ذوي المكانة فيها يُسمى أحدهما فلنتين Valentine ويُدعى الآخر بروتيوس Proteus. وكانا صديقين لم يشب صداقتهما ما يُعكر صفاءها من زمن طويل، فكانا يدرسان معًا، ويقضيان أوقات فراغهما معًا، ولا يفترقان إلا حين يذهب بروتيوس ليزور فتاة يحبها تُدعى جوليا Julia، ولا يختلفان إلا إذا تحدثا عن زيارات بروتيوس لحبيبته الحسناء وعن هيامه بحبها؛ وذلك لأن طائف الحب لم يكن قد طاف بقلب فلنتين، فكان أحيانًا يمل طول حديث صديقه عن جوليا، ويسخر منه ويستهزئ بحديث الحب نفسه، ويقول إن هذه الآراء السخيفة يجب ألا يكون لها مكان في عقله، وإنه يفضل ما يتمتع به هو من حرية وسعادة على حياة القلق والآمال والمخاوف التي يحياها المحب بروتيوس.

وجاء فلنتين يومًا إلى بروتيوس يخبره أن لا بُد لهما أن يفترقا بعض الوقت؛ لأنه ذاهب إلى مدينة ميلان Milan. ولم يكن بروتيوس يطيق فراق صديقه، فحاول أن يثنيه عن عزمه وأن يستبقيه معه، ولكن فلنتين قال له: «لا تحاول أن تقنعني برأيك أيها الصديق، فلست أرضى أن أقضي شبابي خاملًا مُتعطلًا في مسقط رأسي. إن من يحرص من الشبان على البقاء في بلده يبقى أبدًا خامل العقل، ولو لم تكن جوليا قد سيطرت بنظراتها الجميلة على قلبك فأسلمتها زمام أمرك، لرجوتك أن تخرج معي من هذا البلد لنرى ما في العالم من عجائب تُحير الأفكار. ولكنك مُحب فلتبق مُحبًا كما أنت، وليُحقق الله آمالك في حبك».

وافترق الصديقان بعد أن أكد كلاهما لصاحبه أن صداقتهما لا يُؤثر فيها مر السنين، وقال بروتيوس لفلنتين: «وداعًا أيها الصديق العزيز، ولتذكرني إذا رأيت في أسفارك شيئًا نادرًا يسترعى نظرك، وأرجو أن أكون شريكًا لك في سعادتك».

وبدأ فلنتين سفره إلى ميلان في ذلك اليوم نفسه، ولما خرج صديقه من عنده جلس يكتب خطابًا إلى جوليا، فلما فرغ من كتابته ناوله لخادمتها لوستا Lucetta لتحمله إلى سيدتها.

وكان حب جوليا لبروتيوس لا يقل عن حبه لها، ولكنها كانت فتاة نبيلة الطبع كريمة الخلق، ترى أنه لا يليق بكرامة العذارى مثيلاتها أن يستجبن لنداء الحب بسهولة، ولذلك كانت تتصنع عدم مُشاركتها برتيوس في عواطفه، فسبب له ذلك كثيرًا من الألم طوال مُدة خطبته.

ولما قدمت لوستا الرسالة لجوليا أبت أن تأخذها منها، وأنبت خادمتها على قبولها رسائل من بروتيوس، وأمرتها بالخروج من حجرتها على الفور. ولكنها كانت في خبيئة نفسها شديدة الرغبة في أن تعرف ما تحتويه الرسالة، فلم تلبث أن دعت خادمتها أن تعود إليها ثم سألتها: «كم الساعة؟»، وأدركت لوستا أن رغبة سيدتها في أن تعرف ما تحتويه الرسالة كانت أشد من رغبتها في معرفة الوقت، فعرضت عليها الخطاب دون أن تجيب عن سؤالها، وأغضب جوليا أن ترى جرأة خادمتها على أن تظهر أمامها بمظهر العارف بحقيقة مقصدها، فمزقت الرسالة وألقت بها على الأرض، وعادت فأمرت خادمتها أن تُغادر الحجرة. وانحنت لوستا وهي تهم بالخروج لتجمع قطع الرسالة الممزقة، ولكن جوليا لم تكن تريد أن تخرج هذه الأوراق من عندها

فتظاهرت بالغضب وقالت لخادمتها: «اخرجي من هنا على عجل، ودعي الأوراق حيث هي؛ إنكِ إنما تعبثين بها رغبة منك في إغضابي».

وشرعت جوليا بعدئذ تجمع أجزاء الرسالة الممزقة وتضمها بعضها إلى بعض بأحسن ما تستطيع، وكان أول ما تبينته منها هذه الكلمات: «برتيوس جريح الهوى». وأثرت في نفسها هذه العبارة ومثيلاتها من عبارات الوجد التي استطاعت أن تتبينها من أوراق الرسالة الممزقة أو المجروحة كما سمتها هي، وكان الذي أوحى إليها بهذا التشبيه عبارة بروتيوس جريح الهوى، وأخذت تُخاطب هذه العبارات الرقيقة وتقول لها إنها ستحتفظ بها بين طيات صدرها حتى تلتئم جراحها، وإنها ستُقَبل كل قطعة منها مِرارًا عِدة لِتُكفر بذلك عن ذنبها.

وظلت تضرب على هذه النغمة، وطال حديثها إلى الأوراق كأنها طفل يُحدث دميته، حتى تبينت عجزها عن قراءة كل ما حوته الرسالة، وآلمها ما أظهرته من جحود حين مزقت ما أسمته ألفاظ الحب الجميلة، فكتبت إلى بروتيوس خطابًا كان أكثر عطفًا وحنانًا من كل ما خطته أناملها من قبل.

ولشد ما سُر بروتيوس حين تلقى هذا الرد الجميل، وبعد أن تلاه قال بصوت عال: «أيها الحب العذب، وأيتها السطور العذبة، وأيتها الحياة العذبة!». وبينا هو في هذه السورة إذ يدخل عليه والده، فلما رآه على هذه الحال قال له: «ماذا دهاك؟ وما هذا الخطاب الذي تقرأه؟».

فأجابه بروتيوس: «مولاي تلك رسالة من فلنتين أرسلها إِليَّ من ميلان».

فقال له والده: «أرني الخطاب لأطلع على ما فيه من أخبار». ودب

الخوف في قلب بروتيوس فقال: «ليس في الرسالة يا أبي شيء من الأخبار، سوى أنه يقول فيها إن دوق ميلان يحبه كثيرًا، وغِنه يزيده في كل يوم قربًا منه وعطفًا عليه، وهو يتمنى أن أكون معه وأن أُقاسمه حظه».

فسأله والده: «وما هو شعورك أنت نحو هذه الرغبة؟».

فأجابه بروتيوس: «إن شعوري نحوها هو شعور الابن الذي يخضع لإرادة أبيه لا لرغبة صديق».

واتفق أن كان والد بروتيوس قبل مجيئه يتحدث إلى صديق له في هذا الموضوع نفسه فقال له ذلك الصديق إنه يعجب كيف يسمح لابنه أن يقضي شبابه في وطنه، في الوقت الذي يرسل فيه كثيرون غيره أبناءهم ليطلبوا الخير لأنفسهم خارج بلادهم «فيذهب بعضهم إلى الحروب ليروا ماذا يكون لهم فيها من حظ، ويسافر بعضهم لكشف الجزائر النائية، ومنهم من يغترب عن أوطانه ليطلب العلم في الجامعات، وهاك فلنتين صديق ولدك قد التحق ببلاط دوق ميلان، وابنك خليق بمثل هذا، ولن يكون من الخير له في كبره ألا يبرح وطنه في حداثة سنه».

وأعجب والد بروتيوس بنصيحة الصديق، ولما أخبره ابنه أن فلنتين يرغب في حضوره ليشاركه حظه، عزم من فوره على أن يرسل ابنه إلى ميلان، ولم يشأ أن يخبر ابنه بسبب هذا العزم المفاجئ؛ لأن من عادة هذا الشيخ القوي الإرادة أن يصدر لابنه الأمر ولا يذكر له الأسباب، ولذلك قال له: «إن إرادتي تتفق مع رغبة فلنتين». ولما رأى العجب باديًا على وجه ولده واصل حديثه قائلًا: «لا تعجب إذا اعتزمتُ فجأة أن تقضي بعض الوقت في بلاط دوق ميلان؛ لأن ما اريده سوف يكون، ولا جدال فيه، فاستعد للسفر غدًا،

ولا تنتحل المعاذير فلن أقبل منك اعتذارًا».

وكان بروتيوس يعرف أن لا فائدة ترجى من معارضة رغبات أبيه؛ لأنه لم يسمح له قط بِأَن يُجادله في رأي، ولذلك لام نفسه لأنه كذب عليه ولم يصدقه الخير عن رسالة جوليا التي كانت سبب فراقه الأليم لها.

ورأت جوليا أن بروتيوس سيُفارقها زمنًا طويلًا، فلم تستطع أن تدعي أنها لا تأبه له، فجاءت إليه تودعه وداعًا مُحزنًا، وأقسمت أغلظ الأيمان أنها تُحبه وأن حبها له دائم لا يحول، وأعطته في هذا اللقاء خاتمًا وأعطاها مثله، وتعاهدا على أن يحتفظ كل منهما بخاتمه تذكارًا لهذا العهد، ثم ودعها بروتيوس وهو مُكتئب حزين وبدأ سفره إلى ميلان مقر صديقه فلنتين.

وكان أمر فلنتين كما وصفه بروتيوس لوالده عن غير علم، فكان من المقربين عند دوق ميلان، وقد حدثت له حادثة لم يكن بروتيوس نفسه يتوقعها، فقد طلق فلنتين حريته التي كان يتباهى بها، وأحب حبًا لا يقل عن حب بروتيوس.

وكانت الفتاة التي بدلت حال فلنتين هذا التبديل الغريب تُدعى سلفيا Silvia ابنة دوق ميلان، وكانت هي أيضًا تحبه، ولكنهما أخفيا هذا الحب عن الدوق؛ لأنه كان يريد أن يزوج ابنته بشاب من حاشيته يُدعى ثوريو Thurio، وإن كان كثيرًا ما يظهر العطف على فلنتين ويدعوه في كل يوم إلى قصره. وكانت سلفيا تحتقر ثوريو لأنه لم يكن كفلنتين مُرهف الحس كريم الصفات. واتفق أن اجتمع هذان الخصمان ثوريو وفلنتين معًا في زيارة لسلفيا يومًا من الأيام، وأخذ فلنتين يُسامر سلفيا بالسخرية من كل ما يقوله ثوريو. ودخل عليهما الدوق في أثناء هذا الحديث وبشر فلنتين بنبأ قدوم صديقه بروتيوس،

فأجابه فلنتين بقوله «لو طُلِبَ إليَّ أن أتمنى شيئًا لما تمنيت إلا أن أراه هُنا في هذه الساعة». ثم أخذ يثني على بروتيوس أمام الدوق، وكان مما قاله له «لقد أضعت أنا كثيرًا من وقتي فيما لا يفيد، أما صديقي فقد أفاد من وقته أكبر فائدة، فكمل جسمه وعقله، واتصف بجميع الفضائل التي يزدان بها الفتى المهذب الشريف».

وأجاب الدوق بقوله: «إذن فحيياه التحية التي تليق بقدره، إني أُوجه كلامي إليك يا سلفيا وإليك يا ثوريو، أما فلنتين فهو في غير حاجة إلى هذا التنبيه». وفي هذا الوقت دخل عليهما بروتيوس، فقدمه فلنتين إلى سلفيا بقوله «سيدتي العزيزة أرجو أن تقبليه زميلًا لخادمك».

ولما فرغ فلنتين وبروتيوس من زيارتهما وانفردا معًا، قال فلنتين لصديقه «حدثني عن كل شيء في البلد الذي جئت منه، وما هي أخبار حبيبتك؟ وإلى أي حد وصل حبك؟». وأجابه بروتيوس بقوله: «لقد كانت أخبار حبي تُضايقك وأنا أعلم أن حديث الحب لا يسرك».

فأجابه فلنتين «لقد تبدلت هذه الحياة يا صاح، وأنا الآن أُكفر عن ذنبي في احتقار الحب، وقد اقتضى هذا الحب مني جزاء هذا الاحتقار فنفى الكرى عن عيني؛ أي عزيزي برويتوس إن للحب سُلطانًا على النفوس، ولقد أذلني فأصبحت أرى أن لا عذاب أقوى من عذابه، ولا لذة على الأرض خيرًا من لذة من يقوم على خدمته، وأشهى حديث لي الآن هو حديث الحب، وهذا الحب هو الآن غذائي في الصباح والظهر والمساء، وهو موضوع تفكيري في يقظتي ومنامي».

وكان اعتراف فلنتين بهذا التحول في مجرى حياته انتصارًا باهرًا لصديقه

بروتيوس، نقول صديقه وإن كان بروتيوس لم يعد في الحق «صديقًا»؛ لأن الحب، ذلك الإله القادر الذي كانا يتحدثان عنه، كان في هذه الساعة يضرم النار في قلب بروتيوس حتى جعله في أول مرة يلتقي فيها بسلفيا يغدر بالصديق ويخون حبيبته؛ فقد ذهب ما كان في قلبه من حب لجوليا كما تذهب الأحلام عندما وقعت عيناه على سلفيا لأول مرة، ولم تكن صداقته الطويلة العهد لفلنتين لتحول بينه وبين سعيه للاستئثار بحبها دون صديقه. ولم يكن من السهل عليه في أول الأمر أن يسكت صوت ضميره عندما اعتزم أن ينبذ حب جوليا، شأن ذوي الطبائع الكريمة عندما ينحدرون لأول مرة في طريق الشر، ولكنه استطاع آخر الأمر أن يسكت هذا الصوت، ويتغلب على شعوره بالواجب، ثم أسلم نفسه لعواطفه وأصبح وليس لضميره سلطان عليه. وأسر إليه فلنتين، وهو مُطمئن إليه واثق به، بقصة حبه من أولها إلى آخرها، وأخبره أنه أخفى أمرهما عن الدوق لأنه لا أمل له في أن يرضى عن زواجه بها، ولذلك أقنع سلفيا بأن تُغادر قصر أبيها في تلك الليلة وتهرب معه إلى منتوا Mantua، ثم أظهر لبروتيوس سلما من الحبال أعده لتنزل عليه سلفيا من إحدى نوافذ القصر في جنح الظلام.

ولما كشف فلنتين لبروتيوس عن سره كله وائتمنه عليه، فعل برتيوس فعلة لا يصدقها العقل وإن كانت هي الحقيقة بعينها، فقد اعتزم أن يذهب من فوره إلى الدوق ويفشي له السر كله.

وبدأ هذا الصديق الغادر قسته بحديث كله مكر ودهاء، فقال له إن واجبات الصداقة كانت تقضي عليه بأن لا يبوح بشيء مما سيقصه عليه، ولكن ما أظهره الدوق من عطف عليه وإكرام له يحملانه على أن يفضي إليه بما لم يكن ليفضي به إلى أحد، ولو أعطى في نظير ذلك كل ما يُمكن أن

يعطاه إنسان. ثم أخبر الدوق بكل ما سمعه من فلنتين ولم يغفل ذكر السلم والطريقة التي يريد بها أن يخفيه تحت ردائه.

وظن الدوق أن بروتيوس مثال الاستقامة الأعلى، فقد آثر أن يفشي سر صديقه ولا يخفي شرًّا ينتويه؛ فأثنى عليه ثناءً عظيمًا، ووعد أن يكتم عن فلنتين مصدر هذا النبأ، وأن يحتال عليه حتى يجعله يفشي السر بنفسه. ولذلك انتظر الدوق قدوم فلنتين في مساء ذلك اليوم، ولم يلبث أن رآه مُسرعًا نحو القصر وتبين أنه يخفي شيئًا تحت ردائه، فأيقن أنه السلم الذي حدثه بروتيوس عنه، فاستوقفه الدوق وسأله: «إِلى أين تسرع يا فلنتين؟».

فأجابه فلنتين بقوله: «مولاي، إِن رسولًا في انتظاري ليحمل رسائلي إِلى أصدقائي، وأنا ذاهب لأعطيه هذه الرسائل».

لم يلقَ هذا النبأ الكاذب من النجاح أكثر مما لقى حديث بروتيوس لأبيه، فقال له الدوق: «وهل هذه الرسائل ذات شأن كبير؟».

فأجابه فلنتين بقوله: «كل ما لها من شأن أني أُريد أن أبلغ أبي أني بخير وأني سعيد بوجودي في بلاط مولاي الدوق».

«إِذن فلا داعي إِلى الإِسراع، ولتبقَ معي قليلًا لأني أُريد أن أستشيرك في أُمور تهمني».

ثم أخذ يقص على فلنتين قصة اخترعها من عنده، وأراد بها أن يستخرج منه سره. فقال له إِنه يريد ان يزوج ابنته بثوريو، ولكنها عنيدة لا تريد أن تطيع أمره «وقد تجاهلت أنها ابنتي فلم تخشَ بأسي كأنني لست أباها. ولست أخفي عنك أن كبرياءها قد نفرت قلبي منها بعد أن كنت أظن أنني في

هذه السن سأعتز بعرفانها ما يجب عليها لي، ولذلك قررت أن أتخذ لي زوجة، وأن أزوج هذه الفتاة بمن يرضى بها، وليكن جمالها هو كل ما أمهرها به؛ لأنها لا تقدرني أنا وما لي حق قدرنا».

ولم يستطع فلنتين أن يعرف ما يرمي إليه ذلك كله، فسأل الدوق: «وماذا يريد سيدي أن أفعله؟». فأجابه الدوق قائلًا: «إن الفتاة التي أريد أن أتزوجها جميلة شديدة الحياء، لا يُؤثر فيها قول من كان في سني، وفوق هذا فإن وسائل الخطبة قد تبدلت عمَّا كانت عليه في أيام شبابي، وإني ليسرني أن أتلقى عليك درسًا في خطبة الفتيات». وأعطاه فلنتين فكرة عامة عن طُرق الخطبة التي كان يتبعها شُبان ذلك الوقت إذا أرادوا أن يجتذبوا إليهم قلوب الفتيات ومنها الهدايا والزيارات ونحوها.

وأجابه الدوق بقوله: «إن الفتاة قد رفضت هدية أرسلها إليها، وأن أباها يضيق عليها فلا يستطيع أحد أن يتصل بها في أثناء النهار».

فقال له فلنتين: «عليك إذن أن تزورها ليلًا». ثم دخل الدوق الماكر في لباب الموضوع وأجابه بقوله: «لكن أبوابها موصدة بالليل».

وهنا ارتكب فلنتين غلطة يُؤسف لها، فعرض على الدوق أن يرقى إلى حجرة الفتاة بسلم من الحبال، وقال إنه سيعد بنفسه هذا السلم، ونصح الدوق في ختام الحديث أن يخفيه تحت معطف شبيه بذلك المعطف الذي كان يلبسه فلنتين وقتئذ. وكان الدوق قد اخترع هذه القصة كلها ليستطيع أن يطلب إلى فلنتين أن يخلع معطفه، فلم يكد فلنتين يلفظ بهذا القول حتى قال الدوق على الفور: «اعرني هذا المعطف إذن». ثم مد يده إلى فلنتين وألقاه عنه، فوجد تحته السلم ورسالة من سلفيا، فتحها وقرأها فوجد فيها بيانًا

مُفصلًا عن طريقة هربهما، فأخذ الدوق يقرع فلنتين لجحوده بنعمته ولإساءته لمن أحسن إليه ومُحاولته الهروب بابنته، ثم طرده من بلاطه وأمر أن يُخرج من مدينة ميلان ولا يعود إليها أبدًا، وغادر فلنتين المدينة في تلك الليلة دون أن يرى سلفيا.

وبينا كان بروتيوس في ميلان يسيء إلى فلنتين، كانت جوليا في فيرونا حزينة على فراقه، وقد اشتد وجدها حتى أنساها ما هو خليق بالفتيات من احتشام، فاعتزمت أن تخرج من فيرونا وتأتي إليه. ولبست هي وخادمتها لوستا ملابس الرجال لتأمنا على نفسيهما في الطريق، واتخذتا سبيلهما إلى ميلان، فوصلتا إليها بعد وقت قصير من خروج فلنتين بسبب خيانة بروتيوس.

وكان وصول جوليا إلى ميلان في وقت الظهيرة، فاتخذت مقامها في فندق من فنادق المدينة. ولم يكن يشغل أفكارها في ذلك الوقت إلا بروتيوس، فأخذت تحدث صاحب الفندق — أو مضيفها كما كان الناس يُسمون أصحاب الفنادق وقتئذ — لعلها تعرف منه شيئًا عن بروتيوس.

وسر صاحب الفندق أيما سرور من أن ترتفع الكلفة بينه وبين هذا الفتى المهذب الذي تدل سيماه على أنه من ذوي المراتب الرفيعة. وكان هذا الرجل طيب القلب فآلمه أن يراه مُكتئبًا حزينًا، وأراد أن يُفرج همه فعرض عليه أن يذهب معه في المساء ليستمع إلى موسيقى شجية، قال إن شابًا سيطرب بها محبوبته تحت نافذتها. وكان سبب اكتئاب جوليا أنها لم تكن تعرف رأي بروتيوس في هذه الفعلة الجريئة التي افتعلتها من غير روية؛ لأنها كانت تعلم أن حبه لها قائم على أنفتها ونُبل أخلاقها واحتفاظها بكرامته، وكانت تخشى أن تكون بما فعلت قد انحطت منزلتها لديه، فكان ذلك منشأ ما بدا عليها من هم وتفكير.

ولذلك قبلت وهي مسرورة ما عرضه عليها مضيفها، وهو أن تذهب معه لتستمع إلى نغمات الموسيقى. وكانت نفسها تحدثها أنها ربما قابلت بروتيوس في الطريق، ولكنها حين وصلت إلى القصر الذي أخذها مضيفها إليه، لم يحدث فيها ما رأت الأثر الذي كان يقصده المضيف الرحيم. ذلك أنها رأت هُناك ما أحزنها وآلم قلبها، رأت حبيبها السابق بروتيوس يطرب سلفيا بقطعة موسيقية، ويلقي على مسامعها عبارات الحب والإعجاب، وسمعت سلفيا تُخاطب بروتيوس من نافذتها وتُؤنبه على خيانته لحبيبته الصادقة، وعلى غدره بصديقه فلنتين. ثم رأت سلفيا أن تترك النافذة وترفض أن تصغى إلى موسيقاه وحديثه اللطيف؛ لأنها كانت وفية لحبيبها المنفي فلنتين، تبغض أشد البغض مسلك صديقه الخائن بروتيوس.

واستولى اليأس على قلب جوليا عندما شاهدت هذا المنظر المؤلم، ولكنها مع ذلك بقيت على حبها لبروتيوس رغم تقلبه وعدم وفائه، وسمعت أنه كان قد أخرج من عنده خادمًا له فأفلحت بمساعدة مضيفها صاحب الفندق أن تجعل بروتيوس يستأجرها لخدمته. ولم يكن بروتيوس يعلم أنها جوليا نفسها، فأخذ يبعث معها رسائله وهداياه إلى خصيمتها سلفيا، ووصل الأمر إلى أن أرسل معها الخاتم الذي أهدته إليه عندما افترقا في فيرونا.

فلما ذهبت بالخاتم إلى سلفيا سرها كل السرور أن تعرف أن هذه الفتاة لا تلقى بالًا إلى خطبة بروتيوس، وأخذ الفتى سبستيان — وهو الاسم الذي تسمت به جوليا في ذلك الوقت — يتحدث إلى سلفيا عن جوليا حبيبة بروتيوس الأُولى التي تخلى عنها، ولم تنسَ أثناء الحديث أن تذكر عن نفسها كلمة طيبة، فقالت إنها تعرف جوليا — وكانت في الحق تعرفها لأنها هي جوليا التي تتحدث عنها — وإن جوليا كانت تحب بروتيوس حُبًا جمًا، وإن قسوته

عليها وإهماله إياها سوف يحزنانها ويمضان قلبها، ثم واصلت حديثها وقد خلعت عليه ثيابًا رقيقة من الغموض فقالت: «إن جوليا قريبة مني في طول قامتها وفي ملامحها، ولونُ عينها وشعرها لا يختلفان في شيء عن لون عيني وشعري». والحق أن جوليا كانت تبدو في لباس الشبان فتى وسيمًا جميل الطلعة. وأشفقت سلفيا على هذه الفتاة الجميلة التي تخلى عنها حبيبها بهذه الطريقة المحزنة، ولما عرضت عليها جوليا الخاتم الذي أرسله معها بروتيوس رفضته وقالت لها: «ويزيدني ازدراءً له أن يرسل إلي هذا الخاتم، فأنا أرفضه لأنني طالما سمعت منه أن حبيبته جوليا قد أعطته إياه، وإني لمعجبة بك أيها الشاب لأنك تشفق على هذه الفتاة المسكينة. وهاك كيسًا به نقود أُقدمه إليك إكرامًا مني لجوليا»، وأثرت في نفس جوليا هذه اكللمات الطيبة الصادرة من خصيمتها الرحيمة فطابت بها نفس الفتاة المتنكرة وذهب عنها الحزن.

والآن فلنعد إلى فلنتين المنفي لنقول إنه لم يدرِ ماذا يفعل ولا أي طريق يسلك؛ لأنه لم يكن يرغب في العودة إلى أبيه مطرودًا محقرًا. وبينا كان يجوس خلال غابة موحشة بالقرب من ميلان، التي استودع فيها حبيبته سلفيا أحب الناس إلى قلبه، هجم عليه جماعة من اللصوص وطلبوا إليه أن يعطيهم ما معه من المال.

وأخبرهم فلنتين أنه رجل نزلت به الشدائد، وأنه مشرد منفي لا مال له، ولا يملك غير ما عليه من الثياب.

وسمع اللصوص أنه رجل بائس، وتأثروا من نُبل مظهره وعزة نفسه، فعرضوا عليه أن يقيم معهم، ويكون زعيمًا لهم، فيسلموه قيادهم ويخضعوا

لأوامره. فإذا لم يقبل ما يعرضونه عليه فسيقتلوه لساعته.

ولم يكن فلنتين ليهتم كثيرًا بما يصيبه، ولذلك أجابهم بأَنه يقبل أن يكون قائدًا لهم إذا عاهدوه على ألَّا يسيئوا لامرأة ولا لعابر سبيل مسكين.

وكذلك أصبح فلنتين – الرجل النبيل – قائد اللصوص وقطاع الطريق الخارجين على القانون كما كان روبن هود Robin Hood الذي نقرأ عنه في الأقاصيص الشعرية الغنائية. وعلى هذه الحال وجدته سلفيا بالطريقة التي سنقصها على القارئ فيما يلي:

أرادت سلفيا أن تنجو من زواج ثوريو حين أصر أبوها على أن يُنفذ رغبته رغم رفضها هذا الزواج، وسمعت أن حبيبها فلنتين قد لجأ إلى مدينة منتوا فقررت أن تتبعه إليها. ولكن ما سمعته من ذلك لم يكن صحيحًا؛ لأن فلنتين كان لا يزال يقيم في الغابة بين اللصوص، يتولى زعامتهم من غير أن يشترك في الاعتداء على الناس معهم، أو يستخدم السلطة التي فرضوها عليه فرضًا إلا في إرغامهم على الرأفة بالمسافرين الذين يغتصب اللصوص أموالهم.

وكانت سلفيا حين فرت من قصر أبيها قد اصطحبت معها رجلًا مُسنًا طيب القلب يُدعى إجلمور Eglamour ليرد عنها ما عسى أن تتعرض له من أذى في الطريق، وكان لا بُد لها أن تخترق الغابة التي يقيم فيها فلنتين ومن معه من اللصوص، وقد ألقى أحدهم القبض عليها وهمَّ بالقبض على إجلمور ولكنه نجا منه.

ولما رأى اللص الذي قبض عليها ما حل بها من الرعب، أمرها ألا ترتاع لأنها لن يصيبها منه أذى، بل إنه سيذهب بها إلى كهف يعيش فيه رئيسهم،

وهو رجل كريم رحيم بالنساء. ولكن سلفيا لم يهدئ من روعها أن تسمع أنها ستُساق أسيرة إلى زعيم طائفة من اللصوص الخارجين على القانون، وصرخت من فرط حزنها «يا فلنتين كم ذا أُكابد من أجلك!» .

وبينا كان اللص يقودها إلى كهف الزعيم إذا بروبتوس يعترض طريقه ومن ورائه جوليا في زي الخدم؛ لأنه حين سَمِعَ بفرار سلفيا جاء في أثرها إلى الغابة، وبذلك أنقذها بروتيوس من يدي اللص. ولكنها لم تكد تهم بشكره على حُسن صنيعه حتى بدأ يُضايقها من جديد ويسمعها عبارات الحب، ويطلب إليها في غير أدب أو احتشام أن تقبل زواجه بها. وكان خادمه (جوليا المسكينة) واقفًا إلى جانبه مُضطربًا كاسف البال؛ لأنه كان يخشى أن ما قدمه بروبتوس من خير لسلفيا قد يلين قلبها له. وبينا هم على هذه الحال وإذا فلنتين يظهر بينهم على حين غفلة؛ وذلك لأنه سَمِعَ أن رجاله قد أسروا سيدة فجاء لينقذها ويفرج كربها.

وكان بروتيوس يُلاطف سلفيا ويتودد إليها، وأخجله أن يتبين صديقه جلية أمره، فندم وأنبه ضميره، وأظهر أسفه الشديد على ما قدم لفلنتين من إساءة. وكان فلنتين رجلًا كريم الطبع شريف النفس، فعفا عن صديقه من فوره، وصفا قلبه له، وعادت الصداقة بينهما إلى ما كانت عليه من قبل، وثارت في نفسه فجأة عاطفة الشهامة فقال: «إني أعفو عنك وأنزل لك عن كل ما في نفسي من حب لسلفيا». وكانت جوليا واقفة إلى جانب بروتيوس في زي الخدم، فسمعت هذا العرض الغريب، وخشيت ألَّا يقوى بروتيوس على رفضه، فغشى عليها وانصرف كل من حولها إلى الاهتمام بها، ولولا ذلك لاستاءت سلفيا من أن يهبها فلنتين إلى بروتيوس، وإن لم تكن تظن أن فلنتين سيصر على هذا العرض الكريم الذي فاه به في ساعة من ساعات سورة عاطفه. ولما

أفاقت جوليا من غشيتها قالت «إني نسيت، لقد أمرني سيدي أن أحمل هذا الخاتم إلى سلفيا». ونظر بروتيوس إلى الخاتم فوجد أنه هو الذي أهداه إلى جوليا حين أهدت إليه خاتمها، الذي أرسله مع الخادم المزعوم إلى سلفيا، ولذلك قال «ما هذا؟ ذلك خاتم جوليا فكيف وصل إليك أيها الغلام؟». وقالت ردًا على هذا السؤال «إن جوليا نفسها هي التي أعطتني إياه، وإن جوليا نفسها هي التي أتت به إلى هنا».

وتأملها بروتيوس فاتضح له أن الخادم سبستيان هو الفتاة جوليا بعينها، وأثَّر في نفسه ما أظهرته من دلائل الوفاء والحب الصادق، فعاد حبها إلى قلبه، ورجع من ذلك الوقت إلى حبيبته القديمة، وعدل عن كل مطلب له من سلفيا لتعود هي الأُخرى إلى فلنتين أحق الناس بها.

وبينا كان بروتيوس وفلنتين يُعبران عمَّا يفيض به قلباهما من السعادة لزوال ما كان بينهما من جفوة، ولما يتمتعان به من وفاء جوليا وسلفيا، إذا أعينهما تقع على دوق ميلان وثوريو وقد جاءا في أثر سلفيا.

واقترب ثوريو منهم أولًا وقال وهو يهم بالقبض على سلفيا: «إن سلفيا لي». فرد عليه فلنتين في أنفة: «ثوريو، قف حيث أنت، وإذا قلت مرة أُخرى إن سلفيا لك فستلاق حتفك. وها هي ذي واقفة أمامك، فإياك أن تمسها بيديك أو أن تحمّل الهواء أنفاسك إليها». وكان ثوريو جبانًا ضعيفًا، فلما سمع هذا القول نكص على عقبيه وقال إنه لا يعبأ بها، وإن أشد الناس حمقًا هو الذي يُقاتل من أجل فتاة لا تهواه.

وكان الدوق نفسه رجلًا شهمًا، فقال مغضبًا «إن أقوى دليل على لؤمك وخسة طبعك أن تسلك لأخذها ما سلكت من الوسائل، ثم تتخلى عنها لهذه

الأسباب الواهية»، ثم التفت إلى فلنتين وقال له: «إني مُعجب بشهامتك، وأراك خليقًا بحب ملكة، إن سلفيا لك لأنك خليق بها».، وتقدم فلنتين في أدب وتواضع وقبل يد الدوق، وقال إنه يقبل منه هذه الهدية الكريمة، ويقدم له من أجلها ما يليق بمقامه العظيم من الشكر. وانتهز هذه الفرصة السعيدة فطلب إلى الدوق أن يعفو عن اللصوص الذين انضم إليهم في الغابة، وأكد له أنهم حين تصلح حالهم ويعود إليهم حقهم في المجتمع، يخرج منهم كثيرون من خيار الناس ويقومون بجلائل الأعمال؛ لأن الكثرة الغالبة منهم قد أخرجوا من بلادهم كما أخرج فلنتين لذنوب خالفوا فيها قوانين الدولة، لا لجرائم شنيعة ارتكبوها. وقبل الدوق من فوره هذا الرجاء، ولم يبقَ إلا أن يُعاقب بروتيوس الصديق غير الوفي على الأغلاط التي ارتكبها مدفوعًا بعاطفة الحب، فحكم عليه أن يستمع إلى قصة حبه ونفاقه تتلى على الدوق، وكان اعتقاد الجماعة أن ما يصيبه من خجل وما يشعر به من وخز الضمير يكفيان لعقابه.

وحدث ذلك بالفعل، وعاد الأحبة الأربعة جميعًا إلى ميلان، واحتفل فيها بزفافهم في حضرة الدوق احتفالًا بالغًا غاية البهجة والسرور.

تاجر البندقية

كان شيلك اليهودي يسكن في مدينة البندقية، وكان مُرابيًا جمع ثروة طائلة بإقراض المال إلى التجار المسيحيين بربا فاحش، وكان لا يرحم أحدًا بل يلجأ في استرداد ما يقرض من الأموال إلى ضروب من القسوة نَفَّرَت منه قلوب جميع الناس الطيبين، وبخاصة قلب شاب من أهل البندقية يُدعى أنطونيو Antonio. وكان شيلك نفسه يبغض أنطونيو أشد البغض لأنه يقرض المال لكل من نزلت به كارثة، ويأبى أن يأخذ عليه فائدة، ولذلك اشتدت العداوة بين اليهودي الجشع وأنطونيو التاجر الكريم. وكان أنطونيو كلما التقى بشيلك في سوق المال أَنَّبه وعاب عليه رباه وقسوته في مُعاملاته، فكان اليهودي يتحمل هذا الأذى ويصبر عليه في الظاهر ويعمل في الخفاء على الانتقام لنفسه.

وكان أنطونيو من أطيب الناس قلبًا وأحسنهم حالًا، لا يمل من صنع المعروف، وفي الحق أن النُبل الروماني القديم كان يظهر في هذا الرجل أكثر مما يظهر في أي رجل آخر في إيطاليا بأجمعها. وكان مُواطنوه كلهم يحبونه أعظم الحب، ولكن كان أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه رجل من أشراف البندقية يُدعى بسانيو Bassanio، ورث عن أبيه مالًا قليلًا كاد يذهب به بسط اليد في الإنفاق منه، كما يفعل الشُبان ذوو الثروة القليلة من أبناء الطبقات العُليا، وكلما احتاج بسانيو إلى المال أمده به أنطونيو كأنما كان للاثنين قلب واحد ومال واحد.

وجاء بسانيو إلى أنطونيو يومًا ما وأخبره أنه يريد أن يصلح من شأنه

بزواج فتاة موسرة يحبها، توفى أبوها ولم يكن له وارث سواها، فورثت عنه ضيعة كبيرة، وقال إنه كان يزورها في منزلها في حياة أبيها، وكان يُخيل إليه أن عيني هذه الفتاة تبعثان إليه برسائل صامتة، تكاد تنطق بأنه لن يرد خائبًا في خطبته، وأضاف إلى ذلك قوله إنه ليس له من المال ما يُمكنه من أن يظهر بالمظهر الذي يليق بمن يحب فتاة ورثت هذه الثروة الطائلة، ولذلك جاء يرجو أنطونيو أن يضيف إلى أفضاله الكثيرة السابقة فضلًا جديدًا، فيقرضه ثلاثة آلاف بندقي[٢].

ولم يكن عند أنطونيو في ذلك الوقت مال يقرضه لصديقه، ولكنه كان ينتظر وصول سفن تحمل إليه شحنات من البضائع، فقال لصديقه إنه سيذهب إلى شيلك المرابي الثري ويقترض منه المال بضمانة تلك السفن.

وذهب أنطونيو وبسانيو إلى شيلك، وطلب إليه أنطونيو أن يقرضه ثلاثة آلاف بندقي بالفائدة التي يرتضيها، على أن يردها إليه من ثمن البضائع التي تحملها سفنه القادمة في البحر. ولما سَمِعَ ذلك شيلك قال في نفسه: «إذا استطعت أن أُسيطر على هذا الرجل شفيت منه غلي القديم. إنه يحقد على أُمة اليهود، ويقرض المال من غير فائدة، وإذا رآني مع التجار استهزأ بي وعاب عليَّ مُعاملاتي المالية الشريفة التي يسميها ربًا. ألا لعنة الله على أمتي إذا عفوت عنه!». ورأى أنطونيو أن شيلك يقلب الرأي في فكره وهو صامت لا يحير جوابًا، فنفد صبره وخاطب شيلك بقوله: «أتسمعني يا شيلك؟ وهل تريد أن تقرضني المال؟». وأجابه شيلك بقوله: «يا سيد أنطونيو، كم مرة استهزأت بي في سوق المال وسخرت من أموالي ومن أرباحي، وقد صبرت

[٢] عملة ذهبية قديمة كانت متداولة في مُعظم بلاد أوربا قيمتها نحو تسع شلنات. (المترجم)

على هذا الأذى ولم أعبأ به؛ لأن الصبر شعار أُمتي. وكم مرة سميتني كافرًا وكلبًا سفاحًا، وبصقت على ملابسي اليهودية، وركلتني بقدمك كما تركل الكلاب. والآن يلوح أنك في حاجة إلى عوني فتجيئني وتقول لي: (يا شيلك أقرضني من مالك)، فهل للكلب مال؟ وهل يستطيع الكلب أن يقرض ثلاثة آلاف بندقي؟ وهل تظن أني أحني رأسي إجلالًا وأقول لك: أي سيدي الزيز! لقد بصقت عليَّ يوم الأربعاء الماضي ودعوتني كلبًا، وسأرد إليك اليوم هذا الجميل بِأَن أقرضك المال؟». وأجابه أنطونيو بقوله: «ليس ما يمنعني أن أدعوك بهذا الاسم مرة أُخرى، وأن أبصق عليك كما بصقت من قبل، وأن أضربك بقدمي أيضًا، فإذا أعطيتني المال فلا تعطني إياه كما تعطي الصديق، بل أقرضه قرض العدو، حتى إذا لم أوفِ بالدين حق عليَّ العقاب». ورد عليه شيلك بقوله: «هدئ من روعك إني أريد أن أكسب حبك، وأن أكون لك نعم الصديق، وسأنسى ما جللتني من عار، وأقضي حاجتك ولا أطلب ربحًا على ما أقرضك من مال». وعجب أنطونيو أشد العجب من هذا العرض السخي في الظاهر، وظل شيلك يتظاهر بالعطف عليه ويدعي أنه لا يريد بعمله هذا إلا أن يكسب مودته، وكرر قوله إنه سيقرضه الثلاثة آلالاف من البنادقة ولا يأخذ عنها فائدة، وكل ما يرجوه أن يذهب معه إلى محامٍ ويمضي أمامه من قبيل المزاح صكًا يقول فيه إنه إذا لم يُوفِ بالدين في الموعد المحدد يجز على ذلك بِأَن يُؤخذ منه رطل من اللحم، يُقتطع من جسمه في المكان الذي يرتضيه شيلك.

وقال أنطونيو: «لك ذلك، وسأُوقع الصك وأقول إن في قلب اليهودي شيئًا كثيرًا من الرحمة». وأشار بسانيو على أنطونيو ألَّا يُوقع هذا الصك، ولكن أنطونيو أصرَّ على أن يُوقعه؛ لأن سُفنه ستعود قبل الموعد المحدد

وعليها من البضائع ما تربى قيمته على الدين أضعافًا مُضاعفة.

وسمع شيلك هذا الحديث فقال مُتعجبًا: «يا أبانا إبراهيم! ما أكثر ما يسيء أُولئك النصارى الظن بالناس! إن قسوتهم في مُعاملاتهم قد علمتهم أن يظنوا بالناس الظنون. قل لي بحقك يا بسانيو، ماذا يفيدني هذا الجزاء الذي فرضته عليه إذا لم يُوفَ بدينه في اليوم المحدد؟ إن رطلًا من لحم الآدمي لأقل قيمة وأقل نفعًا من لحم الضأن أو البقر، لقد قلت لكما إنني أعرض عليه هذا الصداقة لأكسب رضاه، فإذا قبلها فبها ونعمت، وإذا لم يقبلها فإني تاركه وإلى اللقاء».

وأخيرًا وقَّع أنطونيو الصك وهو يظن أن الأمر كله هزل لا جد كما قال اليهودي، ولم يستمع إلى نصيحة بسانيو الذي لم يكن يريد أن يتعرض صديقه من أجله لهذا الجزاء الرهيب، ولم يصدق شيئًا مما قاله اليهودي عن حُسن نواياه.

وكانت الوارثة الثرية التي يريد بسانيو أن يتزوجها تسكن بجوار مدينة البندقية في مكان يُدعى بلمنت Belmont، وكانت تُسمى بورشيا Portia، وفي الحق أنها كانت لا تقل في جمالها وكما عقلها عن بورشيا ابنة كيتو Cato وزوجة بروتس Brutus التي تُحدثنا عنها الأخبار.

ولما حصل بسانيو على المال بمساعدة صديقه الوفي أنطونيو بعد أن عَرَّض حياته للخطر من أجله، سافر إلى بلمنت تحف به حاشية كبيرة، ويقوم على خدمته رجل مُهذب كريم يُدعى جرسيانو Gratiano. ووفق بسانيو في خدمته، ورضيت بورشيا بعد زمن قليل أن تكون زوجة له.

واعترف بسانيو لبورشيا بِأَنه ليس من ذوي الثراء، وأن كل ما يستطيع أن يفخر به هو نُبل أُسرته وكرم محتده. ولما كانت هي قد أحبته لنبله وكريم سجاياه، وكان لها من المال ما يغنيها عن ثروة الزوج، فقد أجابته في حياء وتواضع جميل أنها تتمنى لو انها كانت أجمل مما هي ألف مرة، وأكثر ثروة مما هي عشرة آلاف مرة، لكي تكون أجدر به مما هي. ثم أخذت تذكر له عيوبها في ظرف ودعة، وتقول إِنها فتاة قليلة العلم والتجربة، ولكنها لم تصل بعد إِلى السن التي لا تستطيع فيها أن تتعلم، وإِنها تعهد إِليه بروحها ليوجهها ويسيرها في جميع الشؤون كيف شاء. وقالت بعدئذ: «إِني أنا وما ملكت يداي قد أصبحنا طوع أمرك. لقد كُنتُ بالأمس يا بسانيو صاحبة هذا القصر الجميل، سيدة نفسي وسيدة هؤلاء الخدم، أما الآن فإِن هذا القصر وهؤلاء الخدم وأنا نفسي ملك لك يا مولاي أُقدمه لك مع هذا الخاتم». قالت ذلك وهي تهدي إِلى بسانيو خاتمًا كان في يدها.

ودهش بسانيو من رقتها وأثر في نفسه حسن صنعها، إِذ ارتضت هذه السيدة النبيلة أن تتزوج برجل رقيق الحال مثله، فلم يستطع أن يُعبر عن سروره وإِجلاله لمن أنالته هذا الشرف العظيم إِلا ببضع كلمات مُتقطعة، تنم عن حبه واعترافه بالجميل، ثم أخذ الخاتم من يدها وأقسم ألَّا يفرط فيه قط.

وكان جرسيانو ونرسا Nerissa وصيفة بورشيا يشهدان هذا الاجتماع بين سيدهما وسيدتهما، ويسمعانها تعده بِأَن تكون زوجته المطيعة. فدعا جرسيانو لسيده وسيدته بالخير والسعادة، وطلب أن يُؤذن له أن يتزوج معهما في وقت واحد.

وأجابه بسانيو بقوله: «إِني أُوافق على ذلك من صميم قلبي إِذا

استطعت أن تجد لك زوجة».

فقال جرسيانو إنه يحب نرسا وصيفة بورشيا الجميلة، وإنها وعدته أن تتزوج به إذا رضيت سيدتها أن تتزوج بسانيو. وسألتها بورشيا في ذلك فأجابتها بقولها: «إنه صحيح إذا رضيت أنت به». فوافقت بورشيا وهي مُغتبطة. وقال بسانيو وهو مُنشرح مسرور: «وسيزيد من شأن زفافنا أن تُزف معنا يا جرسيانو».

ولكن سرور هؤلاء المحبين قد كدر صفوه في ذلك الوقت قدوم رسول يحمل رسالة من أنطونيو، تحتوي أنباء رهيبة. وقرأ بسانيو رسالة أنطونيو فامتقع لونه حتى ظنت بورشيا أنها تُنبئ بوفاة صديق عزيز، وسألته عن ذلك النبأ الذي أحزنه، وأكسف باله فقال لها: «سيدتي العزيزة! هُنا كلمات هي شر ما سودت به صحيفة. أي سيدتي العزيزة! إنني حين أفضيت إليك بحبي قلت لك في صراحة إن كل ما أملكه من الثروة هو الدم الذي يجري في عروقي، وكان ينبغي لي أن أقول لكِ إن ثروتي أقل من لا شيء لأني مدين»، ثم حدثها بما قصصناه على القارئ من قبل، فأخبرها أنه اقترض المال من أنطونيو، وأن أنطونيو حصل على المال من شيلك اليهودي، وحدثها عن الصك الذي يتعهد فيه أنطونيو بِأَن يُقدم رطلًا من لحمه إذا لم يُوفِ بالدين قبل الأجل المحدد، ثم قرأ عليها رسالة صديقه وقد جاء فيها: «عزيزي بسانيو! لقد خسرت كل شيء ومضى أجل استحقاق الصك الذي وقعته لليهودي، وإذ كان الوفاء بما ينص عليه يقضي حتمًا على حياتي، فإني أحب أن أراك في ساعة موتي، ولكني مع ذلك أترك لك الخيار، فإذا لم يحملك حبك لي على الحضور فلا يحملنك عليه خطابي». فلما سمعت ذلك بورشيا نادت من فورها: «أي حبيبي! اترك كل عمل لديك وبادر بالذهاب إليه، وسيكون لك

من الذهب ما بقى بعشرة أمثال الدين لأني لا أرضى أن تُمس شعرة من جسم ذلك الصديق لخطأ وقع فيه بسانيو، وسيزيد حبي لك كلما زاد ما أنفقه من المال لأجلك». وأضافت إلى ذلك أنها ستتزوج به قبل سفره ليكون من حقه أن يأخذ من مالها ما يشاء، وتم زواجهما في ذلك اليوم نفسه، وتم أيضًا زواج جرسيانو ونرسا. وما كاد يتم الزواج حتى أسرع بسانيو وجرسيانو إلي مدينة البندقية وفيها وجد بسانيو صديقه أنطونيو سجينًا.

وكان يوم الوفاء قد فات، فلم يقبل اليهودي الغليظ الكبد ما عرضه بسانيو عليه من المال، بل أصر على أن يأخذ رطلًا من لحم أنطونيو. وحدد يوم لنظر هذه القضية المروعة أمام دوق البندقية، وبقى بسانيو ينتظر يوم المحاكمة الرهيب.

وودعت بورشيا زوجها، وحاولت أن تُشجعه وتدخل السرور عليه، وطلبت إليه أن يأتي بصديقه معه، ولكنها كانت في قرارة نفسها تخشى أن يصيب أنطونيو سوء، فلما خلت إلى نفسها أخذت تُفكر فيما عسى أن تفعله لتنقذ حياة صديق زوجها العزيز.

وكانت حين أرادت أن تشعر بسانيو بمنزلته عندها قالت له في رقة الزوجات ووداعتهن إنها تأتمر في كل شيء بحكمته العالية، ولكنها لما تُمثل لها الخطر المحدق بصديق زوجها هداها حُسن تدبيرها، وسداد رأيها، واعتقادها في مقدرتها التي لم تشك فيها يومًا من الأيام، أن تذهب من فورها إلى البندقية وتتولى الدفاع عن أنطونيو.

وكان لبورشيا قريب من رجال القانون يُدعى بلاريو Bellario فكتبت إليه رسالة شرحت فيها تفاصيل القضية، وطلبت إليه أن يبعث إليها برأيه فيها،

وأن يرسل إليها الملابس التي يرتديها المحامون في أثناء الدفاع. وعاد الرسول يحمل رسائل من بلاريو يشرح فيها طريقة السير في الدعوى، ويحمل أيضًا الملابس التي يجب أن يرتديها المحامون.

ولبست بورشيا ووصيفتها نرسا ثياب الرجال، وارتدت هي فوق ملابسها رداء المحامين واتخذت نرسا كاتبًا لها. وسافرتا من فورهما فوصلتا مدينة البندقية في اليوم المحدد لبدء المحاكمة. واجتمع الدوق وأعضاء مجلس الشيوخ في قاعة المجلس ليبدءوا في نظر القضية، وإذا بورشيا تدخل ساحة هذه المحكمة العُليا وتعرض عليها رسالة من بلاريو، بعث بها هذا المحامي القدير إلى الدوق يقول فيها إنه كان يود أن يحضر بنفسه للدفاع عن أنطونيو، ولكن المرض عاقه عن القيام بهذا الواجب، ويطلب إليه أن يسمح للدكتور بلشزار Belshasar، وهو الاسم الذي سمى به بورشيا، الشاب النابه أن ينوب عنه في ذلك.

ووافق الدوق وهو يعجب أشد العجب من صغر سن هذا الفتى الغريب، الذي أخفى حقيقة أمره بلباس المحامين وبالشعر المستعار الطويل. ثم بدأت المحاكمة الرهيبة، ونظرت بورشيا حولها فرأت اليهودي الغليظ القلب، ورأت بسانيو وإن كان هو لم يعرفها لأنها بالغت في إخفاء أمرها، وكان واقفًا بجوار أنطونيو حزينًا كاسف البال يخشى أن يمس صديقه أذى.

وقوى الواجب الخطير الذي اضطلعت به بورشيا قلبها الغض الرقيق، فأقدمت على عملها بجنان ثابت وعزم قوي، ووجهت خطابها أول الأمر إلى شيلك، فأقرته على حقه في أخذ ما نص عليه الصك، ولكنها أشادت بذكر الرحمة تلك الحلة العالية النبيلة، ووصفتها وصفًا ألان كل قلب إلا قلب

شيلك فإنه ظل جامدًا لا يلين. ومما قالته في وصفها إن الرحمة كالغيث ينزل من السماء على الأرض، وإنها نعمة وبركة على من ينالها ومن يسديها، وإنها زينة للملوك أفضل من زينة التاج والصولجان؛ لأنها من صفات الله القدسية، وإن سلطانهم في هذه الأرض يكون أشبه بسلطان الله، بقدر ما يمتزج به عدلهم من رحمة تلطفه وتخفف من أثره. وقالت لشيلك إن الناس جميعًا إذا كانوا يطلبون الرحمة لأنفسهم فأحر بهم أن يكونوا رحماء فيما بينهم. فما كان جواب شيلك إلا أن قال إنه يريد الجزاء الذي نص عليه الصك، وسألته بورشيا «أعاجز هو عن أداء الدين؟» فعرض بسانيو من فوره على اليهودي أن يُؤدي الثلاثة الآلاف البنادقة أضعافًا مُضاعفة يترك تقديرها لشيلك، ولكن شيلك رفض هذا العرض وأصر على أن يأخذ رطلًا من لحم أنطونيو. وحينئذ رجا بسانيو المحامي الشاب القدير أن يحور القانون تحويرًا قليلًا لينقذ بذلك حياة أنطونيو، ولكن بورشيا أجابته في صرامة أن الشرائع إذا سنت وجب ألا تُمس. وسمع شيلك بورشيا تقول إن القانون يجب أن لا يعبث به فظن أنها تُناصره، وصاح قائلًا: «هذا دنيال قد جاء يحكم بين الناس، ألا ما أعظم إجلالي لك أيها الفتى القاضي الحكيم، وما أكبر الفرق بين حكمتك وسنك!». ثم طلبت بورشيا إلى شيلك أن يطلعها على الصك، فلما قرأته قالت: «إن هذا الصك قد انقضى أجله، ومن حق اليهودي بمقتضى القانون أن يُطالب برطل من اللحم يقتطعه من أقرب مكان إلى قلب أنطونيو». ثم التفتت إلى شيلك وقالت له: «ارحم هذا الرجل وخذ المال ومُرني أن أُمزق الصك». ولكن اليهودي الغليظ الكبد أصم أُذنه عن سماع النداء وأجابها بقوله «أقسم أن ليس لمخلوق من قوة اللسان ما يستطيع به أن يثنيني عن عزمي». وقالت بورشيا :«إذن فاكشف يا أنطونيو عن صدرك للسكين». وبينا كان شيلك يشحذ سكينًا طويلًا ليقتطع به رطل اللحم التفتت إلى أنطونيو

وقالت له: «هل لديك ما تقول؟». فأجابها في هدوء واستسلام أن ليس لديه شيء يقوله لأنه مُطمئن لملاقاة الموت. ثم وجه الخطاب إلى بسانيو وقال له: «امدد إليَّ يدك يا بسانيو، استودعك الله، لا تحزن على ما أصابني من سوء بسببك، واحمل سلامي إلى زوجتك النبيلة وحدثها عن مبلغ حبي لك». وأجابه بسانيو في حزن عميق: «إن لي زوجة هي أحب إليَّ من حياتي، ولكن حياتي وزوجتي والعالم كله ليست أعز عليَّ من حياتك أنت، ولن أتردد في أن أُضحي بها كلها وأضعها بين يدي هذا الشيطان لأفتدي بها حياتك».

وسمعت بورشيا هذا فلم يغضبها من زوجها أن يُعبر عن حبه لصديقه الوفي هذا التعبير القوي، ولكنها ردت عليه بقولها: «لو أن زوجتك كانت هنا وسمعت منك هذا العرض لما شكرتك عليه كثيرًا». وكان جرسيانو يحب أن يُقلد سيده فيما يعمله، فظن أن من واجبه هو أيضًا أن يلقي كلمة شبيهة بكلمة بسانيو، فقال على مسمع من نرسا وكانت جالسة في ثياب الكتبة إلى جوار بورشيا تدون أقوالها: «إن لي زوجة أُحبها، ولكني أتمنى أن لو كانت هذها لزوجة في جوار ربها لتستطيع أن تدعوه أن يلين قلب هذا اليهودي النذل». وردت نرسا عليه بقولها: «من حُسن حظك أنك تقول هذا في غيبتها، وإلا لأثرت المشاكل في بيتك».

وعيل صبر شيلك فقال مُغضبًا: «إننا نضيع الوقت سدى، أرجو أن تنطقوا بالحكم». وساد ساحة القضاء سكون رهيب وامتلأت قلوب الحاضرين أسى وحسرة.

وسألت بورشيا: «هل أعد الميزان ليوزن به اللحم؟» ثم التفتت إلى اليهودي وقالت له: «إن عليك أن تستدعي جراحًا لئلا ينزف الدم من أنطونيو

فيموت». وإذ كان الذي يبغيه شيلك أن ينزف دم أنطونيو فيموت، فقد قال لها جوابًا عن سؤالها: «هذا ما لم ينص عليه الصك». وأجابته بورشيا بقولها: «نعم إن الصك لم ينص عليه ولكن هلا راعيته كرمًا منك وإحسانًا؟». ولكن شيلك لم يجب بأكثر من قوله: «إني لا أجده، إنه ليس في الصك». فقالت له بورشيا: «إذن فخذ رطلًا من لحم أنطونيو، إن القانون يقضي به والمحكمة تجيزه، ولك أن تقطع اللحم من صدره فالقانون يقضي به والمحكمة تجيزه»، وصالح شيلك مرة أُخرى: «ما أعدلك من قاض وما أعظم حكمتك! لقد جاء دنيال يحكم بين الناس!»، ثم أخذ يشحذ سكينه الطويل مرة أُخرى، وصوب نظراته إلى أنطونيو وقال له: «تقدم واستعد!».

فقالت بورشيا: «تمهل قليلًا أيها اليهودي؛ إن ثمة شيئًا آخر، إن هذا الصك لا يعطيك نقطة دم واحدة، فهو ينص صراحة على رطل من اللحم، فإذا أرقت وأنت تقتطع اللحم نقطة واحدة من دم هذا المسيحي فإن أرضك ومالك يُصادران بحكم القانون، ويصبحان ملكًا لدولة البندقية». وإذ لم يكن في وسع شيلك أن يأخذ اللحم دون أن يريق معه بعض دماء أنطونيو، فإن هذه الفكرة الجديدة السديدة التي لاحت لعقل بورشيا، وهي أن الصك إنما ينص على اللحم دون الدم، فقد أنقذت حياة أنطونيو. وأعجب الحاضرون كلهم بفطنة المحامي الشاب النابه الذي هداه عقله إلى هذا الرأي السديد، ودوت قاعة الجلسة بالتصفيق، وصاح جرسيانو مُرددًا ما قاله شيلك من قبل: «ما أعدلك من قاضٍ وما أعظم حكمتك، انظر أيها اليهودي لقد جاء دنيال يحكم بين الناس».

ورأى شيلك أنه قد خاب في سوء تدبيره، فقال ودلائل اليأس بادية عليه إنه يقبل المال، وسر بسانيو كل السرور بنجاة أنطونيو التي لم تكن في

الحسبان فصاح قائلًا: «دونك المال فخذه؟». ولكن بورشيا قطعت عليه حديثه بقولها: «تمهل قليلًا ولا داعي للعجلة. لن يأخذ اليهودي إلا الجزاء الذي نص عليه الصك، فهيا يا شيلك لقطع اللحم، ولكن إياك أن تريق نقطة من دمه أو أن تقتطع من لحمه أكثر من رطل أو أقل منه. فإذا زاد الرطل درهمًا أو نقص درهمًا، وإذا مال الميزان بقدر شعرة، فإن قانون البندقية يقضي بموتك ومُصادرة أملاكك». فقال شيلك من فوره: «إذن فاعطوني مالي ودعوني أُغادر هذا المكان». وقال بسانيو: «إن المال حاضر لدي وها هو ذا بين يديك».

وهم شيلك أن يأخذ المال ولكن بورشيا حالت مرة أُخرى بينه وبين غرضه وقالت له: «تمهل أيها اليهودي، إن لي عليك حقًا آخر. إن شرائع البندقية تقضي بِأَن تُصادر الدولة مالك لأنك ائتمرت على حياة رجل من أهلها، وإن حياتك الآن لرهينة بأمر الدوق فاركع أمامه وسله المغفرة».

وقال الدوق لشيلك: «إني أعفو عنك وأهبك حياتك قبل أن تطلب المغفرة، وذلك لتعرف الفرق بيننا نحن المسيحيين وبينك، أما مالك فنصفه حق لأنطونيو ونصفه الثاني حق للدولة».

وقال أنطونيو في كرم وإباء إنه ينزل عن نصيبه في مال شيلك إذ تعهد كتابة أن يتركه بعد موته لابنته وزوجها. وكان أنطونيو يعرف أن لشيلك ابنة وحيدة تزوج بها حديثًا شاب مسيحي يُدعى لورينزو Lorenzo من أصدقاء أنطونيو، وتم هذا الزواج رغم إرادة أبيها فغضب عليها وحرمها حقها في ماله بعد موته. ووافق اليهودي على ذلك، ولما رأى أنه قد خاب في سعيه للانتقام من عدوه وخَسِرَ ماله، أثَّر ذلك في نفسه فقال: «إني مريض فاسمحوا لي أن

أَعود إِلى داري، وارسلوا العقد إِليَّ أوقعه وأنزل به عن نصف مالي إِلى ابنتي».
فأجابه الدوق إِلى طلبه وقال له: «عُد إِلى دارك ووقع العقد، وإِذا ندمت على قسوتك واعتنقت الدين المسيحي ردت إِليك الدولة النصف الآخر من مالك».

وأطلق الدوق سراح أنطونيو وفض الجلسة، وأثنى على ذكاء المحامي الشاب وحكمته ودعاه إِلى الغداء على مائدته. ولكن بورشيا كانت ترغب في العودة إِلى بلمنت قبل زوجها فأجابته في تواضع جم «أرجو أن يتفضل فخامة الدوق بقبول شكري، غير أني لا بُد أن أعود إِلى بلدي من فوري». وأجاب الدوق أنه يأسف لأن وقته لا يتسع لقبول دعوته، ثم التفت إِلى أنطونيو وقال له: «عليك أن تُكافئ هذا السيد فأنت في رأيي مدين له بالشيء الكثير».

وغادر الدوق وشيوخ المدينة ساحة القضاء، والتفت بسانيو إِلى بورشيا وقال لها: «أيها السيد الأجل، لقد أنجيتني أنا وصديقي أنطونيو في هذا اليوم، بفضل حكمتك وحسن تدبيرك، من شر أنواع العقاب؛ ولهذا أرجو أن تقبل ثلاثة الآلاف البنادقة التي كانت من حق اليهودي».

وأضاف أنطونيو إِلى ذلك: «وسنبقى مدينين لك بما هو أكثر من هذا وأجل شأنًا، وسيكون لك حُبنا واستعدادنا لخدمتك على الدوام». وأبت بورشيا أن تأخذ المال، وألح عليها بسانيو أن تقبل منه شيئًا جزاء لها على حُسن صنعها فقالت له: «هبني قفازيك فسألبسهما إِكرامًا لك». وخلع بسانيو قفازيه فلمحت في إِصبعه الخاتم الذي أعطته إِياه من قبل، وكان هذا الخاتم هو الذي تريد الفتاة الأريبة أن تأخذه ليكون موضوع فكاهة لها حين ترى بسانيو بعد عودته إِليها، ومن أجل ذلك طلبت إِليه قفازيه. فلما رأت

الخاتم قالت له: «وسآخذ منك هذا الخاتم ليكون شاهدًا على حبك».

وتألم بسانيو أشد الألم حين طلب إليه المحامي الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أن يتخلى عنه، فأجاب في اضطراب شديد أنه لا يستطيع أن يعطيه الخاتم لأنه هدية من زوجته، ولأنه أقسم ألا ينتزعه من إصبعه، وقال إنه على استعداد لأن يبتاع له أثمن خاتم في البندقية وأنه سينشر في الناس إعلانًا بهذه الرغبة. فلما سمعت بورشيا ذلك تظاهرت بالغضب وغادرت قاعة الجلسة وهي تقول: «إنك تُعلمني أيها السيد كيف يُرَد السائل».

وقال له أنطونيو: «صديقي بسانيو، أعطه الخاتم واجعل حبك لي وعظيم فضله عليَّ يرجحان غضب زوجتك». واستحى بسانيو أن يظهر بمظهر الجاحد الناكر للجميع فخضع لرغبة صديقه وبعث بالخاتم إلى بورشيا مع جرسيانو. وجاء دور نرسا (الكاتب) وكانت هي أيضًا قد أعطت جرسيانو خاتمًا، فطلبت إليه أن يمنحها إياه. ولم يشأ جرسيانو أن يكون أقل كرمًا من سيده فأعطاها الخاتم. ولشد ما ضحكت هاتان السيدتان حين تصورتا ما سيكون لهما من شأن مع زوجيهما حينما تعودان إلى دارهما وتلومان زوجيهما لتفريطهما في الخاتمين، وتقسمان أنهما أهدياهما إلى بعض النساء.

وكانت بورشيا وهي في طريقها تحس بتلك الغبطة التي تُلازم من يشعرون بِأَنهم فعلوا الخير للناس، فكانت تسر من كل شيء تراه؛ فالقمر لم يكن ضياؤه في ليلة من الليالي أبهج منه في تلك الليلة، ولما حجبت نوره سحابة من السحب لاح لها بريق ضوء يشع من منزلها في بلمنت فزاد مرآه من غبطتها وسرورها، وقالت لنرسا: «إن هذا الضوء الذي نراه خارج من فناء داري. فانظري ما أبعد المدى الذي يصل إليه ضياء هذه الشمعة الصغيرة،

وهكذا يشيع ضياء العمل الصالح في هذا العالم الذي يفيض بالإثم والشرور». ووقعت على آذانها نغمات الموسيقى يحملها النسيم من منزلها فقالت: «يُخيل إليَّ أن هذه النغمات بالليل أشجى منها بالنهار».

ودخلت بورشيا ونرسا الدار ولبست كلتاهما ملابس النساء وانتظرتا قدوم زوجيهما. ولم يلبث الزوجان أن أقبلا ومعهما أنطونيو. وقَدَّمَ بسانيو صديقه العزيز إلى زوجته فأخذت تُرحب به وتُهنئه بنجاته. ولم تكد تنتهي من ترحيبها وتهنئتها حتى شاهدا نزاعًا قائمًا في أحد أركان الحجرة بين نرسا وزوجها، فقالت بورشيا: «أنزاعًا ولمَّا يمض غير هذا الوقت القصير؟ ماذا جرى؟». وأجابها جرسيانو بقوله: «إنه من أجل خاتم مُذهب تافه كانت نرسا قد أعطتني إياه، وعليه ألفاظ شبيهة بالشعر الذي ينقش على أيدي المدى وهي: (أحبني ولا تُفارقني؟)».

وقالت نرسا: «وماذا يهمني من الشعر أو من قيمة الخاتم؟ لقد أقسمت لي حين أعطيتك إياه أنك ستحتفظ به إلى ساعة مماتك، وأراك تقول الآن إنك أهديته إلى كاتب المحامي ولست أشك في أنك أهديته إلى امرأة». وأجاب جرسيانو: «أقسم إني أهديته إلى شاب بل إلى ولد ليس أطول منك قامة، وهو كاتب المحامي الذي أنقذ بحكمته حياة أنطونيو، وقد طلب إليَّ هذا الفتى الثرثار أن أهدي إليه الخاتم أجرًا له، ولم أجد في نفسي قدرة على رفض طلبه». وقالت بورشيا: «لقد أخطأت يا جرسيانو إذ فرطت في أول شيء أهدته إليك زوجك، لقد أعطيتُ سيدي بسيانو خاتمًا، ولستُ أشك في أنه لن يفرط فيه ولو أعطى ملك هذا العالم». وأراد جرسيانو أن يُبرر فعلته فقال: «إن سيدي بسانيو أعطى المحامي هذا الخاتم نفسه، فلما فعل ذلك طلب إليَّ كاتبه أن أعطيه خاتمي نظير ما لاقاه من عناء في الكتابة».

وسمعت بورشيا ذلك فتظاهرت بالغضب الشديد، ولامت بسانيو على تفريطه في خاتمها، وقالت إن نرسا قد هدتها إلى ما يجب أن تعتقده، وإنها لا تشك في أن الخاتم أخذته امرأة. وحَزِنَ بسانيو أشد الحزن لغضب زوجته وقال في جد: «أقسم بشرفي أن هذا غير صحيح، إن امرأة لم تأخذ الخاتم، بل أخذه عالم كبير أبى أن يقبل ثلاثة آلاف بندقي، وطلب هذا الخاتم فرفضت، فانصرف مغضبًا. وماذا عساي أن أفعل يا عزيزتي بورشيا؟ لقد أخجلني أن أظهر بمظهر الجاحد للنعمة، الناكر للجميل، فبعثت إليه بالخاتم، فاصفحي عني يا سيدتي وثقي أنكِ لو كنتِ معنا لطلبتِ إليَّ أن أعطيكِ الخاتم لتقدميه بنفسك إلى هذا العَالِم العظيم». وقال أنطونيو: «ويل لي! إنني أنا سبب هذا الخصام المؤلم». وطلبت بورشيا إليه أن لا ييتئس، وقالت إنها تُرحب به وتسر بوجوده على الرغم مما حدث، فقال أنطونيو: «إنني قبل هذا ضحيت بحياتي من أجل بسانيو، ولولا ذلك الرجل الذي أعطاه الخاتم لكنت الآن بين سكان القبور، وفي وسعي أن أتعهد لكِ بِأَن زوجكِ لن يخونك بعد الآن، وحياتي نفسها ضمينة لذلك». فقالت بورشيا: «فلتضمنه إذن، وهاك خاتمًا فأعطه إياه، ومُره ألَّا يُفرط فيه كما فرط في سابقه».

وتأمل بسانيو الخاتم فدُهِشَ حين وجد أنه هو الذي كان في يده من قبل، وأخبرته بروشيا أنها هي المحامي الشاب وأن نرسا كاتبه، وعَجِبَ بسانيو أشد العجب وسرَّ غاية السرور حين عَلِمَ أن زوجته هي التي أنقذت حياة أنطونيو بشجاعتها وحُسن تدبيرها.

وحيت بورشيا أنطونيو ورحبت به من جديد، وأعطته رسائل وقعت في يدها بطريق الصدفة وهي نصف سُفن أنطونيو التي ظن أنها قد غُرِقَتْ، وتقول إن هذه السُفن قد وصلت إلى الميناء بسلام. وهكذا نسى الجميع ما بدأت

به قصة هذا التاجر الثري من مآسٍ وآلامٍ، طغى عليها كلها ما أعقب ذلك من نعم لم تكن في الحسبان. وعاد الكل يضحكون من قصة الخاتمين ومن الزوجين اللذين لم يعرفا زوجتيهما، وأقسم جرسيانو أنه لن يحرص في حياته على شيء حرصه على خاتم نرسا.

سمبلين

في أيام أُغسطس قيصر إمبراطور رومة كان يحكم إنجلترا (وكان اسمها في ذلك الوقت بريطانيا) ملك يُدعى سمبلين Cymbaline. وماتت زوجة الملك الأُولى وتركت له ثلاثة أطفال صِغار، ذكرين وأُنثى. ونشأت إمجين Imogen كُبرى هؤلاء الأطفال في قصر أبيها، ولكن ابنيه الآخرين اختطفا من مخدعهما بطريقة خفية، ولم يكن أكبرهما قد جاوز الثالثة من عمره، أما أصغرهما فكان لا يزال في مهده، ولم يعرف الوالد سمبلين ما جرى لولديه ولا اليد التي امتدت إليهما.

وكانت الملكة تبغض إمجين، ولكنها كانت ترغب في أن تُزوجها بابن لها من زوج آخر، فقد تزوجت هي الأُخرى مرتين. وكانت ترجو بذلك أن تضع تاج بريطانيا بعد موت سمبلين على رأس ابنها كلوتن Cloten، وذلك لعلمها أن الأميرة إمجين ستصبح وارثة عرش بريطانيا إذا لم يظهر ولدا الملك الآخران. لكن إمجين نفسها أفسدت عليها هذا التدبير، إذ تزوجت بغير رضاء أبيها وزوجته بل بغير علمهما.

وكان زوجها بستيمس Posthumus أكثر شُبان ذلك الوقت علمًا وأدبًا، وكان أبوه قد قُتِلَ وهو يُحارب حروب سمبلين، وتوفيت أُمه حُزنًا على زوجها بعد مولد طفلها بقليل. واختار سمبلين للطفل اسم بستيمس لأنه وُلِدَ بعد موت أبيه[٣]، وأشفق الملك على هذا الطفل اليتيم البائس فأخذه في كنفه

---

[٣] معنى اللفظ «بعد الموت». (المترجم)

ورباه في بلاطه. وتلقى بستيمس وإمجين العلم معًا على نفس المعلمين، وكانا رفيقين في لعبهما من نعومة أظفارهما، ونشأ مُتحابين من عهد طفولتهما، وزاد حبهما كلما كبرت سنهما، فلما بلغت أشدهما واستويا تزوجا سرًا.

وسرعان ما كشفت الملكة هذا السر، وعَرِفَتْ خيبة مسعاها؛ لأنها كانت تبث العيون على ابنة زوجها يرقبون زوجها يرقبون حركاتها وسكناتها، فأبلغت الملك من فورها نبأ زواج إمجين وبستيمس.

واستشاط الملك غضبًا حين عَرِفَ أن ابنته أهدرت كرامتها وتزوجت بشاب من السوقة، فأمر بستيمس من فوره أن يُغادر أرض بريطانيا منفيًا، ولا يعود إليها أبدًا.

وتظاهرت الملكة بالإشفاق على إمجين في محنتها التي حلت بها بفقد زوجها، وعرضت عليها أن تُيسر لها سبيل الالتقاء به خفية قبل أن يبدأ سفره إلى رومة، وهي المدينة التي اختارها منفى له. وكان غرضها من هذه الشفقة الظاهرة أن تستعين بها فيما بعد على تنفيذ ما كانت تُدبره لابنها كلوتن، وكانت تريد أن تقنع إمجين بعد أن يُسافر بستيمس بأن زواجها به غير شرعي لأنه تم بغير رضاء الملك.

وودع بستيمس وإمجين كلاهما الآخر أحر وداع، وأهدت إمجين إلى زوجها خاتمًا من ماس ورثته عن أُمها، ووعدها بستيمس ألا يُفرط فيه قط، وألبسها هو سوارًا في ذراعها ورجاها أن تحتفظ به شاهدًا على حُبه، ثم افترقا بعد أن أكد كلاهما للآخر عظم حبه وإخلاصه. وعاشت إمجين في قصر أبيها وحيدة بائسة، ووصل بستيمس إلى رومة التي اختارها مقرًا له في منفاه.

واجتمع بستيمس في رومة بطائفة من الشُبان المرحين الذين جاءوا إليها من مُختلف البلدان، وكان حديثهم يدور حول النساء لا يستحون من ذكر كل شيء عنهن، وكان كل منهم يثني على نساء بلده ويشيد بذكر حبيبته. وكان بستيمس لا ينسى عهد زوجته العزيزة فأخذ يُؤكد لأصحابه أن إمجين الحسناء أعف نساء العالم وأرجحهن عقلًا وأكثرهن وفاء.

وغضب من ذلك شاب يُدعى يشيمو Ishimo، وساءه أن تفضّل فتاة من أهل بريطانيا على النساء الرومانيات بنات وطنه، وأثار غضب بستيمس بِأَن تظاهر بالشك في إخلاص زوجته التي يثني عليها هذا الثناء كله. وبعد أن احتدم الجدال بينهما طويلًا وافق بستيمس على اقتراح عرضه يشيمو، مضمونه أن يذهب هذا الشاب إلى بريطانيا ويحاول كسب حب إمجين. ثم تراهنا على أن يدفع يشيمو مبلغًا كبيرًا من المال إذا لم يفلح في مسعاه الخبيث، أما إذا نجح في كسب حب إمجين وأقنعها بِأَن تعطيه السوار الذي رجاها بستيمس أحر رجاء أن تحتفظ به تذكارًا لحبه، فإن يشيمو يكسب الرهان ويأخذ في نظير ذلك الخاتم الذي أهدته إمجين إلى زوجها في ساعة وداعه دليلًا على حبها له.

وبلغ من ثقة بستيمس بوفاء إمجين أن كان يعتقد اعتقادًا أكيدًا أن لا خطر مُطلقًا من أن تُمتحن زوجته في شرفها بهذه الطريقة.

ولما وصل يشيمو إلى بريطانيا أذن له بمقابلة إمجين، واستقبلته الفتاة أحسن استقبال على زعم أنه صديق زوجها، فلما أخذ يسمعها عبارات الحب طردته من عندها بازدراء، وتبين من فوره أن لا أمل له في النجاح في مسعاه الذميم.

ولكن رغبته الملحة في أن يكسب الرهان حملته على أن يلجأ إلى

مُخادعة بستيمس والكذب عليه، فأغرى بالمال بعض خدم إمجين، فحملوه إلى مخدعها في حقيبة كبيرة ظل مُختفيًا فيها حتى آوت إلى فراشها واستغرقت في نومها، ثم خرج من الحقيبة وفحص عن كل شيء في الحجرة، ودوَّن في مُذكرة له كل ما رآه فيها، وكان أهم ما استرعى نظره شامة رآها في عُنق إمجين. وأخيرًا أخرج السوار بخفة من ذراعها وعاد إلى الحقيبة، ثم انطلق في اليوم الثاني مُسرعًا إلى رومة، وأخذ يتباهى أمام بستيمس بِأَن إمجين أعطته السوار وسمحت له أن يقضي ليلة في مخدعها، وقصَّ يشيمو قصته الكاذبة بهذه الطريقة: «إن جدران مخدعها مُغطاة بنسيج من الحرير الموشي بالفضة، يُمثل قصة كليوباترا تختال عند لقائها أنطوني وهي قطعة فنية بديعة».

وأجابه بستيمس بقوله: «هذا صحيح، ولكنك قد تكون سمعت عنه بِأُذنك ولم تره بعينك». وواصل يشيمو حديثه قائلًا: «أما الموقد ففي الجهة الجنوبية من الحجرة، وغطاؤه يُمثل ديانا في الحمام، ولم أرَ في حياتي صورة أبدع من تلك الصورة». وقال بستيمس: «وذلك أيضًا ربما كنت قد سمعته لأن الناس يتحدثون به كثيرًا».

فأخذ يشيمو يصف سقف الحجرة بمثل هذه الدقة، وزاد على هذا الوصف قوله: «وأكاد أنسى مسند موقدها. إن هذا المسند مُكون من تمثالين لإله الحب صيغا من الفضة، وهما يتغامزان بالأعين ويقف كل منهما على قدم واحدة». ثم أخرج السوار وقال: «أتعرف هذه الحلية يا سيدي؟ لقد أعطتني إياها بعد أن انتزَعتها من ذراعها، وما زلت أتصور ساعة انتزعتها، وكانت طريقة الإهداء أعظم في نظري من الهدية نفسها، وزادتها قيمة على قيمتها. ولقد قالت لي وهي تمد بها يدها إلى إنها كانت من قبل عزيزة عليها». وكان آخر ما فعل أن وصف الشامة التي رآها في عنقها.

وكان بستيمس في أول الأمر يصغي إلى هذه المكيدة المدبرة بشيء من الشك المؤلم، وأما الآن فقد انفجر مرجل غيظه على إمجين، وأسلم خاتم ألماس إلى يشيمو، وكان قد وعده به إذا جاء بالسوار من إمجين.

ثم كتب بستيمس وهو في ثورة الغيرة والغضب رسالة إلى بيزانيو Pisanio، وهو رجل من سادة بريطانيا كان من قبل في حاشية إمجين وظل زمنًا طويلًا من أصدقاء بستيمس الأوفياء المخلصين. وبعد أن قصَّ عليه ما لديه من الأدلة الناطقة بخيانة زوجته، طلب إليه أن يأخذها إلى ملفرد هيفن Milford Haven أحد ثغور ويلز Wales ويقتلها فيه. وكتب في الوقت نفسه رسالة إلى إمجين ملؤها المكر والخداع، طلب فيها إليها أن تُرافق بيزانيو إلى هذا الثغر لأنه وجد الحياة بعيدة عنها مُستحيلة فاعتزم المجيء إلى ملفرد هيفن ليلتقي بها، وإن كان قد أُمِرَ ألَّا يعود إلى بريطانيا وأهدر دمه إن عاد إليها. وكانت هذه السيدة طيبة القلب لا تظن بالناس سوءًا، فلما تلقت الرسالة سافرت من فورها في نفس الليلة مع بيزانيو؛ لأنها كانت تحب زوجها حُبًا لا يعدله حُب؛ ولأن رغبتها في أن تراه كانت أشد من رغبتها في الحياة.

ولما أشرفت رحلتهما على غايتها كشف بيزانيو لإمجين عن حقيقة الأمر الصادر إليه؛ لأنه رغم وفائه لبستيمس لم يشأ أن يُسخر لارتكاب هذا الجرم الشنيع. وتألمت إمجين أشد الألم حين علمت أنها لن تُقابل زوجًا يحبها وتحبه، بل إن هذا الزوج نفسه يريد أن يسلبها الحياة.

وهدأ بيزانيو من روعها وطلب إليها أن تتذرع بالصبر، حتى يتبين بستيمس أنه ظلمها ويندم على ما فعل. ولما كنت غير راغبة في العودة إلى قصر أبيها بعد أن أصابها ما أصابها، فقد أشار عليها أن تلبس ملابس الفتيان

لتأمن على نفسها في سفرها. وعملت إمجين بهذه النصيحة وفكرت أن تذهب في هذا الزي إلى رومة لتُقابل فيها زوجها الذي لم يبرح حبه قلبها، وإن كان قد عاملها هذه المعاملة الوحشية القاسية.

وزودها بيزانيو بلباسها الجديد ثم تركها تحت رحمة الأقدار، فقد كان عليه أن يعود في ذلك الوقت إلى قصر الملك، وأعطاها قبل أن يُفارقها زجاجة من دواء منعش قال إن الملكة أعطته إياها، وإن في دوائها الشفاء من كل الأمراض.

وحقيقة الأمر أن الملكة التي كانت تكره بيزانيو لما كان بينه وبين إمجين وبستيمس من صداقة أعطته هذه الزجاجة ظنًا منها أن بها سمًا، وكانت قد طلبته من طبيبها الخاص مُدعية أنها ستجرب أثره في بعض الحيوانات، ولكن الطبيب كان يعرف خبث طويتها فلم يأتمنها على سم حقيقي، وأعطاها بدلًا منه عقاقير لا تحدث ضررًا لمن يتناولها أكثر من أن تنيمه ساعات قليلة، تبدو عليه في خلالها كل مظاهر الموت. وأعطى بيزانيو إمجين هذا المزيج الذي كان يعتقد أنه خير دواء منعش، وأخبرها أن تتجرع بعضه إذا رأت نفسها مُتعبة في أثناء الطريق، ثم تركها بعد أن دعا لها بالخير والسلامة والنجاة من متاعبها التي لم تكن تستحق منها شيئًا.

وشاءت الأقدار أن تتخذ إمجين سمتها إلى المكان الذي آوى إليه أخواها اللذان اخُتطفا في عهد الطفولة. وكان بلاريس Belarius الذي اختطفهما من كبار رجال البلاط في قصر سمبلين، ولكن الواشين وشوا به إلى الملك واتهموه بالخيانة كذبًا، فطرده من خدمته، وانتقم بلاريس لنفسه بأَن سرق ولدي سمبلين ورباهما في الغابة، وآوى فيها إلى كهف واتخذه مسكنًا

له. وكان حب الانتقام من والدهما هو الذي حمله على اختطافهما، ولكنه لم يلبث أن أحبهما كما يحب الآباء أبناءهم، وأحسن تربيتهم، فنشآ نشأة طيبة، ودفعهما كرم عنصرهما إلى القيام بكثير من أعمال الجرأة والبطولة. وكانا يحصلان على قُوتهما من صيد الغاب، فأكسبهما ذلك النوع من المعيشة نشاطًا وصلابة. وكانا لا ينفكان يلحان على أبيهما المزعوم أن يرسلهما ليجربا حظهما في ميادين القتال.

وساقت الأقدار إمجين إلى الكهف الذي كان يسكن فيه هذان الفتيان؛ وذلك أنها ضلت سبيلها وهي سائرة في غابة كبيرة تعترض طريقها إلى ملفرد هيفن حيث كانت تريد أن تسافر بطريق البحر إلى رومة، ولم تجد في طريقها مكانًا تبتاع منه الطعام فكادت تموت من شدة الجوع والتعب؛ لأن ملابس الرجال لا تكفي وحدها لأن تبعث في نفوس الفتيات اللاتي نشأن في أحضان النعمة قوة الرجال والصبر على مشاق السفر مُنفردات في الغابات. فلما رأت الكهف دخلته لعلها تجد فيه من يمدها بالطعام؛ ولما لم تجد فيه أحدًا أخذت تُقلب الطرف في أرجائه، فوقعت عينها على بعض اللحم البارد، ولم تنتظر لشدة الجوع أن يدعوها أحد إلى الطعام، بل جلست من فورها وأخذت تأكل اللحم، وقالت في نفسها: «إن حياة الرجال في نظري حياة شاقة، ألا ما أشد ما قاسيت من التعب! لقد قضيت ليلتين متواليتين افترش الغبراء، ولولا عزيمتي الصادقة لأضناني المرض. لقد أشار بيزانيو إلى ملفرد هيفن من أعلى الجبل فلاحت لي قريبة كل القرب!»، ثم تذكرت زوجها وقسوته عليها فقالت: «عزيزي بستيمس إنك لرجل غادر!».

ورجع أخوا إمجين في ذلك الوقت من الصيد مع بلاريس أبيهما المزعوم؛ وكان بلاريس قد أطلق عليهما اسمي بليدور Polydore وكدول

Cadwal، فلم يكن الأميران يعرفان لهما غير هذين الاسمين، وكانا يظنان أن بلاريس أبوهما حقًا. أما اسماهما الحقيقيان فكانا جيدريس Guiderius وأرفراجس Arviragus.

ودخل بلاريس الكهف قبل الأميرين، فلما رأى إمجين قال لهما «قفا مكانكما ولا تدخلا الكهف، إنها تأكل الطعام، ولولا ذلك لظننتها من بنات الجان».

وسأله الشابان عن جلية الأمر، وقال بلاريس حين رأى جمال إمجين البارع وهي في ثياب الفتيان: «أقسم أن في الكهف ملكًا من السماء، أو آية من آيات الخلائق الأرضية».

وسَمِعَتْ إمجين أصواتهم فخرجت من الكهف وخاطبتهم قائلة: «أيها السادة النجب! لا تُؤذوني، فقد فكرت قبل أن أدخل كهفكم أن أسألكم أو ابتاع منكم ما طعمته، والحق أني لم أسرق شيئًا، وليس من شيمتي أن أسرق، ولو وجدت الذهب منثورًا على أرض هذا الكهف؛ وها هو ذا المال أُقدمه ثمنًا لما أكلت من اللحم، وكان في نيتي أن أتركه على هذه اللوحة بعد أن أفرغ من تناول الطعام، وأن أدعو لأصحابه بالخير والبركة». وأبى أصحاب الكهف أن يأخذوا منها شيئًا من المال، فقالت لهم في خجل: «يُخيل إليَّ أني قد أغضبتكم بما فعلت، ولكن اعلموا يا سادتي إذا أخدتموني بذنبي أنني كنت أموت حتمًا لو لم أرتكب هذا الذنب».

وسأل بلاريس: «ما اسمك وأنَّى تذهب؟». فأجابته إمجين بقولها: «اسمي فيديل Fidele، ولي قريب مسافر إلى إيطاليا، وقد ركب البحر من ملفرد هيفن، وخرجت أنا من بلدي أريد الذهاب إليه، فاشتد بي الجوع فارتكبت هذا الذنب».

وردَّ عليها الشيخ بلاريس بقوله: «أيها الشاب الوسيم! نرجو ألَّا تظننا أجلافًا غِلاظًا، وألَّا تحكم على طباعنا بها البيت الخشن الذي نعيش فيه. لقد أدركك الليل فمرحبًا بك، وستلقى قبل رحيلك خيرًا مما لقيت عند قدومك، وسنشكر لك ما أقمت عندنا وما طعمت من زادنا. هيا يا ولديَّ وأكرما الضيف».

وتقدم الفتيان إلى اختهما إمجين ودعواها إلى الجلوس في كهفهما، وحيياها أحسن تحية، وقالا إِنهما سيحبانها (أو على الأصح سيحبانه) حب الأخ أخاه، ثم دخلا الكهف ومعهما ما صاداه من الغزلان، فطهت لهما إمجين اللحم أحسن الطهي، وساعدتهما على تهيئة العشاء. وكان من عادة الفتيات بنات الأُسر الكريمة أن يتعلمن طهي الطعام، ولم يكن يستنكفن أن يفعلن ذلك كما تستنكف مثيلاتهن في هذه الأيام، ولذلك كانت إمجين تجيد هذا الفن النافع. وعبَّر الأخوان عن إعجابهما بقولهما: «إِن فيديل يقطع الجذور للطهي كأنه يخطها بالقلم، ويهيئ الحساء كأن جونو Juno زوجة جوبتر Jupiter مريضة، وكأنما كلف هو بإِعداد ما يلزمها من الطعام». ثم قال بليدور Polydore لأخيه: «ما أعذب غناء هذا الملاك وما أشجاه!».

وقال كلاهما لصاحبه إِن ابتسامات فيديل الحلوة لتشف عن حُزن عميق يبدو في وجهه، وكأنما الحزن والصبر معًا يحزان في قلبه.

وأصبحت إمجين — أو فيديل كما كان يسميها الفتيان — بفضل هذه الصفات الطيبة، أو بفضل ما كان يربطها بالفتيين من أواصر القربى على غير علم منهما، أصبحت إمجين أحب الناس إِلى أخويها، وأحبتهما هي أيضًا أشدا لحب، ولولا ذكرى زوجها العزيز بستيمس لودت أن تعيش على الدوام مع

هذين الفتيين ساكني الغابة، وقد قبلت في سرور أن تقيم معهما حتى تستريح من عناء السفر، وتستطيع أن تُواصل سيرها إلى ملفرد هين.

ولما فرغ لحم الغزلان التي صاداها وأرادا أن يخرجا للصيد مرة أُخرى، لم تستطع الفتاة لمرضها أن تصحبهما، ولا شك في أن ألمها من قسوة زوجها، وما عانته من مشقة في تجوالها في الغابة، كانا سبب هذا المرض، فودعاها وذهبا للصيد، وكانا طول الطريق يتحدثان بخير عن الفتى فيديل ويعجبان بكرم أخلاقه وبهاء طلعته.

ولم تكد إمجين تنفرد بنفسها حتى تذكرت الزجاجة التي أعطاها لها بيزانيو، وشَرِبَت كل ما فيها من الدواء، فنامت لساعتها نومًا عميقًا لا فرق بينه وبين الموت.

وعاد بلاريس وأخواها من الصيد، وكان بليدور أول من دخل الكهف، فلما رآها ظنها نائمة، فخلع نعليه الغليظتين لكيلا يوقظها بثقل وطئهما؛ وذلك لأن الرقة والظرف نبتا سريعًا في قلب هذين الأميرين ساكني الغاب. ولكن بليدور أدرك بعد قليل أنها لا تستيقظ مهما علا الصوت، فاعتقد أنها ماتت، وحَزِنَ عليها حُزن الأخ الشفيق الذي لم يُفارق أخاه مُنذ نعومة أظفاره.

وأشار عليهما بلاريس أن ينقلاها بين الأشجار ليحتفلوا جميعًا بجنازتها بترديد الأغاني وأناشيد الحزن كما كان الناس يفعلون في تلك الأيام.

وحمل الأخوان إمجين إلى مكان فسيح مُظلل في الغابة، وضعاها على الكلأ، وأخذا ينشدان الأناشيد ويطلبان لها الرحمة، ثم غطيا جسمها بالزهر وأوراق الشجر. ولما فَرِغَا من عملهما قال بليدور: «سأزو قبركِ يا فيديل في

كل يوم من أيام الصيف ما دُمتُ مُقيمًا في هذا المكان، وأنثر عليه الزهر وأوراق الشجر، سأنثر عليه زهر الربيع الشاحب أشبه الأزهار بوجهك، والزنبق الأزرق أشبهها بلون أوردتك، وأوراق الورد الجبلي التي لا يفوق شذا عرفها أنفاسك العطرة يوم كنت في الأحياء، سأنثر كل هذا عليك في الصيف، وسأنثر الطحلب الناعم في الشتاء حين لا أجد من الأزهار ما أُغطي به جسمك».

ولما أتما مراسم دفنها عادا إلى كهفهما حزينين كاسفي البال.

وقبل أن يمضي على فراقهما وقت طويل، زال أثر الدواء فاستيقظت إمجين ونفضت ما كان عليها من أوراق وأزهار، ووقفت على قدميها وهي تظن أنها كانت في حلم فقالت: «يُخيل إليَّ أني كنت في كهف أشرف عليه وأطهي فيه الطعام لقوم كِرام، فكيف جِئت إلى هذا المكان؟ وكيف غطتني هذه الأزهار؟».

وضلت إمجين طريقها إلى الكهف ولم ترَ أحدًا من رفاقها الجُدد، فلم يُخامرها شك في أنها كانت في حلم، وبدأت رحلتها الشاقة من جديد وهي ترجو أن تصل آخر الأمر إلى ملفرد هيفن وتستقل منها سفينة مُسافرة إلى إيطاليا؛ لأن أفكارها كانت لا تزال مُتعلقة بزوجها بستيمس، وقد اعتزمت أن تبحث عنه وهي في ثياب الفتيان.

ولكن أحداثًا خطيرة كانت تحدث في تلك الأيام ولا تعرف عنها إمجين شيئًا. ذلك أن حربًا شبَّت نارها فجأة بين أُغسطس قيصر إمبراطور الرومان وسمبلين ملك بريطانيا، ونزل جيش روماني في أرض بريطانيا ليغزوها، وتقدم الجيش حتى وصل إلى الغابة التي كانت تسير فيها إمجين، وجاء بستيمس مع الغُزاة الفاتحين.

جاء بستيمس مع هذا الجيش إلى بريطانيا ولم يكن في نيته أن يُحارب بلاده في صف أعدائها، بل كان يريد أن ينضم إلى جيش بريطانيا ليدافع عن مليكه الذي أخرجه من بلاده.

وكان لا يزال يعتقد أن إمجين قد خانته، ولكن موت زوجته التي كان يحبها ويعزها والتي أمر هو بقتلها – فقد كتب إليه بيزانيو يقول إنه أطاع أمره وقتل إمجين – نقول إن موت هذه الزوجة أحزنه وأمرَّ عيشه، فعاد إلى بريطانيا لعله يخر صريعًا في ميدان القتال، أو لعل سمبلين يقتله جزاءً له على عودته من منفاه.

ووقعت إمجين أسيرة في أيدي جنود الرومان قبل أن تصل إلى ملفرد هيفن، وأعجب قواد الرومان بهاء طلعتها وسرعة بديهتها، فألحقها لوسيس Lucius قائد الجيش بخدمته.

وتقدم جيش سمبلين لملاقاة العدو، فلما دخل الغابة انضم إليه بليدور وكدول وكانا شديدي الرغبة في أن يظهرا شجاعتهما وبأسهما، وإن كانا لا يعرفان أنهما سوف يُحاربان دفاعًا عن أبيهما الملك، وسار معهما أيضًا الشيخ بلاريس لأنه ندم من زمن طويل على ما آذى به سمبلين باختطاف ولديه. وإذ كان قد تعود الحرب في شبابه، فقد سره أن ينضمَّ إلى الجيش ليُدافع عن مليكه ويكفر عمَّا جناه عليه من قبل.

وحمى وطيس القتال بين الجيشين، وكادت تدور الدائرة على البريطانيين ويُقتل مليكهم سمبلين، لولا ما أبداه بستيمس وبلاريس وولدا سمبلين من ضروب الشجاعة النادرة، وبفضل هذه الشجاعة نجا الملك من الهلاك المحقق، وتغير مجرى القتال، وهُزِمَ الأعداء، وعُقِدَ لواء النصر

للبريطانيين. ولما خبت نيران القتال ولم يظفر بستيمس بالموت الذي كان يرجوه، أسلم نفسه إلى أحد ضباط سمبلين لعله يُقتل جزاء له على عودته من منفاه.

وأسرت إمجين مع مخدومها وجيء بهما أمام سمبلين، وجيء أمامه أيضًا بيشيمو، وكان ضابطًا في الجيس الروماني. وبينا كان هؤلاء كلهم واقفين في حضرة الملك جيء أيضًا بستيمس ليُتلى عليه حُكم الإعدام. وفي هذا الوقت عينه أدخل بلاريس ومعه بليدور وكدول لينالا ما يستحقان من جزاء على ما أديا للملك بشجاعتهما من خدمات جليلة. وحضر هذا المشهد أيضًا بيزانيو، وكان من أتباع الملك ومن رجال بلاطه.

اجتمع أمام الملك إذن في هذه اللحظة طائفة من الأفراد لكل منهم آماله ومخاوفه الخاصة به. وكان منهم بستيمس وإمجين مع القائد الروماني سيدها الجديد، وكان منهم الخادم الأمين بيزانيو والصديق الغادر يشيمو، وكان منهم ولدا سمبلين الضائعان مع بلاريس الذي اختطفهما من أبيهما.

وكان القائد الروماني أول من تكلم، ووقفوا كلهم صامتين أمام الملك، ولكن مُعظمهم كان في وجل ترتعد فرائصه فرقًا.

ورأت إمجين بستيمس وعرفته، مع أنه كان يلبس ثياب القرويين، أما هو فلم يعرفها في ثياب الفتيان، وعَرِفَتْ كذلك يشيمو ولمحت خاتمًا في إصبعه تبينت أنه خاتمها، ولكنها لم تكن تعرف وقتئذ أنه سبب كل ما حل بها من شقاء، ووقفت هي أمام أبيها أسيرة حرب.

وعَرِفَ بيزانيو إمجين، وكان هو الذي ألبسها ثياب الفتيان، وقال في

نفسه: «إنها لسيدتي بلا ريب، وما دامت هي على قيد الحياة فليكن بعد ذلك ما يكون خيرًا كان أو شرًا». وعَرِفها بلاريس وأسرَّ إلى كدول قوله: «أليس هذا فتانا قد عادت إليه الحياة؟». فأجابه كدول: «إن هذا الفتى الوسيم ذا الوجنة الوردية ليشبه فيديل الميت كأنما شقا من نبعة واحدة». وقال بليدور: «إنه هو قد عادت إليه الحياة». وقال بلاريس: «صه، صه! لو كان هو لتحدث إلينا من غير شك». وأجابه بلاريس: «صه!».

وظل بستيمس صامتًا ينتظر الحكم المرتجى بإعدامه، واعتزم ألَّا يبوح للملك أنه قد أنجاه من الموت، لئلا يُحرك ذلك عطف سمبلين فيعفو عنه.

وكان لوسيس القائد الروماني الذي أخذ إمجين في كنفه وجعلها خادمًا له أول من تكلم أمام الملك كما سبق القول، وكان هذا القائد رجلًا ثابت الجنان مهيب الطلعة، فقال للملك: «سَمِعت أنك لا تقبل الفداء من الأسرى بل تقضي بإعدامهم، إني من بني الرومان وسأُلاقي الموت بقلب كقلوب الرومانيين، ولكن لي رجاءً واحدًا لا أرجو سواه». ثم جاء بإمجين أمام الملك وقال: «إن هذا الفتى بريطاني المولد، فاقبل منه الفداء، وهو خادمي ولم أرَ في حياتي عند سيد من السادة خادمًا أشفق منه أو أحرص منه على أداء واجبه، أو أكثر منه نشاطًا أو أعظم منه إخلاصًا وحنوًا. إنه لم يسيء قط إلى بريطاني وإن كان قد خدم رومانيا، ولا أقل من أن تعفو عنه إن لم تعف عن أحد سواه».

ونظر سمبلين نظرة ثاقبة إلى ابنته إمجين، غير أنه لم يعرفها وهي مُتنكرة في ثياب الفتيان. وكأن الطبيعة حدثت قلبه حديثًا صامتًا فقال: «يقينًا لقد رأيته من قبل، إني لا أعرف وجهه ولست أدري كيف ولِمَ أقول عش أيها

الفتى، ولكني أهبك الحياة وأقول لك سل ما تشاء فسؤالك مُجاب، ولو طلبت العفو عن أشرف أسير في قبضة يدي».

فأجابته إمجين: «أشكر لجلالتك هذا العطف في خضوع وإِجلال».

وكان قولهم: «سل ما تشاء» بمثابة وعد لمن واتاه ذلك الحظ بِأَن يُجاب إِلى شيء واحد يرجوه أيًا كان شأنه. وسكت الكل ينتظرون ما يطلبه الفتى، وقال له سيده لوسيس: «لست أرجو لنفسي الحياة أيها الفتى الكريم، ولكنني أعرف أن هذا هو الذي ستطلبه إِلى الملك». فأجابته إمجين: «كلا.. مع الأسف الشديد؛ إِن لي مطلبًا آخر أيها السيد الشريف، وليس في وسعي أن أطلب لك الحياة».

وعَجِبَ القائد الروماني من هذا الذي ظنه جحودًا.

ثم صوبت إِمجين نظرها إِلى يشيمو، ولم تطلب إِلى الملك إِلَّا أن يرغمه على أن يعترف بمصدر هذا الخاتم الذي يلبسه في إِصبعه.

وأجابها سمبلين إِلى طلبها وأنذر يشيمو بِأَشد أنواع العذاب إِذا لم يدلهم على الطريقة التي حصل بها على خاتم ألماس الذي في إِصبعه.

وحينئذ اعترف يشيمو بفعلته النكراء، وقصَّ عليهم قصة الرهان، وأخبرهم كيف نجح في حيلته بفضل سذاجة بستيمس وسرعة تصديقه.

وليس في وسع الإِنسان أن يصف شعور بستيمس عندما سَمِعَ بِأُذنه هذا الدليل القاطع على براءة زوجته. وحسبنا أن نقول إِنه تقدم من فوره، واعترف أمام سمبلين بالحكم الصارم الذي أمر بيزانيو أن يُنفذه في الأميرة، وصالح قائلًا: «ملكتي، حياتي، زوجتي، إِمجين، إمجين، إمجين».

ولم يكن في طاقة إمجين أن ترى زوجها المحبوب في هذه المحنة ولا تكشف له عن أمرها، ولشد ما سر بستيمس عندما رفع عنه وزر الجريمة وعبء الحزن الثقيل، واستعاد ما كان له من مكانة في قلب السيدة العزيزة التي قسى عليها في الأيام الماضية.

ولم يكن سرور سمبلين بوجود ابنته المفقودة بهذه الطريقة العجيبة أقل من سرور بستيمس، فردها إلى مكانتها الأُولى عنده، وعاد حبه الأبوي إلى ما كان عليه من قبل، ولم يكتفِ بالعفو عن بستيمس بل رضى به زوجًا لابنته.

واختار بلاريس هذه الساعة، ساعة الرضا والسرور الشامل، فأقر هو الآخر بذنبه وقدَّم إلى الملك بليدور وكدول، وقال إنهما ولداه جيدريس وأرفراجس.

وعفا سمبلين عن الشيخ بلاريس، وهل كان في وسع إنسان أن يُفكر في الانتقام في هذه الساعة، ساعة السعادة الشاملة والسرور الذي لم يكن في الحسبان؟ وهل كان يدور بخلد الملك أنه سيجد ابنته على قيد الحياة، وأن ولديه سيُدافعان عنه دفاع الأبطال؟

وفي هذه الساعة وجدت إمجين الفرصة سانحة لخدمة مولاها السابق القائد الروماني لوسيس، فعفا الملك عنه بُناءً على طلبها، وبفضل وساطة هذا القائد نفسه عُقِدَ الصلح بين الرومان والبريطانيين، ودام هذا الصلح كثيرًا من السنين.

وحسبنا أن نشير هنا إشارة عارضة إلى ما كان من أمر الملكة الأثيمة زوج سمبلين، لم تفلح هذه الملكة في تنفيذ مكائدها ودسائسها، ونَدِمَتْ على سوء فعالها فمرضت وماتت بعد أن رأت ولدها الأحمق كلوتن يُقتل على أثر شجار أثاره بنفسه، حسبنا أن نشير إلى هذا كله إشارة خاطفة؛ لأن فيه مآسي لا يصح

أن نكدر بها بصفو هذه الهناءة الشاملة. لقد نال السعادة من هذا الجمع كل من كان جديرًا بها، وحتى يشيمو الخائن قد طُرِدَ دون أن يُوقع عليه عقاب؛ لأن مآربه الخبيثة لم تتحقق.

الملك لير

كان للملك لير ملك بريطانيا ثلاث بنات، جنرل Goneril زوجة دوق ألبني Albany، وريجان Regan زوجة دوق كرنوول Cornwall وكردليا Cordelia وهي شابة عذراء كان يتنازع حُبها ملك فرنسا ودوق برجنديا Burgundia وكانا يقيمان لهذا السبب في بلاط لير.

وكان أبوهن قد جاوز الثمانين من عمره، وهدت قواه الشيخوخة ومتاعب الحكم، فقرر أن ينفض يده من شؤون الدولة؛ ليتولاها من هم أقل منه سنًا، وأقدر منه على تصريف الأُمور، وليقضي ما بقى من أيام حياته في الاستعداد للموت الذي هو مدركه عمَّا قليل؛ ولذلك دعا إليه بناته الثلاث ليعرف منهن أيهن أكثر حُبًا له، فيُقسم مملكته بينهن بنسبة هذا الحب. وقالت كبراهن جنرل إنها تحب أباها حُبًا تعجز عن التعبير عنه الألفاظ، وإنه أعز عليها من نور عينيها، ومن الحياة والحرية إلى غير ذلك من العبارات التي ينطق بها اللسان وليس لها سند من الحب الخالص، بل هي ألفاظ جميلة ينقصها الإخلاص والوفاء. وسرَّ الملك أن يسمع ابنته تُؤكد له بنفسها هذه الحب الشديد، وظن أنها تُعبر بلسانها عمَّا في قلبها، فثارت في نفسه عاطفة الحب الأبوي ومنحها هي وزوجها ثلث مملكته الواسعة. ثم دعا إليه ابنته الثانية وسألها عمَّا تقول. ولم تكن ريجان أقل من أختها فراغ قلب، ولذلك لم تشأ أن تسبقها هذه الأُخت في زلاقة الألفاظ وشقشقة اللسان، فأجابت بأَن ما قالته أختها يقصر عن التعبير عن الحب الذي تكنه لجلالته، وأن ما يفيض

به قلبها من الغبطة بحب مليكها وأبيها العزيز ليتضاءل أمامه كل ما عداه من غبطة وسرور.

فلما سَمِعَ الملك هذا القول حَمِدَ الله الذي وهبه ذرية طيبة تحبه هذا الحب الصادق في ظنه، ولم يسعه بعد هذا التأكيد إلا أن يمنحها هي وزوجها جُزءًا من مملكته يُعادل ما منحه جنرل.

ثم التفت إلى كردليا صُغرى بناته، والتي كان يدعوها بهجته وسروره، وسألها ماذا عسى أن تقول، وكان يظن من غير شك أنها ستسمعه مثل أختيها من ألفاظ الحب ما يطربه، بل كان يعتقد أن ألفاظها ستكون أقوى في التعبير عن هذا الحب؛ لأنها كانت طوال حياتها أعز بناته وأقربهن إلى قلبه. ولكن كردليا اشمأزت من ألفاظ الملق التي فاهت بها شقيقتاها، وكانت تعرف أن قلبيهما لا يكنان لأبيهما ذلك الحب، الذي نطق به لسانهما، وأن كل ما كانتا تبغيانه من أقوالهما المعسولة أن تسلبا أباهما الشيخ ملكه، حتى تتمتعا مع زوجيهما بسلطان الحُكم في حياته. ولذلك لم تجبه بأكثر من قولها إنها تحب جلالته قدر ما يقضي به واجبها له لا أكثر منه ولا أقل.

وبهت الملك حين سمع ابنته المحبوبة تظهر أمامه بهذا الجحود، فطلب إليها أن تُفكر في ألفاظها وتُصلح من قولها لئلا يسوء حظها.

فقالت كردليا لأبيها إنه هو أبوها الذي رباها وأحبها، وإنها تجزيه على ما فعل بخير ما يجب أن يُجزى به. فهي تطيعه وتحبه وتجله الإجلال كله، ولكنها لا تستطيع أن تحمِّل لسانها من الألفاظ الضخمة ما نطقت به أختاها، فتعده بأَن لا تحب في الدنيا سواه، وسألته لم تزوجت أختاها إذا لم تكونا تحبان غير أبيهما كما تدعيان، ثم قالت إنه إذا ما قدر لها أن تتزوج فإن من

حق الرجل الذي تتزوجه أن ينال نصف حبها ونصف رعايتها ونصف ما عليها من واجبات، وإنها إذا كان لها ألَّا تحب غير أبيها فما أجدرها ألَّا تتزوج قط كما تزوجت أُختاها.

ولو سُئِلَتْ كردليا في غير هذا الظرف عن مقدار حبها لأبيها الشيخ لعبرت عن هذا الحب بِألفاظ صريحة أدل عليه وأليق بالبنات عندما يُخاطبن آباءهن، ومن غير أن تضيف إلى قولها تلك العبارات التي لا تخلو من بعض الجفاء. وكانت في حقيقة أمرها تحب أباها حُبًا لا يقل عمَّا ادعته أُختاها؛ ولكنها بعد أن سمعت منهما ألفاظ المكر والملق، وعَرِفَتْ ما عاد عليهما من هبات كريمة بلغت غاية السخاء، رأت أن خير ما تستطيع أن تفعله هو أن تحب أباها وأن تطوي على هذا الحب جوانحها ولا تُحرك به لسانها، فيكون حُبًا خالصًا لا ترقى إليه الشُبهات ولا تبغي به كسبًا. وكانت ترى أنه كلما كانت ألفاظها أبعد عن التظاهر كانت أكثر صدقًا وإخلاصًا من ألفاظ شقيقتيها.

وكان الملك حتى في آخر أيامه لا ينفك يهتاج ويركب رأسه، والآن وقد بلغ أرذل العمر فقد خرف وفسد عقله، فلم يكن في مقدوره أن يتبين الصدق من الملق، أو ألفاظ الرياء المزوقة من عبارات الوفاء والإخلاص. واستشاط الشيخ غضبًا من صراحة ابنته التي سماها صلفًا وكبرياء، ورجع عمَّا كان يريد أن يخصها به من مُلكه، وقسَّم الثلث الباقي بين أختيها وزوجيهما أميري ألبني وكونوول، ودعا الأميرين إليه وخلع عليهما تاجه ونزل لهما في حضرة رجال بلاطه وكُبراء دولته عن كل ما كان له من سلطان وخراج وتصرف في شؤون الدولة، ولما يستبق لنفسه إلا اللقب، أما سائر مظاهر الملك فقد نزل عنها لهما ولم يشترط عليهما إلا أن يكون مقامه في قصر ابنتيه بالتناوب شهرًا عند

هذه وشهرًا عند تلك هو ومائة من فرسانه يستبقيهم ليكونوا حاشية له.

وعَجِبَ رجال البلاط من تصرف لير في مملكته هذا التصرف العجيب الذي أملته عليه عواطفه ولم يُحكِّم فيه عقله، وحزنوا لذلك أشد الحزن، ولكن واحدًا منهم لم يجرؤ على أن يُعارض الملك في ساعة غضبه إلا إيرل كنت Earl Kent، فقد شرع يذكر كردليا بالخير أمام أبيها، ولكن لير أمره في حدة وغيظ ألَّا ينبس ببنت شفة، وإلا أمر بقتله. غير أن كنت لم يكن بالرجل الذي يرهب مثل هذا الموقف؛ لقد كان طوال حياته وفيًا للير، يجله إجلال الملوك، ويحبه حب الآباء، ويتبعه كالخادم، ولم يكن يعرف لحياته قيمة إلا أنها درع يقي به مولاه من أعدائه، ولا يتردد في أن يُضحي بها إذا تطلبت ذلك سلامة لير، وحتى في هذه الساعة التي أصبح فيها الملك ألد أعداء نفسه لم ينسَ هذا الخادم الوفي خلاله النبيلة، بل وقف وقفة البطل في وجه لير ليفعل الخير للير، ولم يخرجه عن أدبه إلا جنون لير.

وكان كنت مُشيرًا أمينًا للملك في أيامه الماضية فأهاب به في هذا الوقت أن يرى بعينيه ويستمع إلى نصيحته كما كان يفعل من قبل في كثير من الأُمور الخطيرة، وأن يحزم أمره ويرجع عن خرقة الشنيع، وقال إن ابنته الصغرى ليست أقل حُبًا له من شقيقتيها، وإن الصوت الخافت لا يدل على عطل القلب من الحب، كما أن ضعف الرنين لا يدل على فراغ الإناء، ثم قال إنه يضمن بحياته صدق حكمه، وإن صاحب السلطان إذا خضع للملق وجب أن يُصارحه الرجل الشريف. ولم يكن تهديد لير ليؤثر فيه وهو الذي اعتاد أن يُضحي بحياته في خدمة مولاه؛ لأن الواجب كان يدعوه ألَّا يضن عليه بالنصح.

وتلهب الملك غيظًا من هذه الصراحة النبيلة، وأمر هذا الخادم الأمين في ساعة غضبة أن يخرج من مملكته، ولم يمهله إلا خمسة أيام يُهيئ فيها نفسه للرحيل، فإذا وُجِدَ في اليوم السادس داخل حدود بريطانيا كان هذا اليوم آخر أيام حياته. وكان لير بعمله هذا أشبه بالمريض الأحمق الذي يقتل الطبيب ويصطفي الداء الوبيل. وودع كنت الملك وقال له إنه إذا كان ذلك شأنه فإن البقاء معه هو النفي بعينه، وقبل أن يُغادر المكان أهاب بالآلهة أن تعنى بكرديليا، تلك الفتاة التي لم تضمر إلا الخير ولم تنطق بغير الصواب، وتمنى أن تُحقق أختاها صدق دعواهما الطنانة، ثم خرج – على حد قوله – ليسلك مسلكه القديم في بلد جديد[٤].

ودُعي ملك فرنسا ودوق برجنديا ليستمعا إلى ما اعتزمه الملك بشأن صغرى بناته. وليعرف منهما هل يصران على خطبتهما لكرديليا بعد أن استحقت غضبه وسخطه، ولم يبقَ لها ما يحببهما فيها إلا شخصها. فأما دوق برجنديا فأعرض عن خطبته وأبى أن يتزوجها على هذه الشروط، وأما ملك فرنسا فإنه بعد أن عَرِفَ حقيقة جرمها الذي حرمها عطف أبيها، وأيقن أن ذلك الجرم لم يكن إلا عجزها عن أن تُنطق لسانها بمثل ما نطقت به أختاها من ملق ورياء، أخذ بيد الفتاة وقال إن مهرها هو فضائلها التي لا يُعادلها مُلك مهما عظم، ثم أمرها أن تُودع أُختيها وأباها وإن قسا عليها، وأن تستعد للذهاب معه لتكون ملكة عليه وعلى فرنسا الجميلة، وتحكم بلادًا أبهى مما تحكم أُختاها، وقال لدوق برجنديا في ازدراء إن حبه لهذه الفتاة قد نضب معينه في لحظة وجيزة.

---

[٤] أو ليقضي أيام الشيخوخة في بلد جديد –كما يقول بعض الشراح. (المترجم)

ثم ودعت كردليا أُختيها والدمع يفيض من عينيها، وطلبت إليهما أن تحبا أباهما جزاء ما أفاض عليهما من مُلك واسع. فأجابتها الأُختان في أنفة ألَّا تملي عليهما ما تفعلان؛ لأنهما أعرف منها بواجبهما، وأن عليها أن تعمل لاسترضاء زوجها – الذي تصدق عليها بقبولها – كما قالا لها في سخرية وازدراء. وغادرت كردليا قصر أبيها حزينة كاسفة البال لأنها كانت تعرف ما تضمره أُختاها من مكر وخبث، وتمنت أن يرزق والدها صدورًا أحن عليه من صدري أُختيها وقد أوشكت أن تتركه بينهما.

ولم تكد كردليا تُغادر القصر حتى بان الخفاء وظهر ما في طبيعة الأُختين من خُبث. وقبل أن ينقضي الشهر الأول الذي اتفق أن يقيمه لير في قصر جنرل كُبرى بناته بدأ الملك يدرك الفرق بين القول والعمل. فبعد أن حصلت هذه الابنة الدنيئة من والدها على كل ما تستطيع أن تحصل عليه منه حتى تاج رأسه، بدأت تستكثر عليه ما احتفظ به من بقايا الملك التافهة ليخدع بها نفسه فيظن أنه لا يزال ملكًا. فلم تكن تطيق رؤيته هو وفرسانه المائة، وكلما لقيته تجهمت وظلت عابسة الوجه كاشرة، فإذا أراد الشيخ أن يُكلمها تمارضت أو انتحلت من المعاذير ما تتخلص به من رؤيته، وأصبح غير خافٍ على أحد أنها تعد أباها الشيخ عبئًا لا خير فيه، وتعد ما ينفق على حاشيته إسرافًا لا ضرورة له. ولم يكن كل ما لقيه هذا الشيخ أن تظهر هي نفسها عدم اكتراثها به وتوانيها في القيام بواجبها نحوه، بل إن خدمها أنفسهم اقتدوا بها، ولعلهم تلقوا في السر أوامرها، فأخذوا يهملون شأنه ويغفلون أوامره، أو يفعلون ما هو أبلغ من هذا في احتقاره، وهو التظاهر بعدم سماع قوله. ولم يخف على لير ما طرأ على سلوك ابنته من تبدل، ولكنه أغضى عنه أطول ما استطاع الإغضاء لأن الناس يستنكفون في العادة أن يُصدقوا ما تجره

عليه أغلاطهم وعنادهم من سوء العاقبة.

لكن الحب والإخلاص لا يذهب بهما سوء المعاملة، كما لا يفيد حُسن الصنيع في كسب قلوب الخونة الغادرين، وتظهر هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها في إيرل كنت، فقد أخرجه لير من بلده، وأباح دمه إذا وُجِدَ في أرض بريطانيا، ولكنه فضَّل أن يبقى في تلك البلاد ويُعرض نفسه لجميع الأخطار، لعل فرصة تُتاح له لخدمة مولاه الملك، وما أكثر ما يُقاسي الأوفياء المساكين حين يضطرون إلى التنكر والظهور بمظهر الذلة والمهانة، ولكنهم لا يرون في ذلك عارًا يلحقهم إذا كان بعملهم هذا يُوفون بحق من أحسن إليهم. ومن أجل ذلك تزيا هذا الأمير الطيب القلب بزي الخدم، وخلع كل مظاهر العظمة والأُبهة، وعرض نفسه على الملك. ولم يعرف الملك حقيقة أمره، ولكن أعجبه في إجاباته شيء من الصراحة أو على الأصح شيء من الخشونة، يختلف عن الملق والدهان وزلاقة اللسان التي عافتها نفسه بحق بعد أن رأى فعال ابنته. وسرعان ما اتفقا على أن يأخذ لير إيرل كنت في خدمته، وكان الاسم الذي اختاره كنت لنفسه هو كيس Caius، ولم يدرِ في خُلد الملك أن كيس هو نفسه إيرل كنت القوي العظيم أحد كبار رجاله المقربين.

وسرعان ما أُتيحت الفرصة لكيس ليظهر حُبه وإخلاصه لمولاه الملك، ذلك أن أُستاذ بيت جنرل أبدى في ذلك اليوم بمظهره ومقوله شيئًا من الاستخفاف بالملك، ولا شك في أن سيدته هي التي شجعته على ذلك سرًا، فلم يطق كيس صبرًا على هذه الإهانة التي لحقت بسيده، ولم يكن منه إلا أن عرقب الخادم الوقح وألقى به في مجرى الماء القذر. وكانت هذه الحادثة سببًا في ازدياد تعلق الملك بكيس وإعزازه له.

ولم يكن كنت صديق لير الوحيد، بل كان ممن لازمه بعد أن نزل عن مُلكه وخلع التاج عن رأسه شخص آخر وضيع الشأن هو مضحكه أو مهرجه كما كان الناس يُسمونه. وكان هذا المهرج أحد أفراد حاشية الملك أيام أن كان للملك حاشية. ذلك أنه كان من عادة الملوك والعُظماء في تلك الأيام الماضية أن يحتفظ كل منهم بمضحك له أو مُهرج يُسليه ويذهب عنه عناء العمل. وقد أظهر هذا المهرج الحقير الشأن من الإخلاص لسيده ما كان في وسع رجل مثله أن يظهره، وكان يسليه ويذهب عنه الكآبة بمرحه وفكاهته، على أنه كان في بعض الأحيان لا يستنكف أن يهزأ بسيده ويُندد بسقم رأيه لما أن خلع التاج عن رأسه ونزل عن مُلكه لابنتيه «فانهمرت من عيونهما في تلك الساعة دموع الفرح وغنى هو حزنًا على عبث الملك وبلاهته»[٥].

وبهذه الأقوال الغريبة والأغاني الكثيرة القصيرة كان هذا المهرج المرح الشريف يفرغ كل ما في قلبه من الاستهزاء واللوم الشديد الذي كان يحز في القلوب، ولم يكن يخشي أن يفعل ذلك في حضرة جنرل نفسها، فقد كان مثلًا يشبه الملك بالعصفور الذي أخذ يطعم صغار الغراب، فلما كبرت الصغار جزت العصفور على حسن صنعه بقطع رقبته، وذكر له مرة أن الحمار قد يعرف متى تجر المركبة الحصان (يعني بذلك أن ابنتي لير اللتين كان عليهما أن تسيرا خلف أبيهما تتقدما عليه الآن). وقال مرة أُخرى إن لير لم يبقَ هو لير، بل أصبح خيال لير. وقد توعده الملك مرة أو مرتين أن يجزيه على هذه الجرأة بالضرب.

ولم يكن الفتور وذهاب الهيبة اللتان أخذ لير يُشاهدهما في كل وقت

---

[٥] من كلام المهرج.

كل ما قدر لهذا الأب المحب الأخرق أن يُلاقيه من ابنته الجاحدة، فقد أخبرته بصريح العبارة أن مقامه في قصرها يُضايقها ما دام يصر على الاحتفاظ بحاشيته الكبيرة المؤلفة من مائة فارس عديمي النفع كثيري التكلفة، ولا عمل لهم إلا أن يملأوا القصر بصخبهم وسوء سلوكهم، ثم طلبت إليه أن ينقص عددهم وألا يبقى حوله إلا نفرًا من أمثاله الشيوخ الذين يليقون بسنه.

ولم يصدق لير أول الأمر ما كان يرى ويسمع، بل كان يشك في أن ابنته هي التي تُخاطبه بهذه اللهجة القاسية؛ لأنه لم يك يعتقد أن هذه الابنة التي وهب لها التاج تعمل على إنقاص حاشيته، وتستكثر عليه أن ينال من الاحترام ما هو خليق بشيخوخته، ولكنها حين شاقَّت أباها وأصرت على طلبها، اهتاج الشيخ وقال إنها حدأة ممقوتة، وإن ما اتهمت به فرسانه كذب صرحي. والحق أنها كانت في ذلك كاذبة؛ لأن فرسانه المائة كانوا كلهم من صفوة الناس ذوي العفة والأخلاق الكريمة، لا يخفى عليهم شيء من آداب اللياقة، ولا يميلون إلى الصخب وسوء السلوك كما تقول. ثم أمر لير أن تسرج له الخيل ليذهب هو وفرسانه المائة إلى ابنته الثانية ريجان Regan، وأخذ يصف الجحود ويقول إنه شيطان قدَّ قلبه من الصخر، وإنه أبشع ما يكون منظرًا في الأبناء، وشرع يستنزل على ابنته الكبرى من اللعنات ما تستك منه المسامع، ودعا عليها أن تبقى عقيمًا محرومة من الأبناء، فإذا رزقت البنين عاشت حتى تلقى على أيديهم من الاحتقار والاستهزاء ما لقى أبوها على يديها، حتى تعلم أن جحود الأبناء أحد من أسنان الأفعى.

ولما أراد دوق البنى زوج جنرل أن يُبرئ نفسه مما عساه أن يتهمه به لير من الاشتراك في هذه القسوة، لم يعره لير سمعه، بل أمر وهو في شدة الغيظ أن تسرج خيله، وخرج من فوره هو وأتباعه إلى قصر ابنته الثانية

ريجان. وبدأ لير يستصغر ذنب كرديليا (إن كان ما فعلته ذنبًا)، إذا قيس بما ارتكبته أُختها، وتحدرت الدموع من عينيه، ولكنه عاد إلى نفسه وعزَّ عليه أن يكون لفتاة مثل جنرل من القوة ما تتغلب به على رجولته، وتستنزل الدمع من عينيه.

وكانت ريجان وزوجها يعيشان في قصرهما عيشة راضية منعمة، وأرسل لير مع خادمه كيس Caius رسائل إلى ابنته يُنبئها بقدومه لتستعد لاستقباله، وسافر هو وحاشيته في أثره. ولكن يلوح أن جنرل قد سبقته إلى العمل، فأرسلت هي الأُخرى رسائل إلى ريجان تتهم فيها والدها بالعناد وسوء الخلق، وتنصحها ألَّا تقبل الحاشية الكبيرة التي سيأتي بها معه. ووصل هذا الرسول في نفس الوقت الذي وصل فيه كيس، والتقى الرسولان، ومن أغرب المصادفات أن يكون رسول جنرل هو عدو كيس القديم أُستاذ الدار الذي عرقبه كيس حين أساء الأدب إلى لير. واستاء كيس من نظرة الرجل إليه، وحذر الغرض الذي جاء من أجله، فأخذ يكيل له السباب، ودعاه إلى المبارزة، فلما رفض الدعوة ثار كيس عليه ثورة شريفة، وانهال عليه ضربًا موجعًا جزاءً له على جبنه وسوء فعله وما يحمله من رسائل. وسمعت ذلك من ريجان وزوجها فأمرت أن توضع رجلاه في المقطرة مع علمها أنه رسول أبيها الملك، وأنه من أجل ذلك يستحق كل إكرام. وبذلك كان أول ما وقعت عليه عين الملك حين دخل القصر هو خادمه الأمين كيس جالسًا هذه الجلسة المزرية.

وكان هذا نذيرًا من أسوأ النُذر بما سيلقاه هو من المعاملة، ثم أعقبه نذير آخر أبلغ منه في الدلالة حين سأل عن ابنته وزوجها، فقيل له: إنهما مُتعبان من سفرهما طول الليل، وإنهما لا يستطيعان أن يُقابلاه. ولما أصرَّ وهو

مغضب حانق على أن يراهما وجاءا آخر الأمر إليه دهش أعظم دهشة حين رأى معهما جنرل، وقد جاءت لتقص بنفسها قصتها، وتثير غضب أُختها على أبيها الملك!

وآلم ذلك المنظر قلب الشيخ وأغص طرفه، وزاد ألمه حين رأى ريجان تأخذ بيدها، فسأل جنرل ألا تستحي أن تنظر بعينيها إلى لحيته البيضاء؟ فنصحته ريجان أن يعود مع جنرل إلى قصرها أن يعيش معها في سلام، بعد أن يخرج من خدمته نصف حاشيته، وأن يعتذر إليها عمَّا فرط منه؛ وذلك لأنه شيخ تنقصه الحكمة؛ ولأن من واجبه أن يخضع لمن هم أنفذ منه بصيرة ويسلمهم زمامه. وقال لير إن أبعد الأشياء عن العقل أن يخر على ركبتيه ويستجدي ابنته الطعام واللباس، وعارض في هذا الخضوع المقلوب، وأعلن أنه مُصمم على ألَّا يعود معها، وعلى أنه اعتزم أن يبقى هو وفرسانه المائة مع ريجان؛ لأنها في رأيه لم تنس بعد نصف ملكه الذي وهبه لها؛ ولأن عينيها لا تشعان القسوة والبغضاء كما تشعهما عينا جنرل، بل تبدوان أحن عليه وأشفق. وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يستطيع أن يعود إلى جنرل بعد أن يسرح نصف حاشيته، وإن أفضل من ذلك لديه أن يذهب إلى فرنسا ويطلب إلى ملكها معاشًا له من ماله وإن كان قد تزوج ابنته الصغرى من غير مهر.

ولكن الملك أخطأ حين قدر أن ريجان ستكون أشفق عليه من جنرل وأحسن منها مُعاملة، وكأنما أرادات هاتان الابنتان أن تبز كلتاهما أختها في سوء مسلكها مع أبيها، فأعلنت ريجان أنها تستكر عليه خمسين فارسًا، وأنه يكفيه منهم خمسة وعشرون. فكاد لير يصعق من هول ما سمع والتفت إلى جنرل وقال إنه سيعود معها لأن خمسين تبلغ ضعفي خمسة وعشرين، وعلى هذا الحساب فإن حبها يعدل ضعفي حب ريحان. ولكن جنرل اعتذرت عن

عدم قبوله، وقالت: «وما حاجتك إلى خمسة عشرين بل إلى عشرة أو خمسة وفي وسع خدمي أو خدم أُختي أن يقضوا حوائجك؟». وكأن كلتا البنتين العاقتين كانت تُنافس أُختها في القسوة على والدهما الشيخ الذي أحسن إليهما، وتعمل على طرد حاشيته كلها شيئًا فشيئًا، لتسلبه بذلك كل ما بقى له من مظاهر الاحترام التي تُذكر الناس بِأَنه كان في وقت ما ملكًا مُتوجًا، وما أقل هذه المظاهر على رجل كان بالأمس صاحب الأمر والنهي في مملكة واسعة. نعم إن الحاشية الكبيرة ليست من مستلزمات السعادة، ولكن الانتقال من أبهة الملك إلى ذلة العدم، ومن السلطان على ملايين الخلق إلى الافتقار إلى فرد واحد من الأتباع، أمر صعب على النفس موجع لها. ولم يكن الشيء الذي آلم قلب هذا الملك البائس وأخشع طرفه ما سوف يُعانيه بعد طرد حاشيته، بل كان جحود ابنتيه العاقتين وقسوتهما. وكان من أثر هذه القسوة وأسفه على سفاهته وحمقه ونزوله عن ملكه، كان من أثر هذا كله أن اختلت موازين عقله، وأقسم أنه وإن لم يدر الآن ما سوف يفعل، سينتقم من ابنتيه السليطتين العاقتين انتقامًا تروع له الدنيا بِأَجمعها.

وبينا كان هذا الشيخ الضعيف يُهدد ابنته بما لا يقوى على فعله، أقبل الليل وعصفت بالبلاد عاصفة هوجاء فيها رعد وبرق ومطر، وأصرت ابنتاه على ألَّا تسمحا لأحد من رجاله بالبقاء معه، فطلب خيله وآثر أن يلقى الريح العاتية في العراء على أن يظله هو وابنتيه الجاحدتين سقف واحد. وقالت ابنتاه إن ما يجلبه المتعنتون من الأذى على أنفسهم هو الجزاء الحق لهم على عنادهم، وتركتاه يخرج على هذه الحال وغلقتا دونه الأبواب. واشتد عصف الرياح وزاد هطول الأمطار حين خرج الشيخ ليكافح عناصر الطبيعة الغاضبة، ولكنه كان يراها أرحم من ابنتيه. ولم يكن في الأرض التي حوله على مدى

عِدة أميال منه عشب يتقي به غضب الطبيعة، فأخذ يضرب في القفار المحيطة به، مُعرضًا جسمه الهزيل للعاصفة الهوجاء، يتحدى الرياح والرعد والبرق في هذا الليل البهيم. ثم أمر الريح أن تعصف حتى تكتسح الأرض وتلقيها في اليم، أو تقذف الأرض بِأَمواج البحر حتى تغرقها ولا يبقى عليها أثر للإنسان ذلك الحيوان الكنود. ولم يبقَ مع الملك وقتئذ من الرفاق إِلَّا المهرج المسكين الذي ظل فيصحبته يُحاول أن يُخفف بفكاهته المرحة ما يحيط به من بؤس وشقاء، كقوله إِن تلك الليلة المشئومة لا يُمكن السباحة فيها، وإِن خير ما يفعل الملك أن يعود إِلى ابنتيه ويطلب إِليهما أن تدعوا له بالخير، وإِن من كان في رأسه شيء من العقل وشاهد عصف الريح وهطول المطر فعليه أن يرضى بما قُسِمَ له وإِن ظل المطر يهطل عليه في كل يوم، وأقسم المهرج أن تلك الليلة من أصلح الليالي لكسر زهو السيدات.

وعلى هذه الحال من قلة الرفاق عثر على هذا الرجل البائس، الذي كان من قبل ملكًا عظيمًا، خادمُه الأمين إِيرلْ كنت الكريم الذي تسمى الآن باسم كيس، والذي أبى أن يُفارق الملك، وإِن كان الملك لم يعرف أنه إِيرل كنت. فلما تلاقيا قال له الإيرل: «أسفي عليك يا مولاي!! أأنت هُنا والخلائق التي تحب الليل تكره أمثال هذه الليالي؟ إِن هذه العاصفة الهوجاء قد دفعت الوحوش إِلى مساكنها، وإِن فطرة الإِنسان لأضعف من أن تحتمل هذا العذاب وهذا الهول». ولامه لير على ذلك وقال له إِن الذي يشكو الداء الوبيل لا يشعر بما هو أقل منه إِيلامًا لجسمه، وإِن البدن لا يجد مُتسعًا من الوقت يحس فيه ويتأثر إِلَّا إِذا كان العقل هادئًا مُطمئنًا، وإِن العاصفة التي تعصف بقلبه قد سلبت حواسه كل شعورها، إِلَّا ذلك الشعور الذي يضطرم في قلبه، وأخذ يتحدث عن عقوق الأبناء، وقال إِنه أشبه بالفم يُمزق اليد التي

ترفع إليه الطعام؛ لأن الآباء كالأيدي والطعام وكل شيء للأبناء.

لكن كيس الطيب القلب ظل يلح على الملك ألَّا يبقى في العراء، وما زال به حتى أقنعه بالدخول في كوخ صغير قائم في تلك البقعة الموحشة. ودخله المهرج أولًا ولكنه عاد من فوره وهو يرتعد فرقًا ويقول إنه وجد عفريتًا، فلما استطلعوا جلية الأمر تبين لهم أن العفريت المزعوم ليس إلا متسولًا مسكينًا من بدلم Bedlam آوى إلى هذا الخص المهجور ليتقي به العاصفة، وأخاف المهرج بحديثه عن الشياطين؛ وهو واحد من أُولئك الفقراء المجانين أو الذين يتصنعون الجنون ليستدروا بذلك العطف والصدقات من أبناء الريف، وهم يُسمون أنفسهم توم Tom المسكين وترلي جود Turlygood المسكين ويطوفون القرى يُنادون: «ألا من يحسن لتوم المسكين». ويغرسون في أذرعهم الدبابيس والمسامير والشوك لينزف منها الدم. وبهذه الفعال المخيفة، وبالدعوات تارة وباللعنات الجنونية تارة أُخرى، يستدرون عطف أهل الريف السُذج، أو يقذفون الرعب في قلوبهم، فيتصدقون عليهم. كان هذا الرجل المسكين من أُولئك القوم، ورآه الملك على هذه الحال من البؤس والشقاء، لا يستر جسمه إلا قطعة من غطاء حول وسطه، فأيقن أن هذا الشخص التعس أب وهب لبناته كل ما ملك، فأورد نفسه هذا المورد، وكان الملك يظن أن الإنسان لا تنزل به مثل هذه المصائب إلَّا إذا كانت له بنات جاحدات.

واتضح لكيس الرحيم من هذه الأقوال الغريبة وأمثالها أن الملك قد جُن، وأن سوء المعاملة التي لقيها من ابنتيه قد ذهب بعقله حقًا. وظهر وقتئذ ولاء إيرل كنت العظيم فيما أدى لمليكه من خدمات جليلة تفوق كل ما استطاع من قبل أن يُؤديه له، فقد استعان وقتئذ بجماعة من أتباع الملك الذين

ظلوا على ولائهم له فنقله عند مطلع فجر اليوم التالي إلى قصر دوفر Dover، وكان له في هذا المكان بوصفه إيرل كنت كثير من النفوذ وعدد عظيم من الأصدقاء. ثم سافر بعد ذلك إلى فرنسا، وأسرع إلى بلاط كردليا ووصف لها حال أبيها الملك وصفًا مُثيرًا، وأنبأها بما لقيه من أختيها من القسوة وسوء الفعال، فقامت من فورها إلى زوجها الملك والدمع يفيض من عينيها، وطلبت إليه أن يأذن لها بالذهاب إلى إنجلترا ومعها حملة قوية لتخضع بها أُختيها الجاحدتين وزوجيهما، وترجع أباها الملك إلى عرشه. ولما أذن لها بذلك سارت على رأس الجيش حتى نزلت عند دوفر.

واستطاع لير أن يفلت من الحراس الذين وضعهم عليه إيرل كنت ليعنوا به في جنته، وأخذ يجوس خلال الحقول القريبة من دوفر وهو في حال من البؤس يُرثى لها، فقد ذهب عقله وشرع يغني لنفسه بصوت عال، وعلى رأسه تاج من القش والحسك وغيرهما من الأعشاب البرية، جمعها من مزارع القمح في تلك الأنحاء. ووجده بعض أتباع كردليا على هذه الحال، وكانت كردليا شديدة الرغبة في رؤية أبيها، ولكن الأطباء أشاروا عليها بِأَن تُؤجل لقاءها به حتى تهدأ سورته بتأثير النوم وفعل الأعشاب البرية، وما لبث الملك أن أصبح في حالة تُمكنه من رؤية ابنته، وذلك بفضل هؤلاء الأطباء المهرة الذين وعدتهم كردليا بكل ما لديها من ذهب وجواهر إذا استطاعوا أن يردوا إلى الملك الشيخ عقله.

وكان منظرًا مُؤلمًا حقًا منظر لقاء الأب وابنته، منظر الكفاح القائم بين سرور الملك الشيخ المسكين برؤية ابنته العزيزة مرة أُخرى، وخجله مما تحيطه به من شفقة وحب بنوي، وهو الذي نبذها لذنب صغير ظن في ساعة من ساعات غضبه أنها ارتكبته. وكانت هاتان العاطفتان مُجتمعتين تصطرعان

مع بقايا مرضه الذي كان ينتاب عقله العليل من حين إلى حين، فلا يذكر أين هو أو من هو ذلك الشخص الحنون الذي يُقبِّله ويتحدث إليه، ثم يعود فيرجو ممن معه ألَّا يسخروا منه إذا كان مُخطئًا في ظنه أن هذه السيدة هي ابنته كرديليا، ثم يجثو الشيخ على ركبتيه ليعتذر لابنته عن فعلته، وهذه الفتاة الطيبة راكعة طوال الوقت تطلب إليه أن يدعو لها بخير، وتقول له إنه لا يليق به أن يركع لأن الركوع واجب عليها، فهي ابنته كرديليا ما في ذلك شك. ثم تُقبله لتمحو بقبلاتها – على حد قولها – عقوق أُختيها، وتقول إنهما ستشعران بالخزي حين تذكران أنهما أخرجتا أباهما الشيخ الرحيم ذا اللحية البيضاء من دارهما ونبذتاه في العراء، ولو أنها هي قد عضها كلب عدو لها لآوته في مثل تلك الليلة بجوار موقدها لتدفئته. ثم ذكرت لأبيها أنها أقبلت من فرنسا لتُقدم له العون، وقال هو لها إن عليها أن تنسى وتعفو لأنه شيخ مأفون لا يدري ما يفعل، وكل ما يعلمه علم اليقين أن من حقها ألَّا تحبه، أما أُختاها فلا تجدان ما يُبرر بغضهما له، وأجابته كرديليا بقولها إنها ليس لديها سبب يدعو إلى بغضه، فهي وأُختاها في ذلك سواء.

ولندع الآن هذا الشيخ في حماية ابنته المحبة البارة التي استعانت هي وأطباؤها بالنوم والدواء حتى استطاعت آخر الأمر أن تعيد إلى حواسه الهدوء والانسجام بعد أن اضطربت وساءت حالها من فعال ابنتيه وقسوتهما. لندع الآن هذا الملك الشيخ لنقول كلمة أو اثنتين عن ابنتيه العاقتين.

إن هاتين الابنتين اللتين يتمثل فيهما الجحود بكل ما فيه من فظاعة لم يكن ينتظر منهما أن تكونا وفيتين لزوجيهما بعد أن خانتا أباهما؛ وسرعان ما ملت كلتاهما حتى مظاهر الحب والاحترام التي كانت تتظاهر بها لزوجها، وأظهرت علنًا أنها تحب غير هذا الزوج. واتفق أن كان هذا الحب الإجرامي

لشخص واحد يُدعى إدمند Edmund وهو ابن غير شرعي لإيرل جلستر السابق، وقد أفلح بدسائسه ومكائده في انتزاع الإرث من أخيه إدجر Edgar الوارث الشرعي، فأصبح هو إيرل جلستر. وكان بما انطوت عليه نفسه من خبث وخسة أجدر الناس بحب جنرل وريجان الخبيثتين الدنيئتين. وحدث أن توفى في ذلك الوقت دوق كورنوول زوج ريحان فأعلنت من فورها عزمها على أن تتزوج بإيرل جلستر، وأثار ذلك غيرة جنرل التي كان هذا الرجل الخبيث قد تظاهر بحبها مرارًا كما تظاهر بحب أختها. واستطاعت جنرل أن تتخلص بالسم من شقيقتها، ولكن أمرها افتضح فزجها زوجها دوق ألبني في السجن جزاء لها على جرمها وخيانتها له بحبها إيرل جلستر، وكان قد بلغ نبأ هذا الحب مسامعه. وانتابتها بسبب خيبتها في حبها وافتضاح أمرها نوبة من الغضب قضت بيدها في أثنائها على حياتها، وهكذا نفذت في الاثنتين عدالة السماء.

وبينا عيون الناس كلهم تتطلع إلى هذا الحادث وتعجب بالعدالة التي تجلت في هذه الخاتمة الخليقة بهما وبسوء فعالها، إذا هذه الأعين تتحول فجأة من هذا المنظر لترى في دهشة وحيرة ما وقع لكردليا الفتاة الطاهرة النقية التي كانت فضائلها جديرة بخير من خاتمتها المحزنة. ولكن من الحقائق المروعة أن الطُهر والتقوى لا تنالان الخير في هذا العالم على الدوام، فلقد انتصرت الجيوش التي سيرتها جنرل وريجان بقيادة إيرل جلستر الخبيث، وقضت كردليا حياتها في السجن بتدبير هذا الرجل الشرير الذي لم يكن يريد أن يحول شيء بينه وبين العرش الذي يطمع فيه، وصعدت روح هذه الفتاة الطاهرة إلى السماء وهي في عنفوان شبابها، بعد أن رأى فيها العالم أروع مثل من طاعة الأبناء وحبهم آباءهم، ولم تطل حياة لير بعدها كثيرًا.

وظل الرجل الكريم إيرل كنت في خدمة مولاه الملك لم يُفارقه من يوم أن أساءت إليه ابنتاه حتى قضى نحبه، وحاول في آخر ساعاته أن يدله على أنه هو نفسه خادمه الأمين كيس الذي لازمه في أيام محنته، ولكن لير لم يستطع لخباله أن يدرك كيف يكون كنت وكيس شخصًا واحدًا، ولذلك رأى كنت أن من العبث أن يثقل عليه في ذلك الوقت بمثل هذه الأقوال. فلما قضى لير نحبه أثرَّ الحزن في نفس هذا الشيخ الهرم فلم يعش بعد مولاه إلا قليلًا.

ولا حاجة بنا إلى أن نقص على القارئ كيف نفذت العدالة الإلهية حكمها في إيرل جلستر الغادر، بعد أن افتضح أمره وعُرِفَت خيانته، فقتله أخوه الإيرل الشرعي في البراز بيده، وكيف اعتلى عرش إنجلترا بعد موت لير دوق ألبني زوج جنرل الذي لم تكن له يد في موت كرديليا، والذي لم يشجع قط زوجته في قسوتها على أبيها، لا حاجة بنا إلى أن نقص هذا كله على القارئ لأن الذي يهمنا في هذه الصحف هو أخبار لير وبناته، وقد مات لير وماتت بناته.

مكبث

في الوقت الذي كان فيه دنكن Duncan الوديع ملكًا على اسكتلندة كان يعيش في تلك البلاد عظيم من النُبلاء يُدعى مكبث Macbeth. وكان هذا النبيل من أقارب الملك، وكانت له في بلاطه مكانة عظيمة كسبها بشجاعته وبأسه في الحروب، وكان آخر ما أظهره من ضروب الشجاعة أن هزم جيشًا لَجِبًا من العُصاة يُساعده جنود من بلاد النرويج.

وكان طريق القائدين الاسكتلنديين مكبث وبنكو Banquo وهما عائدان ظافرين من هذه الحرب العوان يمر بفلاة جرداء، وبينا هما سائران فيها إذ اعترضتهما ثلاث أشباح شبيهة بالنساء، غير أنهن ذوات لحى، واكنت لهن جلود ذابلة متغضنة وملابس غريبة، فكن لذلك بعيدات الشبه عن الخلائق الآدمية. وخاطبهن مكبث أولًا فأظهرن استياءهن من خطابه، ووضعت كل واحدة منهن إصبعها المشققة على شفتها الذابلة طالبة إليه السكوت.

وحيت أولاهن مكبث ونادته باسم شريف جلامس Glamis، ودهش القائد أيما دهشة حين رأى هذه المخلوقة تناديه باسمه، فلما أن زادت الثانية على تحية أُختها بأن سمته شريف كودر Cawdor بلغ عجبه غايته لأنه لم يكن له في هذا اللقب الثاني مطمع. ثم تقدمت الثالثة وحيته بقولها: «مرحبًا بملك المستقبل». وكانت هذه النبوءة خليقة أن تُحير هذا القائد الذي لم يكن له أمل في الجلوس على العرش ما دام للملك أبناء من صلبه. ثم التفتت هذه المخلوقات إلى بنكو وقلن له ملغزات في كلامهن إنه أقل من مكبث

وأعظم، وأشقى منه وأسعد، وتُنبأن له بأَن أبناءه سيكونان ملوكًا على اسكتلندة وإن لم يجلس هو على عرشها، ثم استحلن هواء واختفين عن الأنظار، وعَرِفَ القائدان وقتئذ أنهن ساحرات.

ووقف القائدان يُفكران في هذا الحادث العجيب، وإذا رسل قادمون من عند الملك، وقد عهد إليهم أن يخلعوا على مكبث لقب شريف كودر. ودهش مكبث إذ رأى هذا الحادث يُؤيد تأييدًا عجيبًا ما تنبأت به الساحرات، فوقف كالمكسور في ذرعه لا يجير جوابًا. وفي هذه اللحظة عينها أخذت الآمال تجيش في صدره، وبدأ يرجو أن تتحقق أيضًا نبوءة الساحرة الثالثة، فيجلس على عرش اسكتلندة يومًا من الأيام.

ثم التفت إلى بنكو وقال له: «ألست ترجو أن يُمسي أبناؤك ملوكًا، وقد تحقق ما وعدتني به الساحرات على هذا النحو العجيب؟». فأجابه القائد: «إن هذا الأمل قد يغريك بالتطلع إلى العرش، ولكن هاتيك الساحرات رسل الظلام كثيرًا ما يصدقننا في الصغائر ليدفعننا إلى أعمال عظيمة الخطر وخيمة العواقب».

غير أن ما وسوست به الساحرات الخبيثات قد استولى على عقل مكبث وملك عليه تفكيره، فأصم أُذنيه عن سماع نصيحة بنكو الأمين وتحذيره، وأخذ من ذلك الحين لا يُفكر إلا في السبيل التي تُوصله إلى عرش اسكتلندة.

وكان لمكبث زوجة أسر إليها نبوءة الساحرات العجيبة وما تحقق منها، وكانت هذه الزوجة شريرة طموحًا لا تُبالي إذا ما وصلت هي وزوجها إلى العظمة أي السبيل يسلكانها إليها، فأخذت تحرض مكبث وتغريه، ولكن

مكبث ظل مُترددًا لأنه كان يشعر بوخز الضمير حين يتمثل له منظر الدم المراق، أما هي فظلت تُردد على مسامعه قولها إن قتل الملك أمر لا بُد منه لتحقيق النبوءة.

وكان من عادة الملك أن يزور كبار رجال دولته إظهارًا لتواضعه وعطفه عليهم، واتفق أن جاء في ذلك الوقت يحف به ولداه ملكلم Malcolm ودنلبين Donalbain وحاشية كبيرة من النُبلاء والأتباع مُبالغة منه في تكريم مكبث جزاء ما ناله من نصر في الحروب.

وكان قصر مكبث Macbeth ذا موقع جميل، وكان الهواء من حوله مُنعشًا لطيفًا كما تدل على ذلك كثرة الأوكار التي بناها طير السنونو في طنف القصر وأسانيده البارزة وفي كل مكان صالح لبنائها، وقد شوهد أن الهواء يكون على الدوام مُنعشًا لطيفًا حيث تبني هذه الطيور أوكارها. ودخل الملك القصر مسرورًا مُعجبًا به وبما لقيه من ربة الدار السيدة مكبث من عناية وتعظيم، وكانت هذه السيدة بارعة في إخفاء ما تنتويه من غدر وراء ستار من البسمات اللطيفة، كما كان في مقدورها أن تظهر كالزهرة البريئة ومن تحتها الأفعى السامة المميتة.

وكان الملك مُتعبًا من مشاق السفر، فآوى إلى فراشه في أوائل الليل، وأعدت له حجرة فخمة نام فيها، ونام بالقرب منه رجلان من خاصة حاشيته كما كانت عادة الملوك في تلك الأيام.

وكان قد سره حُسن استقباله فأنعم قبل أن يأوى إلى فراشه بعدد من الهدايا على كبار ضباطه، وكانت السيدة مكبث ممن تمتعوا بعطفه، فقد بعث إليها بماسة غالية ولقبها باسم أكرم مضيفة له.

وانتصف الليل وخيم على نصف الكون سكون شامل كأنه الموت، وبدأت تنتاب عقول النائمين أحلام خبيثة، وخلا الفضاء إلا من الذئاب والقتلة. وفي ذلك الوقت استيقظت السيدة مكبث لتأتمر بالملك وتدبر قتله، وما كانت هي لتقدم على هذا الجرم الشنيع الذي يتنافى مع أُنوثتها لولا أنها كانت لا تثق بطبع زوجها، فقد كانت تعرف أن فيه من الرحمة الإنسانية ما يمنعه من الإقدام على القتل غيلة. لقد كانت تعرف أنه طموح ولكنها كانت تعرف أنه حي الضمير لم يعد نفسه بعد إلى ارتكاب هذا الجرم الشنيع الذي يُلازم الطموح المفرط. وكان قد وافقها على ارتكاب الجُرم، ولكنها كانت غير مُطمئنة إلى صدق عزيمته، وتخشى أن تحول رقة قلبه بينه وبين غرضه، ومن عجب أن يكون هو أرأف منها وأرحم. ولذلك أقبلت نحو سرير الملك والخنجر في يدها، وكانت قد حرصت على أن تسكر خادميه بالنبيذ فناما لا يعيان شيئًا، وأهملا ما عليهما من واجب. وكان دنكن غارقًا في نومه على أثر ما عاناه من مشاق السفر، وتأملت وجهه وهو نائم فرأته شبيهًا بعض الشبه بوجه أبيها، ولم تجد فيقلبها من الجرأة ما يُمكنها من الإقدام على تنفيذ إرادتها.

فعادت لكي تُشاور زوجها، فوجدت عزيمته قد أخذت تخور، وظهر له من الأسباب القوية ما يمنعه من الإقدام على هذا العمل. فلم يكن هو من رعايا الملك فحسب، بل كان أيضًا من أقاربه الأقربين، والملك في ذلك اليوم ضيف مقيم في داره، ومن حق الضيف على مضيفه أن يدفع عنه من يريد قتله لا أن يأخذ السكين بيده ليقتله، ثم تذكر أن دنكن ملك عادل رحيم لم يسيء قط إلى شعبه، مُحب لأعيان أُمته وبخاصة له هو نفسه، وأن العناية الإلهية تحرس أمثاله من الملوك، وأن من أوجب الواجبات على رعاياهم أن يثأروا

لمقتلهم، يُضاف إلى هذا كله أن لمكبث منزلة عالية في نفوس طوائف الشعب بأجمعها لما بينه وبين الملك من قرابة وما له عنده من مكانة، فكيف يليق به أن يدنس هذا الشرف بذلك الغدر الذميم؟

وأقبلت السيدة مكبث فوجدت هذه العوامل تتنازع عقل زوجها، ورأته أميل إلى الخير، مُعتزمًا أن يقف عند هذا الحد، وكانت هي من النساء اللاتي لا ينثنين بسهولة عمَّا يعتزمنه من فعل الشر، فبدأت تلقي على مسامعه من الألفاظ ما أثرَّ في نفسه وأوحى إليه بشيء من روحها، وأخذت تنتحل له من الأسباب ما يوجب عليه عدم النكوص عن عزمه؛ فالعمل سهل لا صعوبة فيه يتم في طرفة عين، يفرغ منه في ليلة واحدة قصيرة، ولكنه يضع في أيديهما أزمة الملك والسلطان طوال لياليهما وأيامهما المقبلة، ثم شرعت تستهزئ بتردده وتتهمه بالتذبذب وخور العزيمة، وقالت إنها قد أرضعت من ثديها أبناء، وإنها تعرف ما ينطوي عليه قلب الأُم من حب لطفلها الذي أرضعته، ولكنها لا تتردد في أن تنتزع هذا الطفل من صدرها وهو يبسم في وجهها وتقتله بيدها إذا كانت قد أقسمت أن تفعل هذا من قبل كما أقسم هو أن يقتل دنكن، وأضافت إلى ذلك أن من السهل أن تعزى الجريمة إلى الخادمين الثملين النائمين في مخدع الملك. وما زالت به تقلبه بين الذروة والغارب حتى أزالت خور عزيمته، فاستجمع قواه استعدادًا لتنفيذ جرمه الشنيع، وأخذ الخنجر بيده وتسلل إلى الحجرة الظلماء التي ينام فيها دنكن. وخُيل إَليه وهو سائر في طريقه أنه يرى في الهواء خنجرًا آخر ويده مُتجهة نحوه، وعلى يده وفي طرفة نقط من الدماء، ولما حاول أن يقبض عليه بيده لم يجده شيئًا ولم يمسك إلا الهواء؛ لأن الخنجر لم يكن إلا صورة موهومة صورها له مخه المستعر المثقل، والعمل الذي كان مُقدمًا عليه.

ثم سكن روعه وتقدم نحو الملك وقضى عليه بطعنة واحدة من خنجره، وفي الساعة التي كان يطعن فيها دنكن بخنجره ضحك أحد الخادمين النائمين في مخدع الملك وهو مُستغرق في نومه، وصاح الآخر قائلًا: «قُتِل»، فاستيقظ كلاهما ولكنهما لم يزيدا على أن تلوا دعاء قصيرًا، فقال أحدهما: «اللهم بارك لنا»، وقال الآخر: «آمين»، ثم غشيهما النعاس مرة أُخرى. ووقف مكبث يستمع إليهما، وحاول أن يُؤمن على دعاء أولهما حين قال: «اللهم بارك لنا»، ولكن اللفظ لم يُطاوعه فلم يستطع إخراجه، وإن كان في شدة الحاجة إلى طلب البركة من الله. ثم خُيل إليه أنه سمع صوتًا يُناديه: «لا تنم بعد الآن.. إن مكبث يقتل النوم، النوم الهادئ البريء الذي يعين على الحياة»، وظل الصوت يُردد في جميع نواحي الدار: «لا تنم بعد الآن لقد قتل جلامس الموت، ولن ينام كودر بعد الآن، ولن ينام مكبث بعد الآن».

وعاد مكبث إلى زوجته تنتابه هذه الخيالات المروعة، وقد بدأت تظن أنه عجز عن تنفيذ عزمه، وأن شيئًا حال بينه وبين قصده، وأقبل عليها في حال من الرعب لا تُوصف، فأخذت تُؤنبه على ضعفه، وأرسلته ليغسل الدم الذي كان يُلوث يديه، وأخذت منه الخنجر لتلطخ بدمه خدود الخادمين حتى يُستطاع إلصاق التهمة بهما.

وأصبح الصباح وكُشِفَتْ الجريمة، ولم يكن من المستطاع إخفاؤها. وتظاهر مكبث وزوجته بالحزن الشديد، وكانت الأدلة قوية على الخادمين؛ فقد كان الخنجر شاهدًا عليهما، وكان وجه كليهما مُلوثًا بالدماء، لكن الظنون كلها كانت تحوم حول مكبث لأن هُناك مغريات تدفعه إلى هذا العمل أقوى مما تدفع الخادمين البائسين اللذين لا ينالان من وراء هذا الجرم شيئًا. وفر ولدا دنكن في تلك الساعة، فلجأ ملكلم أكبرهما سنًا إلى بلاط إنجلترا، وفر

أصغرهما دنلبين إلى إيرلندة.

ولما خلا العرش بفرار ابني دنكن اللذين كانت لهما ولاية الملك بعد أبيهما آل الملك لمكبث، فتوج وتحققت نبوءة الساحرات برمتها، وبلغ مكبث وزوجته ما كانا يبغيان من مرتبة سامية، ولكنهما لم ينسيا نبوءة الساحرات التي قلن فيها إن مكبث سيصبح ملكًا ولكن أبناءه لن يكونوا ملوكًا، بل سيلبس التاج من بعده أبناء بنكو. وأخذا يفكران في هذا وفي أنهما قد لطخا أيديهما بالدماء، وارتكبا ما ارتكبا من الجرائم الشنعاء، لكي يُجلسا على العرش أبناء بنكو، فأورثهما هذا التفكير غِلًّا ما زال يغلي في صدريهما حتى اعتزما أن يقتلا بنكو وولده ليبطلا نبوءة الساحرات التي تحققت في حالهما وقضيضها.

وأقاما لهذا الغرض وليمة كُبرى دعوا إليها أكابر رجال الدولة بِأَجمعهم، وكان ممن دعوهم بنكو وابنه فلينس Fleunce، واختصا هذين الشريفين بِأَكبر قسط من الرعاية والإكرام. وأرصد مكبث القتلة على طول الطريق الذي كان بنكو سيسلكه إلى القصر ليلًا، وأفلح هؤلاء في قتل بنكو، ولكن ابنه فلينس استطاع أن ينجو بنفسه في أثناء الهرج الذي ساد عقب مقتل أبيه، ومن نسل هذا الابن تعاقب على عرش اسكتلندة عِدة ملوك كان آخرهم جيمس السادس James VI ملك اسكتلندة وهو بعينه جيمس الأول James 1 ملك إنجلترا، وفي عهده توحد تاج المملكتين.

وأظهرت الملكة في أثناء العشاء منا للطف ودماثة الخلق وحميد الشيم والعناية بالمدعوين ما أرضى جميع الحاضرين، وأخذ مكبث يُسامر رجال الدولة ونُبلاءها بحديثه الودي، ويقول إن قصره قد حوى الآن كل ما هو

عظيم ونبيل، ولا ينقصه إلا صديقه الكريم بنكو. وزاد على ذلك أنه يرجو أن يلقاه فيلومه على تقصيره، وألَّا يحزن على ضر يمسه. وما كاد يفرغ من قوله هذا حتى دخل الحجرة طيف بنكو الذي عمل على قتله، وجلس الطيف على المقعد الذي أوشك مكبث أن يجلس عليه. وكان مكبث رجلًا جريئًا رابط الجأش لا يرهب الشيطان نفسه، ولكنه حين رأى هذا المنظر البشع امتقع لونه ووقف مبهوتًا خائر القوى يحدق ببصره في الطيف. ولم ترَ ولا الملكة ولا النُبلاء شيئًا إلا الملك شاخصًا ببصره نحو المقعد الذي رأوه خاليًا، فظنوا أن مليكهم أصابته نوبة من الذهول، وأخذت الملكة تُؤنبه وتهمس في أُذنه قائلة له إن الذي أصابه هو نفس الوهم الذي صور له الخنجر في الهواء حين همَّ بقتل دنكن. ولكن مكبث ظل يرى الطيف أمامه، ولم يعبأ بشيء من أقوالها، وأخذ يُناديه بألفاظ مشوشة حائرة ولكنها عظيمة الدلالة. وخشيت الملكة أن يفتضح أمرها فبادرت من فورها إلى فض الوليمة، وشيعت الأضياف مُعتذرة إليهم بِأَن مكبث أصابه اضطراب تعود أن ينتابه الفينة بعد الفينة.

وصارت هذه الرؤى المزعجة تنتاب مكبث حقًا، فأصبح هو وزوجته عرضة للأحلام المروعة. ولم تكن دماء بنكو التي لوثا بها أيديهما أكثر إزعاجًا لهما من هرب ولده فلينس، فقد رأيا فيه أبًا لطائفة من الملوك سيحولون بين أبنائهما وبين العرش، وأقلقت هذه الأفكار بالهما ونغصت عليهما حياتهما، فجد مكبث في طلب الأخوات الساحرات ليعرف منهن أسوأ ما يستطيع معرفته.

وذهب يطلبهن في كهف في الفلاة، وعرفت الأخوات بسحرهن أنه آت إليهن، فعكفن على إعداد رقاهن المرعبة يستحضرن بها الأرواح الجهنمية

لتكشف لهن عمّا في ذمة المستقبل. وكن يستخدمن لهذا الغرض خليطًا من الضفادع والوطاويط والأفاعي، وعين ورل ولسان كلب وساق ضب وجناح بومة الليل وقشر تنين وسن ذئب ومعدة فرس البحر الملح النهم وجيفة ساحرة وجذر نبات الشوكران السام (ولا يكون لهذا الجذر أثره إلَّا إذا اقتلع في الظلام)، ومرارة عنزة وكبد يهودي وقطعًا من شجرة سرو نابتة في القبور وإصبع طفل ميت. وقد جمعت هذه الأشياء كلها ووضعت على النار في وعاء كبير، وكلما اشتدت حرارتها بُردت بدماء قرد، وصب على هذا كله دم خنزيرة أكلت صغارها، وألقى في اللهب الدهن الذي يسيل من المشانق. هذه هي الرقى التي كن يرغمن بها الأرواح الجهنمية على الإجابة على أسئلتهن.

وسُئِلَ مكبث هل يرغب في أن يزلن شكوكه بأنفسهن أو أن يزيلها له سادتهن الأرواح؟ ولم يرعب الملك ما شاهده من مراسم مروعة، فأجابهن في غير وجل: «وأين تلك الأرواح؟ إني أُريد أن أراها». فدعتها الساحرات وخرج إليه منها ثلاثة كان أولها في صورة رأس مُسلح، ونادى مكبث باسمه، وأمره أن يأخذ حذره من شريف فيف Fife، فشكر له مكبث هذه النصيحة؛ لأنه كان في خبيئة نفسه يخشى مكدف شريف فيف.

وظهر الروح الثاني في صورة طفل مضرج بالدماء، ونادى هو الآخر مكبث باسمه وأمره ألَّا يخشى شيئًا بل يضحك ويهزأ بقوة بني الإنسان، فلن يكون لابن أُنثى قدرة على إيذائه. ثم نصح له أن يكون سفاحًا جريئًا ذا عزيمة ماضية. فلما سمعه الملك قال في نفسه: «إذن فعش يا مكدف فلا حاجة لي بِأَن أخشاك، ولكني مع ذلك سأزيد المؤكد تأكيدًا حتى أقول للخوف المنخوب القلب إنك كاذب، وأنام رغم الرعود والبروق».

ثم انصرف هذا الروح وظهر روح آخر في صورة طفل على رأسه تاج وفي يده شجرة، ونادى مكبث باسمه وأراح باله من عواقب المؤامرات، وقال إنه لن يغلبه غالب حتى تسير عليه غابة برنم Birnam،وتنتقل من موضعها إلى تل دنسبين Dunsibane. فصاح الملك من شدة الفرح: «ما أحلى تلك النبوءات، إنها لتبُشر بالخير؛ فمنذا الذي يستطيع أن يقتلع الغابة من أُصولها الثابتة في مغارسها ويُحركها؟ سأعيش إذن من الأيام بقدر ما يعيش الناس ولن يغتالني مُغتال، ولكن قلبي يتحرق شوقًا لمعرفة شيء واحد، هل في مقدور سحر الساحرات أن يُنبئني أيحكم أبناء بنكو هذه المملكة؟». وفي هذه اللحظة ابتلعت الأرض الوعاء، وسمعت نغمات موسيقية، ومرت أمام مكبث ثمانية أطياف في صورة الملوك، ومن ورائهم بنكو وفي يده زجاجة تتراءى فيها أطياف أُخرى كثيرة. فلما مربنكو وهو مضرح بالدماء أمام مكبث، ابتسم له وأشار إلى هذه الأطياف، فأدرك مكبث أنهم أبناء بنكو الذين سيحكمون بلاد اسكتلندة من بعده. ثم علت في الجو أصوات موسيقية رقيقة ورقصت الساحرات كأنهن يحيين مكبث ويظهرن له إجلالهن، ثم توارين عن الأنظار. ومن ذلك الحين فظَّت نفس مكبث وسقم ضميره، ولم يعد يُفكر إلا في القتل والدماء.

وكان أول ما سمعه بعد خروجه من كهف الساحرات أن مكدف شريف فيف قد فر إلى إنجلترا، لينضم إلى الجيش الذي كان يتجمع فيها برياسة ملكلم أكبر أبناء الملك القتيل، ليخلع مكبث ويُجلس ملكلم الوارث الشرعي على عرش إسكتلندة. وغلت مراجل الغيظ في قلب مكبث عندما سمع هذا النبأ، فسار من فوره إلى قصر مكدف وقتل زوجه وأطفاله الذين خلفهم الشريف وراءه، وأعمل السيف في رقاب كل من يمتون إلى مكدف

بصلة مهما كانت بعيدة.

ونَفَّرت هذه الجرائم وأمثالها قلوب أعيان البلاد من مكبث، واستطاع جماعة منهم أن يُغادروا موطنهم وينضموا إلى ملكلم ومكدف، وكانا في ذلك الوقت يسيران على رأس جيش قوي جهزاه في إنجلترا. وأما من بقي منهم فكانت قلوبهم مع الفارين تدعو لهم بالنصر، وإن لم يكن في وسعهم أن يقوموا بعمل إيجابي لخوفهم من مكبث. وتجمعت جيوش مكبث تجمعًا بطيئًا، فقد كان كل من في البلاد يبغض هذا الطاغية، ولم يكن فيها من يحبه أو يجله، بل كانوا على بكرة أبيهم لا يأمنون له. وبدأ يحسد دنكن الذي قتله هو بيده، والذي نال منه الغدر أسوأ ما يبتغيه، فهو الآن ينام مُطمئنًا في قبره. لا تستطيع الأسنة أو السم أو حقد القلوب في داخل البلاد أو الجيوش القادمة من خارجها أن تمسه بِأَذى.

وبينا كانت هذه الحوادث جارية قضت الملكة نحبها، وقال الناس إنها قتلت نفسها؛ لأنها لم تستطع أن تصبر على كره الناس وتأنيب الضمير. وكانت الملكة وحدها شريكة مكبث في آثامه وجرائمه، وكان في وسعه أحيانًا أن يلجأ إلى صدرها يجد فيه بعض الاطمئنان والراحة من تلك الأحلام المزعجة التي كانت تروعهما جميعًا في كل ليلة. ماتت وتركته وحيدًا في هذا العالم، لا يرى فيه من يحبه أو يعني به، ولا يجد صديقًا يفضي إليه بمقاصده الأثيمة. وسَئِمَ الملك الحياة وتمنى الموت، ولكن اقتراب جيوش ملكلم أثار في نفسه ما بقي فيها من بأس قديم، فاعتزم أن يموت ودرعه فوق ظهره.

وكانت الوعود الجوفاء التي منته بها الساحرات قد ملأت قلبه ثقة باطلة، تذكر كذلك قول الأرواح إنه لن يصيبه من ابن أُنثى مكروه، وإنه لن

يغلب حتى تنتقل غابة برنم إلى دنسبين، وهذا في ظنه لن يكون، فتحصن في قصره، وكان من المناعة بحيث يستطيع مُقاومة الحصار، وبقى في داخل القصر كئيبًا ينتظر قدوم ملكلم. وفيما هو كذلك إذ دخل عليه في يوم من الأيام رسول ممتقع الوجه، ترتعد مفاصله من شدة الخوف، ولا يكاد يقوى على أن يُحدث الملك بما رأى. ثم استطاع أن يتكلم، وأكد له أنه وهو واقف في موضع حراسته تطلع نحو برنم فبدا له كأن الغابة أخذت تتحرك. فأجابه مكبث وهو غاضب: «إنك وغد كاذب، وإذ كنت تكذب في قولك فلأصلبنك حيًا في جذع أقرب شجرة إليك حتى تقضي نحبك من الجوع، أما إذا كانت قِصَّتُك صادقة فإني لن أُبالي إذا فعلت بي أنت مثل هذا الفعل». وبدأت عزيمة مكبث تخور، وأخذ يشك في أقوال الأرواح المبهمة الملتوية. ألم تقل له ألَّا يخاف حتى تنتقل غابة برنم إلى دنسبين؟ وها هي ذي الغابة قد تحركت. وقال في نفسه: «إذا كان ما يقوله صحيحًا فلنحمل سلاحنا ونخرج للقتال، إذ لا مفر لنا من هذا المكان، ولا بقاء لنا فيه، لقد بدأت أمل الحياة وأرجو أن تنقضي أيامي».

وخرج وهو يُردد هذه الأقوال وأمثالها للهجوم على المحاصرين الذين بلغوا في ذلك الوقت أسوار القصر. ولم يكن المنظر الغريب الذي ظنه الرسول غابة تتحرك بالذي يصعب فهمه، وجلية الأمر أنه لما مر الجيش بغابة برنم في طريقه لمحاصرة القصر، عمل ملكلم ما يعمله القائد المحنك، فأمر جنده أن يقطع كل منهم غصن شجرة ويحمله أمامه، حتى لا يعرف العدو عِدة جيشه. ولاح سير الجنود من بعيد وهم يحملون الغصون كأن الغابة تتحرك، ذلك هو المنظر الذي ألقى الرعب في قلب الرسول، وتحققت به نبوءة الروح على معنى يُخالف ما فهمه منها مكبث، وزال سبب من أسباب ثقته واطمئنانه.

وحدثت في تلك الساعة مناوشة شديدة، أظهر فيها مكبث شجاعة وبأسًا ولم يكن حوله إلَّا عدد قليل من أُولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاءه، ولكنهم كانوا في الحقيقة يبغضونه لاستبداده وظلمه، ويميلون بقلوبهم إلى جانب ملكلم ومكدف. ولم يزل مكبث يُصارع الأعداء ويفتك بكل من يلقاه حتى أقبل على مكدف، فلما رآه وذكر قول الروح له أن يأخذ من مكدف حذره، أراد أن يُولى الأدبار، ولكن مكدف الذي كان يبحث طول الموقعة عنه اعترض سبيله، وتصادم البطلان وحمى وطيس القتال بينهما، وأخذ مكدف يعنف قرنه ويصفه بأقبح الأوصاف لقتله زوجته وأبناءه. وكان مكبث ينوء بوزر من قتل من أفراد تلك الأُسرة فأراد مرة أُخرى أن ينكص عن القتال، ولكن مكدف أخذ يستثير غيظه ويدعوه ظالمًا سفاحًا وكلبًا دنيئًا.

وعاد إلى ذاكرة مكبث قول الروح إنه لن يصيبه ابن أُنثى بأذى، فابتسم ابتسامة الواثق وقال لمكدف: «عبثًا تُحاول يا مكدف؛ فلأن تمزق بسيفك هذا الهواء أسهل لك من أن تسفك قطرة من دمي، إن لي حياة مُحَصّنة لا يمسها ابن أُنثى بسوء». فرد عليه مكدف بقوله: «لا تركن بعد إلى هذه الرقية، وسَلْ الروح الكاذب الذي أسلمته زمام أمرك يُنبئك أن مكدف لم تلده أُنثى كما تلد النساء الرجال، بل أخرج من بطن أُمه ولما يحن يوم مولده».

وقال مكبث وهو يرتعد فرقًا، وقد انقطع آخر سبب من أسباب أمله: «ألا لعنة الله على ذلك اللسان الذي ينطق بهذا، ونصيحتي إلى الناس في المستقبل ألَّا يصدقوا قول الساحرات الملتبسة الغامضة، وعبارات الأرواح الملتوية التي تخدعنا بألفاظها المزدوجة المعنى، فتصدق في وعدها حين نستمسك بحروفها، ثم يتبدل معناها فيقضي على آمالنا، إني لن أُقاتلك».

فأجابه مكدف في سخرية لاذعة: «إِذن فعش، وسنعرض صورتك أمام الناس كما تُعرض صور الوحوش النادرة، مرسومة على لوحة قائمة فوق عمود وقد كُتِبَ عليها "هنا يرى الناس الظالم المستبد"».

وعادت إلى مكبث شجاعة المستيئس فقال: «لا، لن يكون ذلك أبدًا. لن أعيش لأقبل الأرض بين قدمي الفتى ملكلم وتصبّ عليّ لعنات السوقه، سأُجرب حظي للمرة الأخيرة حتى بعد أن انتقلت غابة برنم إلى دنسبين ووقفت أنت أمامي يا من لم تلدك أُنثى». قالها وقد ملئ غيظًا وحقدًا، وألقى بنفسه على مكدف، واستمر القتال بينهما، وتغلب عليه مكدف آخر الأمر وجزَّ رأسه وقدمها هدية منه إلى الشاب ملكلم الملك الشرعي. وتولى ملكلم الحكم بعد أن وقفت في سبيله أعمال ذلك المغتصب الباغي زمنًا طويلًا، وجلس على عرش دنكن الوديع بين تهليل الشعب والنُبلاء واغتباطهم الشديد.

إِن الأُمور بخواتيمها
كل ما انتهى بخير فهو خير

ورث برترم Betram كنت روزين Count Rousillon لقبه ومزارعه من زمن قليل على أثر وفاة أبيه. وكان ملك فرنسا يحب والد برترم، فلما سمع بوفاته أرسل إلى ولده يستدعيه إلى بلاطه في باريس من فوره، ليشمله بعطفه وحمايته، وفاء لعهد الصداقة التي كانت بين الملك وبين الكنت المتوفى.

وكان برترم يعيش مع أُمه أرملة الكنت المتوفى حين قدم لافيه Lafeu، أحد كبار رجال البلاط الفرنسي، ليصحب برترم إلى قصر الملك. وكان ملك فرنسا يحكم البلاد حُكمًا مُطلقًا، فكان إذا دعا أحدًا للمثول بين يديه وجه إليه الدعوة في صورة قرار ملكي أو أمر صريح، لا يستطيع إنسان في البلاد أيًا كان قدره أن يعصيه؛ ولذلك لم تجرؤ والدته على أن تطل تأجيل السفر يومًا واحدًا، بل أمرته بالرحيل لساعته، وإن كان فراق ولدها العزيز قد آلمها بقدر ما آلمتها وفاة زوجها الذي وارته الثرى من زمن قليل. وحاول لافيه الذي جاء لاستدعاء ولدها أن يُخفف من لوعتها ويُواسيها في فقد زوجها وفراق ولدها المفاجئ، وقال وهو يثني على الملك بلغة أصحاب الملوك إنها ستجد في جلالته زوجًا لها وأبًا لولدها، ولم يكن يقصد بهذا القول بطبيعة الحال إلا أن الملك الكريم سيعطف على برترم ويُعنى بأمره. وأخبر لافيه الكنتة أن الملك يُعاني آلام المرض، وأن أطباءه قرروا أن داءه عضال لا يُرجى له شفاء. وأظهرت السيدة شديد حزنها عندما سمعت بنبأ مرض الملك، وقالت أنها

تتمنى لو أن والد هلنا Helena (وهي فتاة من أتباعها كانت حاضرة معها في ذلك الوقت) كان حيًا. إذًا لاستطاع من غير شك أن يشفي جلالة الملك من مرضه. ثم قصت على لافيه سيئًا من تاريخ هلنا. فقالت إنها ابنة الطيب الذائع الصيت جرار ده نربن Gerar de Narbon، وإنه لم يعقب سواها، وإنه عَهِدَ إليها بابنته وهو على فراش الموت، وإنها من تلك الساعة قد أخذت هذه الفتاة في كنفها وتحت رعايتها، ثم أخذت تثني على أخلاق هلنا وعفتها وفضائلها، وقالت إنها ورثت هذه الصفات عن والدها العظيم. وكانت هلنا في خلال هذا الحديث صامتة تذرف الدمع حُزنًا وكمدًا، فأخذت الكنتة تلومها في رفق لاستسلامها للحزن على موت أبيها.

وودع برترم والدته، وفارقت الأُم ولدها العزيز والدمع ينهمر من عينيها، وقلبها يُشَيِّعه بدعواتها الصالحة، وأوصت به لا فيه خيرًا، وقالت له: «أي سيدي العزيز كن له نعم المشير، فإنه لم يستعد بعد ليكون من أصحاب الملوك». ووجه برترم آخر كلماته إلى هلنا، ولكنها لم تكن تزيد على تحية وداع تمنى لها فيها السعادة، وختم وداعه لها بقوله: «آنسي سيدتك والدتي، وقدريها حق قدرها».

وكانت هلنا تحب برترم من زمن بعيد، ولما أخذت تبكي وهي حزينة صامتة لم تكن الدموع التي تذرفها حُزنًا على جرار ده نربن. نعم إن هلنا كانت تحب أباها، ولكن قلبها في تلك الساعة كان يخفق بحب أقوى وهو حب من سيُفارقها بعد قليل، فأنساها صورة أبيت الميت وملامحه، ولم ترتسم في مُخيلتها وقتئذ إلَّا صورة برترم وحده.

أحبت هلنا برترم من زمن بعيد، ولكنها كانت تذكر على الدوام أنه كنت

روزين سليل أعرق الأُسر في فرنسا كلها، وأنها هي من أُسرة وضيعة لا يعرف الناس عن أبويها شيئًا، أما برترم فقد ورث آباوه المجد كابرًا عن كابر، ولذلك كانت تنظر إليه نظرتها إلى سيدها العزيز عليها، ولم تكن تطمع في أكثر من أن تبقى خادمة له، وأن تظل من أتباعه حتى تموت. ولاح لها بُعد ما بين عظمته وفقرها، فكانت تقول لنفسها: «لا فرق بين أن أحبه وأن أحب نجمًا ساطعًا في السماء وآمل أن أتزوجه. ألا ما أعظم الفرق بيني وبينه!».

وأثر بُعد برترم في نفسها، فأفاض الدمع من عينها وملأ قلبها حسرة. نعم إنها كانت تحبه حب اليائس، ولكن وجوده بالقرب منها تقع عينها عليه في كل ساعة كان يسري همها ويريح بالها، وكانت تجلس طويلًا تتأمل عينيه السوداوين، وحاجبيه المقوسين وليات شعره الجميل، كأنها تريد أن تنقش صورته على شغاف قلبها، ذلك القلب الذي يستطيع أن يحتفظ بجميع قسمات هذا الوجه المحبوب.

ولما مات جرار ده نربن لم يترك لابنته ما تمهر به إلا وصفًا لأدوية نافعة مُجربة هدته إليها دراسته العميقة وتجاربه الطويلة في علم الطب، مفعولها أكيد لا يكاد يُخطئ، وكان من بينها دواء وصفه بِأَنه ناجع يفيد في شفاء العلة التي أضنت الملك في ذلك الوقت. فلما سمعت هلنا بمرض الملك، وكانت في ذلك الوقت فتاة وضيعة معدومة الرجاء، بدأت تعظم آمالها، وفكرت في الذهاب إلى باريس لتُعالج الملك من دائه. على أنه لم يكن يتوقع أن يثق الملك وأطباؤه بهذه الفتاة الجاهلة المسكينة إذا عرضت عليهم أن تقوم بعلاجه؛ وذلك لاعتقادهم أن داء الملك عضال لا يُرجى له شفاء. ولم يكن يُرجى أن يفيدها وقتئذ وجود هذا الدواء العجيب في حوزتها، لكن أملها في النجاح، إذا سمح لها بِأَن تُجرب الدواء، لاح لها في ذلك الوقت أقوى مما

يُبرره حذق أبيها، وإن كان في حياته أشهر أطباء عصره؛ وذلك لأنها كانت قوية الإيمان بِأَن هذا الدواء قد هيأته لها الأقدار ليكون هو الوسيلة التي ترفع منزلتها حتى تبلغ تلك المكانة العالية التي تُؤهلها لأن تكون زوجًا للكنت روزين.

وقبل أن يمضي على غياب بترم وقت طويل جاء أُستاذ الدار إلى الكنتة، وأخبرها أنه سمع هلنا تُحدث نفسها حديثًا، فهم من بعض عباراته أنها تحب برترم وأنها تُفكر في اللحاق به إلى باريس. فصدقت الكنتة أُستاذ دارها، وشكرت له أن أفضى إليها بهذا النبأ، وطلبت إليه أن يبلغ هلنا رغبتها في التحدث إليها. وأعاد لها حديث أُستاذ الدار عن هلنا ذكرى أيامها الخالية، ولعلها الأيام التي بدأ فيها حبها لوالد برترم، فقالت لنفسها: «لقد كان هذا شأني في أيام شبابي، إن الحب شوكة في ورد الشباب، وإذا ما نشأنا نشأة طبيعية عادية فلا مفر لنا من ارتكاب هذا الخطأ، وإن كُنا لا نعرف وقتئذ أننا نرتكب خطأ». وبينا كانت الكنتة تُفكر فيما وقعت فيه أيام شبابها من أخطاء مُحببة، دخلت عليها هلنا فقالت لها: «هلنا! إنكِ تعرفين أنني أُم لك». فأجابتها بقولها: «إنكِ سيدتي الجليلة». فقالت لها الكنتة مرة أُخرى: «إنكِ ابنتي، وإنني والدتك، لماذا تفزعين من هذا؟ ولم امتقع لونك عندما سمعتِ هذه العبارة؟». فأجابت هلنا وهي مروعة مُرتبكة، تخشى أن يكون نبأ حبها برترم قد تسرب إلى ظن الكنتة: «عفوًا يا سيدتي، إنكِ لستِ أُمي، وليس الكنت روزين أخي، ولست أنا ابنتك». فقالت الكنتة: «ولكنك يا هلنا قد تكونين كنّتي، ولعل هذا ما ترغبين فيه، ولذلك تضطربين لسماع لفظى أُم وبنت، أصدقيني يا هلنا أتحبين ولدي؟». فأجابتها هلنا وهي خائفة مُرتاعة: «عفوًا سيدتي الكريمة!». فسألتها الكنتة مرة أُخرى: «أتحبين ولدي؟».

فأجابت هلنا: «ألستِ تُحبينه يا سيدتي؟». فقالت لها الكنتة: «لا تُراوغي في الجواب، تعالي واكشفي لي عن مكنون عواطفك؛ لأن حبك لم يبقَ منه شيئًا خافيًا». وحينئذ جثت هلنا على ركبتيها واعترفت بحبها، وسألت سيدتها الكريمة في خجل ورعب أن تعفو عنها، وأكدت لها بِأَلفاظ تنم عمَّا تشعر به من فرق عظيم بينها وبين برترم أنه لا يعرف شيئًا عن هذا الحب، وقالت إِنها في حبها الذي لا أمل لها في تحقيقه لتشبه الهندي الحقير الذي يعبد الشمس وهي تطل عليه من مكانها العالي في السماء، ولا تعرف عنه شيئًا، وسألتها الكنتة ألم تعتزم أخيرًا أن تذهب إِلى باريس؟ وأقرت هلنا بما دار في خلدها حين سمعت لافيه يتحدث عن مرض الملك، فقالت لها الكنتة: «وهل كان هذا قصدك من الذهاب إِلى باريس؟ أصدقيني يا هلنا ولا تخفي عني شيئًا». وأجابتها هلنا بصراحة: «إِن سيدي ولدك هو الذي جعلني أُفكر في هذا، ولولاه لما فكرت في باريس ولا في الدواء ولا في الملك، لقد كان كل ذلك بعيدًا عن أفكاري قبل ذهابه إِليها».

وسمعت الكنتة هذا الاعتراف بِأَجمعه دون أن تقول كلمة رضا أو ملامة، ولكنها سألت هلنا أسئلة دقيقة عن أثر الدواء وعن فائدته المرجوة في شفاء الملك، فعَرِفَتْ منها أنه أثمن ما كان يدخره جرار ده نربن، وأنه أعطاه لابنته وهو على فراش الموت. وتذكرت الكنتة ما قطعته على نفسها في تلك الساعة الرهيبة من وعد مُقدس بِأَن تعنى بهذه الفتاة، ولاح لها أن مصيرها وأجل الملك نفسه مُعلقان على هذا المشروع الخطير الذي أوحت به إِلى هذه الفتاة الوالهة أوهام الحب وآمال المحبين، ولكنه قد يكون من تصاريف الأقدار التي لا تراها الأعين، والتي تريد بها أن يُشفى الملك من مرضه، فيكون شفاؤه سببًا في سعادة ابنة جرار ده نربن. ومن أجل ذلك أذنت لهلنا

أن تسير في طريقها، وأعانتها بكل ما يلزمها من المال ومن يليق بها من الأتباع. ويممت هلنا شطر باريس تصحبها دعوات الكنتة ورغبتها الصادقة في نجاح مسعاها. وأقبلت هلنا على باريس واستطاعت بفضل صديقها الشيخ اللورد لافيه أن تُقابل الملك. على أنه كان لا يزال أمامها كثير من الصعاب، فلم يكن من السهل أن يرضى الملك بِأَن يُجرب الدواء الذي تعرضه عليه هذه الطبيبة الصغيرة الحسناء، ولكنها خبرته أنها ابنة جرار ده نربن الذي يعرف الملك من هو وما شأنه، وقالت إِن الدواء الثمين الذي تعرضه عليه هو أعز ما ادخره أبوها، وإِنه خلاصة تجاريبه الطويلة وحذقه العظيم، وإِنها تضع حياتها رهينة في يد الملك ضمانًا لقدرتها على إعادة صحته كاملة إِليه في خلال يومين. ورضى الملك أخيرًا أن يُجرب الدواء على أن تُعدم هلنا بعد يومين إِذا لم يتم شفاؤه، ووعدها إِذا نجحت أن يُزوجها بمن تختاره من الرجال في أرض فرنسا بأجمعها، لا يستثني منهم إلا الأُمراء، وكان اختيار الزوج الذي ترتضيه لنفسها هو الأجر الذي طلبته هلنا إِذا شفت الملك من مرضه.

ولم تكن هلنا مخدوعة في ثقتها بفائدة دواء أبيها؛ ذلك أنه قبل أن يمضي الأجل المحدد عادت إِلى الملك صحته كاملة، فدعا إِليه جميع الشُبان النُبلاء من حاشيته ليزوج طبيبته الحسناء بمن تختاره منهم، برًا منه بوعده لها. وطلب الملك إِلى هلنا أن تجيل بصرها في هؤلاء الشُبان الأشراف الأعزاب، وتختار منهم من تشاء. ولم تبطئ هلنا في اختيار هذا الزوج لأنها رأت الكنت روزين بين هؤلاء الشُبان، فالتفتت إِلى برترم وقالت: «هذا هو الرجل.. لن أجرؤ يا سيدي على القول بِأَني سأتخذك لي زوجًا، ولكنني أُسلم نفسي إِليك، وأضع خدماتي بين يديك ما حييت، فوجهني كيف شئت». وقال

الملك: «إذن فخذها يا برترم فهي زوجتك». ولم يتردد برترم في أن يجهر بعدم رغبته في هذه الهدية التي تعرض نفسها عليه، وقال: «إن هلنا ابنة طبيب رقيق الحال، نشأت في كنف أبيه وتعيش الآن كَلًّا على أمه».

وسمعته هلنا ينطق بهذه الألفاظ، ألفاظ الرفض والسخرية، فقالت للملك: «أما شفاؤك فقد سرني وأثلج صدري، وأما ما بقى بعد ذلك فلترح بالك منه ولا تُفكر فيه قط». ولكن الملك لم يرضَ أن يُستهان بِأَمره إلى هذا الحد، وكان من حقوق ملوك فرنسا وامتيازاتهم الخاصة الكثيرة أن يهبوا نُبلاء البلاد أزواجًا لمن يشاءون من النساء، ولذلك تزوج برترم بهلنا في ذلك اليوم نفسه، وهو زواج أُرغِمَ عليه برترم ولم يكن مرتاحًا إليه، كما أن هلنا المسكينة لم تكن ترجو من ورائه خيرًا. نعم إنها استطاعت أن تحصل على الزوج النبيل الذي خاطرت بحياتها للحصول عليه، ولكن بدا لها أنها لم تكسب في حقيقة الأمر إلا فراغًا مزوقًا؛ لأن حب زوجها لم يكن من الهدايا التي يستطيع ملك فرنسا أن يهديها إليها.

ولم يكد هذا الزواج يتم حتى طلب برترم إلى هلنا أن تستأذن له الملك في الرحيل عن بلاطه. فلما نبأته أن الملك أذن له قال لها إن شؤونه قد اضطربت بسبب هذا الزواج المفاجئ الذي لم يكن مُستعدًا له، ولذلك فليس لها أن تعجب من الخطة التي سيسلكها. وإذا لم تكن هلنا قد عجبت من هذه الخطة فإنها حزنت حين عَرِفَتْ أنه يريد أن يُفارقها. ولقد أمرها بالفعل أن تعود إلى والدته. فلما سمعت هذا الأمر القاسي أجابت قائلة: «ليس لي ما أقوله جوابًا عن هذا إلَّا أني أطوع الخدم لك، وأني سأعمل بكل ما تأمرني به، لعلي أنال منك ذلك التقدير الذي حرمته بسبب الفارق الكبير بين منزلتي الحقيرة وحظي العظيم». ولكن هذا التذلل لم يُؤثر في نفس برترم ولم يكسر

من زهوه فيشفق على زوجته الظريفة، وفارقها دون أن يُودعها بكلمة طيبة كما تقضي به آداب اللياقة المعتادة بين الناس.

وعادت هلنا إلى بيت الكنتة بعد أن أتمت ما كانت تبغيه من رحلتها. لقد أنجت الملك من الموت وتزوجت بالكنت روزين أحب الناس إلى قلبها وأعزهم عليها، ولكنها عادت تتقسمها الغموم إلى بيت حماتها النبيلة، وما كادت تدخل الدار حتى تلقت رسالة من برترم هدَّتها وفتت في عضدها.

وأحسنت الكنتة الكريمة استقبالها، كأن ابنها قد اختارها بنفسه لتكون زوجة له، وكأنها فتاة من أرقى الطبقات، وأخذت تُحييها بأطيب الألفاظ لتنسيها ما وقع في نفسها من إهمال برترم لها وإرسالها وحدها إلى بيت أُمه في يوم زواجه بها، ولكن هذا الاستقبال الحسن لم يذهب الحزن من قلب هلنا، وقالت: «سيدتي لقد ذهب سيدي، ذهب إلى حيث لا يعود أبدًا». ثم قرأت العبارة الآتية من خطاب برترم: «حين تحصلين على هذا الخاتم من إصبعي، ولن يخرج هذا الخاتم منه قط، فسمني وقتئذ زوجك. ولكن إذا جاء وقتئذ فسأكتب فيه أبدًا». وأضافت هلنا إلى ذلك قولها: «تلك عبارة رهيبة». وطلبت إليها الكنتة أن تصبر ولا تجزع، وقالت لها إنها بعد أن ذهب برترم ستكون هي ابنتها، وإنها جديرة بزوج يقف في خدمته عشرون فتى وقحًا من أمثال برترم، ويدعوها في كل ساعة من ساعات النهار سيدتي. ولكن هذه الأُم الرءوم، التي لا مثيل لها بين الأُمهات، لم تستطع بتواضعها وتذللها، أن تذهب الحزن عن كنتها. وظلت هلنا تحدق ببصرها في خطاب زوجها ثمصرخت من شدة الحزن قائلة: «إلى أن يجيء الوقت الذي لا تكون لي فيه

زوجة لن يكون لي شيء في فرنسا»[٦]. وسألتاه الكنتة هل وجدت هذه العبارة في الخطاب؟ وكل ما استطاعت هلنا البائسة أن تجيب به عن سؤالها هو قولها: «نعم، سيدتي».

وفي اليوم التالي افتقدوا هلنا فلم يجدوها، بل وجدوا منها خطابًا طلبت أن يُعطى إلى الكنتة بعد ذهابها، وقد شرحت في هذا الخطاب سبب غيابها المفاجئ، وقالت فيه إنها قد أحزنها كل الحزن أن يخرج برترم بسببها من بيته ووطنه، وإنها أرادت أن تُكفر عن ذنبها فاتخذت سبيلها إلى مزار القديس جاك الأكبر St. Jaques le Grand، وختمته برجاء إلى الكنتة أن تُبلغ ولدها أن الزوجة التي يكرهها هذا الكره كله قد خرجت من داره ولن تعود إليها أبدًا.

ولما خرج برترم من باريس يمم شطر فلورنس Florence وعمل ضابطًا في جيش دوقها، وانتصر هذا الجيش في بعض الحروب، وأظهر برترم من ضروب الشجاعة والبطولة ما امتاز به على أقرانه، وتلقى وهو في هذه المدينة رسائل من أُمه تحتوي ذلك النبأ السار وهو أن هلنا لن تقلق باله بعد. وبينا هو يستعد للعودة وإذا هلنا نفسها تصل إلى مدينة فلورنس في ثياب حاج.

وكانت مدينة فلورنس على الطريق الذي يسير فيه الحجاج إلى ضريح القديس جاك الأكبر. ولما وصلت هلنا إلى هذه المدينة سمعت أن فيها أرملة كريمة تستضيف النساء اللاتي يفدن على المدينة لزيارة ضريح القديس الكبير، فتسكنهن وتطعمهن. وذهبت إلى دار هذه السيدة الكريمة فأحسنت

[٦] إن الغموض الذي في هذه العبارة مقصود بالذات، ولكن معناها رغم ذلك مما لا يصعب إدراكه، فهو يقول إنه لن يكون له ما يعنى به في فرنسا إلا حين لا تكون له فيها زوجة.

استقبالها، ودعتها إلى مشاهدة كل ما في تلك المدينة الشهيرة من عجائب، ثم أخبرتها أنها إذا رغبت في مُشاهدة جيش الدوق فإنها تستطيع أن تأخذها إلى حيث ترى هذا الجيش أحسن رؤية، وقالت لها: «وسترين شابًا من بني وطنك يُدعى الكنت روزين أدى للدوق خدمات جليلة في حروبه». ولم تكن هلنا في حاجة إلى تكرار الدعوة حين علمت أنها ستُشاهد برترم فيمن تُشاهده من رجال الجيش، فسارت مع مُضيفتها، وكان سرورها بالنظر إلى وجه زوجها العزيز مرة أُخرى سرورًا يشوبه الحزن والأسى.

وسألتها السيدة الأرملة: «أليس هو رجلًا وسيمًا؟». فأجابتها هلنا جوابًا صادقًا كل الصدق: «إني لأحبه كثيرًا». وظلتا طول الطريق تتحدثان، وكان حديث الأرملة الثرثارة يدور كله حول برترم، فروت لهلنا خبر زواجه وهجره زوجته البائسة، وانضمامه إلى جيش الدوق حتى لا يعيش معها. وصبرت هلنا على استماع هذه القصة، قصة بؤسها وشقائها، حتى فرغت الأرملة من سردها، ولكنها لم تفرغ من سرد تاريخ برترم، بل أخذت تروي قصة أُخرى وعت هلنا كل كلمة منها؛ لأنها قصة حب برترم لابنة هذه السيدة.

ذلك أن برترم، وإن لم يعجبه الزواج الذي فرضه الملك عليه، لم يصم أُذنه عن سماع نداء الحب، بل إنه من يوم انضم إلى جيش الدوق في فلورنس قد وقع في قلبه حب فتاة مُهذبة حسناء تُدعى ديانا Diana، وهي ابنة الأرملة التي أضافت هلنا. وكان يأتي في كل ليلة ويقف تحت نافذتها ليطربها بنغمات موسيقية مُختلفة، ويتغنى بجمالها ويدعوها إلى حبه. وكل ما كان يرجوه منها أن تسمح له بِأَن يزورها خلسة وأهلها هجَّع، ولكنه لم يجد وسيلة يحمل بها ديانا على أن تستجيب لهذا الرجاء الأخطل، وأن تُشجعه على الاسترسال في حبه؛ لأنها تعرف أنه رجل محصن، ولأنها نشأت في كنف أُم حازمة من أُسرة

كريمة، وإن كانت الآن ذات عسرة فهي من نسل أُسرة كبولت Capnlet النبيلة.

وقصت السيدة هذا كله على هلنا وأثنت ثناء مُستطابًا على فضائل ابنتها العاقلة، وقالت إن هذا كله نتيجة ما تعهدتها به من تربية حسنة، وما أسدته إليها من نصائح حكيمة غالية، وختمت حديثها بقولها إن برترم شديد الإلحاح على ديانا أن تسمح له في هذه الليلة ذاتها بالزيارة التي يرغب فيها من صميم قلبه؛ لأنه سيُغادر مدينة فلورنس في باكورة اليوم التالي.

وأحزن هلنا أن تسمع عن حب برترم لابنة هذه الأرملة، ولكن هذه القصة أوحت إلى عقلها الخصيب بالخطة التي يجب أن تتبعها لتستعيد بها زوجها الآبق الواني. ولم يثبط من همتها ما أصابها من خيبة في مشروعها الأول، فأخذت تُدبر خطتها الجديدة، واعترفت للأرملة بِأَنها هي هلنا الزوجة التي هجرها برترم، وطلبت إلى هذه السيدة وابنتها أن تسمحا لبرترم بالزيارة التي يرجوها، وأن تأذن لها بِأَن تدخل في روعه أنها هي ديانا نفسها، وأخبرتهم أن الغرض الذي ترمي إليه من وراء هذا الاجتماع بينها وبين زوجها أن تحصل منه على خاتم قال إنها إذا حصلت عليه اعترف بها زوجة له. ووعدتها الأرملة هي وابنتها أن تُقدما لها ما تحتاجه من معونة، شفقة منهما على هذه الزوجة البائسة المهجورة، وطمعًا فيما وعدتهما به من مُكافأة، وقد أعطتهما بالفعل بدرة من المال شاهدًا على ما سوف تحبوهما به في المستقبل. وفي هذا اليوم نفسه عملت هلنا على أن يصل إلى مسامع برترم أنها ماتت، لعله إذا بلغه هذا النبأ وظن أن في وسعه أن يختار له زوجة ثانية تقدم إليها يطلب الزواج بها مُعتقدًا أنها ديانا، ولم تشك في أنها إذا استطاعت أن تحصل منه على الخاتم الذي بيده وعلى وعد منه بالزواج، كان في مقدورها أن تجني من وراء ذلك

بعض الخير في المستقبل.

وأُذِنَ لبرترم في ظلام الليل أن يدخل حجرة ديانا، وكانت فيها هلنا مُستعدة لاستقباله. ووقعت عبارات الحب والثناء التي وجهها إلى هلنا أحسن الوقع على مسامعها، رغم ما كانت تعرفه من أن ديانا هي المقصودة بها. وأعجب بها برترم إعجابًا لم يتمالك معه أن يعدها وعدًا صريحًا بأن يتزوجها ويحبها حُبًا يدوم على مدى الدهر. ودعت هلنا ربها أن يكون هذا حُبًا صادقًا يبقى بعد أن يعرف أن التي سر من حديثها هذا السرور العظيم هي زوجته هلنا التي كان يمقتها ويزدريها.

ولم يكن يدور بخلد برترم أن هلنا فتاة رقيقة مُرهفة الحس إلى هذا الحد، وأكبر الظن أنه لو فطن إلى ذلك من قبل لما أهملها هذا الإهمال كله، كما أن رؤيته لها في كل يوم حجبت عن عينيه حقيقة جمالها البارع؛ وذلك لأن الوجه الذي تراه العين كل يوم يفقد ما لجماله من أثر في النفوس، وأما عقلها فلم يكن في وسعه أن يدرك رجاحته لأن حُبها له كان يمتزج به نوع من الإجلال يلزمها الصمت في حضرته. أما الآن فقد لاح لها أن حظها وتوفيقها فيما دبرته من خطط تسعد بها في حبها رهن بما تستطيع أن تتركه بحديثها هذه الليلة من أثر طيب في نفس برترم، فلم تأل جهدًا في إدخال السرور عليه. وسحر برترم برقة ألفاظها البسيطة الحية الخالية من كل تكلف، ومن أخلاقها الحلوة الجذابة، فأقسم أن يتخذها له زوجة.

وطلبت إليه هلنا أن يعطيها الخاتم الذي في أصبعه ليكون شاهدًا على منزلتها لديه، وكان يهم هلنا أن تحصل عليه، فأعطاها إياه لساعته، وأعطته بدلًا منه خاتمًا أهداه إليها الملك، وأخرجت برترم من حجرتها قبل مطلع

الفجر، وسافر من فوره مُتجهًا إلى بيت والدته.

واستطاعت هلنا أن تحمل الأرملة وابنتها ديانا على الذهاب معها إلى باريس؛ لأنها كانت في حاجة إلى معونتهما لنجاح مسعاها، فلما وصلن إلى هذه المدينة علمن أن الملك ذهب في زيارة إلى كنتة روزين، فسافرت هي ومن معها في أثره بأسرع ما تستطيع.

وكان الملك لا يزال يتمتع بصحة جيدة، وكان اعترافه بفضل الفتاة التي أنقذت حياته لا يبرح عقله، فما كاد يرى كنتة روزين حتى أخذ يُحدثها عن هلنا ويقول إنها جوهرة ثمينة أضاعها ولدها بطيشه. ولما رأى هذا الحديث يُؤلم قلب الكنتة، وكانت لا تزال حزينة مُخلصة في حزنها على موت هلنا، قال لها: «سيدتي الكريمة! لقد عفوت ونسيت كل شيء».

ولكن الشيخ لافيه الذي كان حاضرًا معهما لم يطق صبرًا على هذا القول، بل آلمه أن ينسى الملك ذكرى هلنا العزيزة عليه، ويستخف بها إلى هذا الحد فقال: «إن من واجبي أن أقول إن هذا الشاب قد أساء إلى جلالة الملك وإلى والدته وإلى زوجته، ولكنه أساء أكثر من هذا كله إلى نفسه، فقد أضاع بعملة زوجة تدهش الأعين بروعة جمالها، وتأسر الأسماع بسحر حديثها، وتسحر القلوب بِنُبل خلالها». فأجابه الملك بقوله: «إن الثناء على ما فات يجعل ذكراه غالية عزيزة، ادعوه إليّ هُنا». ومَثَل بربرت بين يدي الملك وأظهر أسفه الشديد على إساءته لهلنا، فعفا عنه الملك إكرامًا لأبيه المتوفى ولوالدته الجليلة، وقربه إليه كما كان من قبل. لكن وجه الملك ما لبث أن تجهم لبرترم حين رأى في إصبعه ذلك الخاتم الذي أهداه إلى هلنا، وتذكر أنها قد أشهدت جميع القديسين على ألَّا تُفارقه إلَّا إذا أرسلته إلى

الملك نفسه عندما يحيق بها خطر كبير. فلما سأل الملك برترم كيف وصل إليه هذا الخاتم قصَّ عليه قصة لا يقبلها العقل، قال فيها إن سيدة ألقت به إليه من نافذة غرفتها، وأنكر أنه رأى هلنا بعد يوم زواجه بها. وكان الملك يعلم كره برترم لزوجته فخشي أن يكون قد قضى على حياتها، وأمر حراسه أن يقبضوا عليه، وقال: «إني مُضطرب مكروب وأخشى أن تكون هلنا قد قتلت غدرًا وخيانة». وفي هذه الساعة أقبلت ديانا وأُمها وقدمتا إلى الملك ملتمسًا ترجوان فيه أن يستخدم ما له من سلطان ليرغم برترم على أن يتزوج ديانا لأنه عاهدها على ذلك عهدًا صريحًا. وخشي برترم غضب الملك فأنكر أنه وعدها ابهذا الزواج، فأظهرت ديانا الخاتم الذي أعطته لها هلنا لتؤيد به صدق دعواها، وقالت إنها أعطت برترم بدلًا منه الخاتم الذي في أصبعه عندما وعدها بالزواج. فلما سمع الملك ذلك أمر حراسه أن يقبضوا عليها هي أيضًا، وحدثت الفتاة الملك عن كيفية حصولها على هذا الخاتم حديثًا يختلف عن حديث برترم، فتأكدت ظنونه، وأصبح الشك لديه يقينًا، وتوعدهما بالقتل إن لم يعترفا له بكيفية حصولهما على خاتم هلنا. وطلبت ديانا إلى الملك أن يسمح لأُمها باستدعاء الصائغ الذي ابتاعت منه الخاتم، فلما أذن لها باستدعائه خرجت وعادت من فورها ومعها هلنا نفسها.

وكانت الكنتة الكريمة تُشاهد الخطر المحدق بولدها وهي حزينة صامتة، بل إنها خشيت أن يكون ظن الملك صحيحًا، وأن يكون ابنها قد قضى حقيقة على حياة زوجته. فلما أن وجدت أن هلنا التي كانت تعزها وتحبها حب الأُم لولدها لا تزال على قيد الحياة، سرى في جسمها تيار من البهجة لم تقوَ على احتماله، ولم يصدق الملك من فرط سروره أن عينيه تصدقانه وأنه يرى هلنا ذاتها فقال: «هل أرى حقًا زوجة برترم». وكانت هلنا

لا تزال تشعر أنها لم يُعترف بها زوجة حقة، فأجابته قائلة: «كلا يا مولاي! إنك لا ترى إلا خيال زوجة، إنك ترى اسمها لا حقيقتها».

وأجابها برترم بقوله: «بل كليهما! كليهما! عفوًا ومعذرة».

وقالت هلنا: «سيدي إني لما مثلت هذه الفتاة الخيرة وجدت فيك من الرحمة ما أدهشني، وهاك يا سيدي خطابك». وقرأت منه بنغمة الابتهاج والغبطة تلك الكلمات التي طالما كررتها من قبل وهي حزينة مُكتئبة: «حين تحصلين على هذا الخاتم من اصبعي». ثم قالت: «لقد تم ذلك فعلًا وكنت أنا التي أعطيتني الخاتم، فهل تكون لي بعد أن كسبتك مرتين؟».

وأجابها برترم: «إذا استطعت أن تثبتي أنك أنتِ السيدة التي كنت أُحدثها في تلك الليلة فسأحبك أعظم حب».

ولم يكن هذا بالأمر العسير؛ لأن ديانا وأُمها إنما جاءتا مع هلنا لتثبتا ذلك. وسرَّ الملك من ديانا لما قدمته من معونة لهذه الفتاة التي كان يعزها ويجلها لما أدت له من خدمات، فوعدها أن يُزوجها هي الأُخرى زوجًا كريمًا. وكانت قصة هلنا قد أوحت إليه بأن الأزواج من أحسن ما يُكافئ به الملوك الفتيات اللاتي يقمن لهم بأَعمال عظيمة.

وعَرِفَتْ هلنا أخيرًا أن الدواء الذي خلفه لها أبوها قد طلعت عليه أسعد نجوم السماء، فقد أصبحت الآن زوج برترم المحبوبة، وكنه سيدتها النبيلة الكريمة، وأصبحت هي نفسها الكنتة روزين.

تذليل السليطة

كانت كترين السليطة Katharine the Shrew كُبرى بنات بيتسته Baptista أحد أثرياء مدينة بدوا Padua، وكانت فتاة مُتمردة جامحة صخابة لا يعرفها الناس في بدوا إلا باسم كترين السليطة. ولاح أن من أبعد الأشياء، بل أن من المستحيل، أن يتقدم أحد من الرجال للزواج بتلك الفتاة، ولذلك كان الناس كثيرً ما يلومون بيتسته حين يسوف في قبول العروض الطيبة التي كان يتقدم بها كثير من الشُبان كثير للزواج بِأُختها الظريفة بينكا Blanca، فقد كان يُؤجل خطبتها قائلًا إنه لا يقبل أن تخطب ابنته الصغرى بينكا إلا بعد أن يتم زواج أُختها الكُبرى.

واتفق أن جاء إلى بدوا في ذلك الوقت رجل يُدعى بتروشيو Petruchio، ليبحث فيها عن زوجة. ولم يُؤثر فيه ما يتحدث به الناس عن أخلاق كترين؛ لأنه سمع أنها ثرية حسناء، فقال: لأتزوجن بهذه الصخابة الذائعة الصيت، ولأُذللنها حتى أجعل منها زوجة وديعة طيعة. والحق أنه لم يكن أحد أقدر على هذا العمل الشاق من بتروشيو، فقد كان لا يقل عن كترين قوة إرادة، ولكنه كان فكِهًا مرحًا لبقًا، وكان إلى ذلك كله حكيمًا سديد الرأي، يعرف كيف يتصنع الغضب والثورة وهو هادئ النفس، حتى ليسعه أن يضحك ساخرًا من غضبه المتكلف؛ لأنه كان في حقيقة أمره سهلًا مُتهاونًا. ولم يكن ما يتصنعه من الغضب والصخب بعد أن أصبح زوجًا لكترين إلا مزاحًا، أو على الأصح تصنعًا، تمليه عليه حصافته وحكمته؛ لأنه هو السبيل الوحيدة التي يستطيع بها أن يطفئ نار غضبها.

ذهب بتروشيو إذن ليخطب كترين السليطة، وكان أول ما فعل أن طلب إلى أبيها بيتسته أن يأذن له بِأَن يتودد إلى ابنته الظريفة كترين —كما سماها — وقال في مكر ودهاء إنه سَمِعَ بحيائها وخفرها ورقة طبعها، فجاء من فيرونا يسعى لكسب قلبها. وكان أبوها راغبًا في زواجها، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بِأَنها بعيدة عن هذا الوصف. وقد بدا على الفور مقدار ما في طبعها من رقة ولُطف، إذ دخل عليهما مُعلم الموسيقى مهرولًا ليقول إن تلميذته كترين الظريفة شجت رأسه بعودها لأنه تجاسر على تخطئتها في عزفها. فلما سَمِعَ بتروشيو ذلك قال: «ما أشجعها من فتاة! إن هذا يزدني حُبًا لها ورغبة في التحدث إليها». وألحَّ على والدها الشيخ أن يجيبه جوابًا صريحًا، وقال له: «إن عملي يا سيد بيتسته يدعوني إلى العودة بسرعة، وليس في مقدوري أن آتي كل يوم لأتودد وأخطب. إنك لا تجهل أن أبي قد مات وترك لي كل ما يمتلك من أرض ومتاع، فقل لي بِأَي شيء تمهر ابنتك إذا كسبت حبها؟». وظن بيتسته أن في خطبته شيئًا من الخشونة لا تليق بالمحبين، ولكنه كان يسره أن تتزوج كترين، فأجابه بِأَنه يمهرها بعشرين ألف ريال وبنصف أرضه بعد موته. وكذلك اتفق على هذا الزواج الغريب بعد وقت قصير، وذهب بيتسته ليبلغ ابنته السليطة ما قاله عنها حبيبها، وبعث إلى بتروشيو لتستمع إلى خطبته.

وكان بتروشيو في أثناء ذلك يُرتب الخطة التي سيتبعها في مُغازلة الفتاة فقال: «سأُغازلها بشيء من الكبرياء حين تجيء، فإذا سخرت مني قلت لها إنها تُغني بصوت شجي كصوت البلبل، فإذا عبست قلت إنها أصفى لونًا من الورد بلله القطر، فإذا لم تنطق بكلمة أثنيت على فصاحتها، وإذا أمرتني بالخروج من حضرتها شكرت ذلك لها كأنها قد أمرتني بالبقاء معها أُسبوعًا».

وفي ذلك الوقت دخلت كترين في عظمة وخيلاء، فابتدرها بتروشيو بقوله: «عمي صباحًا يا كيت، فقد قيل لي إن ذلك اسمك». ولم تعجب كترين هذه التحية الخالية من الاحترام فقالت في ازدراء: «إن الذين يُخاطبونني يُسمونني كترين». فأجابها المحب بقوله: «إنكِ تكذبين، فهم يسمونك باسم كيت مُجردًا من كل وصف، ويُسمونك أحيانًا كيت الظريفة، وأحيانًا السليطة، ولكنك يا كيت أجمل كيت في العالم، ولذلك فإني يا كيت لما سمعت الناس في كل بلد يثنون على رقتك وظرفك جئت لأخطبك وأتخذك لي زوجة».

وكانت خطبة بالغة مُنتهى الغرابة، فقد كانت هي بضجيجها وغضبها تشهد على نفسها بأَنها أجدر الناس باسم السليطة، وكان هو لا يفتأ يثني على ألفاظها العذبة الرقيقة، ولما سمع وقع أقدام أبيها أراد أن يفرغ من خطبته بِأسرع ما يستطيع فقال: «عزيزتي كترين! دعينا من هذا الحديث الذي لا خير فيه، فقد رضى أبوك أن تكوني لي زوجة، واتفقنا على مهرك وسأتزوج بكِ رضيتِ أو لم ترضي».

ودخل بيتستة فقال له بتروشيو إن ابنته أحسنت لقاءه، وإنها اتفقت معه على الزواج في يوم الأحد المقبل، وأنكرت كترين ذلك وقالت إنها تود أن يُساق إلى المشنقة يوم الأحد، وأخذت تُعنف أباها لأنه رضى أن يُزوجها بجلف فظ مخبول مثل بتروشيو. وطلب بتروشيو إلى أبيها ألَّا يعبأ بِأَلفاظها الغضبى لأنهما اتفقا على أن تتظاهر بالرفض في حضرته، ولكنها كانت من ورائه حبيبة وديدة، ثم قال لها: «مُدي إليَّ يدكِ يا كيت، سأذهب إلى البندقية لأبتاع لكِ أجمل الملابس استعدادًا ليوم زفافك، فاستعد للوليمة يا أبتِ وادع الأضياف في يوم الزفاف، وسآتيكم بالخواتم وأغلى الملابس وأجمل أدوات الزينة لأجمل بها حبيبتي كترين، فقبليني يا كيت، إننا نتزوج يوم الأحد».

وفي يوم الأحد المحدد اجتمع المدعوون لحفلة الزفاف، وطال انتظارهم لبتروشيو، وبكت كترين حُزنًا لأنها ظنت أن بتروشيو كان يسخر منا. ثم جاء أخيرًا ولكنه لم يكن معه شيء من لوازم الزفاف التي وعد بها كترين، ولم يرتد هو نفسه ثياب العرس، بل كانت عليه ملابس غريبة غير مُنتظمة كأنما هو يريد أن يهزأ بهذا العمل الجدي الذي جاء لينجزه، وكان على خدمه وعلى الخيل التي يركبونها أردية حقيرة غريبة.

ولم يستطع أحد أن يحمل بتروشيو على تغيير ملبسه، وقال حين خوطب في ذلك إن كترين ستتزوج به هو لا بملابسه. ولما رأى القوم أن لا فائدة تُرجى من الإلحاح عليه ذهبوا به إلى الكنيسة، وظل هو يسلك مسلك البلهاء، ولما سأله القسيس هل يرضى بكترين زوجة له أقسم بأعلى صوت أنها ستكون زوجته. وارتاع القسيس من ذلك فسقط الكتاب من يده، ولما همَّ بالتقاطه ضربه هذا العريس الأرعن ضربة سقط منها هو وكتابه على الأرض، وظل في أثناء مراسم الزواج ثائرًا يضرب الأرض برجليه، حتى ارتاعت كترين رغم جرأتها.

ولما انتهت حفلة الزفاف وكان الناس لا يزالون في الكنيسة، طلب أن يحضروا له نبيذًا، وشرب نخب الجماعة مُعلنًا ذلك بأعلى صوته، وألقى بقطعة من الخبز كانت في قاع الإناء في وجه خادم الكنيسة، ولم يُبرر عمله هذا بأكثر من أن لحيته كانت رفيعة ضئيلة، حتى بدا له وهو يشرب النبيذ أنها تسأله قطعة الخبز. والحق أن الناس لم يروا قبل هذا زواجًا أحاط به مثل هذا الجنون، ولكن بتروشيو إنما تكلف هذا الهرج كله ليكون أقدر على النجاح في تنفيذ الخطة التي وضعها لتذليل زوجته السليطة.

وكان بيتسته قد أعد للزواج حفلة فخمة، ولكنهم عندما عادوا من الكنيسة أخذ بتروشيو بيد كترين وأعلن أنه يعتزم أخذ زوجته إلى داره من فوره. ولم يفلح الوالد باحتجاجه، ولا الزوجة الغاضبة بصخبها، في أن يثنياه عن عزمه، بل قال لهم إن من حق الزوج أن يتصرف في زوجته كما يشاء، وخرج بها في الحال وأظهر من العناد والجرأة ما لم يستطع أحد معهما أن يقف في سبيله. وأركب بتروشيو زوجته حصانًا بائسًا ضامرًا هزيلًا، اختاره لهذا الغرض خاصة، ولم يكن فرسه وفرس خادمه خيرًا من هذا الحصان نفسه. وساروا جميعًا في طُرق وعرة وحلة، وكان إذا عثر حصان كترين ثار بتروشيو وغضب وسب البهيم المنهوك الذي لم يكن يقوى على المسير بحمله، وكأنما كان بتروشيو في هذه الساعة أشد خلق الله غضبًا وأحدهم طبعًا.

ووصل الركب أخيرًا إلى بيت بتروشيو بعد سفر طويل شاق، لم تسمع كترين في أثنائه إلا صخبًا ولعنًا يصبه بتروشيو على الخادم وعلى الخيل. ورحب بتروشيو بزوجته عندما دخلت داره، ولكنه اعتزم ألَّا يسمح لها في تلك الليلة بشيء من الطعام أو الراحة. وهيئت المائدة ووضع عليها العشاء، ولكن بتروشيو ادعى أنه وجد عيبًا في كل صنف من الطعام، فألقى باللحم على الأرض وأمر الخدم أن يخرجوا به، وقال إنه يفعل هذا كله حُبًا في كترين؛ لأنه لا يريد أن يطعمها لحمًا لم يحسنوا إعداده. ولما آوت آخر الأمر إلى فراشها مُتعبة طاوية، وجد زوجها أن الفراش لم يُعد إعدادًا حسنًا، فأخذ يلقي بالوسائد وأغطية الفراش في أرض الحجرة، حتى اضطرت أن تقضي الليلة جالسة على كرسي. وكانت إذا هفا النعاس بجفنيها استيقظت مذعورة على صراخ زوجها وهو يعنف الخدم لأنهم لم يحسنوا إعداد فراش زوجته في يوم زفافها.

وسار بتروشيو على هذه الخطة نفسها في اليوم التالي، فظل يُخاطب كترين بأرق الألفاظ وأحسنها، حتى إذا ما همت بتناول الطعام رأى عيبًا في كل ما يقدمه لها، وقذف بطعام الإفطار كما قذف بطعام العشاء، واضطرت كترين — كترين المتغطرسة — أن تسأل الخدم أن يأتوها خلسة بشيء منه، ولكنهم أجابوها بأمر من سيدهم أنهم لا يستطيعون أن يقدموا لها شيئًا من غير علمه. فلما سمعت ذلك قالت: «ويلي! هل تزوج بي ليميتني جوعًا، إن من يفد على بيت أبي من المتسولين يجد الطعام، أما أنا التي لم أعرف في حياتي معنى الرجاء، فإني أكاد أهلك من الجوع، وأجن من السهر، وأحرم الرقاد من كثرة الصراخ، ولا أطعم إلا بالصخب والضجيج. وأشد ما يُؤلمني في هذا كله أنه يفعل ما يفعل باسم الحب، ويدعي أني إذا نمت أو طعمت كان في ذلك موتي على الفور».

وفي تلك اللحظة قطع عليها حديثها لنفسها دخول بتروشيو عليها، فقد جاء لها بقطعة صغيرة من اللحم لأنه لم يكن يريد أن تقضي على حياتها جوعًا، وقدمها لها وهو يقول: «هاك ياكيت شيئًا من الطعام. انظري ما أكثر جدي ونشاطي، فقد أعددته لك بنفسي، ولا شك عندي في أن هذا اللطف من جانبي يستحق منك الشكر. ما هذا، ألا تنطقين بكلمة؟ إذن فلست تحبين اللحم، وقد ضاع علي كل ما بذلته من جُهد في إعداده». ثم أمر الخادم أن يخرج باللحم. وكان الجوع الشديد قد كسر من زهوها فقالت وهي مُغضبة مُحنقة: «أرجو أن تسمح ببقائه». ولكن ذلك لم يكن كل ما يريد بتروشيو أن يلجئها إليه فأجابها: «إن أحقر الخدمات يُجازى عليها صاحبها بالحمد، وستشكرين لي ما فعلت قبل أن تمس يدك اللحم».

ونطقت كترين عل الرغم منها بقولها: «شكرًا لك يا سيدي». فسمح

لها أن تتناول شيئًا من الطعام وقال لها: «قد يفيد هذا سجيتك السمحة فائدة كبيرة، اطعمي سريعًا، وستعودين يا حبيبتي إِلى بيت أبيكِ، لنمرح هناك ونلعب، ونلبس ثيابًا وقبعات من الخز على أجسامنا وفوق رؤوسنا، وخواتم من الذهب في أيدينا، وأطواقًا من الريش الناعم والطيلسان على أكتافنا، وسنمسك بالمراوح في أيدينا، وسيكون لكل منا مجموعتان من الملابس غير التي نلبسها». وأراد أن يقنعها بِأَنه حقيقة يرغب من أن يُمتعها بهذا كله، فدعا إِليه تاجرًا وخياطًا جاء معه بملابس لها كان قد أمره بإِحضارها. ثم رفع الطبق الذي أمامها وأعطاه للخادم قبل أن تنال نصف كفايتها من الطعام وقال: «ما هذا؟ هل فرغت من الأكل؟». وأخرج التاجر قبعته وقال: «هذه القبعة التي أمرتم سيادتكم بإِحضارها».

وعندئذ بدأ بتروشيو يصخب من جديد، وقال إن القبعة صنعت على شكل قصعة، وإِنها لا تزيد في حجمها على قشرة جوزة، وأمر التاجر أن يذهب بها ويأتي بِأُخرى أكبر منها، وقالت كترين: «إِني أريدها، فكل السيدات المهذبات يلبسن قبعات من هذا النوع». وأجابها بتروشيو بقوله: «وستلبسين أنتِ مثلها عندما تكونين مُهذبة، أما قبل ذلك فلا». وكان اللحم الذي أكلته كترين قد أعاد إِليها شيئًا من قوتها الخائرة، فقالت له: «سيدي! لا شك في أنكَ تأذن لي بالكلام، على أنني سأتكلم أذنت أو لم تأذن، فلستُ طفلة، وقد رضى من هم خير منك أن أقول لهم ما في ضميري، فإِذا لم تكن تستطيع سماعه فأصم أُذنيك». ولم يشأ بتروشيو أن يصغى إِلى هذه الألفاظ المضطرمة لأنه عَرِفَ لحسن حظه وسيلة أُخرى يُعاملها بها أفضل من الجدل والخصام، فلم يجبها إِلا بقوله: «نعم، إِن ما تزعميه صحيح؛ فالقبعة حقيرة غير صالحة، ويزيد حبي لك أنكِ لا ترضين بها». فردت عليه كترين

بقولها: «سواء عليَّ أأحببتني أم لم تحبني، ولكني أرغب في هذه القبعة وسآخذها أولًا آخذ قبعات قط». وقال بتروشيو وهو لا يزال يظهر أنه قد أساء فهم أقوالها: «أتقولين إنكِ تريدين أن تري المئزر؟». وجاء الخياط وعرض عليهما مئزرًا جميلًا قال إنه صنعه لها. ولم يكن بتروشيو في الحقيقة يريد أن يشتري لها قبعة ولا مئزرًا، فوجد فيه كثيرًا من العيوب، وقال: «رباه! رحمة بنا أيتها السماء! أي رداء هذا؟ أتسمي هذا كمًّا؟ ما أشبهه بنصف مدفع، وقد قُطِعَ من أعلاه ومن أسفله كما تُقطع الفطائر». فقال له الخياط: «لقد أمرتني أن أصنعه على طراز هذه الأيام». وقالت كترين إنها لم ترَ في حياتها خيرًا من طراز هذا المئزر. واكتفى بتروشيو بهذا، وكان في سريرة نفسه يود أن ينال التاجر والخياط ثمن بضاعتهما، وأن يعتذر لهما عمَّا لقياه من مُعاملة غريبة في ظاهرها، ولكنه مع ذلك أمرهما بالخروج من حجرته بعبارات شديدة، وإشارات محنقة مغيظة، ثم التفت إلى كترين وقال لها: «تعالي يا عزيزتي كيت! ستذهبين إلى بيت أبيكِ في هذه الملابس الحقيرة التي نلبسها الآن».

ثم أمر أن تسرج الخيل، وأكد أن لا بُد من الوصول إلى دار بيتسته قبل موعد الغداء لأن السعاة كانت وقتئذ السابعة صباحًا. وكان الوقت ساعتئذ هو الظهر لا الصباح الباكر، ولذلك سمحت كترين لنفسها أن تقول في تواضع شديد، لأنه غلبها بحدة طبعه: «أُؤكد لك يا سيدي أن الساعة الآن الثانية بعد الظهر، وأننا لن نصل إلى هُنالك قبل موعد العشاء». ولكن بتروشيو كان قد اعتزم أن يخضعها لإرادته قبل أن يذهب إلى بيت أبيها خضوعًا لا تستطيع معه أن تُعارضه في أي شيء ينطق به، ولذلك قال إنه لن يبرح مكانه إلا إذا وافقت على أن الوقت هو ما يريده أن يكون، كأنما هو

المتصرف في الشمس، وصاحب السيطرة على ساعات النهار والليل، ثم قال: «وما لكِ لا تفتئين تُعارضينني في كل ما أقوله أو أفعله؟ لن أُسافر اليوم، وعندما أعتزم السفر ستكون الساعة كما أنطق بها أنا». واضطرت كترين إلى البقاء يومًا آخر تُمارس فيه هذا النوع الجديد من الخضوع، ولم يسمح لها بالذهاب إلى بيت أبيها إلا بعد أن خضعت له خضوعًا لا تجرؤ معه على أن تسمح للفظ المعارضة أن يدور في خلدها، أو يتحرك به لسانها. وكادت وهي سائرة في طريقها أن تُرَد إلى دارها لأنها لاحظت أن الشمس طالعة، حين أكد هو أن القمر ساطع في وقت الظهيرة.

وقال لها مغضبًا: «أقسم بابن أُمي؛ أي بنفسي، أني لن أبرح هذا المكان إلى دار أبيك حتى يكون هو القمر أو النجوم أو ما أريد أن يكون». ثم تظاهر بِأَنه قد اعتزم العودة، ولكن كترين، التي لم تبقَ الآن كترين السليطة بل الزوجة المطيعة، قالت له: «أرجو أن نُواصل السير بعد أن قطعنا هذه المرحلة، وليكن هذا هو القمر أو الشمس أو ما تريد أنت أن يكون، وإذا شئت أن تُسميه من الآن شمعة، فإني أقسم لك أنه سيكون كذلك بالنسبة لي».

واعتزم هو أن يتثبت من هذا فقال مرة أُخرى: «أقول إنه القمر». فأجابته كترين: «وأنا أعرف أنه القمر». فقال لها: «إنكِ كاذبة، تلك هي الشمس المباركة». فأجابته: «إذن فهي الشمس المباركة، ولكنها لن تكون الشمس إذا قلت إنها ليست شمسًا، فهي ما تريد أن تسميها وستكون كذلك على الدوام بالنسبة لكترين». ثم سمح لها أن تُواصل سفرها، ولكنه أراد أن يمتحنها مرة أُخرى ليرى هل يدوم هذا الخضوع، فخطاب رجلًا مُسنًا قابلاه في الطريق كما تُخاطب الفتيات، وقال له: «عمي صباحًا أيتها الفتاة

الظريفة». ثم سأل كترين هل رأت في حياتها فتاة أبهى منها طلعة؟ وأخذ يثني على تورد خدي هذا الشيخ وبياضهما، ويشبه عينيه بنجمين ساطعين، وخاطبه من جديد بقوله: «أيتها الفتاة الحسناء عمي صباحًا مرة أُخرى». ثم وجه الخطاب إلى زوجته قائلًا: «عزيزتي كترين، عانقيها إكرامًا لجمالها». وكانت كترين قد ذللت في هذا الوقت إلى أقصى حد، فبادرت بتنفيذ رغبة زوجها، وخاطبت الشيخ بنفس النغمة التي خاطبه بها، فقالت له: «أيتها العذراء الناشئة، إنكِ جميلة نضرة حلوة، إلى أين تذهبين وأين تسكنين ؟ ما أسعد الأبوين اللذين ينجبان فتاة في هذا الجمال!». ثم قال لها بتروشيو: «ما هذا يا كيت؟ أرجو ألَّا تكوني قد أصبتِ بخبل في عقلك. إن هذا رجل طاعن في السن مجعد الوجه ذهبت نضرته وذبل جسمه، وليس فتاة كما تدعين». وحينئذ قالت كترين: «عفوًا أيها الشيخ! لقد بهر عيني ضياء الشمس الساطع فبدا لي كل شيء غضًا. والآن تبين لي أنك أب مُبجل، فأرجو منك أن تعفو عمَّا وقعت فيه من خطأ». وقال بتروشيو: «اعف عنها أيها السيد الكريم، وقل لنا أين تذهب؟ إنا ليسرنا أن تُرافقنا إذا كنت سائرًا في طريقنا». وقال لهما الشيخ: «أيها السيد الأنيق، وأنت أيتها السيدة الظريفة، إن هذا اللقاء العجيب قد أدهشني كثيرًا، أما اسمي فهو فنسنتيو VIncentlo وأنا ذاهب لزيارة ابن لي يقيم في مدينة بدوا». وعندئذ عَرِفَ بتروشيو أن هذا الشيخ والد لوسنتيو Lucentlo، وهو شاب سيتزوج بينكا صغرى ابنتي بيتسته، فأخذ يُحدثه عن ثراء الفتاة التي سيتزوجها ولده، فسرَّه ذلك سرورًا كثيرًا. وظلوا كلهم سائرين حتى وصلوا إلى بيت بيتسته، وهُناك وجدوا جمعًا حاشدًا واستعدادًا للاحتفال بزفاف بينكا ولوسنتيو، وكان يتسته قد رضى في سرور أن يُزوج بينكا بعد أن نفض يديه من أُختها كترين.

ولما دخلوا الدار حياهم بيتسته ودعاهم إلى وليمة العرس، وكان من الحاضرين أيضًا فتى وفتاة تزوجا من عهد قريب.

ولم يستطع لوسنتيو زوج بينكا وهرتنسيو Hortensio الزوج الآخر الجديد أن يمسكا لسانهما عن المزاح والإشارة من طرف خفي إلى طباع زوجة بتروشيو الشكسة السليطة. ولاح أن هذين الزوجين المحبين مُغتبطان برقة طباع الفتاتين اللتين وقع عليهما اختيارهما، وأخذا يسخران من بتروشيو ويرثيان لحاله لأنه لم يُوفق مثليهما في اختياره. ولم يعبأ بتروشيو بمزاحهما وصبر حتى انفردت النساء بِأَنفسهن بعد الغداء، ولاحظ وقتئذ أن بيتسته قد انضم إليهما في استهزائهما به؛ لأنه حين أكد أن زوجته ستكون أطوع من زوجتيهما قال له والد كترين: «إني أنكر هذا، ولكيما تثقون أني لا أقول إلا الحق أرى أن يستدعي كل منا زوجته، ومن تكن منهن أطوع لأمر زوجها وأسرع في تلبية دعوته يكسب رهانًا نتفق عليه». ورضي الزوجان الآخران بهذا الرهان مسرورين، وسرا به لثقتهما بِأَن زوجتيهما رقيقتي الطباع ستكونان أطوع من كترين العنيدة. وعرضا أن يكون الرهان عشرين ريالًا. ولكن بتروشيو قال ضاحكًا إنه يُراهن بهذا القدر على صقراه أو كلبه. أما زوجته فلن يُراهن عليها إلا بقدر هذا المبلغ عشرين مرة. ورفع لوسنتيو وهرتنسيو الرهان إلى مائة ريال، وأرسل لوسنتيو أولًا خادمه يدعو بينكا أن تحضر إليه، ولكن الخادم رجع إليه يقول: «إن سيدتي تخبرك أنها مشغولة لا تستطيع الحضور». قال بتروشيو: «حسن، أتقول إنها مشغولة لا تستطيع الحضور؟ هل هذا جواب يصح أن تنطق به زوجة؟». لكنهم سخروا منه وقالوا إنهم يسرهم ألَّا تبعث كترين برد أسوأ من هذا. ثم جاء دور هرتنسيو فأرسل يستدعي زوجته وقال لخادمه: «اذهب وارج زوجتي أن تحضر إليّ». وقال بتروشيو:

«أترجوها؟ إذن فهي حاضرة لا محالة!». وأجابه هرتنسيو بقوله: «إني أخشى يا سيدي أن ترجو أنت زوجتك فلا تجيب الرجاء». وسرعان ما دهش هذا الزوج المؤدب حين عاد الخادم من غير سيدته، فناداه: «أين زوجتي؟». فأجابه الخادم: «مولاي! إن سيدتي تقول إنكم تمزحون، ولذلك فإنها لن تحضر إليك، وهي تأمرك أن تذهب أنت إليها». وقال بتروشيو: «هذا جواب أسوأ من سابقه». ثم نادى خادمه وقال له: «يا غلام اذهب إلى سيدتك وقل لها إني آمرها أن تأتي إلي!». وقبل أن يُفكر الجماعة في أنها ستعصي أمره صاح بيتسته مُندهشًا: «قسمًا إن كترين حاضرة». ثم دخلت كترين وقالت لبتروشيو في رقة ووداعة: «بماذا تأمر يا سيدي؟ وما الذي دعوتني لأعمله؟». فقال لها: «أين أختك وأين زوجة هرتنسيو؟». فأجابته قائلة: «إنهما جالستان تتحدثان إلى جانب النار في حجرة الاستقبال». فقال لها: «اذهبي واحضريهما إلى هنا». وخرجت كترين دون أن تجيب بكلمة لتنفذ أمر زوجها، وقال لوسنتيو: «تلك أُعجوبة إذا كان في الدنيا عجائب». وقال هرتنسيو: «إنها لعجيبة حقًا، ولست أدري ما وراء هذا؟». فقال بتروشيو: «إن وراءه الوئام والحب والحياة الهادئة، وقوامة الرجال الحقة على النساء، وجملة القول أن وراءه كل ما تتطلبه الهناءة والسعادة». وسر والد كترين أن يرى هذا التحسن في أخلاق ابنته فقال: «ولدي بتروشيو، جوزيت كل خير، لقد كسبت الرهان وسأُضيف إلى مهرها عشرين ألف ريال، كأنما هي ابنة أُخرى لي، فقد تبدل طبعها حتى كأنها ليست كترين». ورد عليه بتروشيو بقوله: «لن آخذ الرهان حتى أثبت فوق ما أثبته أنني جدير به، وحتى أظهر لكم من الشواهد على فضائلها وطاعتها غير ما أظهرت». ودخلت كترين في ذلك الوقت ومعها الفتاتان فواصل حديثه قائلًا: «ها هي ذي قد حضرت ومعها زوجتاكما العنيدتان، وقد سيطرت عليهما بقوة حجتها». ثم وجه إليها

الخطاب قائلًا: «كترين! إن هذه القبعة لا تُلائمك، فاخلعي هذا الشيء الحقير وألقيه تحت قدميكِ». وخلعت كترين قبعتها على الفور وألقت بها على الأرض، فقالت زوجة هرتنسيو: «أرجو ألَّا يصيبني مكروه أحزن منه قبل أن يصل أمري إلى هذا السخف». وقالت بينكا: «ما أسخف هذا العمل، أُتسمون هذا السخف طاعة؟». وقال زوج بينكا لها: «ليت طاعتك قد بلغت بكِ هذا السخف نفسه. إن رأيك فيما يجب أن تكون الطاعة قد كلفني مائة ريال بين وقت الغداء وهذه الساعة». فردت عليه بينكا قائلة: «وإن في رهانك على طاعتي لدليًا آخر على قلة عقلك». فقال بتروشيو: «إني آمرك يا كترين أن تفهمي هاتين الفتاتين العنيدتين ما عليهما من واجبات نحو سيديهما وزوجيهما». وما كان أشد دهشة الحاضرين حين أخذت الفتاة السليطة، بعد أن صلح حالها، تتحدث بلسان طلق فصيح عن فضيلة الطاعة التي هي أليق الفضائل بالزوجات، بعد أن مارستها بنفسها، ووضعت نفسها تحت سيطرة زوجها، تخضع له وتطيعه طاعة عمياء. واشتهرت كترين مرة أُخرى في بدوا وذاع صيتها، ولكنها لم تشتهر باسم كترين السليطة كما كانت من قبل، بل اشتهرت باسم كترين أطوع الزوجات في بدوا وأعرفهن بما عليهن من واجبات.

ملهاة الأخطاء

كان بين مدينتي سرقوسة Syracuse وإفسوس Ephesus عداوة، ولذلك سنت إفسوس قانونًا صارمًا يقضي بقتل كل منك يُرى من تجار سرقوسة في إفسوس إلَّا إذا افتدى حياته بألف مرك Mark.

ووُجِدَ إجيون Eegeon، وهو تاجر كبير السن من سرقوسة، في أحد شوارع إفسوس، وجيء به أمام الدوق ليُؤدي هذه الغرامة الثقيلة أو يحكم عليه بالإعدام.

ولم يكن مع إجيون من المال ما يفتدي به حياته، وأردا الدوق قبل أن يقضي بإعدامه أن يعرف قصته، وكيف جرؤ على أن يأتي إلى مدينة إفسوس، حيث يقضي القانون بقتل من يفد إليها من سرقوسة.

وقال إجيون إنه لا يرهب الموت لأن الحزن قد بغَّض إليه الحياة، ولكنه لا يرى واجبًا أثقل عليه من أن يقصَّ تاريخ حياته البائسة. ثم أخذ يقص هذا التاريخ قائلًا: «وُلِدَتْ في مدينة سرقوسة، ونشأتُ فيها وتعلمت التجارة، وتزوجت بسيدة عشت معها سعيدًا كل السعادة، ولكن أعمالي اضطرتني إلى السفر إلى إبدمنم Epidamnum والبقاء فيها ستة أشهر. ولما رأيت أن مقامي سيطول، استدعيت إليها زوجتي فجاءت، ولم تكد تصل إليها حتى وضعت ولدين. ومن عجب أنهما كانا مُتشابهين حتى لا يستطيع من يراهما أن يُميز أحدهما من الآخر. وفي الساعة التي وضعت فيها زوجتي هذين التوأمين

وضعت امرأة فقيرة في الفندق الذي تقيم فيه ولدين لا يقلان تشابهًا عن طفليَّ. وكان والد الطفلين والدتهما في فقر مدقع، فابتعت منهما طفليهما وربيتهما ليخدما ولديّ. وكان ولداي جميلي الطلعة، وكانت أُمهما شديدة الإِعجاب بهما، وأخذت في كل يوم تلح عليَّ في العودة إِلى بلدنا، فرضيت بذلك مُكرهًا، وفي ساعة منحوسة ركبنا السفينة عائدين إِليها. ولم نكد نبتعد عن مدينة إبدمنم أكثر من فرسخ واحد حتى عصفت الريح واشتد عصفها، وأيقن الملاحون أن لا أمل لهم في إِنقاذ السفينة، فتجمعوا في قارب النجاة لينجوا بِأَنفسهم، وتركونا وحدنا على ظهر السفينة ننتظر في كل لحظة أن تُحطمها العاصفة. ولم أكن ممَّن يرهبون الموت، ولكني تملكني الرعب حين رأيت زوجتي تبكي بُكاءً مُرًا. ورأيت طفليَّ الوسيمين يبكيان أيضًا، وإِن كانا لا يدركان ما يخفيهما، بل كان بكاؤهما تقليدًا لوالدتهما. وحصرت تفكيري كله في البحث عن وسيلة أنجيهم بها من الغرق، فهداني تفكيري إِلى أن أشد أصغر ولديّ إِلى طرف سارية من الساريات الزائدة التي يدخرها الملاحون ليستخدموها أثناء العواصف، وأن أشد أصغر العبدين إِلى طرفها الثاني، وعلمت زوجتي في الوقت نفسه أن تشد الولدين الآخرين إِلى سارية أُخرى بنفس الطريقة السابقة، فكان عليها أن تُعنى بالولدين الكبيرين وكان عليّ أنا أن أُعنى بالصغيرين. ثم شد كل منَّا نفسه إِلى ساريته مع الطفلين، ولولا هذه الحيلة لهلكنا عن آخرنا؛ لأن السفينة اصطدمت بصخرة كبيرة وتحطمت. وتعلقنا نحن بالساريتين الرقيقتين وحملتنا المياه، ولم يكن في طاقتي أن أُقدم أية معونة لزوجتي لأن همي كان مُنصرفًا إِلى العناية بالطفلين. ولم تلبث أن بعدت عني هي والطفلان الآخران، ولكنهم قبل أن يختفوا عن عيني التقطهم قارب لبعض الصيادين من مدينة كرنثة Corinth على ما أظن، ولما اطمأننت عليهم لم يبق لي ما أهتم به إِلَّا أن أُكافح الأمواج الغضبى لأنقذ حياة طفليّ

العزيز وأصغر العبدين. وفي آخر الأمر التقطتنا نحن أيضًا سفينة عرفني بحارتها، فرحبوا بي وقدموا لي كل ما استطاعوا من معونة، ثم أنزلونا سالمين في سرقوسة. ولكني مُنذ افترقت من زوجتي وأكبر ولديّ لم أعرف من أمرهما شيئًا، وبذلك لم يبقَ لي من أرعاه إلَّا ولدي الصغير. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره، أخذ يُكثر من السؤال عن أُمه وأخيه، وكثيرًا ما كان يلح عليَّ أن يأخذ عبده الصغير الذي فقد هو أيضًا أخاه ليبحثا عن أُمه ومن معها، ورضيت آخر الأمر على الرغم مني؛ لأني وإن كنت شديد الرغبة في أن أعرف ما جرى لزوجتي وولدي الأكبر، لم أكن أجهل أنني حين أرسل أصغر ولديَّ للبحث عنهما قد أُعرضه هو الآخر للضياع. ولقد مضى الآن على فراق ولدي سبع سنوات، قضيت منها خمسًا أضرب في الأرض باحثًا عنه، وذهبت فيها إلى أقصى حدود بلاد اليونان، واخترقت حدود آسية. وبينا أنا راجع إلى بلدي نزلت في هذه المدينة لأني لا أُريد أن يبقى في العالم مكان يستطيع الناس أن يأووا إليه إلَّا بحثت عن ولدي وزوجتي فيه، وستنتهي قصة حياتي في هذا اليوم، ولو أنني عَرِفت أن ابني وزوجتي على قيد الحياة لمت سعيدًا ناعم البال».

وهكذا ختم إجيون البائس حديث أحزانه، وأخذت الدوق الرأفة بهذا الأب السيئ الحظ الذي جلب الشقاء على نفسه بحبه لولده المفقود، وقال إنه كان يود أن يعفو عنه ويطلق سراحه لولا ما في ذلك من خرق لقوانين بلده التي لا تسمح بمخالفتها كرامته ولا يمينه التي أقسمها بالمحافظة عليها. ثم قال إنه لن يحكم عليه بالموت فورًا كما تقضي بذلك حرفية القانون، بل سيُؤجل الحُكم عليه يومًا واحدًا لعله يستطيع أن يستجدي الناس المال الذي يفتدي به حياته أو يقترضه منهم.

ولم يرَ إجيون في هذا اليوم الذي أمهله له الدوق منه كبرى له؛ لأنه لم يكن يعرف أحدًا في إفسوس، وبدا له أنه لن يعثر على أحد في تلك المدينة يستجديه أو يقترض منه ألف مرك يفتدي بها نفسه، وخرج من حضرة الدوق في حراسة أحد السجانين عاجزًا بائسًا لا أمل له في النجاة.

كان إجيون يظن أنه لا يعرف أحدًا في إفسوس، ولكنه في الوقت الذي أوشك فيه أن يلقى حتفه بسبب ما يبذله من الجهد في البحث عن ابنه الأصغر، كان هذا الابن نفسه وأخوه الأكبر كلاهما في مدينة إفسوس.

ولم يكن ولدا إجيون مُتشابهين في ملامحهما وجسميها فحسب، بل كانا إلى ذلك يُسميان باسم واحد، فكان يُطلق على كليهما اسم أنتفلس Antiphylus، وكذلك كان كلا التوأمين الخادمين يُسمى درميو Dromio.

واتفق أن وصل إلى إفسوس، في اليوم الذي وصل فيه إليها إجيون، ابنه الأصغر أنتفلس السرقوسي، الذي كان والده الشيخ يبحث عنه، ومعه عبده درميو. وإذ كان هذا الابن أيضًا تاجرًا سرقوسيًا، فقد كان مُعرضًا لنفس الخطر الذي تعرض له أبوه، ولكن الحظ واتاه فلقى صديقًا له أخبره بالنكبة التي توشك أن تحل بشيخ تاجر من أبناء سرقوسة، وأشار عليه أن يدعي أنه تاجر من إبدمنم. وعمل أنتفلس بهذه النصيحة، ولكنه أسف حين سمع أن أحد مواطنيه كان مُعرضًا للخطر، ولم يكن يدور بخلده أن هذا التاجر الشيخ هو أبوه نفسه.

وكان ابن إجيون الأكبر (وسُنسميه من الآن أنتفلس الإفسوسي تمييزًا له من أنتفلس السرقوسي) يقيم في إفسوس من عشرين عامًا، وكان تاجرًا مثريًا في مقدوره أن يبذل المال المطلوب لافتداء أبيه، ولكن أنتفلس لم يكن

يعرف شيئًا عن أبيه، فقد كان صغير السن حين أخرجه الصيادون هو وأُمه من البحر، فلم يذكر إلَّا أنه نجا من الموت بهذه الطريقة ولم يعرف شيئًا عن أبيه أو عن أُمه؛ لأن الصيادين الذين أخرجوه هو وأُمه والعبد الصغير درميو قد انتزعوا منها الطفلين ليبيعوهما بيع الرقيق، ولشدَّ ما أحزن ذلك هذه السيدة البائسة.

وباع الصيادون أنتفلس ودرميو إلى دوق منفون Menaphon، وكان مُحاربًا ذائع الصيت وعمًّا لدوق إفسوس. وجاء العم ومعه الولدان إلى إفسوس في زيارة لابن أخيه.

وأعجب دوق إفسوس بالشاب أنتفلس فعينه حين كبر ضابطًا في جيشه، وأظهر هذا الضابط في الحرب شجاعة عظيمة فأنجى مرةً حياة الدوق وليَّ نعمته، فكافأة على ذلك بِأَن زوجه بفتاة من سراة إفسوس تُدعى أدريانا Adriana. وكان أنتفلس لا يزال يعيش معها وعبده درميو ما زال في خدمته، حين جاء والده إلى تلك المدينة.

ولما فارق أنتفلس السرقسوسي صديقه الذي أشار عليه بِأَنه يقول إِنه قادم من إبدمنم، أعطى عبده درميو بعض المال ليذهب به إلى الفندق الذي اعتزم أن يتغدى فيه، وأنبأه أنه سيقضي بعض الوقت بالطواف بأحياء المدينة ليعرف شيئًا عن أخلاق أهلها.

وكان درميو شخصًا مرحًا، فكان إذا أصاب أنتفلس غم أو حزن سرى عنه عبده غمه وحزنه بفكاهته المضحكة اللطيفة، ولذلك كان سيده يسمح له في حديثه معه بنصيب من الحرية أكبر مما يسمح به السادة لخدمهم.

ولما أرسل أنتفلس السرقوسي خادمه درميو إلى الفندق، وقف برهة يُفكر في تجواله بمفرده للبحث عن أُمه وأخيه اللذين لم يسمع عنهما شيئًا في كل مكان نزل فيه، فاستولى عليه الحزن وقال في نفسه: «إنني كقطرة من الماء في المحيط، تريد أن تعثر على أخواتها فتفقد نفسها في هذا البحر اللجى. وتلك هي حالتي المحزنة بعينها، فقد خرجت لأبحث عن أخي وأمي ففقدت نفسي».

وبينا هو يُفكر في تجواله المتعب الذي لم يجن منه حتى ذلك الوقت نفعًا، عاد درميو (كما ظن هو)، وعجب أنتفلس من سرعة عودته فسأله أين ترك المال؟ ولم يكن هذا الذي يُكلمه هو درميو خادمه، بل كان التوأم الثاني الذي يعيش مع أنتفلس الإفسوسي. وكان درميو وأخوه لا يزالان كما وصفهما إجيون في صغرهما لا يفترق أحدهما عن الآخر في شيء، كما كان أنتفلس وأخوه، ولذلك لم يكن عجيبًا أن يظن أنتفلس أن الذي يُحدثه هو خادمه قد عاد من الفندق، فأخذ يستفسر عن سبب إسراعه في العودة. وأجابه درميو بقوله: «قد أرسلتني سيدتي لأدعوك للغداء، إن الديك يحترق، والشواء من لحم الخنزير يسَّاقط من السُّفود[٧]، وسيبرد اللحم كله إذا لم تعد مُسرعًا إلى البيت». فأجابه أنتفلس بقوله: «ليس هذا أوان المزاح، إني أسألك أين تركت المال؟». ولما كرر درميو قوله إن سيدته أرسلته ليستدعي أنتفلس للغداء قال له أنتتفلس: «أي سيدة تعني؟». فأجابه درميو: «زوجتك يا مولاي». ولما لم تكن لأنتفلس زوجة فقد غضب من درميو وقال له: «أمن أجل أني أتحدث إليك أحيانًا في غير كلفة تجرؤ على المزاح معي على هذا النحو الخالي من الاحتشام؟ لستُ أرغب في المزاح الآن، فقل لي ماذا فعلت بالمال؟ وكيف

[٧] جاء في القاموس المحيط: سفود كتنور حديدة يشوى بها. وتسفيد اللحم نظمه فيها للاشتواء.

تجرؤ ونحن غريبان هُنا على أن تضيع هذا القدر من المال الذي عهدت به إليك؟». وسَمِعَ درميو سيده يقول إنهما غريبان فظن أنه يمزح، وأجابه هو الآخر في مرح: «أرجوك يا سيدي أن تبقي المزاح حتى تجلس إلى المائدة، إني لم يُعهد إلى بشيء إلَّا أن أعود بك إلى البيت لتتغدى مع سيدتي وأُختها». وحينئذ عيل صبر أنتفلس فلطم درميو، وعاد هذا إلى المنزل وأخبر سيدته أن مولاه يأبى أن يعود إلى الدار لتناول الغداء، وإنه يقول إنه ليست له زوجة.

ولما سمعت أدريانا زوج أنتفلس الإفسوسي قول زوجها المزعوم إنه لا يعرف له زوجة غضبت أشد الغضب؛ لأنها كانت حادة المزاج شديدة الغيرة، وقالت إن الذي يعنيه زوجها بهذا القول هو أنه يحب سيدة أُخرى خيرًا منها، وأحفظها ذلك، فأخذت تنطق بألفاظ الغيرة والعيب في زوجها، وحاولت أختها لسيانا Luciana التي كانت تقيم معها أن تبعد عنها هذا الظن السيء الذي لم يكن له ما يُبرره، ولكنها لم تفلح. وعاد أنتفلس السرقوسي إلى الفندق فوجد درميو والمال آمنين لم يمسسهما سوء، ولما وقعت عينه على خادمه درميو همَّ أن يُؤنبه على مزاحه وعدم احتشامه في حديثه معه، ولكن أدريانا جاءته في تلك اللحظة، ولم يدرِ بخلدها أن الذي أمامها غير زوجها، فأخذت تعيب عليه نظراته الغريبة إليها، وحق له أن ينظر إليها هذه النظرات لأنه لم يرَ هذه السيدة الغضبى من قبل. وكان مما قالته إنه كان شديد الحب لها قبل أن يتزوج بها، أما الآن فإنه يحب سيدة أُخرى غيرها. ثم قالت: «وماذا جنيت الآن يا زوجي؟ ماذا جنيت حتى فقدت حُبك؟». وقال أنتفلس في دهشة شديدة: «أتتحدثين إليَّ أيتها السيدة الحسناء؟». وحاول عبثًا أن يُفهمها أنه ليس زوجها وأنه لم يقم في إفسوس أكثر من ساعتين، وأصرت هي على أن

يذهب معها إلى المنزل. ولم يفلح أنتفلس في التخلص منها فذهب معها إلى دار أخيه. وتغدى مع أدريانا وأُختها، وكانت إحداهما تدعوه زوجًا والثانية أخًا. ودهش هو أشد الدهشة وظن أنه بين اثنتين: إما أن يكون قد تزوجها في نومه وإما أنه نائم في تلك الساعة، ولا ثالثة لهما. ولم يكن درميو الذي ذهب معه أقل دهشة منه لأن خادمة المطبخ زوجة أخيه ادعت أيضًا أنه زوجها.

وبينا كان أنتفلس السرقوسي يتغدى مع زوجة أخيه عاد هذا الأخ زوجها الحقيقي ومعه عبده درميو لتناول الغداء، ولكن الخدم أغلقوا دونهما الباب لأن سيدتهم أمرتهم ألَّا يسمحوا لأحد بالدخول، ولما أخذا يدقان الباب ويقولان إنهما أنتفلس ودرميو، سخرت منهما الخادمات وقلن لهما إن أنتفلس يتغدى مع سيدتهما، وإن درميو في المطبخ، ومع أنهما كادا يكسران الباب من شدة الضرب فإنهما لم يُسمح لهما بالدخول، فعاد أنتفلس آخر الأمر من حيث أتى، وهو غاضب مُندهش حين سمع أن رجلًا يتغدى مع زوجته.

ولما فرغ أنتفلس السرقوسي من تناول الطعام تحير في أمره حين رأى السيدة تصر على أن تدعوه زوجها، وسمع أن خادمة المطبخ تدعو درمينو أيضًا زوجها، فلم يكد يجد حجة يتذرع بها للخروج من المنزل حتى غادره من فوره، فهو وإن أعجب بلسيانا قد غضب أشد الغضب من غيرة أُختها أدريانا، ولم يكن درميو أقل من سيده كرهًا لزوجته الظريفة خادمة المطبخ؛ ولذلك سرَّ السيد وخادمه حين خرجا من الدار بأسرع ما يستطيعان.

وما كاد أنتفلس السرقوسي يُغادر الدار حتى قابله صائغ ظنه أنتفلس الإفسوسي كما ظنته أدريانا؛ فناداه باسمه وأعطاه سلسلة ذهبية، ولما همَّ أنتفلس أن يرفض السلسلة ويقول إنه ليس صاحبها، أجابه الصائغ إنه صنعها

طوعًا لأمره، وسار في طريقه بعد أن ترك السلسلة في يد أنتفلس، فلم يكن منه إلا أن أمر خادمه درميو بِأَن يحزم أمتعته وينقلها إِلى السفينة؛ لأنه لا يريد أن يطيل المكث في هذا المكان الذي لقي فيه تلك العجائب كلها، ولم يشك قط في أن السحر كان مصدر هذا كله.

وقُبِضَ بعد ذلك بقليل على الصائغ الذي أعطى السلسلة لغير صاحبها؛ لأنه لم يُوفِ بدين كان عليه، واتفق أن مر بذلك المكان أنتفلس الإفسوسي المتزوج، وظن الصائغ أنه هو الذي أعطاه السلسلة من زمن قليل، فلما رآه طلب إليه أن يُؤدي ثمنها، وكان هذا الثمن يُعادل بالتقريب المبلغ الذي قُبِضَ عليه من أجله. وأنكر أنتفلس أنه أخذ السلسلة، وأصر الصائغ عل قوله إنه أعطاه إياها من دقائق معدودة، وظلا يتناقشان في هذا زمنًا طويلًا، وكلاهما يظن أنه صادق في قوله؛ لأن أنتفلس كان يعلم أن الصائغ لم يعطه السلسلة، وكان الأخوان مُتشابهين لدرجة لم يشك معها الصائغ في أنه أعطاه إياها، وبقيا على ذلك حتى ساق الضابط الصائغ إِلى السجن جزاء له على عدم وفائه بالدين. وقُبِضَ في نفس الوقت على أنتفلس بناء على طلب الصائغ لأنه لم يُؤدِ ثمن السلسلة، وبذلك انتهى نقاشهما بِأَن سيقا معًا إِلى السجن.

ولقي أنتفلس وهو في طريقه إِلى السجن درميو السرقوسي عبد أخيه وظنه عبده فأمره أن يذهب إِلى زوجته أدريانا ويخبرها أن تحضر له المال الذي قُبِضَ عليه من أجله. وعجب درميو أن يرسله سيده مرة أُخرى إِلى البيت العجيب الذي طعم فيه، والذي أسرع في الخروج منه من زمن قليل، ولم يرد عليه بكلمة مع أنه جاء ليخبر سيده بِأَن السفينة تُوشك أن تُغادر الميناء؛ وذلك لأنه رأى أنتفلس في حالة لا يصح معها أن يمزح معه. ثم تركه وهو غاضب مُتذمر من رجوعه على الرغم منه إِلى بيت أدريانا حيث: «تصر

دوزبل Wowsable على أنني زوجها، ولكن عليّ أن أذهب لأن واجب الخدم أن يطيعوا أمر سادتهم».

وأَعطته أدريانا المال، وبينا هو في طريقه إذ يُقابله أنتفلس السرقوسي، وكان لا يزال في أشد الدهشة مما لقيه في إفسوس، فقد كان أخوه من أهلها المعروفين فيها، ولذلك فإنه لم يكن أحد منهم يراه في طرقاتها حتى يحييه كما يحيي الناس من يعرفونهم من قديم الزمن.

وكان بعضهم يعرض عليه مالًا يقول إنه مدين له به، وبعضهم يدعوه لزيارته، وبعضهم يشكر له نعمة أولاه إياها، وكلهم يظنه أخاه. وعرض عليه أحد الخياطين حريرًا قال إنه اشتراه له، وأصر على أن يقيس طوله ليصنع منه ملابس له.

وبدأ أنتفلس يظن نفسه بين أمة من السحرة والساحرات، ولم يكن درميو لينقذ سيده من حيرته ودهشته حين سأله كيف نجا من يد الضابط الذي كان يسوقه إلى السجن، وأعطاه كيس النقود الذي بعثت به أدريانا إليه ليوفي به دينه، فلما سمع أنتفلس حديث درميو عن القبض عليه، وعن السجن، وعن المال الذي جاء به من أدريانا، سُقط في يده وقال: «إن الفتى درميو قد جن من غير شك، ونحن نطوف هُنا في جو من الأوهام». وارتاع هو نفسه من أفكاره المضطربة فصاح قائلًا: «لعل قوة تعمل لخير البشر تنجينا من هذا المكان العجيب».

وجاء وقتئذ شخص آخر غريب، وكان هذا الشخص سيدة نادته هي الأُخرى باسمه، وادعت أنه قد تغدى معها في ذلك اليوم، وطلبت إليه أن يعطيها سلسلة ذهبية قالت إنه وعدها به. فعيل صبر أنتفلس وقال إنها

ساحرة، وأنكر أنه وعدها بسلسلة أو أنه تغدى معه أو رأى وجهها قبل تلك الساعة. وأصرت السيدة على قولها إنه تغدى معها وإنه وعدها بسلسلة، وأصر أنتفلس على إنكاره، فقالت إنها أعطته فوق ذلك خاتمًا ثمينًا، فإذا لم يأتها بالسلسلة فعليه أن يرد إليها خاتمها. وجن جنون أنتفلس في هذه الساعة وسماها عرافة ساحرة، وأنكر أنه يعرفها أو يعرف شيئًا عن خاتمها، وانتزع نفسه منها وتركها مُندهشة من ألفاظه ومنظره المضطرب العجيب؛ لأنها لم تكن تثق بشيء وثوقها بأَنه قد تغدى معها وأنها أعطته خاتمًا حين وعدها أن يهدي إليها سلسلة ذهبية. ولكن الحقيقة أن هذه السيدة قد وقعت في نفس الخطأ الذي وقع فيه غيرها من أهل المدينة، وظنته أخاه. ذلك أن أنتفلس المتزوج هو الذي فعل كل ما عزته إلى أنتفلس هذا.

وجلية الأمر أن أنتفلس المتزوج لما حيل بينه وبين الدخول في بيته؛ لأن من كان في البيت ظنوا خطأ أنه في داخله، ذهب مُغضبًا وظن أن الأمر لا يعدو أن يكون نوبة من نوبات الغيرة التي تنتاب زوجته في كثير من الأحيان، وذكر أنها كثيرًا ما اتهمته بأَنه يزور غيرها من النساء. وأراد أن ينتقم منها لأنها منعته الدخول في داره، فصمم على أن يذهب ويتغدى مع هذه السيدة. فلما ذهب إليها وأحسنت استقباله، مع أن زوجته أساءت إليه، وعد أن يعطيها سلسلة ذهبية كان قد اعتزم أن يهديها إلى زوجته، وكانت هي السلسلة التي أعطاها الصائغ خطأ إلى أخيه. وسر هذه السيدة سرورًا كثيرًا أن تُعطى سلسلة ذهبية جميلة فأهدت إل أنتفلس المتزوج خاتمًا ذهبيًا. فلما حسبت أنه أنكر هذا (لأنها ظنته أخاه)، وقال إنه لا يعرفها، وفر منها بهذه الطريقة المضطربة التي رأتها، ظنت أن بعقله خبالًا، واعتزمت أن تذهب إلى أدريانا وتخبرها أن زوجها قد جن. وبينا هي تقص الخبر على أدريانا جيء به في صُحبة السجَّان،

وقد أُذِنَ له أن يأتي بيته ويأخذ منه المال ليُؤدي ما عليه من الدين؛ لأن كيس النقود الذي أرسلته أدريانا مع درميو وصل إلى يد أنتفلس الثاني.

وصدقت أدريانا ما قصته عليها السيدة من نبأ جنون زوجها حين أخذ يعنفها على إغلاق بيته دونه، وذكرت ما كان يُردده أثناء الغداء من أنه ليس زوجها، وأنه لم يأتِ إلى إفسوس إلَّا في ذلك اليوم، فلم يبقَ لديها شك في أن موازين عقله قد اختلت، ولذلك أدت المال إلى السجان، ولما انصرف من عندها أمرت الخدم أن يُوثقوا زوجها بالحبال وينقلوه إلى حجرة مُظلمة، وأرسلت تستدعي طبيبًا ليُعالجه من جنونه. وكان أنتفلس في أثناء هذا كله يحتج بأعلى صوته على هذه التهمة الباطلة التي لصقت به لما بينه وبين أخيه من شبه تام، ولكن احتجاجه لم يكن له من أثر إلَّا أن يقوي اعتقادهم بجنونه. ولما كان درميو قد بقى هو أيضًا مُصرًا على نفس القصة التي قصها سيده، فقد أوثقوه أيضًا وألقوه في الحجرة المظلمة.

ولم يمضِ وقت طويل على حجز أنتفلس ودرميو، حتى جاء أدريانا خادم يقول لها إن أنتفلس ودرميو فرا من حُراسهما، وأنهما يسيران في الطريق المجاور للدار. فلما سمعت ذلك أسرعت لتعيده إلى البيت، واستصحبت بعض الناس لتكون أقدر على الإمساك بزوجها، وذهبت معها أيضًا أُختها. ولما وصلوا إلى باب دير مجاور للبيت شاهدوا أنتفلس ودرميو، وخُدِعوا مرة أُخرى بما كان بين التوأمين من تماثل تام.

وكان أنتفلس السرقوسي لا يزال يُعاني أثر المتاعب التي جرها عليه هذا التشابه، فقد كانت السلسلة الذهبية حول عنقه، وكان الصائغ يعنفه على إنكارها ورفضه أداء ثمنها، وكان أنتفلس يحتج على ذلك، ويقول إن الصائغ

أعطاه السلسلة في الصباح ولم يُطالبه بثمنها، وإنه لم يره من ذلك الوقت إلَّا في هذه الساعة.

ثم جاءته أدريانا تقول إنه زوجها المجنون الذي فر من حراسه، وهَمَّ الرجال الذين جاءت بهم معها أن يقبضوا عليه هو ودرميو بالعنف، ولكنهما دخلا الدير مُسرعين، وطلب أنتفلس إلى رئيسته أن تأويه فيه.

وخرجت الرئيسة نفسها إلى القوم تسألهم عن سبب هذا الضجيج، وكانت سيدة وقورًا رزينة، صادقة الحكم على ما تقع عليه عينها، فلم تتسرع في تسليم الرجل الذي جاء إلى بيتها يطلب حمايتها، ووجهت إلى الزوجة أسئلة دقيقة عن قصة جنون زوجها، وقالت لها: «ما سبب هذا التغير الفجائي في طباع زوجك؟ هل خسر ثروته في البحار؟ أو هل مات له صديق عزيز فاضطرب لموته عقله؟». وأجابت أدريانا بِأَن اضطرابه لا يرجع إلى شيء من هذا، فقالت رئيسة الدير: «لعله قد أحب سيدة غير زوجته فساقه الحب إلى هذه الحال التي نراها؟». وأجابت أدريانا أنها كانت تظن من زمن بعيد أن سبب غيابه الكثير عن البيت يرجع إلى حُب سيدة أُخرى غيرها. والحق أن الذي كان يضطر أنتفلس إلى ترك بيته هو أنه كان يضيق ذرعًا بغيرة زوجته، ولم يكن سبب ذلك أنه يحب غيرها من النساء. وحزرت رئيسة الدير هذا حين شاهدت ما في أخلاق أدريانا من عنف وحدة، ولكنها شاءت أن تتثبت منه، فقالت لها: «كان عليكِ أن تزجريه على هذا». فأجابتها أدريانا: «لقد فعلت ذلك». فقالت رئيسة الدير: «لعلك لم تزجريه زجرًا كافيًا». وأرادت أدريانا أن تقنع رئيسة الدير بِأَن ما قالته لأنتفلس كان كافيًا له فردت عليها قائلة: «لقد كان هذا موضوع حديثنا في كل آن: فإذا آوينا إلى الفراش منعت عنه النوم بحديثي عنه، وإذا جلسنا إلى المائدة لم يذق للأكل طعمًا لما كنت

أسمعه من الكلام في هذا الموضوع، وإذا خلوت إليه لم أُحدثه في شيء غيره، وإذا كان معنا غيرنا أشرت إليه إشارات خفية عارضة، وكان كل حديثي ينحصر في أن من النذالة والخسة أن يحب غيري أكثر مني».

ولما استدرجت ربة الدّير أدريانا إلى الاعتراف بهذا كله قالت لها: «ومن أجل هذا جن زوجك. إن في لجاجة المرأة الغيور لسما أشد فتكًا من ناب الكلب السّعِر، ويلوح أن سخريتك قد حرمته طعم النوم، فلا عجب أن يخف رأسه، وقد امتزج طعامه بتأنيبك والغضب وقت الطعام يفسد الهضم، ولهذا حُمَّ زوجك. وتقولين إنك أفسدتِ عليه رياضته بتعنيفك، فإذا كنتِ قد حَرَّمت عليه التمتع بمجالسة الرفاق والألعاب، فلا مفر من أن يُؤدي به هذا إلى الكآبة والحزن واليأس الكريب، فغيرتكِ إذن هي التي ذهبت بعقل زوجكِ».

وأرادت لسيانا أن تُدافع عن أُختها فقالت إن تعنيفها لزوجها كان دائمًا في رفق، ثم قالت لأُختها: «ما بالكِ تسمعين هذا التأنيب ثم لا تجيبين عنه؟». ولكن رئيسة الدير كانت قد كشفت لها عن خطئها فلم تجب عن سؤال لسيانا بِأَكثر من قولها: «لقد استدرجتني حتى أقررت بذنبي».

وأقرت أدريانا بسوء سلوكها، ولكنها ظلت مُصرة على أن يُسَلَّم إليها زوجُها. غير أن رئيسة الدير لم تسمح لأحد بِأَن يدخل بيتها، وأبت أن تُسلم هذا الرجل البائس إلى زوجته الغيور، واعتزمت أن تستعين على شفائه بالرقة واللين، ثم دخلت دارها وأمرت بإغلاق الأبواب.

وفي أثناء هذا النهار المليء بالأحداث، والذي وقعت فيه كل هذه الأغلاط لما كان بين الأخوين التوأمين من تماثل تام، كان اليوم الذي أمهله

إجيون يمر حتى أشرفت شمسه على المغيب، وكان مغيب الشمس هو الموعد المحدد لتنفيذ حُكم الإعدام إذا لم يُؤدِ الفِداء. وكان موضع تنفيذ الحكم بجوار الدير، وجيء به إلى هذا المكان في الوقت الذي دخلت فيه رئيسة الدير إلى بيتها، وجاء الدوق أيضًا بنفسه ليستطيع أن يعفو عن الشيخ إذا ما تقدم أحد بأَداء الفدية عنه.

واعترضت أدريانا هذا الموكب الحزين وصاحت طالبة إلى الدوق تنفيذ العدالة، وقالت له إن رئيسة الدار تأبى أن تُسلمها زوجها المعتوه لتُعنى به. وبينا هي في حديثها إذ أقبل زوجها الحقيقي ومعه خادمه درميو، بعد أن انطلق الزوج من سجنه، وطلب إلى الدوق أن ينصفه من زوجته؛ لأنها سجنته واتهمته بأَنه معتوه، وقص عليه كيف حل وثاقه وفر من حراسه، ودهشت أدريانا حين رأت زوجها الذي كانت تظنه في داخل الدير.

ورأى إجيون ولده فأيقن أنه هو ابنه الذي فارقه ليبحث عن أُمه وأخيه، ولم يُخامره شك في أن هذا الابن العزيز سيُؤدي من فوره المال اللازم لفدائه، ولذلك خاطب أنتفلس بأَلفاظ العطف الأبوي، وهو مُبتهج يرجو أن يطلق سراحه. وما كان أشد دهشة إجيون حين أنكر ولده معرفته، ولم يكن عليه في ذلك حرج لأن أنتفلس هذا لم يرَ أباه من اليوم الذي افترقا فيه وهو طفل حين ثارت العاصفة. وبينا كان هذا الرجل البائس يُحاول عبثًا أن يحمل انبه على أن يعترف بأَنه أبوه، وتُحدثه نفسه بأَن أحزانه وما صادفه من قلق واضطراب قد بدلته حتى لم يعرفه ولده، أو أن هذا الولد استنكف أن يعترف بأَبيه لما كان يبدو عليه من بؤُس وشقاء، بينا هو في هذه الحيرة إذ خرجت ربة الدير ومعها أنتفلس الثاني ودرميو، ورأت أدريانا في دهشة وحيرة زوجين وخادمين يقفون أمامها.

واتضحت لهم الآن كل هذه الأغلاط والألغاز التي حيرتهم. ذلك أن الدوق حين رأى ما بينهما من تماثل، هداه عقله إلى سبب هذه الألغاز التي بدت له مُحيرة عجيبة، وذكر القصة التي رواها له إجيون في صباح ذلك اليوم، فقال: إن أُولئك الرجال هم من غير شك ولدا إجيون وخادماهما التوأمان.

وانتهت هذه الحوادث كلها بسرور آخر لم يكن مُنتظرًا؛ ذلك أنه قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم اختتمت القصة التي رواها في الصباح وهو حزين بائس ينتظر الحكم عليه بالإعدام بخاتمة سعيدة، فقد كشفت ربة الدير الوقور عن حقيقة أمرها، فإذا هي زوجة إجيون التي طال غيابها، وأُم أنتفلس وأخيه.

ذلك أنه لما أخذ الصيادون منها أنتفلس وخادمه دخلت الدير، ورفعها رأيها السديد وخلقها الكريم حتى صارت رئيسته، ولم تكن وهي تقوم بواجب الضيافة للرجل الغريب البائس تعرف أنها إنما تحمي ولدها.

وأخذ الأبوان والولدان يتبادلون عبارات التهنئة والتحية، بعد أن دام فراقهم زمنًا طويلًا، فنسوا في غمرة الأفراح أن إجيون لم يُرفع عنه حُكم الإعدام، فلما هدأت سورة عواطفهما بعض الشيء عرض أنتفلس الإفسوسي على الدوق المال اللازم لافتداء أبيه، ولكن الدوق عفا عن إجيون ورد الفداء. ودخل الدوق الدير ومعه رئيسته وولداها اللذان عثرت عليهما في تلك الساعة ليستمع إلى أفراد هذه الأسرة البائسة، وهم يتحدثون على مهل عن هذه الخاتمة السعيدة التي اختتم بها شقاؤهم. وجدير بنا ألَّا ننسى اغتباط درميو وأخيه على قلة شأنهما، فقد تبادلا هما أيضًا عبارات التحية والتهنئة، وأخذ كل منهما يثني على ما يمتاز به أخوه من وسامة، وقد سرَّ كلًّا منهما أن يرى

صورته الجميلة في وجه أخيه كأنه يرها في مرآة.

وأفادت أدريانا فائدة كبيرة من نصائح والدة زوجها وآرائها السديدة، فلم يبقَ في قلبها من تلك الساعة أثر للريبة الخاطئة من زوجها أو الغيرة عليه.

وتزوج أنتفلس السرقوسي بلسيانا الحسناء أُخت زوجة أخيه، وعاش الشيخ إجيون الطيب القلب مع زوجته وأولاده سنين طويلة في إفسوس.

على أن هذه الأغلاط الماضية التي كُشِفَ سرها بهذه الطريقة لم تحل دون وقوع أغلاط أُخرى من نوعها في الأيام المقبلة، فقد كانت تحدث أغلاط أُخرى يضحكون منها ويذكرون بها ما أصابهم في أيامهم الماضية، فكان الناس يخطئون في التعرف على أنتفلس هذا أو ذاك، وعلى درميو وأخيه. واجتمع من هذه الأخطاء ملهاة من الأغلاط سارة ومُسلية.

دقة بدقة

كان يحكم مدينة ويانة Vienna في غابر الأزمان دوق من حلمه ودماثة أخلاقه أن كان يسمح لرعاياه ألَّا يُراعوا شريعة البلاد دون أن يخشوا عقابًا. وكان من قوانين الدولة قانون كاد ينسى الناس وجوده بنوع خاص؛ لأن الدوق لم يُنفذه قط في أثناء حكمه كله. وكان هذا القانون يقضي بالإعدام على كل شخص يعيش مع امرأة غير زوجته، وأغفل الناس هذا القانون وتجاهلوه بسبب لين الدوق وتساهله، حتى أُهملت سنة الزواج المقدسة، وتتابعت الشكاوى في كل يوم على الدوق من آباء الفتيات في ويانة يقولون فيها إن بناتهم قد أُغرين بالخروج عن طاعتهم والمعيشة في صُحبة الرجال الأعزاب.

وشاهد الدوق في حزن هذا الشر يستفحل بين رعاياه، ولكنه خشى أن يتحول شعبه عن حُبه ويصمه بالظلم والاستبداد إذا بدل طبعه وخرج فجأة عن تسامحه ولينه إلى الشدة التي يتطلبها حسم هذا الداء. ولذلك عول على أن يخرج من دوقيته وقتًا ما وينزل لغيره عن سلطانه كله، ليستطيع من يتولى الأمر عنه أن يُنفذ القانون في هؤلاء المحبين الأدنياء، من غير أن يسيء هو إلى الناس ويلجأ بنفسه إلى هذه الشدة غير المعتادة.

واختار الدوق للاضطلاع بهذا الواجب الخطير رجلًا عُرِفَ في ويانة بِأَنه من الأتقياء الصالحين لما كان يلتزمه في حياته من التقشف والاستمساك بحميد الأخلاق. وكان هذا الرجل يُسمى أنجلو Angelo، ولما أسر الدوق هذه النية إلى لورد إسكلس Escalus كبير مُستشاريه، قال له: «إذا كان في ويانة رجل جدير بِأَن يعهد إليه بهذا الشرف الرفيع فهو لورد أنجلو». وخرج

الدوق من ويانة زاعمًا أنه ذاهب في زيارة إلى بولندة Poland وأناب أنجلو عنه في حُكم المدينة، ولكن الدوق لم يغب في الحقيقة عن ويانة، بل عاد إليها سرًا في لباس راهب ليُراقب خفية مسلك أنجلو الذي يظنه الناس قديسًا.

وحدث في الوقت الذي خلع فيه السلطان على أنجلو أن أغرى رجل يُدعى كلوديو Claudio فتاة من أهل المدينة بالفرار من بيت أبويها، وقُبِضَ على هذا الرجل بِأَمر نائب الحاكم وزج في غيابة السجن، ثم حكم عليه بالإعدام تنفيذًا لهذا القانون القديم الذي طالما أغفل. وبذلت جهود عظيمة لاستصدار العفو عن الشاب كلوديو، وتدخل في الأمر ذلك الرجل الطيب لورد إسكلس نفسه، وكان مما قاله: «أسفي عليه! لقد كان لهذا الفتى الذي أسعى للعفو عنه أب شريف، وإني لأرجو أن تغفر له ذنبه إكرامًا لأبيه». فأجابه أنجلو بقوله: «يجب ألَّا نعبث بالقانون ونستهزئ به، فنجعله أشبه بالنصب الذي يُقام لتخويف الطير، حتى إذا اعتادت ألَّا ترى منه ضررًا لم تعد ترهبه، واتخذته لها مجثمًا، إذن فلا بُد أن يموت».

وزار كلوديو في السجن صديق له يُدعى لوسيو Lucio وقال له كلوديو: «أرجو أن تصنع معي هذا الجميل، اذهب إلى أُختي إزبل Isabel التي اعتزمت أن تدخل اليوم دير الدقيس كلار Saint Clare وأطلعها على الخطر المحدق بي، وتوسل إليها أن تتصل بنائب الدوق المتشدد، وقل لها أن تذهب بنفسها إلى أنجلو. إن أملي في نجاحها كبير، فهي تجيد فن الحديث، وهي قادرة على الإقناع، وفوق هذا فإن لحزن الشباب قوة صامتة تفعل فعلها في قلوب الرجال».

وكانت إزبل أُخت كلوديو قد دخلت الدير في ذلك اليوم كما قال أخوها لتقضي فيه مُدة التمرين على الرهبنة، وكانت نيتها مُنصرفة إِلى لبس ثياب الراهبات بعد أن تقضي في الدير مُدة التمرين. وبينا هي تسأل إِحدى الراهبات عن قوانين الدير إِذ سمعتا صوت لوسيو يقول وهو يدخل هذا البيت من بيوت الله: «سلام على هذا المكان». وقالت إِزبل: «منذا الذي يتكلم؟». وقالت الراهبة: «إِن ذلك صوت رجل، فاذهبي إِليه يا إزبل واسأليه ماذا يريد؟ إن لكِ أن تفعلي هذا، أما أنا فلا أستطيع. فإِذا لبستِ النقاب وجب عليكِ ألَّا تُخاطبي الرجال إلا في حضرة كبيرة الراهبات، فإِذا خاطبتهم فعليكِ ألَّا تظهري لهم وجهكِ، وإِذا أظهرتِ وجهك لهم وجب عليكِ ألَّا تُخطابيهم». وسألتها إِزبل: «أليس لكن أيتها الراهبات بعد ذلك حقوق لا يتمتع بها غيركن من الناس؟». فأجابتها الراهبة بقولها: «أليس في هذا ما يكفيكِ؟». وقالت إزبل: «بلى إنه يكفينا حقًّا، فأنا لا أتكلم لأطلب المزيد من الحقوق، بل لأظهر رغبتي في أن تفرض على الراهبات المتعبدات في دير القديس كلار قيود أشد من هذه القيود». وسمع صوت لوسيو مرة أُخرى فقال الراهبة: «إِنه يُنادينا من جديد فأرجو أن تجيبيه». وخرجت إزبل للقاء لوسيو، ولما سلم عليها ردت عليه السلام بقولها: «سلام ورخاء، منذا الذي يُنادينا؟». ثم تقدم إِليها لوسيو في أدب واحترام وقال: «تحية أيتها العذراء، إِذا كنتِ حقًّا عذراء، كما تدل على ذلك وجنتاكِ الورديتان. هل في وسعك أن تأخذيني إِلى حيث أرى إِزبل الفتاة التي تقضي مُدة التمرين في هذا المكان؟ وهذه الحسناء أخت لأخيها البائس كلوديو». وقالت إزبل: «ولم تقول لأخيها البائس؟ نبئني فأنا إزبل وأنا أُخته». وأجابها لوسيو: «أيتها السيدة الحسناء الظريفة! إِن أخاكِ يُقرئكِ على لساني السلام، وهو في السجن». فقالت إزبل: «يل لي! وبأي ذنب سُجِن؟». وأخبرها لوسيو أنه في السجن جزاء له على إغرائه فتاة من

بنات المدينة، فردت عليه قائلة: «أسفي عليه! إنني أخشى أن تكون هي ابنة عمي جوليت Juliet». ولم تكن إزبل وجوليت من الأقارب ولكن كلتيهما كانت تقول للأُخرى يا ابنة العم تذكارًا للصداقة التي نشأت بينهما في عهد الدراسة. وكانت إزبل تعرف أن جوليت تحب كلوديو، فخشيت أن يكون حبها له قد أوقعها في هذا الزلل. وأجاب لوسيو: «إنها هي». وقالت إزبل: «إذن فليتزوجها أخي». فرد عليها بقوله: «إن كلوديو يسره أن يتزوج بها، ولكن نائب الدوق حكم عليه بالإعدام جزاء له على جُرمه، إلَّا إذا استطعت أن ترققي قلبه بلطفك وجميل رجائك. وهذه هي الرسالة التي جئت بها إليك من عند أخيك». وقالت إزبل: «وا أسفاه! أي خير أستطيع أنا العاجزة أن أفعله؟ إني لأشك في قدرتي في التأثير في أنجلو». وأجابها لوسيو: «إن الشكوك تغدر بنا وتذهب بالخير الذي في وسعنا أن نناله بما تدخله في نفوسنا من خشية الإقدام عليه. اذهبي إلى لورد أنجلو. إن الفتيات إذا تشفعن وجثون وبكين، أجزل الرجل العطاء كأنهم أرباب». وقالت إزبل: «سأنظر ماذا أستطيع أن أفعل. ولن أنتظر إلَّا ريثما أبلغ الأمر لرئيسة الدير، ثم أذهب من فوري إلى أنجلو. بلغ تحياتي لأخي وسأبعث إليه في هذه الليلة بنبأ نجاحي في مهمتي».

وذهبت إزبل إلى القصر وجثت على ركبتيها أمام أنجلو، وقالت له: «إني فتاة حزينة ألجأ إلى مكارمك إذا سمح كرمك بالإصغاء إليَّ». وردَّ عليها أنجلو بقوله: «وماذا تطلبين؟». فشرحت له مطلبها بأَلفاظ تلين الجماد، وسألته أن يعفو عن أخيها. فقال لها أنجلو: «أيتها الفتاة لا رجوع فيما قضيت، فقد صدر الحكم على أخيكِ ولا بُد من موته». فقالت إزبل: «ما أعدل هذا القانون، ولكن ما أشده، إذًا فقد كان لي أخ، والله يحفظك».

وهمت بالخروج ولكن لوسيو، وقد جاء معها، قال لها: «لا تيأسي بهذه السرعة، بل عودي إليه، وتضرعي إليه، واركعي أمامه، وتعلقي بأذياله، إنكِ فاترة في رجائك فوق ما ينبغي، ولو أنكِ كنتِ في حاجة إلى أقل الأشياء قيمة لما طلبتها منه بأكثر مما طلبت ثقلًا في اللسان وكلالة». وعندئذ جثت إزبل على ركبتيها وتضرعت إليه أن يرحم أخاها. فقال لها أنجلو: «لقد قُضي الأمر وفات الأوان». فأجابته إزبل: «أتقول فات الأوان؟ إنه لم يفت. إن في طاقتي أنا التي أنطلق بالكلمة أن أستردها. ثق أيها السيد العظيم أن التاج على رأس الملك، والسيف في قبضة الحاكم، والعصا في يد القائد العظيم، والوشاح على جسم القاضي، أن شيئًا من هذا لا يزين صاحبه كما تزينه الرحمة». فرد عليها أنجلو بقوله: «أرجو أن تذهبي من هذا المكان». ولكن إزبل ظلت ترجو وتتوسل وقالت: «لو كان أخي مكانك وكنت أنت مكانه لوقعت فيما وقع فيه، ولما قسا عليك مثل قسوتكِ عليه، ولو كان لي ما لك من سلطان، وكنت أنت إزبل أفتظن أن الأمر يكون كما هو الآن؟ كلا! لو كان الأمر كذلك لعلمتك كيف يكون القاضي وكيف يكون السجين». فرد عليها أنجلو بقوله: «أرجو أن تثقي أيتها الفتاة الحسناء أنني لم أقض بالموت على أخيكِ، وإنما قضى عليه بذلك القانون. ولو كان هو من أقاربي، بل لو كان أخي أو ولدي، لما لقي مني غير هذا. ولا بُد أن يموت غدًا». فقالت إزبل: «غدًا؟ ما هذه العجلة؟ أمهله، إنه لم يستعد بعد للموت. إن الدجاجة التي نذبحها لطعامنا لا نذبحها في غير الأوان، فهل يصح أن يكون إجلالنا لله أقل من إجلالنا لأنفسنا الخبيثة؟ أيها السيد الكريم! ترو في الأمر ولا تتعجل. إن أحدًا لم يمت بسبب هذا الجرم الذي ارتكبه أخي، وإن كان كثيرون غيره قد ارتكبوه، فإذا قضيت بقتله كنت أول من قضى بهذا القتل، وكان هو أول من قضى عليه به. ارجع إلى قلبك وسله هل طاف به ما يشبه الذنب الذي ارتكبه أخي؟

فإذا أقر لك بأنه قد ارتكب هذا الذنب الذي هو من طبيعة البشر، فلا تترك له مجالًا للتفكير في موت أخي». وكان وقع عبارتها الأخيرة أشد من وقع كل ما قالته قبل، وذلك بأن جمال إزبل البارع قد أثار عاطفة أثيمة في قلبه، وأخذت تجيش في صدره أفكار من الحب الدنيء ومن نوع الجريمة التي ارتكبها كلوديو. وثار في قلبه صراع عنيف لم يرَ معه إلَّا أن يدير وجهه عن إزبل، فنادته قائلة: «عُد أيها السيد الرحيم، واستمع لما أرشوك به، عد أيها السيد الكريم». وصاح أنجلو مُندهشًا من جرأتها على التفكير في رشوه، وواصلت إزبل حديثها قائلة: «نعم، أرشوك رشًا تشترك معي فيها السماء، ولست أرشوك بالذهب أو الحجارة المتلألئة التي يعلو ثمنها أو ينخفض كما تشاء أوهام الناس، بل أرشوك بالدعوات الصالحة ترتفع إلى السماء قبل مطلع الشمس، وهي دعوات صادرة من نفوس معصومة من الزلل، من عذارى صائمات لا تُفكر عقولهن في شيء من متاع الدنيا». وقال لها أنجلو: «إذًا فاحضري إليَّ غدًا». وخرجت إزبل من حضرته وقد بعثت هذه المهلة القصيرة وسماحه لها أن تعود إليه لتُحدثه في الأمر مرة أُخرى، بعثت فيها هذه المهلة وهذه المنحة، أملًا سارًا بأن تتغلب آخر الأمر على طبعه القاسي، وقالت وهي تهم بالانصراف من عنده: «اسأل الله أن يحفظ عليك شرفك، أسأل الله أن يسلم شرفك». فلما سمع أنجلو هذا الدعاء قال في نفسه: «آمين! لعل الله ينجيني منكِ ومن سحر فضائلك». وروعته أفكاره الخبيثة فقال: «ما هذا؟ هل أحببتها فبعث هذا الحب في نفسي الرغبة في سماعها والتمتع بجمال عينيها؟ في أي شيء أُفكر؟ إن الشيطان الماكر – عدو الإنسان الألد – إذا أراد أن يغوي أولياء الله اتخذ الأولياء سبيلًا إلى هذه الغواية. إن امرأة من النساء المتبرجات لم تستطع أن تغويني، ولكن هذه المرأة العفيفة سيطرت علي وأخضعتني لأمرها، ولقد كنت حتى هذه الساعة أسخر من المحبين وأعجب من أمرهم».

وقضى أنجلو تلك الليلة يُصارع هذه العاطفة الإجرامية التي ثارت في قلبه، وكان ما قاساه من الألم في هذا الصراع أشد مما قاساه السجين الذي قضى هو بإعدامه؛ وذلك لأن الدوق الرحيم قد زار كلوديو في سجنه وهو في ثياب الرهبان، وأخذ يرشده إلى سبيل رضاء الله، ويُعلمه عبارات التوبة والنجاة من العذاب. أما أنجلو فقد كان طوال الليل يُكابد الآلام التي يُكابدها المجرم المتردد، فهو آنا يفكر في أن يغوي إزبل ويضلها عن طريق الطهر والشرف، وآنا يرتاع ويُؤنبه ضميره على الجريمة التي لم تكن خرجت بعد من طور التفكير إلى طول العمل، وفي آخر الأمر ضل وغلبت عليه شقوته، واعتزم هذا الرجل الذي ارتاع من زمن قصير من سماع لفظ الرشوة أن يغوي هذه الفتاة العذراء برشوة غالية لا تقوى على ردها، وهي حياة أخيها العزيز.

ولما جاءت إزبل في الصباح طلب إليها أنجلو أن تدخل عليه، فلما أقبلت عليه قال لها إنها إذا أسلمت شرفها إليه، وزلت كما زلت جوليت مع كلوديو، وهب لها حياة أخيها، وأضاف إلى ذلك قوله: «وذلك لأني أحبك يا إزبل». فردت عليه إزبل بقولها: «وهكذا كان أخي يحب جوليت، ومع ذلك تقول لي إنه سيُقتل بسبب هذا الحب». وقال أنجلو: «ولكن كلوديو سينجو من الموت إذا رضيتِ أن تأتي إليَّ خلسة في ظلام الليل كما خرجت جوليت من بيت أبيها في الليل لتأتي إلى كلوديو». ودهشت إزبل من قوله هذا ومن إغرائه لها على أن ترتكب نفس الإثم الذي من أجله قضى بإعدام أخيها، فقالت له: «إنني لا أتردد في أن أفعل من أجل أخي البائس ما أفعله من أجل نفسي، ولكني لو خيرت بين هذا الفعل الذميم وبين أن يلهب جسدي بالسياط، ويُقضى عليَّ بالإعدام، لفضلت أن تُمزق السياط جلدي حتى ينزف منها الدم فيكون كاليواقيت أزيّن بها، ولذهبت إلى لقاء الموت

كأنما أذهب إلى فراش وثير طالما تاقت نفسي إليه». ولما أخبرته أنها ترجو ألَّا يكون كلامه هذا إلَّا وسيلة يختبر بها طهرها وعفتها، قال لها: «صدقيني وأقسم لكِ بشرفي أن ألفاظي لا تُعبر إلَّا عن غرضي». واغتاظت إزبل حين سمعت كلمة الشرف تستخدم للتعبير عن هذا الغرض غير الشريف، فقالت: «ما أقل هذا الشرف الذي يُراد أن يُؤمن به، وما أحقر هذا الغرض الذي ترمي إليه! لأفضحنك يا أنجلو، فتدبر في أمرك وأنفذ الآن أمرًا بالعفو عن أخي، وإلَّا أذعت بأعلى صوتي في طول البلاد وعرضها أي رجل أنت».

فأجابها أنجلو بقوله: «ومنذا الذي يصدق قولك يا إزبل؟ إن حسن سمعتي، وحياة الزهد التي أحياها، وأقوال التي أدحض بها فريتك، كل هذا يجعل كفتي هي الراجحة، ويُسقط عن تهمتك، فأنقذي أخاك بالخضوع لإرادتي وإلَّا أعدم غدًا. أما أنت فقولي للناس كما تشائين، فإن قصتي الكاذبة سترجح قصتك الصحيحة، وسأمهلك في الجواب إلى غد».

وخرجت إزبل مُتجهة إلى السجن الرهيب الذي زج فيه أخوها وقالت وهي في طريقها إليه: «لمن أشكو يا إلهي؟ إذا قلت هذا فمنذا الذي يصدقني؟». ولما وصلت إلى السجن كان الدوق وأخوها يتناجيان، وكان الدوق قد زار أيضًا جوليت وهو في ثياب راهب، وأشعر هذين المحبين الآثمين بحقيقة إثمهما، وأقرت جوليت التعسة والدموع تنهمر من عينيها، والندم باد في أقوالها، بأن الذنب يقع مُعظمه عليها لا على كلوديو؛ لأنها استجابت لرجائه الأثيم.

ولما دخلت إزبل الحجرة التي كان فيها أخوها قالت: «السلام على من هنا، مغفرة وحسن رفقة». وقال الدوق المتنكر: «من الطارق؟ ادخل، إن هذا

الدعاء جدير بحسن الاستقبال». وقالت إزبل: «إني أريد أن أقول كلمة أو كلمتين لكلوديو». وحينئذ تركهما الدوق وحدهما وطلب إلى محافظ السجن أن يرشده إلى مكان يسمع فيه حديثهما ولا يريانه فيه.

وقال كلوديو: «أي أُختي! ماذا جئتِ به لتريحيني وتطمئني بالي؟». وأجابته إزبل قائلة: «إنه يحب عليه أن يستعد للموت غدًا». وسألها كلوديو: «هل من سبيل إلى الخلاص؟». فأجابته إزبل: «نعم، نعم.. إن للخلاص سبيلًا، ولكنها سبيل إذا رضيت بها جردتك من الشرف وجللتك العار». وسألها كلوديو: «خبريني بها». فأجابته أُخته بقولها: «إني أخشاك يا كلوديو، وإني لترتعد فرائصي خوفًا من أن تكون راغبًا في الحياة، فتشتري بشرفك الدائم فترة صغيرة من الزمان، هي ست سنين أو سبعًا تضيفها إلى أجلك. هل تقوى على احتمال الموت؟ إن الناس يخشون الموت أشد خشية، ولكن الخنفساء الحقيرة التي نطؤها بالأقدام لتشعر بألمه كما يشعر به أقوى الرجال». وأجابها كلوديو قائلًا: «ولماذا تجلليني هذا العار؟ هل تظنين أني أستمد عزيمتي من قلب رقيق كالزهر النضير؟ إذا كان لا بُد أن أموت فسأستقبل ظلام القبر كأني أستقبل عروسي، فأُعانقه وأضمه إلى صدري».

فأجابته إزبل: «إنك أخي بحق، وإن هذا الصوت لصوت أبي قد شق قبره. أجل لا بُد أن تموت. ولكن هل تُصدق يا كلوديو أن هذا الذي يتظاهر بالصلاح والتقى يرضى بأن يهب لك الحياة إذا رضيتُ بأن يُدنس شرفي؟ قسمًا لو أنه طلب حياتي لقدمتها راضية كما تُقدم أحقر الأشياء لأُنجيك من الموت». وقال لها كلوديو: «شكرًا لكِ يا عزيزتي إزبل». وأجابته إزبل: «استعد للموت غدًا». فقال كلوديو: «إن الموت رهيب». فأجابته أُخته: «والمعزة شيء كريه». وتغلب خوف الموت على عزيمة كلوديو، وتملكه رعب

لا يعرفه إلَّا المجرمون في ساعة احتضارهم، فصاح قائلًا: «أُختي العزيزة! دعيني أعيش؛ إن الله ليعفو عن الذنب الذي ترتكبينه لتنقذي به حياة أخيكِ، حتى ليصبح هذا الذنب فضيلة». فأجابته إزبل: «ويلك أيها الغادر الجبان، النذل التعس! أتشتري حياتك بتدنيس شرف أُختك؟ تبًا لك! تبًا لك تبًّا لك! لقد كنتُ أظن أيها الأخ أنك لو كانت لك عشرون رأسًا لقدمتها كلها إلى الجلاد قبل أن ترضى لأُختك هذا العار». وقال لها كلوديو ونار الألم تلتهم فؤاده: «اصَغْي إليَّ يا إزبل!». ومهما تكن تلك الألفاظ التي أراد كلوديو أن ينطق بها دفاعًا عن خور عزيمته وشرائه الحياة بشرف أُخته الطاهرة، فقد قطعها دخول الدوق وقوله له: «لقد سمعت يا كلوديو ما دار بينك وبين أُختك من حديث؛ إن أنجلو لم يُفكر قط في تلويث شرفها، ولقد قال ما قال ليختبر به عفتها، ولقد وجدها عفيفة شريفة حتى نطقت بهذا الرفض الجميل الذي تَقَبَّله بأحسن قبول، ولا أمل لك في أن يعفو عنك، فاقضِ ما بقى من ساعات لك في هذه الدنيا في الصلاة والعبادة واستعد للموت». ولما سمع كلوديو ذلك نَدِمَ على ما أظهر من ضعف وقال: «دعوني أطلب العفو من أُختي، لقد كرهت الحياة كرهًا يدفعني إلى طلب الخروج منها». وانتحى كلوديو ناحية، وقد غلب عليه الغضب والأسف على ما وقع فيه من خطأ.

ولما خلا الدوق إلى إزبل أخذ يثني على طُهرها وقوة عزيمتها، وقال لها: «إن اليد التي ابتدعت جمالك قد صاغته من العفة والطهر». وقالت إزبل: «ما أشد ما خدع الدوق الكريم في أنجلو، ولو قدر أن يعود الدوق، واستطعت أن أتحدث إليه، لأطلعته على ما خفى عليه في حكومته». ولم تكن إزبل تدرك أنها في هذه اللحظة نفسها تطلع الدوق على تلك الأسرار التي تُهدد بإفشائها. وأجابها الدوق قائلًا: «لا بأس من أن تفعلي هذا، ولكن

الظروف الحاضرة تجعل أنجلو قادرًا على أن يرد عن نفسه التهمة، ولذلك أطلب إليكِ أن تستمعي إلى نصيحتي. إني أعتقد أن في وسعك أن تحسني الإحسان كله إلى سيدة مظلومة خليقة بهذا الإحسان، وأن تنقذي حياة أخيكِ من سطوة القانون، ولا تسيئي إلى شرفك أية إساءة، وأن تسرِّي الدوق الغائب كل السرور، إذا ما عاد من منفاه ووصل هذا إلى علمه». وأجابته إزبل بقولها إنها ترضى أن تفعل كل ما يطلبه إليها ما لم يكن فيه شر، فقال الدوق: «إن النفوس الطاهرة جريئة ولا تخاف قط». ثم سألها: «هل سمعتِ شيئًا عن مريانا Mariana أُخت فردرك Frederick الجندي الباسل الذي مات غرقًا في البحر؟». فأجابته إزبل: «إني سمعت عن هذه السيدة وسمعت الناس يذكرونها بالخير». فقال الدوق: «إن هذه السيدة زوجة أنجلو، ولكن مهرها كان على ظهر السفينة التي هلك فيها أخوها، وما كان أشد وقع هذا على الفتاة المسكينة، فقد فقدت أخًا كريمًا ذائع الصيت، كان في حبه لها مثال البر والرحمة، وخسرت إلى ذلك ثروتها فخسرت أيضًا حب زوجها أنجلو هذا الذي يتظاهر بالورع والتقوى؛ فقد ادَّعى أنه عَرِفَ عن هذه السيدة الطاهرة ما يشين سمعتها، فتخلى عنها في أحزانها، ولم يُواسها في محنتها. وكان السبب الحقيقي هو أنها فقدت مهرها. وكان خليقًا بهذه القسوة الظالمة أن تذهب بما كان في قلب مريانا من حب لزوجها، ولكنها زادت نار الحب ضرامًا، كما تزيد الحواجز السيل قوة على قوته، وظلت مريانا تحب زوجها القاسي كما كانت تحبه من قبل». ثم كشف الدوق عن قصده فطلب إلى إزبل أن تذهب إلى لورد أنجلو وتتظاهر بِأَنها ستجيبه إلى طلبه وتأتي إليه في مُنتصف الليل، فتحصل منه بذلك على العفو الموعود، ثم تذهب مريانا بدلًا منها في الموعد المحدد، وتتظاهر أمام أنجلو بِأَنها إزبل. وقال الراهب الزائف: «ولا تخشي يا ابنتي شيئًا إذا فعلتِ هذا، فإن أنجلو زوجها وليس في الجمع بينهما خطيئة».

وأعجبت إزبل بهذه الخطة فخرجت لتفعل ما أشار عليها به، وذهب هو ليبلغ مريانا ما اتفقا عليه. وكان قد زار مريانا من قبل وهو في زي الرهبان، ولقنها بعض التعاليم الدينية وواساها مُواساة الأصدقاء، وعَرِفَ منها قصتها في تلك الزيارات، وكانت هي الآن تنظر إليه نظرتها إلى الرجال الأتقياء الصالحين، فلم تتردد قط في أن تهتدي في هذا العمل برأيه.

وبعد أن فرغت إزبل من حديثها مع أنجلو عادت إلى بيت مريانا، وكان الدوق قد وعدها أن يلتقي بها هُناك، فقال لها: «نعم اللقاء، وفي أحسن الأوقات، ماذا لديكِ من أخبار عن نائبنا الكريم؟». وأفضت إليه إزبل بالطريقة التي سويت بها الأُمور فقالت: «إن لأنجلو حديقة لها سور من الحجارة، وفي الجهة الغربية منها كرمة ذات باب». ثم أظهرت للدوق ومريانا مفتاحين أعطاها إياهما الدوق، وقالت لهما: «فأما المفتاح الكبير فمفتاح باب الكرمة، وأما هذا المفتاح الثاني فيفتح به باب صغير يوصل الكرمة بالحديقة، وقد وعدته أن أجيئه هنا في منتصف الليل، وحصلتُ منه على وعد أكيد بأَن يعفو عن أخي. ولقد حرصت الحرص كله على أن أعرف أمارات المكان، وأراني هو الطريق مرتين ووصفه لي بصوت خافت ودلني عليه بجد إجرامي». وسألها الدوق: «ألم تتفقا على أمارات وأشياء يتحتم على مريانا أن تعرفها؟». فأجابته إزبل بقولها: «كلا، لم نتفق على شيء، اللهم إلَّا أن أذهب إليه في ظُلمة الليل، وقد أخبرته أن الوقت لا يسمح لي بالبقاء معه طويلًا، وأدخلت في روعه أن خادمًا سيأتي معي، وأن هذا الخادم يعتقد أني آتية لأمر يتعلق بأخي». وأثنى الدوق على حُسن تدبيرها، والتفتت هي إلى مريانا وقالت لها: «ليس لكِ أن تقولي شيئًا إلى أنجلو حين تخرجين من عنده إلَّا قولك في صوت خافت رقيق: لا تنس الآن أخي».

وأخذت إزبل مريانا في تلك الليلة إلى المكان الموعود، وقد سرَّها أنها استطاعت بحُسن تدبيرها – حسب اعتقادها – أن تحتفظ بشرفها وبحياة أخيها، ولكن الدوق لم يكن واثقًا بأن أخاها نجا من الموت، ولذلك عاد إلى السجن في مُنتصف الليل، وكان من حُسن حظ كلوديو أن فعل الدوق ذلك، ولولا هذا لقُطِعَ رأسه في تلك الليلة نفسها؛ ذلك أن الدوق لم يكد يصل إلى السجن حتى جاء أمر من النائب القاسي بأن يُقتل كلوديو ويُرسل إليه قبل الساعة الخامسة صباحًا. ولكن الدوق حمل محافظ السجن على أن يُؤجل قتل كلوديو ويخدع أنجلو بإرسال رأس سجين آخر مات داخل السجن في صباح ذلك اليوم. وأراد الدوق أن يقنع المحافظ بإجابة طلبه هذا – وكان المحافظ لا يزال يظنه راهبًا لا أكثر من ذلك ولا أقل – فأبرز له خطابًا بخط الدوق نفسه وعليه خاتمه، فلما رآه أيقن أن الراهب يحمل أمرًا سريًا من الدوق، فرضى ألَّا يقتل كلوديو، وقطع رأس الرجل الميت وحمله إلى أنجلو.

ثم كتب الدوق إلى أنجلو كتابًا وقعه باسمه، يقول فيه إن حوادث مُفاجئه اضطرته إلى اختصار رحلته، وإنه سيكون في ويانة في صباح الغد، وطلب إلى أنجلو أن يُقابله عند باب المدينة ليرد إليه سلطانه، وأمر الدوق كذلك أن يُداع في الناس أنه إذا كان لأحد منهم ظلامة فعليه أن يتقدم بها في الطريق العام عندما يدخل المدينة.

وجاءت إزبل إلى السجن في الصباح الباكر حيث كان الدوق في انتظارها، فرأى لحاجة في نفسه لم يشأ أن يعلنها وقتئذ أن يخبرها أن كلوديو قد قُتِلَ. فلما سألته: هل أرسل أنجلو أمره بالعفو عن أخيها؟ قال الدوق: «لقد أنقذ أنجلو أخاك من هذا العالم. لقد قطع رأسه وأرسل إلى نائب الدوق». وصاحت إزبل من فرط حزنها: «ما أشقاك يا كلوديو! وما أتعس

حظك يا إزبل! وما أشد ظلمك أيتها الدنيا! وما أخبثك يا أنجلو!». وأمرها الراهب ألَّا تبتئس، وبعد أن هدأ روعها قليلًا نبأها بقرب رجوع الدوق، وأرشدها إلى الطريقة التي يجب عليها أن تتبعها في عرض شكواها من أنجلو، وأمرها ألَّا ترتاع إذا رأت الأُمور تسير على غير ما تشتهي وقتًا ما. وبعد أن قدم لأزبل من النصائح ما فيه الكفاية، ذهب إلى مريانا وأشار عليها هي أيضًا بما يجب عليها أن تفعله.

ثم خلع الدوق ملابس الرهبنة ودخل مدينة ويانة في ثيابه الملكية يحيط به جمع حاشد من رعاياه المخلصين وقد اجتمعوا كلهم ليحيوه، واستقبله أنجلو وأسلمه حقوقه بالطُرق الرسمية، وتقدمت إزبل تلتمس الإنصاف، وقالت له: «العدالة أيها الدوق العظيم، إني شقيقة فتى يُدعى كلوديو حُكِمَ عليه بالإعدام لأنه أغرى فتاة من بنات المدينة، وطلبت أنا إلى لورد أنجلو أن يعفو عن أخي. ولا حاجة لي بِأَن أصف لفخامتكم كيف ركعت ورجوت، وكيف ردني وكيف أجبته، فذلك أمر يطول شرحه، وحسبي أن أخبر مولاي بالنتيجة المزرية التي أُحَدِّثه عنها في حسرة وخجل، فقد أبى أنجلو أن يطلق سراح أخي إِلَّا إذا خضعت لحبه الشائن، وفرطت له في عفتي. وفي صباح اليوم التالي أخلف أنجلو وعده وأمر بقتل أخي».

وتظاهر الدوق بعدم تصديق قصتها، وقال أنجلو إن حزنها على أخيها الذي نفذ فيه حُكم القانون قد أثرَّ فيها فذهب بعقلها. ثم تقدم شخص آخر يلتمس الدالة، وكان ذلك الشخص مريانا فقالت: «أيها الأمير النبيل! إني أنا زوجة هذا الرجل، لا شك في هذا كما لا شك في أن النور يأتي من السماء، والصدق يخرج مع الأنفاس، والحق تدركه العقول، وهو والفضيلة مُتلازمان. إن الذي تقوله إزبل هو الكذب بعينه؛ لأني قضيت تلك الليلة معه في بيته

الذي في الحديقة، فإذا كان هذا صحيحًا – وهو صحيح لا شك فيه – فاسمح لي بالنهوض، وإذا لم يكن فلأبقين هنا على الدوام كأنني تمثال من الرخام». واستشهدت إزبل على صدق قولها بالراهب لدوك Lodowick، وهو الاسم الذي تسمى به الدوق وهو مُتنكر، حين كانت إزبل ومريانا تعملان بأمره وحين قالت كلتاهما ما قالته. وكان يقصد من وراء هذا أن تظهر براءة إزبل بهذه الطريقة العلنية أمام أهل ويانة كلهم. ولم يكن أنجلو يعرف أن هذه الرغبة هي منشأ الخلاف بين قصتيهما، ولذلك كان يرجو أن يُبرئه هذا التناقض الظاهر في شهادتيهما مما اتهمته به إزبل. وتظاهر الرجل بأَنه مست كرامته وقال مُغضبًا: «لقد كان كل ما فعلته حتى هذه الساعة أن تبسمت وصبرت، أما الآن يا سيدي الدوق فلم يعد في قوس الصبر منزع، وتبين لي أن هاتين المرأتين البائستين اللتين ذهب عقلهما تسخرهما يد قوية تأتمران بأمرها. فليسمح لي مولاي أن أكشف سر هذه المؤامرة».

فأجابه الدوق بقوله: «لك ذلك وأنا راض به كل الرضا، ولك أن تُعاقبهما العقاب الذي ترتضيه. وأنت يا لورد إسكلس Escalus اجلس إلى جانب لورد أنجلو وأعنه على كشف سر هذه القرية الدنيئة، وقد بعثت استدعى الراهب الذي حرضهما عليها، فإذا جاء فانظرا في هذه التهم وعاقبا المفترين بما تريانه من أنواع العقاب. أما أنا فسأترككما إلى حين ولا تبرح بالورد أنجلو هذا المكان حتى تفصل في هذه الفرية».

وخرج الدوق وترك أنجلو مُغتبطًا أشد الاغتباط إذ أُختير لأن يكون قاضيًا ومحكمًا في قضيته. ولكن الدوق لم يغب إلَّا ريثما خلع ملابسه ولبس ثياب الرهبان، ثم عاد في هذه الثياب ومثل أمام أنجلو وإسكلس. وظن الشيخ إسكلس الطيب القلب أن أنجلو قد ألصقت به تهمة باطلة، فقال

للراهب المزعوم: «تقدم يا سيدي، هل حرضت هاتين المرأتين على أن تفتريا عليه هذا الافتراء؟». فأجابه الراهب بقوله: «أين الدوق؟ إنه هو الذي يجب أن يسمعني». فقال إسكلس: «إننا نمثل الدوق، وسنستمع إليك فقل الحق». وأجابه الراهب: «سأكون على الأقل جريئًا». ثم أخذ يعيب على الدوق تركه قضية إزبل في يد الرجل الذي اتهمته ويفصح عن كثير من الشرور التي رآها وهو في ويانة يرقب أحوالها، حتى أنذره إسكلس بأشد أنواع العقاب لأنه أهان الدولة وطعن في أعمال الدوق، ثم أمر أن يُساق إلى السجن. وما كان أشد دهشة الحاضرين جميعًا وحيرة أنجلو حين خلع الراهب المزعوم ملابسه، ورأى الناس أنه هو الدوق بعينه.

ووجه الدوق خطابه أولًا إلى إزبل فقال: «تقدمي هنا يا إزبل، إن الراهب الذي كان يُحدثك هو الآن أميرك، ولكنني وإن بدلت ملابسي لم أُبدل قلبي نحوك، بل إنني لا أزال كما كنت وفيًا لكِ راغبًا في خدمتك». وأجابته إزبل بقولها: «عفوًا يا مولاي! فقد استعنت بك وأتعبتك وأنا لا أعرف فخامتك». ورد عليها بقوله إنه في أشد الحاجة إلى عفوها لأنه لم ينج أخاها من الموت – ولم يشأ أن يخبرها في ذلك الوقت أن أخاها حي يُرزق، يريد بذلك أن يمتحنها امتحانًا جديدًا – وعَرِفَ أنجلو وقتئذ أن الدوق كان يطلع سرًا على سوء تصرفه فقال له: «مولاي الراهب! لو أنني ظننت الآن أن جريمتي ستظل مستترة لكان ذلك جرمًا أشد من كل جرائمي الأُخرى؛ لأني أراك يا مولاي قد اطلعت على أعمالي كما يطلع عليها الإله القدير. إذن فلا تُطل أجل فضيحتي أيها الأمير الكريم، ولتنته محاكمتي باعترافي، وكل الذي أرجوه من فخامتك أن تصدر حكمك على الفور، وأن يكون هذا الحكم بإعدامي». وأجابه الدوق بقوله: «إن ذنوبك يا أنجلو غير خافية، إنا نحكم عليك بأَن تموت

حيث مات كلوديو، فخذوه ولا تمهلوه كما لم يمهل كلوديو، وأما أملاكه فإننا نهبها لك يا مريانا لنشتري بها زوجًا خيرًا منه».

وردت عليه مريانا قائلة: «مولاي! ليس لي مأرب في غيره أحسن منه»، ثم جثت على ركبتيها كما جثت من قبل إزبل وهي ترجو العفو عن كلوديو، جثت هذه الزوجة الرحيمة تطلب العفو عن أنجلو زوجها الذي جهل قدرها، وقالت: «سيدي الرحيم، ومولاي الطيب الكريم! أعينيني يا إزبل واركعب أمامه، وسأكون في خدمتك ما حييت».

فأجابها الدوق بقوله: «إنكِ تطلبين إليها المحال، ولو ركعت إزبل أمامنا ترجو له الرحمة لحطمت روح أخيها جدران قبره وخرجت منه مرتاعة، واختطفتها من هذا المكان». ولكن مريانا ظلت تقول: «عزيزتي إزبل، حسبك أن تركعي إلى جانبي، وأن ترفعي يدك ولا تقولي شيئًا فسأتولى أنا القول كله. يقولون إن خير الناس قد خلقوا من الذنوب، وما أكثر ما يصلح القليل من الشر أحوالهم، وقد يكون زوجي من هؤلاء الناس. إزبل ألا تركعين من أجلي؟».

وقال الدوق: «إنه يموت جزاء ما فعل بكلوديو». ولشد ما أثلج قلب الدوق الكريم أن يرى إزبل نفسها، التي لم يكن ينتظر منها إلَّا كل فعل كريم، تركع أمامه وتقول: «سيدي يا أكرم الناس طرًا! انظر إلى هذا الرجل المقضي عليه كما لو كنت تنظر إلى أخي حيًّا. إني لأظن أن شيئًا من الإخلاص كان رائده في أعماله، حتى وقعت عينه عليًّا، فإذا كان ذلك حقًّا فلا تدعه يموت. إن أخي لم يلق إلَّا الجزاء الحق، فقد ارتكب الذنب الذي قُتِلَ من أجله».

وكان خير ما يستطيع الدوق أن يجيب به رجاء هذه السيدة الكريمة

التي تطلب العفو عن عدوها، أن يأتي لها بأخيها الذي تندبه، وكان قد أرسل رسولًا ليحضر كلوديو من السجن حيث كان مُلقى في غيابته لا يعرف ما قُدِّرَ له. وقال بعد ذلك لإزبل: «مدي إليَّ يدك يا إزبل، إني أعفو عن كلوديو إكرامًا لكِ، قولي إنك ستكونين لي، وإنه هو سيكون أخي». وكان لورد أنجلو قد عَرِفَ في ذلك الوقت أنه نجا من الموت، ورأى الدوق عينيه تبرقان قليلًا فقال: «احرص على حُب زوجتك، إن نُبل خلالها هو الذي أنجاك. فليدم لك السرور يا مريانا، ولتحبها يا أنجلو. لقد خبرتها وعرفتُ كريم طباعها». وعاد إلى ذاكرة أنجلو ما أظهره من القسوة حين تولى الأمر بُرهة قصيرة وشعر الآن بلذة الرحمة.

وأمر الدوق كلوديو أن يتزوج جوليت، وتقدم هو إلى إزبل مرة أُخرى يطلب يدها بعد أن تملكت قلبه بعفتها وكريم فعالها. ولم تكن إزبل قد لبست ثياب الرهبان، فلم يكن عليها من حرج في الزواج، فقبلت هذا العرض الكريم الذي عرضه عليها الدوق مُتأثرة بما أدى لها من خدمات صادقة وهو رجل مُتواضع مُتنكر في زي الرهبان. ولما أصبحت إزبل دوقة ويانة، كان المثل الطيب الذي ضربته لفتيات المدينة في الطُهر والعفة عظيم الأثر في تقويم أخلاقهن وإصلاح شأنهن، فلم تقع إحداهن بعدئذ فيما وقعت فيه جوليت التي ندمت على فعلتها وصلح حالها وأصبحت زوجًا لكلوديو. ودام حُكم الدوق الرحيم هو وزوجته المحبوبة إزبل زمنًا طويلًا وكان أسعد الأزواج والأُمراء.

الليلة الثانية عشرة

أو ما تريد

كان سبستيان Sebastian أحد سادة مسلين Messaline وفيولا Viola إحدى سيداتها توأمين. وكان من أغرب الأشياء في ظن الناس أن كان بين الأخ وأُخته من الشبه ما يعجزون معه عن أن يُميزوا هذه من ذاك إذا افترقا لولا اختلاف لباسهما. ولقد وُلِدَا في ساعة واحدة ومرت بهما ساعة كادا يهلكان فيها، فقد تحطمت سفينتهما على شاطئ إلريا Illyria في سفرة لهما هُناك، على أثر اصطدامها بصخرة في عاصفة هوجاء، ولم ينج من ركبها إلَّا عدد قليل. ونزل قائد السفينة وقليل ممَّن كان معه من الملاحين في قارب صغير وصلوا به إلى البر سالمين، وأخذوا معهم فيولا، ولكن هذه الفتاة البائسة لم تغتبط بنجاتها، بل أخذت تندب ما أصابها بفقد أخيها، وأخذ قائد السفينة يُواسيها ويطمئنها عنه، ويُؤكد لها أنه قد أبصره حين تحطمت السفينة يشد نفسه إلى سارية قوية، وأنه ظل يراه فوق الماء حتى اختفى عن الأنظار. وخفف الأمل الذي بعثه هذا القول في نفسها ما كان يُساورها من خوف على أخيها، وأخذت تُفكر فيما تفعله في هذا البلد الغريب، وهي بعيدة عن وطنها، وسألت قائد السفينة هل يعرف شيئًا عن إلريا، فأجابها القائد بقوله: «نعم يا سيدتي إني أعرفها حق المعرفة؛ فقد ولدت على مسيرة ثلاث ساعات من هذا المكان». وسألته فيولا: «ومن الذي يحكم هذا البلد؟». فأجابها القائد بِأَن إلريا يحكمها أرسينو Orsino، وهو دوق جليل القدر كريم الطباع. وقالت فيولا إنها سمعت أباها يتحدث عن هذا الدوق، ويقول إنه لم يكن وقتئذ قد تزوج، وأجابها القائد بقوله: «نعم، وهو لا يزال كذلك إلى الآن، أو أنه كان

كذلك من عهد قريب؛ لأني لم أبرح هذا البلد إلَّا من شهر واحد، وكان الناس كلهم عند خروجي يتحدثون بِأَن أرسينو يسعى للزواج بألفيا Olivia، وأنتِ تعلمين أن ما يفعله العُظماء يتحدث به الدهماء. وألفيا هذه فتاة عفيفة وابنة أحد النُبلاء، مات أبوها من عام واحد وتركها في رعاية أخيها، ومات هذا الأخ أيضًا بعد ذلك بقليل، وقد بلغ من حبها له وحزنها عليه أن اعتزمت بعد موته أن تمتنع عن رؤية الرجال وصُحبة الرجال. وكانت فيولا في مثل هذه الحال من الحزن الألم لفقد أخيها، فتمنت لو تستطيع أن تعيش مع هذه الفتاة التي حزنت على أخيها هذا الحزن كله». وسألت القائد هل في وسعه أن يُقدمها لألفيا؛ لأنها تحب أن تكون خادمة لهذه السيدة؟ فأجابها بِأَن هذا من أشق الأُمور؛ لأن أولفيا من يوم أن مات أخوها لا تسمح لإنسان بالدخول إلى بيتها ولو كان ذلك الإنسان هو الدوق نفسه. وعندئذ فكرت في وسيلة أُخرى وهي أن تتزيا بزي الفتيات وتدخل في خدمة الدوق أرسينو، وكان غريبًا أن تُفكر فتاة في ارتداء ملابس الرجال لتوهم الناس بِأَنها شاب، ولكن الذي يُبرر هذا العمل أن فيولا كانت فتاة بائسة لا ناصر لها، وهي إلى ذلك صغيرة السن بارعة الجمال تعيش بمفردها في بلد غريب.

ورأت في أخلاق قائد السفينة كرمًا، وتبينت فيه عطفًا عليها واهتمامًا بخيرها، فأفضت إليه بخطتها، ووعدها من فوره بتقديم المعونة لها. وأعطته فيولا بعض المال، وطلبت إليه أن يأتي لها بما يُناسبها من اللباس، وأمرت أن تصنع ملابسها على طراز الملابس التي كان يرتديها أخوها سبستيان، وألَّا تختلف عنها في اللون. فلما ارتدت ملابس الرجال لم يكن ثمة فرق بينها وبين أخيها، حتى لقد حدثت بعض أخطاء عجيبة كان منشؤها عدم قدرة الناس على تمييزها منه؛ وذلك لأن سبستيان كان أيضًا قد نجا كما سيظهر فيما بعد.

وكان لصديقها القائد عمل في بلاط الدوق، فأخذ فيولا معه بعد أن أحال الفتاة الحسناء إلى شاب وسيم، وقدمها لأرسينو باسم سيزاريو Cesario. وسرَّ الدوق غاية السرور من خطاب هذا الفتى ومظهره الجميل، فاتخذه خادمًا خاصًا له. وهذا هو العمل الذي كانت فيولا تبتغيه. وأحسنت الفتاة أداء واجبها الجديد، وأظهرت من الإخلاص لسيدها والتعلق به ما جعلها أحب أتباعه إليه. وأفضى أرسينو إلى سيزاريو بقصة حبه لألفيا من أولها إلى آخرها، فحدثه عن خطبته الطويلة غير الموفقة لتلك الفتاة التي رفضته واحتقرته ولم تسمح له بلقائها. وقد بلغ من حب الدوق النبيل للفتاة التي عاملته هذه المعاملة القاسية أن ترك ألعاب الفروسية وجميع أنواع الرياضة التي كان مولعًا بها، وجعل يمضي وقته كله في الخمول الذي لا يليق به، يستمع إلى النغمات الموسيقية المختلفة، والأصوات الرقيقة، وأغاني الغرام، وأعرض عن صُحبة أعيان البلاد العالمين المحنكين الذين كانوا من قبل رفقاءه وخلانه، وأصبح لا عمل له طول النهار إلَّا التحدث إلى الشاب سيزاريو. ولم يكن هؤلاء النُبلاء الوقورون يرتاحون بطبيعة الحال إلى مُصاحبة هذا الفتى للدوق أرسينو أميرهم العظيم، الذي كان من قبل أميرًا خطيرًا كريمًا.

على أن من الخطر الكبير أن تكون الفتيات موضع ثقة الشُبان ذوي الرونق والبهاء، يفضون إليهن بما في قلوبهم من وجد وهيام. وقد حاق هذا الخطر بفيولا فأحزنها وأمر عيشها، ذلك أنها أخذت تحس بعد قليل بأَنها تُقاسي من حب الدوق كل ما حدثها به عمَّا يُقاسيه من حُبه لألفيا، وعجبت كيف لا تكترث هذه الفتاة بسيدها العظيم الذي لا نظير له بين الأُمراء، والذي لا يستطيع أحد في ظنها أن ينظر إليه بغير أن يُعجب به أشد الإعجاب. وقد تجرأت في أحد الأيام فلمحت إليه في لطف أنها تأسف إذ

ترى الدوق يشغف بحب فتاة تعمى عن رؤية ما يتحلى به من خلال كريمة، وقالت له: «إذا أحبتك يا سيدي فتاة كما تحب أنت ألفيا (ولا يبعد أن يكون في الفتيات من تحبك هذا الحب)، وإذا لم يكن في مقدورك أن تُبادلها حُبًا بحب، ألا تقول لها في صراحة إنك لا تستطيع أن تحب؟ ثم ألا يجب عليها في هذه الحال أن تقنع بهذا الجواب؟». ولكن أرسينو لم يعجبه هذا المنطق، وأنكر أن في النساء من تستطيع أن تحبه كما يحب هو، وأن المرأة التي يتسع قلبها لهذا الحب كله لم تُخلق بعد، ولذلك فإن من الظلم أن يشبه حب أية فتاة له بحبه لألفيا.

وكانت فيولا تجل الدوق وتحترم آراءه الاحترام كله، ولكنها لم يسعها في هذا الوقت إلَّا أن تعتقد أنه مُخطئ فيما يقول، وأن ما ينطوي عليه قلبها من الحب له لا يقل عمَّا ينطوي عليه قلبه هو. وقال له: «آه! ولكنني أعلم يا مولاي..». وسألها أرسينو: «ماذا تعلم يا سيزاريو؟». فأجابته فيولا بقولها: «إنني أعلم حق العلم أي حب للرجال تنطوي عليه قلوب النساء. إن في قلوبهن من خالص الحب مثل ما في قلوبنا. لقد كان لأبي بنت أحبت رجلًا بقدر ما أحبك يا مولاي لو كنت امرأة». وسألها أرسينو: «وما هي قصتها؟». فأجابته فيولا: «ليست لها قصة يا مولاي. إنها لم تبح قط بحبها، بل كتمته وتركته يحرق فؤادها حتى ذبلت وجنتاها الورديتان، وتقسمتها الهموم، وتوزعتها الفكر، ولكنها صبرت على بلواها ولم تجزع حتى لكأنها تمثال للصبر يسخر من الجزع». وسأل الدوق: «هل قضت الفتاة نحبها من شدة الوجد؟» ولكن فيولا لم تجبه عن هذا السؤال جوابًا صريحًا، ولعلها اخترعت هذه القصة لتنطق في خلالها ببضع كلمات تُعبر بها عمَّا يكنَّه فؤادها من حب صامت للدوق، وما تُقاسيه بسبب هذا الحب من آلام خفية.

وبينا هما في حديثهما إذ دخل عليهما رجل كان الدوق قد بعث معه برسالة إلى ألفيا، وقال للدوق: «أرجو أن يسمح لي مولاي أن أقول إني لم يُؤذن لي بالدخول عند السيدة، ولكنها بعثت إليك مع خادمة لها هذا الرد الذي تقول فيه إن السماء والأرض لن تريا وجهها إلَّا بعد سبع سنين، تظل في خلالها كالراهبات مُقنعة الوجه، تروي أرض حجرتها بدموعها حُزنًا على أخيها». ولما سمع الدوق هذا القول صاح قائلًا: «تُرى ماذا يكون شأن هذه الفتاة عندما تمس قلبها سهام الحب الذهبية، إذا كان لها هذا القلب الرقيق، وكان هذا مبلغ حبها لأخيها الميت؟». ثم قال لفيولا: «لقد كشفت لك يا سيزاريو عن مكنون قلبي، ولهذا أرجوك أيها الفتى الكريم أن تذهب إلى بيت ألفيا، ولا يمنعك شيء من الدخول عليها، بل قف عند بابها ونبئها أنك ستظل قائمًا لا تبرح مكانك حتى تتحدث إليها». وسألته فيولا: «وإذا تحدثت إليها يا مولاي فماذا أقول؟». فأجابها أرسينو: «إذن فاكشف لها عمَّا في قلبي من حب، وأسهب في وصف إخلاصي ووفائي، وأنت خير من يصف آلامي، ويقيني أنها ستصغي إليك أكثر مما تصغي لغيرك من ذوي الوجوه الوقورة».

وسارت فيولا في طريقها تحمل رسائل الحب وهي غير راضية عن هذه المهمة، وكيف ترضى أن تكون رسولًا يخطب فتاة لرجل تريد هي أن تتزوجه؟ ولكنها قد قبلت أداء هذا الواجب لم ترَ بُدًا من أن تُؤديه بِأَمانة وإخلاص. وعَرِفَتْ ألفيا بعد قليل أن بالباب شابًا يصر على مُقابلتها، وقال لها الخادم: «ولقد أخبرته أنكِ مريضة فأجاب بِأَنه يعرف ذلك، وأنه لأجل هذا جاء ليتحدث إليك. قلت له إنكِ نائمة، فكأنه كان يعرف ذلك أيضًا من قبل، وقال إنه لهذا يجب أن يتكلم معك، فماذا أقول له يا سيدتي وهو يأبى أن يُرَدَّ ويصر على أن يتحدث إليك أردت ذلك أو لم تريديه؟». وتاقت نفس

ألفيا إلى أن تعرف من يكون هذا الرسول العنيد فأذنت له بالدخول، وغطت وجهها بنقابها، وقالت إنها ستستمع مرة أُخرى إلى رسالة أرسينو؛ لأن لجاجة الرسول لم تترك لها مجالًا للشك في أنه موفد من قبل الدوق. ودخلت فيولا الدار وحرصت على أن تظهر بمظهر الرجال بِأَحسن ما تستطيع، وتكلفت ما في لغة بطانة أصحاب السلطان وحاشية العُظماء من رقة، وخاطبت هذه السيدة المقنعة بقولها: «يا ذات الجمال الرائع، والنور الساطع، والسناء المتألق، الذي ليس له نظير! أرجو أن أعرف هل أنتِ ربة الدار؟ فإني ليسوءني أن ألقي بحديثي غير مسامعها، فهو حديث أجيد تحبيره وأجهدت نفسي في حفظه».

وسألتها ألفيا: «من أين جئت يا سيدي؟». فأجابتها فيولا: «ليس في مقدوري أن أقول غير ما تعلمت، وليس هذا السؤال ممَّا حفظت». وسألتها ألفيا: «أأنت مُمثل؟».

فأجابتها فيولا: «كلا! ومع ذلك فلست أنا ما أُمثله[٨]». وكانت تقصد بهذا القول أنها وهي امرأة تظهر بمظهر الرجال. ثم سألت ألفيا مرة أُخرى هل هي ربة الدار؟ وأجابتها ألفيا أنها هي، ولكن رغبة فيولا في أن ترى وجه خصيمتها كانت أشد من حرصها على أن تسرع بالإفضاء برسالة سيدها، فقالت: «أيتها السيدة الكريمة! دعيني أنظر إلى وجهك». ولم ترَ ألفيا ما يمنعها من إجابة هذا الطلب الجريء؛ لأن هذه الغانية المعجبة بنفسها التي ردت الدوق خائبًا هذا الزمن الطويل قد أحبت خادمه المزعوم الفتى سيزاريو الصغير الشأن عندما وقعت عينها على عينه.

---

[٨] وهذا الغموض أيضًا مقصود.

ولما سألتها فيولا أن تكشف عن وجهها قالت لها: «هل لديكِ مهمة من عند سيدك تتفاوض فيها مع وجهي؟». ونسيت تصميمها على أن تظل مقنعة سبع سنين طوالًا، فرفعت النقاب عن وجهها وهي تقول: «ولكنني سأرفع الستار وأكشف عن الصورة، فهل تظن أنها قد أحسن تصويرها؟». فأجابتها فيولا: «لقد مزجت عناصر الجمال فيها خير مزج. إن حمرة خديك قد أبدعتها يد الطبيعة البارعة، وإنكِ لتكونين أقسى مَن خُلِقَ من النساء لو أنكِ سمحتِ لهذا الجمال أن ينحدر إلى القبر دون أن يترك للعالم صورة منه». فأجابتها فيولا قائلة: «كلا يا سيدي! لن أكون قاسية إلى هذا الحد، بل سأترك للعالم سجلًا بهذه الصفات كُتِبَ فيه مثلًا: شفتان فيهما بعض الحمرة، ثانيًا: عينان سنجابيتان ذواتا حاجبين. ورقبة واحدة، وذقن واحد.. وهلم جرا. فهل جئتِ هنا لتثني عليّ؟». وأجابت فيولا بقولها: «لقد عرفت حقيقة أمرك؛ إنك صَلِفَةٌ تياهة، ولكنكِ جميلة. إن مولاي وسيدي يحبك». وأجابتها ألفيا قائلة: «إن رأيي غير خاف على سيدك، فليس في وسعي أن أحبه وإن كنت لا أشك في عفته وفضائله، أو أجهل أنه رجل نبيل شريف القدر رفيع المنزلة، ذو شباب نضير بريء من العيوب، اشتهر بين الناس بعلمه وظرفه وبسالته، ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أحبه، وقد كان خليقًا به أن يعرف ذلك من زمن بعيد».

وقالت لها فيولا: «لو أنني كنت أحبك كما يحبك سيدي لأنشأت لنفسي بيتًا من الصفصاف[٩] عند باب قصرك وأقمت فيه، وأنشأت القصائد في شكواكِ، وأنشدتها في ظلام الليل حتى تتجاوب الجبال باسمك، ولا ينفك الهواء الثرثار يُنادي يا ألفيا، فلا يقر لك ما حييت قرار بين الأرض

---

[٩] كان شجر الصفصاف يُعد رمز الحب غير الموفق. (المترجم)

والسماء حتى تشفقي علي وترحميني». وأجابتها ألفيا بقولها: «إنكِ لأجدر من يفعل هذا، ولكن قل لي من أبواكِ؟». فردت عليها فيولا قائلة: «إنني أرقى من حالي هذه وإن كانت هذه الحال طيبة، فأنا سيد مهذب». ثم صرفت ألفيا فيولا على كره منها، وقالت لها: «اذهب إلى مولاك ونبئه أنني لا أستطيع أن أحبه، ولتكن هذه آخر رسائله إلَّا إذا جئت أنت مرة أُخرى لتخبرني كيف تلقى هذا الرد». وخرجت فيولا بعد أن ودعت هذه السيدة وسمتها «القاسية الحسناء»، ولما ذهبت أخذت ألفيا تُردد لنفسها قول الرسول: «أرقى من حالي هذه وإن كانت هذه الحال طيبة، فأنا سيد مُهذب». ثم قالت بصوتٍ عالٍ: «قسمًا إنه لكذلك، وإن لسانه ووجهه، وجسمه، وروحه وأفعاله لتنطق كلها بِأَنه سيد مُهذب». وتمنت لو أن سيزاريو كان هو الدوق. ثم تنبهت إلى أن هذا الفتى قد ملك عليها قلبها من أول لقاء فأخذت تلوم نفسها على هذا الحب المفاجئ، ولكن اللوم اللطيف الذي يُوجهه الناس لأنفسهم على ما يرتكبونه من أغلاط لا تتأثر به قلوبهم. ولم تلبث ألفيا هذه السيدة العظيمة الشأن أن غفلت عمَّا بينها وبين الخادم المزعوم من فارق عظيم، كما غفلت أيضًا عن حياء العذارى الذي هو خير ما تزَّين به الفتيات، واعتزمت أن تخطب ود الشاب شيزاريو، فأرسلت وراءه خادمًا لها ومعه خاتم من ماس، قالت إنه تركه عندها على أنه هدية من أرسينو، وكانت ترجو أنها إذا احتالت على إهداء الخاتم إلى سيزاريو بهذه الطريقة استطاعت أن تُوحي إليه بمقصدها. وقد حزرت فيولا ذلك بالفعل؛ لأنها تعرف أن أرسينو لم يرسل معها خاتمًا، وشرعت تتنبه إلى أن نظرات ألفيا وحركاتها كانت كلها تفصح من إعجابها بها، فشعرت من فورها أن حبيبة سيدها قد أصبحت أسيرة حبها، وقالت لنفسها: «أسفي عليها! أولى لهذه السيدة المسكينة أن تحب حلمًا من الأحلام. إن التنكر أمر كريه فقد جعل قلب ألفيا يكتوي بحبي كما يكتوي

قلبي بحب أرسينو، وما أضيع هذا الحب وما أقل جدواه!».

وعادت فيولا إلى قصر أرسينو ونبأته بخيبة مسعاها، وأعادت على مسامعه أمر ألفيا بِأَن يمتنع عن مُضايقتها برسائله، ولكن الدوق ظل يرجو أن يفلح الفتى الظريف سيزاريو آخر الأمر في إقناع ألفيا بِأَن تشفق بعض الشفقة عليه، وأمره أن يعود إليها في اليوم الثاني. وأراد أن يُسلي نفسه في تلك الفترة القصيرة حتى يجيء ذلك الوقت، فأمر أن تُغنى له أُغنية احبها، وقال لألفيا: «إني يا سيزاريو لما سمعت هذه الأُغنية في الليلة الماضية خُيل إلي أنها قد خففت كثيرًا من لواعج هواي. استمع إليها يا سيزاريو، إنها أُغنية قديمة ساذجة، يُغنيها النساء وهن جالسات في الشمس يغزلن الخيوط أو يصنعن الجوارب، ويترنم بها الفتيات وهُنَّ ينسجن غزلهن بأبر من العظام. ولا شك في أنها أُغنية ساذجة صادقة[١٠]، وأنا أحبها لأنها تتحدث عن الهوى العذري في الأيام الخالية»:

أقبـــــل أيهـــــا المـــــوت أقبـــــل،
وفـــي تـــابوت مـــن الســـرو[١١] ضـــعوني،
ولتخـــــــــــــرجن أنفاســـــــــــــي،
فقـد قتلتنـي فتـاة قاسـية القلـب حسـناء.
وأعـــدوا إلـــي أكفـــاني البيضـــاء،
وغطوهـــــا بأغصـــــان الشـــــجر،

---

[١٠] هذا هو معنى كلمة Silly في هذا الموضع وليس معناها أنها سخيفة كما قد يتبادر إلى الظن.
[١١] أو في تابوت مُغطى بأغصان السرو. وكان السرو من شارات الحداد وكانت أشجاره تُزرع في المقابر.

فلــــم يلــــقَ إنســــان وفـــيٌّ
ذلـــك المـــوت الـــذي لقيـــت.
ولا تنشـــروا علـــى تـــابوتي الأســـود
شــــيئًا مـــن الزهـــر النضـــير،
ولا يشـيعن أحـد هـذا الجسـم النحيـل
إلـــى حيــــث تُلقـــى عظـــامي.
وادفنوني حيث لا يعرف المحزونون من
موضـــع قبـــري ليبكـــوا علـــيّ،
فتنجـــوهم مـــن آلاف الحســـرات.

ولم تفت فيولا كلمة واحدة من هذه الأُغنية القديمة التي تصف عذاب المحبين البائسين، هذا الوصف الصادق الساذج، وكانت تفصح بملامحها عن المشاعر التي يختلج بها فؤادها. ولاحظ أرسينو ما بدا عليها من كآبة، فقال لها: «أقسم بحياتي يا سيزاريو أنك على صغر سنك قد وقعت عينك على وجه تحبه، أليس كذلك يا ولدي؟». فأجابته فيولا بقولها: «نعم إلى حد ما إن أذنت لي بذلك». وسألها أرسينو: «أي فتاة هذه؟ وما هي سنها؟». وأجابته فيولا: «إنها في سنك يا مولاي وفي لون وجهك». وتبسم الدوق حين سمع هذا الفتى الوسيم يقول إنه يحب فتاة أكبر منه ولها وجه أسمر كوجه الرجال، ولكن فيولا كانت تعني بقولها هذا أرسينو نفسه، ولم تكن تقصد أنها تحب امرأة شبيهة به.

ولما ذهبت فيولا في زيارتها الثانية لألفيا لم تلق صعوبة في الدخول

عليها؛ ذلك أن الخدم لا يلبثون أن يعرفوا من تلقاء أنفسه متى ترغب سيداتهم في أن يتحدثن إلى الرسل الشبان الحسان.

ولذلك فإن فيولا لم تكد تصل إلى القصر حتى فتحت لها الأبواب، وأدخل رسول الدوق غِلى جناح ألفيا، ولقى من الخدم أعظم مظاهر الأدب والإجلاب، ولما قالت فيولا إنها جاءت مرة أُخرى لترجوها أن تعطف على سيدها قالت لها: «لقد طلبت إليك من قبل ألَا تُحدثني في شأنه، أما إذا كان لك مطلب آخر فإني يسرني أن أستمع إليك أكثر من سروري بسماع موسيقى الأفلاك[١٢]». وكان هذا قولًا صريحًا لا لبس فيه ولا غموض، ولكن ألفيا لم تكتفِ به بل أفصحت من فورها عن غرضها بعبارات أكثر من هذه وضوحًا، وجهرت بحبها لرسول الدوق. ولما رأت الدهشة والحيرة باديتين في وجه فيولا قالت: «ألا ما أجمل هذه السخرية الشديدة التي تبدو على شفتيه إذا غضب أو احتقر! أقسم يا سيزاريو بورد الربيع، وبعفة العذارى، وبالشرف والصدق، أنني أحبك، وأنك قد سلبتني عقلي فلم أستطع رغم كبريائك أن أكتم هذا الحب». ولكن ألفيا لم يجدها هذا كله نفعًا، وخرجت فيولا من عندها وهي تنذرها بِأَنها لن تعود بعد اليوم لتُحدثها عن حب أرسينو، وكل ما أجابت به عن توسل ألفيا أن أعلنت أنها قد عقدت نيتها على «ألَّا تحب امرأة قط».

ولم تكد فيولا تخرج من عندها حتى امتحنت شجاعتها امتحانًا قاسيًا. ذلك أن رجلًا ممن خطبوا ألفيا وردتهم خائبين علم أنها أحسنت لقاء رسول الدوق، فدعا هذا الرسول إلى المبارزة. وماذا تفعل فيولا المسكينة وهي التي

---

[١٢] يشير إلى ما كان يعتقده فيثاغورث ومن يتبعونه من القدماء؛ وهو أن النجوم في حركاتها تحدث أصواتًا موسيقية سماوية، وفي رواية تاجر البندقية إشارة أُخرى إلى هذه العقيدة. (المترجم)

لها قلب كقلب النساء وإن ظهرت بمظهر الرجال والتي لا تقوى على النظر إلى سيفها؟

ولما رأت عدوها القوي يتقدم نحوها وسيفه مسلول في يده بدأت تُفكر في الاعتراف بأَنها امرأة، ولكن رجلًا غريبًا مر بها في ذلك الوقت فأذهب عنها روعها وأنجاها من ذلة هذا الاعتراف؛ فقد جاءها هذا الرجل الغريب، وكأنه يعرفها من زمن طويل، وكأنهما صديقان من أعز الأصدقاء، وقال لخصيمها: «إذا كان هذا الشاب قد أساء إليك فأنا أتحمل تبعة هذه الإساءة، وإذا كنت تريد أن تُؤذيه فإني من أجله أتحداك». وقبل أن تهم فيولا بأَن تشكر له دفاعه عنها، أو تسأله عن سبب عطفه عليها، لقي صديقها الجديد خصمًا لم تجده شجاعته معه نفعًا، وذلك أن رجال الشرطة أقبلوا في تلك اللحظة وقبضوا بأمر الدوق على هذا الرجل الغريب ليحققوا معه في ذنب ارتكبه من بضع سنين. وقال الرجل لفيولا: «هذا ما جناه علي بحثي عنك». ثم طلب إليها كيسًا من النقود وهو يقول: «إنني مُضطر الآن إلى طلب هذا الكيس، وإني ليؤلمني عجزي عن الدفاع عنك أكثر مما يُؤلمني ما سوف ألقاه أنا نفسي؛ إني أرى علائم الدهشة بادية عليك ولكني أنصحك ألَّا تنزعج». والحق أن قوله هذا قد أدهش فيولا فأقسمت أنها لا تعرفه، وأنها لم تأخذ منه كيسًا، وعرضت عليه مبلغًا صغيرًا من المال هو كل ما كان معها تقريبًا جزاء ما أظهره من عطف عليها، فما كان من هذا الرجل الغريب إلَّا أن فاه بأشد الألفاظ، واتهمها بالقسوة ونكران الجميل، وقال لمن حوله: «إني قد اختطف هذا الفتى الذي ترونه هنا من بين أنياب الموت، ومن أجله وحده جئت إلى إلريا Illyria وحاق بي هذا الخطر». ولكن رجال الشرطة لم يهتموا قط بشكوى هذا السجين وساقوه أمامهم وهم يقولون: «وما شأننا نحن وهذا؟».

فلما استاقوه أمامهم نادى فيولا وسماها باسم سبستيان وعاب على هذا الفتى المزعوم إنكاره صداقته، وأخذ يُردد هذا القول طالما كان على مسمع من فيولا.

وسمعت فيولا هذا الرجل الغريب يُناديها باسم سبستيان، ولكن رجال الشرطة أسرعوا به فلم تستطع أن تسأله عن جلية الأمر، غير أنها بدا لها أن هذا اللغز الخفي في ظاهره قد يكون منشؤه أن الرجل حسبها أخاها. وبدأت تأمل أن يكون أخوها هو الذي يقول عنه هذا الرجل إنه أنجاه من الموت. ولقد كان الأمر كذلك حقًّا، فقد كان هذا الرجل الغريب — واسمه أنطونيو — ضابطًا بحريًا، وكان قد انتشل سبستيان من البحر، وأخذه في سفينته بعد أن أعياه التعب وهو يطفو فوق الماء مُلتصقًا بالسارية التي شد إليها نفسه في أثناء العاصفة. وأحب أنطونيو سبستيان حُبًا لم يقوَ معه على فراقه، فاعتزم أن يُلازمه أينما ذهب، ولما تاقت نفس الشاب لزيارة بلاط أرسينو جاء معه إلى إلريا، وآثر ذلك على فراقه وإن كان يدرك أنه إذا عرف في هذا البلد عرَّض حياته للخطر؛ لأنه أصاب ابن أخي الدوق بجرح خطير في معركة بحرية، وكان هذا هو الذنب الذي قبض عليه من أجله.

وكان أنطونيو وسبستيان قد نزلا إلى البر من بضع ساعات قبل أن يلتقي أنطونيو بفيولا، وأعطى سبستيان كيس نقوده لينفق منها ما يشاء إذا رأى شيئًا يرغب في شرائه، وأخبره أنه سيبقى بالفندق حتى يعود سبستيان من تجواله في المدينة. ولم يعد سبستيان إلى الفندق في الموعد المحدد، فجازف أنطونيو بالخروج منه ليبحث عنه، ورأى فيولا في ثياب كثياب أخيها وكانت مثله في ملامحها، فاستل سيفه للدفاع عن الشاب الذي حسب أنه هو الذي أنجاه من الموت. فلما ظن أن سبستيان أنكره وأنكر أيضًا كيس نقوده، اتهمه

بالجحود ولم يكن عليه في هذا الاتهام حرج. وخشيت فيولا حين غادرها أنطونيو أن يدعوها شخص آخر للبراز فتسللت إلى الدار بأسرع ما تستطيع، ولكنها لم تبتعد إلَّا قليلًا حتى ظن خصمها أنه يراها عائدة إليه، والحقيقة أنه في هذه المرة كان يرى أخاها سبستيان، وقد اتفق أن جاء في تلك اللحظة إلى ذلك المكان، فخاطبه بقوله: «والآن يا سيدي هل أراك مرة أُخرى؟ فليكن هذا من نصيبك». قالها ولطم سبستيان. ولم يكن سبستيان بالرجل الجبان فرد اللطمة مُضاعفة واستل سيفه. وجاءت في تلك الساعة سيدة فمنعت هذا، وكانت هذه السيدة هي ألفيا خرجت من بيتها وقتئذ وحسبت أن سبستيان هو سيزاريو فدعته إلى دارها، وأظهرت أسفها الشديد على هذا الهجوم الوقح. ولم يكن عجب سبستيان من حُسن المعاملة التي لقيها من هذه السيدة أقل من عجبه من سفاهة عدوه المجهول، ولكنه مع ذلك سره أن يدخل معها دارها، ولشد ما اغتبطت ألفيا حين رأت سيزاريو حسب ظنها يستجيب لعواطفها؛ وذلك لأنها الم ترَ في وجه هذا الفتى ما كان يبدو في وجه سيزاريو من احتقار وغضب، كانا موضع شكواها حين أظهرت له حبها، على الرغم من تشابههما في كل ما عدا ذلك.

ولم يرَ سبستيان بأسًا فيما كانت تفيضه عليه هذه السيدة من عطف شديد، ولم يبد عليه ما يدل على أنه يسيء الظن بهذه العواطف وإن عجب منها أشد العجب، ولعله كان يميل إلى الظن أن بعقل ألفيا خبالًا، ولكنه رآها ربة بيت جميل، تحسن تدبير أُمورها والإشراف على بيتها، وتتصرف في كل شؤونها تصرف العقلاء، اللهم إلَّا في حُبها المفاجئ له، رآها كذلك فلم يُعارضها في حبها وتوددها إليه. ووجدت ألفيا سيزاريو في هذه الحالة النفسية الطيبة، وخشيت أن يغير رأيه بعد حين فعرضت عليه أن تتزوج به على الفور؛

لأن القسيس كان في ذلك الوقت حاضرًا في دارها.

ووافق سبستيان على طلبها، ولما انتهت حفلة الزفاف انصرف من عند زوجته ليغيب عنها وقتًا قصيرًا يذهب فيه إلى صديقه أنطونيو ويخبره بما صادفه من حظ سعيد.

وجاء أرسينو وقتئذ في زيارة لألفيا، فلما وصل إلى دارها وجد عندها رجال الشرطة ومعهم أنطونيو السجين. وكانت فيولا في ذلك الوقت مع سيدها أرسينو، فلما رآها أنطويبنو وكان لا يزال يظنها سبستيان، أخذ يقص على الدوق كيف أنجى هذا الفتى من أخطار البحر ويحدثه عمَّا له عليه من يد — كانت له في الحقيقة على سبستيان — وختم شكواه بقوله إن هذا الفتى الجحود قد بقي معه ثلاثة شهور طوال لم يُفارقه لا ليلًا ولا نهارًا. وفي هذه الساعة خرجت ألفيا، فلم يعد في وسع الدوق أن يصغى إلى قصة أنطونينو، وقال حين رآها: «ها هي ذي الكنتة مقبلة، كأن ملكًا من السماء يمشي على الأرض. ولكني أقول لك أيها الرجل إن حديثك هذا هو الجنون بعينه؛ لأن هذا الفتى في خدمتي من ثلاثة أشهر». وأمر أن يبعد أنطونيو عنه. ولكن الكنتة — ملاك أرسينو — قدمت للدوق من الأسباب ما جعله يتهم سيزاريو بالجحود كما اتهمه أنطونيو من قبل. وذلك لأنه لم يسمع من ألفيا إلا ألفاظ العطف على سيزاريو، ورأى أن خادمه قد أصبحت له في نفس ألفيا هذه المكانة العالية فأنذره بِأَنه سوف يحل به غضبه وانتقامه العادل. ولما همَّ بالانصراف أمر فيولا أن تتبعه، وقال لها: «سر معي أيها الغلام فإن ساعة نقمتي قد دنت». ولاح أن أرسينو سيقضي من فوره على فيولا في سورة غضبه، غير أن حبها له قوى قلبها وأذهب عنها خور عزيمتها، فقالت إنها يسرها أن تلقي الموت إذا كان في هذا ما يريح قلب سيدها. ولم تكن ألفيا

تريد أن تفقد زوجها فنادت بأعلى صوتها: «أين يذهب عزيزي سيزاريو؟». وأجابتها فيولا بقولها: «إني ذاهب وراء من أحبه أكثر مما أحب حياتي». ومنعتها ألفيا من الذهاب حين أعلنت جهرة أن سيزاريو زوجها احتجاجها وقولها إنها لم تتزوج ألفيا، وكانت شهادة ألفيا وشهادة القسيس كافيتين لإقناع أرسينو أن خادمه قد سلبه هذا الكنز الثمين الذي كان يحرص عليه أكثر من حرصه على حياته. ولكنه ظن أن ما مضى لا مرد له، فأخذ يودع حبيبته الغادرة وزوجها الذي سماه الفتى المرائي، ويحذره من أن يريه وجهه بعد ذلك الوقت. وبينا هو يفعل ذلك إذا بأعجوبة – في ظن الحاضرين – تحدث أمامهم. فقد أقبل في ذلك الوقت سيزاريو آخر وخاطب ألفيا بقوله: «يا زوجتي!». وكان سيزاريو هذا هو الفتى سبستيان زوج ألفيا الحقيقي. ولما ذهب عنهم بعض دهشتهم حين رأوا شخصين لا يفترقان في الوجه والصوت واللباس، أخذ الأخ وأُخته يتبادلان السؤال والجواب؛ وذلك لأن فيولا لم تكن تعتقد أن أخاه حي يُرزق؛ ولأن سبستيان لم يدر كيف يُفسر وجود أُخته حقًا مُتنكرة في ثياب الرجال.

ولما كشفت كل هذه الأخطاء التي نشأت مما كان بين التوأمين الأخ وأُخته من تشابه تام، أخذوا يضحكون من الخطأ الذي وقعت فيه ألفيا حين أحبت فتاة مثلها، ولم تغضب هذه السيدة حين تبينت أنها قد تزوجت بالأخ بدل أن تتزوج بالأُخت.

وقضى زواج ألفيا على آمال أرسينو قضاء لا مرد له، ولاح أن حبه قد ذهب بذهاب آماله وانحصرت أفكاره كلها في كيفية انقلاب سيزاريو فتاه المحبوب إلى سيدة حسناء، فأخذ يُوجه التفاته إلى فيولا، وعاد إلى ذاكرته أنه كان على الدوام يظن سيزاريو فتى وسيمًا، ولم يلبث أن اقتنع بِأَنها ستبدو

بارعة الجمال إذا لبست ملابس النساء. وذكر بعد ذلك أنها كانت على الدوام تقول إِنها تحبه، وهو قول لم يفهم منه في ذلك الوقت إِلَّا أنه يُعبر عمَّا يجب على الخادم الوفي لسيده. ولكن نفسه أخذت تُحدثه الآن بِأَن لهذه الألفاظ من المعاني أكثر مما كان يفهمه منها، وعاد إِلى ذاكرته كثير من الأقوال الظريفة التي كانت تبدو له غامضة مُحيرة. ولم تكد هذه الأشياء تجول في ضميره حتى عزم على أن يتخذ فيولا زوجة له، فقال لها (ولم يكن في وسعه أن يُناديها إلا باسم سيزاريو والغلام): «أيها الغلام! لقد طالما قلت لي إِنك لن تحب أحدًا من النساء بقدر ما تحبني، وقد كنت مُخلصًا وفيًا فيما أديت لي من خدمات ليست جديرة بنشأتك الرقيقة المنعمة، ولطالما دعوتني سيدك، ومن أجل هذا وذاك ستكون سيدة سيدك وتصبح دوقة أرسينو الحقة».

وتبينت ألفيا أن أرسينو يُصارِح فيولا بذلك الحب الذي لم تكترث هي به ولم تتجمل في رفضه؛ فدعتها إِلى الدخول إِلى دارها وعرضت عليها أن تدعو القسيس الذي زوجها بسبتيان في صباح ذلك اليوم ليعقد لها على أرسينو فيما بقى من ساعات النهار. وبذلك تزوج التوأمان الأخ وأُخته في يوم واحد، وكانت العاصة التي حطمت سفينتهما وفرقتهما هي التي جمعت شملهما وأنالتهما مُنتهى السعادة، فقد أصبحت فيولا زوجة لأرسينو دوق إلريا، وأصبح سبستيان زوج ألفيا الكنتة الشريفة النبيلة.

تيمن الآثيني

كان تيمن Timon شريفًا من أشراف أثينة، ذا ثروة طائلة، ولكنه كان طلق اليدين، لا يقف جوده عند حد، ولا يكاد إيراده الضخم يصل إلى يده حتى ينفقه على كل من هب ودب. كان مُخلفًا مُتلفًا، لا يقصر نواله على الفقراء، بل إن أشراف الناس كانوا لا يستنكفون أن يكونوا من خدمه وتبعه. وكانت مائدته ملتقى المترفين المولعين بلذيذ الطعام والشراب، وداره مفتحة الأبواب لكل قادم على أثينة أو نازح عنها. وكانت ثروته الطائلة عونًا لطبيعته الكريمة السمحة على كسب القلوب وجمعها على حبه، فكانوا على اختلاف طباعهم ومراتبهم يعرضون عليه خدماتهم، لا فرق في ذلك بين المرائي المتملق الذي تنعكس على وجهه أهواء سيده ونصيره، وبين الرجل النكد الناقم على الحياة الذي يتظاهر بازدراء الناس وعدم المبالاة بأمر الدنيا، ولكنه تأسره رقة طباع لورد تيمن وظرفه، فيأتي إليه مُرغمًا لينال قسطه من كرمه الفياض، ويعود وقد كبر في عين نفسه إذا أسعده الحظ بتحية أو إيماءة من تيمن.

وإذا أنشأ شاعر قصيدة وأراد أن يصدِّرهما بكلمة يقدمها بها إلى العالم، لم يجد خيرًا من أن يهديها إلى لورد تيمن، فيضمن لها بذلك الرواج، فضلًا عمَّا ينفحه به اللورد من المال، وعن دعوته إياه للتردد على بيته في كل يوم والجلوس إلى مائدته. وإذا كان عند رسام صورة يبغى التخلص منها فما عليه إلَّا أن يذهب بها إلى لورد تيمن ويتظاهر بأنه يريد أن يستأنس برأيه في قيمتها، فإذا فعل ذلك كان هذا كافيًا لإغراء اللورد السمح الكريم بابتياعها.

وإذا كان عند صائغ حجر كريم، أو عند بزاز ثوب من نسيج ثمين، ولم

يعثر كلاهما على من يشتري بضاعته لارتفاع ثمنها، وجد في بيت تيمن سوقًا دائمة يبيع فيها جوهرته أو ثيابه بالثمن الذي يشتهيه. وكان اللورد الطيب القلب يشكر لهم حسن صنيعهم، كأنهم هم قد أحسنوا إليه إذ عرضوا عليه بضاعتهم الثمينة. وبذلك غُصَّ بيته بالسلع التي تزيد على حاجته، والتي لم تكن لها فائدة أكثر من أن تزيد في أبهته الكاذبة المتعبة. وكان يُضايقه أكثر من ذلك طوائف من الزائرين المتعطلين الذين لا يعملون عملًا؛ كالشعراء الكاذبين، والمصورين، والتجار المحتالين، وأعيان البلاد وسيداتها، ورجال البلاط المعسرين، والطالبين عطاءه الذين تزدحم بهم في كل حين ردهات قصره ليلقوا على مسامعه عبارات الملق والدّهان، يتذللون له ويطرونه ألفاظ لا يُوصف بها إلا الخلاق العظيم، ويقدسون كل شيء فيه، حتى الركاب الذي يستعين به على امتطاء جواده؛ وكأن الهواء الطليق الذي يتنفسونه هبة منه لا تصل إليهم إلَّا بإذنه.

وكان من أولئك الصنائع المرتزقين الذين يفدون إليه في كل يوم طائفة من الشُبان أبناء الأُسر الكريمة، بسطوا أيديهم في الإنفاق حتى لم تكفهم مواردهم، فاستدانوا ولم يوفوا بدينهم، فزجوا في أعماق السجون، ثم أخرجوا منها بعد أن أدى عنهم تيمن دينهم، فتعلق هؤلاء المبذرون بأذياله، كأن الإسراف رابطة وثيقة تُؤلف بينه وبينهم، وتجعله صديقًا عزيزًا لهؤلاء المسرفين الذين لم يكن في وسعهم أن يُضارعوه في ثروته، ولكنهم رأوا أن من السهل عليهم أن يُقلدوه في بذخه، وفي الإنفاق مما لا يملكون. وكان من هؤلاء الطفيلين رجل يُدعى فنتديس Ventidius، أدى عنه تيمن من زمن قصير دينًا

باهظًا تورط فيه، يزيد مقداره على خمس تالنتات من المال[١٣].

وكان أظهر الناس في هذا السيل الجارف من الزوار أُولئك الذين يتقدمون إلى الشريف بالهدايا والهبات. وكان السعيد الموفق منهم من يعجب تيمن بكلب له أو فرس أو قطعة رخيصة من أثاث. فكان هذا الشيء الذي يعجب به تيمن أيًا كان شأنه يهدى إليه حتمًا في صباح اليوم التالي مصحوبًا بتحيات المهدي واعتذاره عن حقارة الهدية. وما من مرة إلَّا رد تيمن في نظير الكلب أو الحصان عشرين كلبًا أو حصانًا، أو هدية أعظم منهما قيمة؛ لأنه لم يكن في الناس كلهم من هو أندى من تيمن يدا. وكان هؤلاء المهدون المراءون يعرفون هذا منه، فلم تكن هداياهم المزعومة إلَّا استثمارًا لأموالهم تُرَدُّ إليهم ربًا فاحش عاجل. وعلى هذا النحو أرسل لورد لوسيس Lord Lucius إلى تيمن من وقت قريب هدية من أربعة جياد ناصعة البياض وعليها سروج من فضة، وكان تيمن قد أثنى عليها مرة من قبل، ولاحظ ذلك هذا الشريف الماكر، وكذلك أهدى إليه شريف آخر يُدعى لورد لكلس Lord Lucallas بهذه الطريقة الباطلة عينها كلبي صيد سمع تيمن مرة يثني على شكلهما ويعجب بسرعة عدوهما. وقبل تيمن الرجل السمح الطيب القلب هاتين الهديتين دون أن يسيء الظن بمقاصد صاحبيهما، وكان أصحاب الهدايا يجزون بطبيعة الحال بهدايا أُخرى قيمة كقطعة من الماس أو حلية ثمينة تربى قيمتها على هديتهم الزائفة، أو تجارتهم إن شئت الحقيقة، عشرين ضعفًا.

وكانت هذه الخلائق تعمل أحيانًا سافرة وتلجأ في احتيالها إلى أساليب

---

[١٣] التالنت وزن قديم يتراوح مقداره بين: ٢١٣، ٢١٥ جُنيهًا ذهبًا.

ظاهرة السماجة، ولكن تيمن لم يكن يراها لسذاجته وغفلته، فكانوا يتظاهرون بالإعجاب بشيء مما يمتلكه أو بمدح شيء مما اشتراه أخيرًا، فكان هذا الإعجاب وهذا المديح ينتزعان من ذلك السيد الرقيق القلب هذا الشيء الممدوح. وكل ما كان يُؤديه هؤلاء من خدمات له نظير هذه الهدايا القيمة هو ذلك الملق السهل الرخيص الذي لم يكن يخفى على أحد. وعلى هذا النحو أهدى تيمن من وقت قريب إلى أحد هؤلاء السادة الأنذال جواده الكميت، وهو ركوبته الخاصة؛ لأن هذا السيد قد سرَّه أن يثني على الجواد وعلى حسن خطوه، وكان تيمن يعلم أن الناس لا يثنون قط على شيء لا يريدونه لأنفسهم؛ لأنه كان يقيس عواطف الناس بعواطفه، وقد تعود بسط الكف حتى لم يكن يصعب عليه أن يهب لهؤلاء المتظاهرين بصداقته ممالك ودولًا دون أن يمل العطاء.

ولكن ثروة تيمن لم تذهب كلها لإشباع هؤلاء المتملقين الآثمين؛ فقد كان في وسعه أن يعمل أعمالًا طيبة محمودة. مثال ذلك أن خادمًا أحب مرة ابنة أثيني ثري، ولم يكن ثمة أمل لهذا الخادم في الزواج بهذه الفتاة؛ لأنها كانت أعظم منه ثروة وأرفع درجة، فما كان من تيمن إلَّا أن منح خادمه ثلاثة تالنتات ليستطيع أداء المهر الذي طلبه والد الفتاة. لكن الكثرة الغالبة ممَّن كانوا ينالون عطاءه كانوا هم السفلة المتطفلين والأصدقاء الكاذبين الذين لم يكن يعرف كذبهم وخداعهم، بل كان يظن أنهم يحبونه حتمًا لأنهم يُلازمونه ويلتفون حوله. ورأى هؤلاء القوم يتملقونه ويبسمون له، فلم يشك في أن خيار الناس وعقلاءهم على بكرة أبيهم يعجبون به ويرضون عن عمله. وبينا هو يُولم الولائم لهؤلاء المرائين والأصدقاء الكاذبين، وبينا كانت موارده في طريق النضوب لما كان يقدم لهؤلاء وأُولئك من طعام وشراب، كان هو عاجزًا عن أن يميز الصديق الوفيّ من المتملق المرائي كأن على بصره غشاوة — لأن كثرة

هؤلاء الصحاب قد أضلته وأعمت بصيرته — فبدا له أن السعادة في أن يرى هذا العدد الجم من الأصدقاء يتصرف كل منهم في مال أخيه (وإن كان ماله في الحقيقة هو الذي يتصرفون كلهم فيه)، ويُبادرون في غبطة الاجتماع بعضهم ببعض في بهجة وإخاء كما كان يبدو له في ذلك الحين.

وبينا كان هذا الرجل المتلاف ينفق ماله بلا حساب، ويُبدد ثرواته ذات اليمين وذات الشمال كأن بلوتوس إله الذهب كان خازنه، ويندفع في هذا الطريق لا يعوقه فيه عائق من عناية، لا يُفكر فيما ينفق ولا في الوسيلة التي تُمكنه من المضي في إنفاقه، ولا ينقطع في يوم من الأيام عن إسرافه وبذخه، بينا هو يفعل هذا كله كان معين ثروته آخذا في النضوب من جراء هذا الإسراف الذي لا آخر له. ولكن منذا الذي يستطيع أن يُنبهه إلى هذا؟ أينبهه إليه مُتملقوه ومصالحهم تقضي عليهم أن يخفوا ذلك عنه حتى لا يرى عاقبة أمره؟

وعبثًا حاول فلافيس Flavius أُستاذ داره الأمين أن يُبين له حقيقة أمره، ويطلعه على دخله وخرجه، ويرجوه، ويتوسل إليه، ويلح عليه إلحاحًا لم يكن في غير هذه الأحوال يليق أن يصدر من خادم إلى سيده، ويتضرع إليه والدموع تنهمر من عينيه، أن يُفكر في عاقبة أمره. ولكن تيمن كان يصرفه عن هذا ويحول مجرى الحديث إلى غير هذه الشؤون؛ لأن الغنيَّ إذا افتقر كان أقل الناس قبولًا للنصح، وأكثرهم مُضيًا في عمايته، وأشدهم بُغضًا للاعتراف بحقيقة حاله، وأبعدهم عن الإقرار ببؤسه. وبينا كانت حجرات قصر تيمن العظيم غاصة بالضيوف يصخبون فيها ويطعمون على نفقته، والخمر تجري على أرضها جريان الماء، والأنوار تتلألأ في سمائها فتبدل ليلها نهارًا، والقصر كله يُردد صدى الأنغام الموسيقية وأصوات القصف والمرح، بين كان هذا كله يحدث في قصر تيمن كان أُستاذ داره الأمين وخادمه الطيب الكريم كثيرًا ما

يأوى بمفرده إلى مكان بعيد ويُفكر في أمر سيده الأخرق المتلاف، وفي أنه إذا ذهب المال الذي يشتري به ثناء هؤلاء الناس انقطعت الأنفاس التي يخرج معها؛ لأن الثناء الذي يشتري بالطعام يذهب به الصيام ويختفي المادحون عند أول سهم يرمي به الزمان، كما يختفي الذباب عندما تسقط في الشتاء أول مطرة من السماء.

ثم جاء الوقت الذي لم يستطع فيه تيمن أن يصم أُذنيه عن سماع نصح هذا الخادم الأمين، فقد احتاج يومًا إلى المال وأمر فلافيس أن يحصل عليه ببيع جُزء من أرضه، فأخبره فلافيس بما كان قد حاول مرارًا من قبل أن يحذره منه، وهو أن أرضه كلها قد بيعت أو استولى عليها الدائنون، وأن كل ما يمتلكه في ذلك الوقت لا يفي بنصف ديونه.

وذهل تيمن عندما سمع هذا النبأ فأجاب من فوره: «إن أملاكي تمتد من أثينة إلى لسديمون Lacaedemon»، فرد عليه فلافيس بقوله: «إن ذلك لا يغير من طبيعة العالم فهو هو وله حدود، ولو أنك ملكته كله ثم وهبته للناس بكلمة لما بقى لك إلَّا ريثما تنطق بهذه الكلمة».

وأخذ تيمن يعزي نفسه بِأَنه لم يعط من ماله شيئًا لغرض ذميم، وأنه إذا كان قد أخطأ في إنفاق ماله فإنه لم ينفقه في شهواته، بل بذله في تأليف قلوب الصحاب، وأمر أُستاذ داره الكريم الذي كان يبكي من فرط حُزنه أن يطيب نفسًا، وأن يطمئن إلى أن سيده لن يعدم المال وله هذا العدد الجم من الأصدقاء الأوفياء. وظن هذا السيد المفتون أن ليس عليه إلَّا أن يرسل إلى الأصدقاء فيستدين منهم المال، وأن ينفق في هذه الشدة من مال أُولئك الذين نالوا عطاءه كأنما هو ماله الخاص. ثم انبسطت أسارير وجهه كأنما كان

واثقًا من نتيجة هذه المحاولة الجديدة وأرسل من فوره رسولًا إلى كل من النُبلاء لوسيس ولوكلس وسمبرونيس، وهم أُولئك الذين أفاض عليهم من ماله وغمرهم بنعمته فيما مضى من الأيام. وأرسل أيضًا رسولًا إلى فنتديس Ventidius الذي أخرجه من السجن من وقت قريب، بعد أن أدى عنه جميع ديونه، ثم مات أبوه أخيرًا فورث عنه أموالًا طائلة، وأصبح في وسعه أن يُكافئ تيمن على حُسن صنيعه. وطلب تيمن إلى فنتديس أن يرد له خمسة التالنتات التي أداها عنه، وإلى كل من النُبلاء الآخرين أن يقرضه خمسين تالنتا. ولم يكن يشك في أن ما أسداه إليهم من جميل سيحملهم على أن يفرجوا كربه ويقرضوه من مالهم أضعاف ما طلبه إليهم خمسمائة مرة، إذا احتاج الأمر إلى ذلك.

وكان لوكلس أول من لجأ إليه تيمن، وكان هذا السري الدنيء قد رأى في منامه كأسًا وآنية من فضة، فلما أخبروه بقدوم رسول تيمن صور إليه طمعه أن رؤياه قد تحققت، وأن تيمن قد أرسل إليه هذه الهدية التي كان يحلم بها، فلما تبين جلية الخبر وعرف أن تيمن إنما أرسل إليه يطلب المال، ظهرت حقيقة صداقته الواهية، وأقسم جهد أيمانه أنه قد رأى بثاقب بصره من زمن بعيد ما سيحل بتيمن من الخراب، وأنه كثيرًا ما لبى دعوته للغداء ليطلعه على رأيه، وجاءه وقت العشاء ليحاول أن يقنعه بالاعتدال في الإنفاق، ولكن تيمن أصم أُذنه عن سماع نصحه ولم ينفعه تحذيره. فأما أن لو كلس كان كما قال هو نفسه ضيفًا مُستديمًا يطعم على موائد تيمن، وأنه نال من عطائه ما هو أهم من الطعام وأعظم، فذلك حق لا مراء فيه، وأما أنه كان يتردد عليه لهذا الغرض، أو أنه أسدى إليه نُصحًا أو تحذيرًا فذلك كذب دنيء. وقد اتبعه بعمل يُماثله في الخسة والدناءة، فحاول أن يرشو الرسول ليغريه على أن يعود إلى مولاه ويُنبئه أنه لم يجد لوكلس في داره.

ولم يلق الرسول الذي ذهب إلى لورد لوسيس خيرًا مما لقى هذا الرسول. ذلك أن هذا الشريف الذي أفاض عليه تيمن من نعمته، وغمره بهداياه الثمينة، لما وجد أن الدهر قد تقلب، وأن معين هذه الهدايا قد نضب فجأة، لم يصدق هذا النبأ أول الأمر، فلما أن أكد الرسول صدقه، تظاهر بالأسف الشديد لعدم قدرته على تقديم المعونة إلى لورد تيمن، فقد كان من سوء حظه أنه تورط بالأمس في شراء صفقة كبيرة استغرقت كل ما كان حاضرًا لديه من المال — وكان هذا القول كذبًا دنيئًا — وزاد على ذلك قوله إنه مما يزيد في حقارته أنه بعمله هذا عجز عن خدمة صديقه الكريم، وأن أشد ما يُؤلمه ويحز في نفسه أن يعجز هذا العجز عن تفريج كرب هذا السيد الشريف.

ومنذا الذي يُسمي ذلك الشخص الذي يتناول معه الطعام في صحفة واحدة صديقًا له؟ لو سميّ هذا صديقًا لكان المراءون المتملقون كلهم أصدقاء. لقد كان الناس كلهم يذكرون أن تيمن كان أبا للوسيس، يرد عنه بماله كل ما يسيء إلى سمعته، ويُؤدي له من ماله رواتب خدمه، وأُجور العمال الذين كانوا يكدحون في بناء البيوت الجميلة التي تتطلبها كبرياؤه. ولكنه كفر بنعمته، والكفران بالنعمة يفقد المرء إنسانيته، وقد عزَّ على لوسيس أن يمد تيمن بمبلغ من الماس إذا قيس بما أفاضه عليه تيمن كان أقل مما يجود به المحسنون على السائلين.

وكذلك فعل سمبرونيس وغيره من النُبلاء الذين مَدَّ إليهم تيمن يده، والذين كانوا يبيعون صداقتهم بالمال، فردوا عليه بمثل هذا الرد المراوغ أو بالرفض الصريح، وحتى فنتديس نفسه الذي أخرجه تيمن من سجنه، والذي أصبح الآن من المثرين المنعمين لم يكن خيرًا من أُولئك كلهم، فقد أبى أن يعينه بالخمسة التالنتات التي أداها عنه تيمن، والتي لم يقرضها له إقراضًا، بل

وهبها له هبةً خالصة ليفرج بها كربته.

وتفرق الناس من حول تيمن في أيام فقره بِأَسرع مما كانوا يتجمعون حوله في أيام غناه، وأخذت تلك الألسنة التي تلهج بالثناء عليه وتصف جوده وسخاءه وبسط يده، تسمي جوده خرقًا، وكرمه سفاهة، وبسط يده تبذيرًا، ولم ترَ في هذا عارًا عليها ولا مذمة، وإن كان خرقه لم يبد في شيء أكثر مما بدا في اصطناعه هذه الخلائق الدنيئة. وهجر الناس قصر تيمن الفخم حتى أصبح مكانًا كريهًا يمرون به سراعًا، بعد أن كان هذا القصر غاصًا بالأضياف يقصفون فيه ويصخبون، أصبح الآن يعج بالدائنين الملحين المتذمرين، والمرابين والسالبين المغتصبين، يتقدمون بمطالبهم في عُنف وقسوة لا تُطاق، ليوفي لهم بديونهم وأرباح أموالهم ورهونهم، وكلهم عاتون لا تلين لهم قناة، لا يقبلون عذرًا ولا يرضون بتأجيل يوم الوفاء، حتى صار القصر سجنًا لتيمن لا يجرؤ على الخروج منه أو الدخول فيه؛ فمنهم من كان يُطالب بخمسين تالنتا، ومنهم من بيده صك بخمسة آلاف كرون. ولو أن تيمن استطاع أن يعد دمه قطرة قطرة ليؤدي بها هذه الآلاف لما وجد في جسمه من الدم ما يفي بها.

وبينا هو في هذه الحال من الشقاء التي لا يُرجى لها صلاح، إذ دهش الناس حين رأوا هذه الشمس الكاسفة يشع منها على حين غفلة بريق جديد يكاد سناه يذهب بعقولهم فلا يدرون أحق هو أم وهم صوَّره لهم الخيال. فقد أولم لورد تيمن مرة أُخرى وليمة دعا إليها ضيوفه الأولين من النُبلاء والنبيلات، وكل من كان في مدينة أثينة ذا شأن ومقام. ولبى الدعوة لورد لوسيس ولوكلس وفنتديس وسمبرونيس وغيرهم من وجوه القوم، ولم يكن أحد أكثر أسفًا من هؤلاء الأنذال الأشقياء حين حسبوا أن فقر لورد تيمن كان كله تصنعًا ادعاه ليبتليهم به ويعرف مقدار حبهم له، وتمنوا لو أنهم أدركوا الحقيقة

وقتئذ، فكان لهم عليه ذلك الفضل الرخيص. ومع ذلك فلم يكن أحد أشد منهم سرورًا حين رأوا أن ذلك المورد العذب الذي ظنوه قد نضب لا يزال يفيض كما كان يفيض من قبل، وجاءوا هم وغيرهم يراءون وينافقون ويقيمون الحجة على حبهم وإِخلاصهم، ويعلنون شديد أسفهم وخجلهم؛ لأنهم حين دعاهم تيمن لمعونته لم يكن لديهم لسوء حظهم من المال ما يجيبون به طلب هذا الصديق الكريم. ولكن تيمن رجاهم ألَّا يُفكروا في هذه الأُمور التافهة؛ لأن هذا الحادث لم يبق له أثر في ذاكرته. ولم يرَ هؤلاء السادة الأدنياء الأنذال، الذين أبوا أن يعينوه في أيام محنته حرجًا عليهم في أن يلتفوا حوله حين رأوا نجمه يتألق من جديد؛ وذلك لأن من كانت هذه طباعهم يتهاتفون سراعًا على دور العُظماء، إذا بسم لهم الحظ ورأوا فيها مغنمًا لهم، حتى إذا ما عبست الأيام لهم ذابوا من حولهم أسرع مما تذيب حرارة الشمس الجليد.

ومدت الموائد ووضعت عليها الصحاف، وكان الدخان يخرج منها والموسيقى تصدح بشجى ألحانها، وقضى الأضياف وقتًا قصيرًا وهم في حيرة لا يدرون كيف استطاع تيمن المملق أن يجد المال الذي ينفق منه على هذه المائدة الفخمة، وبلغت الدهشة من بعضهم أنه لم يُصدق ما كانت تراه عيناه، بل كان يظن نفسه واهمًا أو حالمًا. ثم أمر تيمن فرفعت الأغطية عن الصحاف وظهر الغرض الذي كان يرمي إِليه، فلم يجد المدعوون ما كانوا يتوقون إِليه من أصناف نادرة شهية، كانت تنوء بها موائده فيما مضى من الأيام، بل رأوا تحت الأغطية استعدادًا أليق منها بفقر تيمن، رأوا قليلًا من الدخان والماء الفاتر، وهو خير ما يليق من الطعام لهذه الطغمة من أصدقاء البطون، أصحاب الدعاوى الباطلة التي تتطاير كالدخان، والقلوب الفاترة القلقة كالماء الذي حيا به هؤلاء الأضياف. وقال لهم تيمن وهم في حيرتهم:

«ارفعوا الأغطية أيها الكلاب والعقوا ما في الصحاف». وقبل أن يذهب عنهم روعهم قذف الماء في وجوههمحتى ينالوا منه كفايتهم، ثم قذف الصحاف وأدوات المائدة في ظهورهم وهم يهرولون رجالًا ونساءً، بعد أن اختطفوا قبعاتهم على عجل. وما كان أغرب منظرهم في حيرتهم واضطرابهم، وتيمن من ورائهم يدعوهم بأسمائهم الحقة: «الطفيليين الباسمين، الناعمين المتلفين تحت ستار المجاملة، والذئاب الباشة، والدببة الوديعة، الماجنين أتباع الموسرين، أصدقاء البطون، المتهافتين على الطعام تهافت الذباب على الأقذار».

وتزاحموا كلهم كيلا تقع أعينهم عليه، وخرجوا من الدار أسرع مما دخلوها، فمن الرجال من ترك معطفه وقبعته، ومن النساء من تركت حليها، ولم يكن لأحد منهم هم إِلَّا الفرار من وجه هذا السيد الأحمق، وتجنب سخريته اللاذعة، ووليمته المزورة الهزلية.

وكانت هذه آخر وليمة أولمها تيمن، وفيها ودع أثينة وودع صحبة الناس، ولجأ بعدها إِلى الغابات، واعتزل المدينة والناس أجمعين، وتمنى أن تُدك جدران هذه المدينة الممقوتة وتنهار بيوتها على أهلها، وأن تسلط على سكانها جميع المصائب التي تحل بالبشر، من حرب طاحنة، وانتهاك حرمة، وفقر ووباء، ودعا الآلهة العدول أن تصب جام غضبها ونقمتها على الأثينيين طرا، صغيرهم وكبيرهم، عظيمهم ووضيعهم، ثم غادر المدينة وآوى إِلى الغابات؛ لأن الوحوش الضارية — على حد قوله — أرحم بالإِنسان من الإِنسان. وجرد تيمن نفسه من ملابسه حتى يقطع كل صلة بينه وبين الإِنسانية، واحتفر لنفسه كهفًا يسكنه، وعاش فيه وحيدًا كما يعيش الحيوان الأبكم، يطعم الجذور البرية، ويشرب الماء الجاري، ويفر من وجوه بني جنسه، ويفضل صحبة الوحوش الكاسرة لأنها أقل من الإِنسان أذى وأكثر منه مودة.

وما كان أكبر الفرق بين لورد تيمن الموسر صاحب المال الكثير، مصدر البهجة للخلائق أجمعين، وبين تيمن العاري الجسد، الحاقد على البشر. فأين الآن كل أُولئك الذين كانوا يتملقونه ويتذللون له؟ فهل تكون الريح العاتية خادمه الذي يدفئ له قميصه؟ وهل تستحيل الأشجار الجامدة المعمرة إلى شُبان يقومون بخدمته، ويقضون له حوائجه وينفذون أوامره؟ وهل يقف في خدمته جدول الماء الذي تجمد في الشتاء، فيقدم له حساءه وشرابه الدفئ إذا أصابته تخمة بالليل؟ أو هل تأتيه الخلائق التي تسكن هذه الغابات الموحشة فتمسح بلسانها كفه وتتملقه؟

وبينا هو يحفر الأرض في يوم من الأيام ليخرج منها ما يقتات به من الجذور، إذا اصطدمت فأسه بجسم صلب ثقيل، فلما أخرجه رآه كومة من الذهب، لعل إنسانًا بخيلًا دفنها في ساعة رعب، وفي نيته أن يعود إليها ليستخرجها من مخبئها، ولكنه مات قبل أن تُتاح له فرصة الرجوع إليها، ومن غير أن يطلع أحدًا من الناس على سرها. وهكذا بقى الذهب في باطن أُمه الأرض لا ينفع الناس ولا يضرهم، وكأنه لم يخرج منها قط، حتى أصابه معول تيمن مُصادفة فأراه ضوء النهار.

وهكذا عثر تيمن على كنز كان في وسعه أن يبتاع به مرة أُخرى الصحاب والمتزلفين، لو أنه ظل على تفكيره القديم؛ ولكنه كان يمقت العالم المخاتل، فكان منظر الذهب كريهًا مُبغضًا له، وكان يستطيع أن يعيده إلى موضعه من الأرض، ولكنه تذكر ما يجره الذهب على البشر من مصائب تجل عن الحصر، وما يثيره بريقه بين الناس من سلب ونهب، واضطهاد وظلم، ورشا واعتداء وتقتيل، وكان يضمر لبني جنسه من الحقد والضغينة ما حبب إليه التفكير في أن هذا الذهب الذي عثر عليه وهو يحفر الأرض قد يكون

إذا أخرجه منها مصدرًا للمصائب تحل ببني الإنسان. ومر بكهفه في الغابة وقتئذ جماعة من الجُند كانوا فرقة من جيش القائد الأثيني السبيديس Alcibiades، وكان هذا القائد قد غضب على شيوخ أثينة — لأن الأثينيين اشتهروا بِأَنهم قوم يكفرون بالنعمة ويسيئون إلى قادتهم وأصدقائهم — فساق عليهم جيشه الظافر الذي قاده من قبل للدفاع عنهم. وسرَّ ذلك تيمن فوهب المال لقائدهم ليؤدي به إليهم رواتبهم، ولم يطلب إليه في نظير ذلك إلَّا أن يدك بجيشه الظافر أبنية أثينة، ويهلك كل من فيها ذبحًا أو حرقًا، لا يرحم الشيوخ لضعفهم لأنهم على حد قوله مُرابون، ولا الأطفال لما يبدو عليهم من طهر ابتساماتهم لأنهم إذا عاشوا أصبحوا خونة مارقين، وأشار عليه أن يغمض عينيه ويصم أُذنيه، فلا يرى شيئًا ولا يسمع صوتًا قد يبعث في نفسه الرحمة بهم، وألَّا يمنعه عويل العذارى وصياح الأطفال وبُكاء الأُمهات من تقتيل كل من في المدينة والقضاء عليهم كلهم حين يظفر بهم، حتى إذا ما تم له ما أراد دعا الآلهة أن تصب عليه جام غضبها ونقمتها. إلى هذا الحد كان تيمن يحقد على أثينة والأثيبيين والناس أجمعين.

وظل تيمن يحيا حياة أشبه بحياة الحيوان منها بحياة الإنسان، حتى رأى فجأة في يوم من الأيام رجلًا واقفًا بباب كهفه ينظر إليه في عجب ودهشة. وكان هذا القادم خادمه الأمين فلافيس، دفعه حبه وإخلاصه لسيده إلى البحث عنه في مسكنه الحقير ليعرض عليه خدمته. وأثر في نفس هذا الخادم الوفي منظر تيمن وهو في هذه الحال من البؤس، عار كيوم ولدته أُمه، يعيش كالوحش بين الوحوش، هزيلًا مُتهدمًا، فلم يستطع أن يُحرك لسانه، بل وقف حائرًا مذهولًا مُرتاعًا. فلما ذهب عنه الروع واستطاع النُطق، غص بريقه وفاضت دموعه حتى تعذر على تيمن أن يتبينه ويعرف من هذا الإنسان الذي

خرج عن طبيعة البشر فجاء إليه في بؤسه يعرض عليه خدمته. ورآه في صورة البشر فارتاب في أمره، وظنه خائنًا يتصنع البكاء لغرض في نفسه، غير أن هذا الخادم الأمين أثبت بالقول والعمل أنه صادق وفي، وأظهر أنه لم يأتِ به إلى هذا المكان إلَّا حُبه لسيده القديم وحرصه على أداء واجبه إليه. واضطر تيمن آخر الأمر أن يعترف أن في العالم كله رجلًا وفيًا شريفًا، ولكنه رآه في صورة البشر فلم يستطع أن ينظر إلى وجهه من غير أن تعاف منظره عيناه، وأن يستمع إليه من غير أن تستك من ألفاظه أذناه، واضطر هذا الرجل الذي تفرد بالوفاء بين الرجال أن يرجع أدراجه، لا لشيء إلَّا لأنه رجل؛ ولأن له هيئة الرجال الممقوتة وملامحهم الكريهة، وإن أُوتي من الرحمة والحنان ما لم يُؤت الكثيرون من الناس.

لكن زوارًا أعظم شأنًا من الخادم المسكين كانوا يتأهبون للمجيء إلى هذه الغابة ليقطعوا على تيمن هدوءه الموحش في وحدته، فقد حل اليوم الذي ندم فيه وجهاء أثينة الجاحدون على ما أساءوا إلى تيمن الكريم. ذلك أن السبيديس كان في ذلك الوقت يزمجر عند أسوار المدينة كما يزمجر الوحش المهتاج، وكانت جيوشه المحيطة بأثينة الجميلة تُهددها بالدمار والخراب. فلما جد الجد عادت ذكرى تيمن إلى عقول هؤلاء الناس بعد أن غفلوا عنه زمنًا طويلًا، وذكروا بأسه وشجاعته في القتال، فقد كان تيمن قائدهم فيما مضى من الأيام، وكان جُنديًا مقدامًا خبيرًا بفنون الحرب، فلم يأنسوا في غيره القدرة على لقاء هذا الجيش اللجب الذي كان يُحاصر المدينة ويُهددها بالتدمير، وعلى صد هجوم السبيديس العنيف.

وأرسل إليه أهل المدينة في محنتهم وفدًا من شيوخها ليعرضوا عليه أمرهم، وجاء قومه يهرعون إليه في هذه المحنة، وهم الذين تخلوا عنه في

بؤسه ولم يمدوا إليه يدا، كأنهم كانوا يطلبون إليه أن يشكر لهم ما قدموا له من إساءة، وكأنهم كانوا أهلًا لمعروفه وفضله لما عاملوه به من القسوة والفظاعة.

فقد جاءوه الآن مُتذللين مُتضرعين يدعونه والدموع تنهمر من عيونهم أن يعود إليهم ويرد العدو عن مدينتهم، وقد أخرجه منها جحودهم من وقت قريب، جاءوا يعرضون عليه المال والسلطان والجاه والشرف الرفيع، ليعوضوه بهذا كله عمَّا لحقه من الأذى في أيامه الماضية، ويُؤكدون له أن قلوب أهل المدينة مُلتفة حوله، ويمنحونه ألقاب الشرف، ويضعون أرواحهم وأموالهم وكل ما ملكت أيمانهم بين يديه إذا عاد إليهم ونجاهم من عدوهم. ولكن تيمن العاري الجسد، الكاره للبشر، لم يعد هو لورد تيمن الجواد المعطاء، والبطل المقدام، حاميهم في الحرب، وزينتهم في السلم، فإذا أهلك السبيديس بني وطنه فذلك ما لا يعنيه، وإذا دك أبنية أثينة الجميلة دكًا، حتى كانت هباءً مُنبثًا، وقتل شيوخها وأطفالها، قرت بذلك عينه وطابت به نفسه. ذلك ما قاله لهم وزاد عليه أن ليس في يد أحد من الجند المهاجمين خنجر إلَّا وهو في نظره أعظم قيمة من أشرف رأس في أثينة.

هذا هو كل ما أجاب به عن توسل الشيوخ الباكين النادمين، ولم يزد عليه حين ردهم خاسرين إلَّا أن أمرهم أن يذكروه بخير لمواطنيه، ويبلغوهم أنهم قد بقيت لهم وسيلة تخفف عنهم آلامهم، وتذهب عنهم مخاوفهم، وتنجيهم من عواقب غضب السبيديس ووحشيته، وأنه لا يضن عليهم بوصفها لهم؛ لأن قلبه لا يزال فيه بقية من حبه لمواطنيه الأعزاء، تغريه بالإحسان إليهم مرة قبل أن يُوافيه أجله المحتوم. وسمع الشيوخ هذا الكلام فانتعشت نفوسهم بعض الانتعاش، وظنوا أن الرحمة قد وجدت سبيلًا إلى قلبه، ثم أخبرهم أن بالقرب من كهفه شجرة سيقطعها لبعض أغراضه عمَّا قليل، ودعا

كل من أراد أن ينجو من العذاب من أصدقائه الأثينيين على بكرة أبيهم، عظيمهم وحقيرهم، أن يذوقوا طعم هذه الشجرة قبل قطعها. وكان يريد بقوله هذا أن عليهم أن يشنقوا أنفسهم عليها لينجوا من العذاب.

وكانت هذه آخر يد يسديها تيمن لبني الإنسان ويختتم بها جوده ونُبله، كما كانت آخر مرة يراه فيها مُواطنوه؛ فقد مر أحد الجنود البائسين بعد أيام قليلة بشاطئ البحر غير بعيد من الغابة التي كان يأوى إليها تيمن، فوجد عنده قبرًا وعليه من النقوش ما يدل على أنه قبر تيمن الحاقد على بني جنسه «الذي كان في حياته يمقت الناس أجمعين، والذي تمنى حين وفاته أن يرسل عليهم وباء يذهب بكل ما بقى من أُولئك الأنذال».

ولا يدري أحد هل قضى تيمن على نفسه بيده، أو أن كره الحياة ومقت بني الإنسان هما اللذان أوصلاه إلى هذه الخاتمة، ولكن ما من أحد إلا أُعجب بهذا النقش الذي خطَّه على قبره، وبحرصه على ما أخذ به نفسه بعد خروجه من بلده، وبأنه مات كما عاش حاقدًا على بني جنسه. ومن الناس من رأى معنى آخر في اختياره شاطئ البحر موضعًا لقبره، حتى يبكي عليه البحر إلى الأبد؛ كأنه بذلك يعلن ازدراءه ومقته للدموع المصطنعة السريعة الجفاف دموع المنافقين من بني الإنسان.

روميو وجوليت

كان أكبر الأُسر التي تسكن فيرونا أُسرة كبيلت Capulet الثرية وأُسرة منتجيو Montague؛ وكان بين الأُسرتين نزاع قديم، واشتدت الداوة بينهما حتى وصلت إلى أقاربهما الأبعدين، بل إنها امتدت إلى الخدم والأتباع، فإذا تقابل فرد من أُسرة كبيلت بآخر من أُسرة منتجيو، أو التقى بطريق المصادفة خادم لهذه الأُسرة بخادم لتلك، تبادل الاثنان قوارص الكلم وجرت الدماء بينهما أحيانًا، وكثيرًا ما ثار النزاع في طرقات المدينة الهادئة السعيدة إذا التقى الفريقان فيها مُصادفة فأزعج ذلك أهلها وأقلق بالهم.

وأولم لورد كبيلت الكبير ذات مرة وليمة عشاء فخمة، دعا إليها كثيرات من السيدات الحسان وكثيرًا من النُبلاء العظام، ولبى الدعوة كل من كان في المدينة من الغانيات ذوات الجمال البارع الفتَّان، ورحب رب البيت وأهله بالمدعوين جميعًا إذا لم يكونوا من أُسرة منتجيو. وكان من الفتيات اللاتي حضرن الوليمة روزلين Rosaline حبيبة روميو Romeo ابن لورد منتجيو الكبير، ومع أن وجود أحد من بيت منتجيو في هذه الوليمة يعرضه لأشد الأخطار، فإن بنفليو Benvolio صديق روميو أقنعه بالذهاب إليها لينظر بعينه حبيبته روزلين، ويرى الفارق العظيم بينها وبين غانيات فيرونا، ويدرك أن قطاته ليست إلَّا حدأة. ولم يكن روميو ليصدق شيئًا من أقوال بنفليو، ولكنه وافق على الذهاب إلى الوليمة ليشاهد روزلين؛ لأنه كان يحبها حُبًا صادقًا قويًا أرقه وأطار الرقاد من عينه، واعتزل من أجله الناس لينفرد بنفسه ويُفكر في روزلين. ولكن هذه الفتاة كانت تزدريه ولا تأبه بحبه، ولم تظهر نحوه شيئًا من العطف

أوالمجاملة، وكان الغرض الذي يرمي إِليه بنفليو أن يزج بصديقه بين الصحاب والفتيات لعل ذلك يشفيه من حبه.

وجاء روميو إِلى وليمة آل كبيلت ومعه بنفليو وصديقهما مركوتيو Mercutio وكانوا كلهم مُتخفين مُقنعين. وحياهم لورد كبيلت الكبير وأبلغم أنهم يُراقصون كل الفتيات التي لم تصب أصابع أقدامهن بالثآليل. وبدا الشيخ مرحًا مُنشرح الصدر، وقال إِنه قد لبس قناع التخفي أيام شبابه، وكان في وسعه وهو على هذه الحال أن يُسِر قصة إِلى بعض الفتيات الحسان. وبدأ الرقص وافتتن روميو بجمال فتاة ممن كن يرقصن في الحفل، وبدا له أن سناها يتلألأ في الليل كما تتلألأ الجواهر في أعناق الجواري السود، وأن جمالها يجل عن الوصف كأنه لم يُخلق ليكون على هذه الأرض. وقال حين رآها إِنها تسمو على صاحباتها بجمالها وكمال خلقها، فكأنها بينهن قطاة ناصعة البياض تخطر بين الحدءان. وسمعه تيبلت Tybait ابن أخ لورد كبيلت يثني على الفتاة هذا الثناء، وتبين له من صوته أنه روميو، وكان تبيلت حاد الطبع سريع الغضب، فلم يطق أن يرى رجلًا من أُسرة منتجيو يأتي إِلى دارهم مقنعًا ليسخر من جلال حفلاتهم ويستهزئ بها على حد قوله، وملأه ذلك غيظًا فهاج هائجه وهمَّ أن يضرب روميو ضربة تقضي على حياته، ولكن عمه لورد كبيلت الكبير لم يسمح له بِأَن يُؤذي أحدًا في هذه الساعة، مُراعاة لشعور المدعوين وإِكرامًا لروميو الذي كان طوال الوقت جم الأدب حميد السلوك، والذي كان أهل فيروناكلهم يثنون عليه ويصفونه بِأَنه شاب عفيف هادئ رزين. وكذلك اضطر تبيلت أن يصبر رغم أنفه، فكظم غيظه ولكنه أقسم أن هذا المنتجيو الدنيء سوف يُحاسب على تطفله حسابًا عسيرًا.

ولما انتهى الرقص راقب روميو الموضع الذي وقفت فيه الفتاة،

واستعان بتقنعه الذي حسب أنه يغفر له بعض جرأته، فأقبل عليها في رقة وأدب جم ليأخذ بيدها، وقال إن هذه اليد مزار طاهر مُقدس، إذا ما لوث طهره بيده فهو حاج يريد أن يُكفر عن ذنبه بتقبيل تلك اليد. فأجابته الفتاة بقولها: «أيها الحاج الصالح! إن في تقواك وخشوعك من الرقة والظرف أكثر مما يليق، إن لأولياءالله أيديًا يسمح للحجاج بلمسها ولكنهم لا يُؤذن لهم بتقبيلها». فقال لها روميو: «أليس للأولياء شفاه وللحجاج مثلها؟». فردت عليه بقولها: «بلى، إن لهم شفاهًا يجب عليهم أن يحركوها للدعاء والصلاة». فقال روميو: «إذن فاستمع لصلاتي أيها الملاك الطاهر وأجب دعائي ولا تجعلني أقنط من رحمتك». وظلا يتحادثان على هذا النحو ويتبادلان عبارات الحب تلميحًا وتصريحًا، حتى أرسلت أُمها في طلبها. وسأل روميو عن أُمها فعرف أن الفتاة التي افتتن بها وأُعجب بجمالها هي جوليت ابنة لورد كبيلت، عدو آل منتجيو الألد ووريثته، وأنه حين أحبها قد أسلم قلبه بغير علمه إلى عدوه. وآلمه ذلك ولكنه لم يقف في طريق حبه، وكذلك اكتأبت جوليت حين علمت أن الفتى الذي كانت تُحدثه هو روميو من آل منتجيو، وكان سبب حزنها أن حبه قد وقع في قلبها بنفس السرعة التي وقع حبها في قلبه. وبدا لها هذا الحب عجيبًا؛ وهل شيء أعجب من أن تحب عدوها وأن يتملك قلبها ذلك الذي تغريها أحوال أسرتها ببغضه!

وانتصف الليل وخرج من القصر روميو ورفقاؤه، ولكنهم سرعان ما افتقدوه فلم يجده؛ لأنه لم يستطع الابتعاد عن الدار التي خلف فيها قلبه، فتسور جدران بستان يقع وراء بيت جوليت، ولم يلبث هُناك إلَّا قليلًا يُفكر في حبه الجديد حتى لاحت له جوليت مُطلة من نافذة. وكان سناها يتلألأ في ظلام الليل كضياء الشمس في المشرق، وخُيل إليه أن القمر الذي يرسل نوره

الشاحب على البستان قد حزن لأن ضياءه طغى عليه نور هذه الشمس الجديدة الساطعة، ورآها تتكئ بخدها على يدها فتمنى لو أنه كان قفازًا في هذه اليد حتى يمس ذلك الخد، وكانت هي طوال هذا الوقت تظن نفسها بمفردها فتنهدت من أعماق قلبها وقالت: «آه...». وسَمِعَ روميو صوتها فانتشت نفسه، وأفعم قلبه غبطة، وقال في صوت خافت لا تستطيع سماعه: «هلا أسمعتني صوتك مرة أُخرى أيها الملاك؟ فإنك في الحق ملاك يشرف عليّ من علٍ كأنكِ رسول هبط من السماء والناس يحدقون إليه ليجتلوا طلعته». وكانت حوادث هذه الليلة قد بعثت في قلبها عاطفة من الحب قوية، فنادت حبيبها باسمه دون أن تعرف أنه قريب منها يسمع نداءها؛ لأنها لم تكن تتوقع وجوده في ذلك المكان، وقالت: «أي روميو! روميو! لماذا كنت روميو؟ هلا أنكرت أباك وخلعت عنك اسمك من أجلي؟ وإذا لم تشأ أن تفعل هذا أو ذاك فحسبي أن تخلص لي الحب فلا أكون بعد الآن من آل كبيلت». وسمع روميو هذه العبارات المشجعة فهم أن ينطق، ولكنه كان شديد الرغبة في أن يسمع منها أكثر مما سَمِع. وواصلت الفتاة مُناجاتها لنفسها حسب ظنها، وظلت تلوم روميو على أنه روميو ومن آل منتجيو، وتتمنى لو أن كان له اسم آخر أو لو أنه يستطيع أن يخلع عنه هذا الاسم الكريه، وليس هو قطعة منه، ويستعيض بها كلها عنه.

ولما وصل الأمر إلى هذا الحد لم يستطع روميو السكوت، فرد عليها كأنها كانت تراه وتوجه القول إليه، ودعاها أن تُسميه مُحبًا أو ما شاءت من الأسماء؛ لأنه لم يعد هو روميو إذا كان هذا الاسم لا يرضيها. وارتاعت جوليت حين سمعت صوت رجل في حديقة الدار، ولم تدرِ من هو ذلك الشخص الذي استعان بظلمة الليل على كشف سرها، فلما تكلم مرة أُخرى

عَرِفَتْ من فورها أنه روميو، إن لم تكن قد وقعت على آذانها مائة كلمة مما نطق بها لسانه؛ وذلك لأن آذان المحبين مرهفة لا تخطئ قط في معرفة صوت الحبيب. ثم أخذت تلومه على ما عرض نفسه له من الخطر بتسلقه سور الحديقة، فلو أن عين أحد من أهلها وقعت عليه لقضى على حياته لساعته؛ لأنه من آل منتجيو. ورد عليها روميو بقوله: «إن في عينيكِ من الخطر عليّ أكثر مما في شفار عشرين سيفًا من سيوفهم، وحسبي أن تنظري إليّ نظرة عطف وحنان فتتكسر سيوفهم وترتد عني عداوتهم، وخير لي أن يقضي كرههم على حياتي من أن تمتد بي هذه الحياة الكريهة وأنا محروم من عطفك وحبك».

وسألته جوليت: «كيف جئت إلى هذا المكان؟ ومن ذا الذي أرشدك إليه؟» فأجابها روميو: «لقد دلني عليه الحب، إنني لست خبيرًا بالمسالك والدروب، ولكنك لو كان بيني وبينك ما بين شاطئي هذا البحر العظيم لخضته وخاطرت بحياتي لكي أصل إليك»، وعلت وجه جوليت حمرة الخجل حين فكرت في أنها قد كشفت من غير قصد عن حبها لروميو، ولكن ظلام الليل قد حجبها عنه، وكان بودها لو استطاعت أن تسترد كلماتها، وأن تحافظ على التقاليد المرعية فتظل بعيدة عن حبيبها، وأن تفعل ما تفعل ذوات اللب من الفتيات اللاتي لا يلن لأحبائهن، بل يعبسن إذا رأينهم ويرفض خطبتهم، ويغلظن لهم القول أول الأمر، ويتمنعن عليهم، ويتصنعن الحياء منهم أو عدم الاكتراث بهم، وإن كانت قلوبهن لا تكن لهم إلا خالص الحب، وذلك لكيلا يظن العاشقون أنهم قد تملكوا قلوبهن سهلة دون عناء، لأن الشيء تعلو قيمته بقدر ما يلاقي الإنسان من صعوبة في الحصول عليه، أما في هذه الحالة فلم يكن ثمة مجال للتردد أو الرفض، أو إطالة الخطبة أو تأجيلها،

فقد سمع روميو بنفسه اعترافها بحبه حين لم تكن تظن أنه قريب منها، فلم يسعها إلا أن تؤكد له صدق ما كان قد سمعه في إخلاص وصراحة يبررهما هذا الموقف الجديد الذي ألفت نفسها فيه، ودعته «منتجيو الجميل» لأن الحب يحلو به الاسم الكريه، وطلبت إليه ألا يعزو سرعة استجابتها لحبه إلى خفة منها أو ضعف في تفكيرها، بل يجدر به أن يعزو هذا الخطأ، إن كان يعده خطأً، إلى ظروف تلك الليلة التي كشفت عما في قلبها على هذا النحو العجيب، وأضافت إلى ذلك أن سلوكها معه إذا قيس بالمألوف من سلوك بنات جنسها قد لا يبدو فيه كثير من الحكمة وسداد الرأي، ولكنها ستكون حتمًا أكثر حكمة من كثيرات من أولئك اللاتي حكمتهن رياء، وتواضعهن تصنع واحتيال.

وهم روميو أن يدعو السماء لتشهد عليه بأن أبعد الأشياء عن تفكيره أن يخالجه أقل شك في هذه السيدة المتسامية في شرفها، ولكنها حالت بينه وبين قصده، وطلبت إليه ألا يقسم لأنها وإن سرها أن تلقاه لم يسرها سلوكها في هذه الليلة، فقد كان فيه كثير من الخرق والتسرع، وألح عليها هو أن تعاهده في هذه الليلة على أن تحبه وتكون له، فأخبرته أنها قد أعطته ذلك العهد قبل أن يطلبه، وذلك حين سمع منها اعترافها دون علمها، ولكنها يسرها الآن أن تنكث عهدها لتعاهده مرة أخرى، لأن جودها كالبحر لا حد له، وحبها مثله بعيد القرار، ونادتها وقتئذ مربيتها فقطعت عليها مناجاتها لحبيبها، وكانت هذه المربية تنام معها في حجرتها، وقد رأت أن قد حان موعد نومها بعد أن بدت تباشير الصباح، ولكن جوليت عادت إلى النافذة مسرعة وألقت على مسامع روميو بضع كلمات قالت له فيها إنه إذا كان حبه شريفًا وكان غرضه أن يتزوجها، فسترسل إليه غدًا رسولًا يحدد له موعد

الزواج، ومتى تم ذلك أصبح هو سيدها المتصرف في أمرها، وسارت معه أينما سار، ونادتها مربيتها أكثر من مرة في أثناء هذا الحديث، وطلبت إليها أن تأوى إلى فراشها، فكانت تذهب إليها ثم لا تلبث أن ترجع إلى مكانها من النافذة، لأنها كانت تحرص على قرب روميو منها حرص الطفلة الصغيرة على عصفور بيدها، تتركه يقفز قليلًا أمام عينيها ثم تعود فتجذبه إليها بخيط من حرير، وكان روميو لا يقل عنها بغضًا لفراقها لأن أعذب النغمات وأشجاها للمحبين صوت أحبائهم في سكون الليل، ثم افترقا آخر الأمر وكلاهما يرجو لحبيبه اطمئنانًا ونومًا هادئًا في تلك الليلة.

وكان ستر الليل وقتئذ قد تمزق، وكانت صورة جوليت لا تبرح ماثلة أمام عيني روميو، وذكرى تلك الليلة جائلة في ضميره تؤرقه وتطيل ليله، فتوجه تلقاء دير قريب يطلب الراهب لورنس Lawrence، وكان هذا الراهب قد استيقظ من نومه وعكف على صلواته، ولكنه حين رأى روميو في ذلك الوقت المبكر ظن أن عواطف قوية كانت تجيش في صدره، فبات مسهدًا، وأصاب الأب حين ظن أن الحب هو الذي أرقه، ولكنه أخطأ حين خال أن حب روزلين هو الذي أطار الرقاد من عينيه؛ فلما أطلعه روميو على حبه لجوليت وطلب إليه أن يساعده على الزواج بها في ذلك اليوم نفسه، دهش الرجل من هذا التحول المفاجئ في عواطفه، لأنه كان مطلعًا على سره وعلى حبه لروزلين وألمه من رفضها واحتقارها له، وقال لروميو إن حب الشبان لا يستكن في قلوبهم بل في أعينهم، ولكن روميو أجاب الراهب بأنه هو نفسه كثيرًا ما لامه على هيامه بروزلين التي لم تكن تحبه، في حين أن جوليت تبادله حبًا بحب، فوافقه إلى حد ما على رأيه، وبدا له أن زواج جوليت وروميو قد يساعد على إزالة أسباب العداوة بين آل كبيلت وآل منتجيو بعد أن غلت

مراجلها في قلوبهم زمنًا طويلًا، ولم يكن أحد يألم لهذه الحال أكثر مما يألم لها هذا الراهب الصالح، فقد كان صديقًا لكلتا الأسرتين وكثيرًا ما حاول التوفيق بينهما من غير طائل، ورضى هذا الرجل بأن يجمع بين هذين المحبين مدفوعًا إلى ذلك بحسن السياسة والعطف على روميو ولم يكن في وسعه أن يرفض له رجاء.

وشعر روميو بأن الدهر قد صفا له وعرفت جوليت من رسول أرسلته إلى روميو وفاء بوعدها له ما اتفق عليه مع الراهب لورنس، فجاءت إلى الدير في الصباح الباكر وتم زواجهما في تلك الساعة، ودعا الراهب الصالح ربه أن يبارك هذا الزواج، وأن يحسم به أسباب الشقاق والبغضاء التي طال عليها الأمد بين أسرتيهما.

ولما تمت مراسم الزواج أسرعت جوليت إلى دارها وانتظرت حلول الليل وهي على أحر من الجمر؛ وكان روميو قد وعدها أن يقابلها في الحديقة التي تلاقيها فيها في الليلة السابقة؛ وبدت لها تلك الفترة طويلة مملة كما تبدو الليلة السابقة ليوم العيد طويلة مملة للطفل الذي جيء إليه بملابس جديدة وحرم عليه أن يلبسها إلا في الصباح.

واتفق أن كان بنفليو ومر كوتيو صديقا روميو يسيران في هذا اليوم نفسه في شوارع فيرونا، فالتقيا بجماعة من آل كبيلت على رأسهم تيبلت الثائر العنيف، وكان هو الذي هم بقتال روميو في دار لورد كبيلت الكبير في يوم وليمته، فلما رأى مر كوتيو اتهمه في غير أدب بأن له صلة بروميو أحد أفراد أسرة منتجيو، وكان مر كوتيو يغلي في عروقه دم الشباب ولا يقل مزاجه حدة عن مزاج تيبلت، فرد عليه ردًا عنيفًا، وحاول بنفليو أن يهدئ من ثورة

غضبهما فلم يفلح، وأخذ الشابان يقتتلان، واتفق أن مر روميو نفسه بهذا المكان فترك تيبلت قتال مر كوتيو واتجه إلى روميو وسماه «نذلًا»، وأراد روميو أن يتجنب أسباب النزاع مع تيبلت بنوع خاص، لأنه قريب جوليت، ولأنها شديدة الحب له، ولأن روميو نفسه كان شابًا عاقلًا رزينًا لا يتدخل كثيرًا في النزاع القائم بين الأسرتين؛ وفوق هذا وذلك فإن اسم كيبلت، وهو الاسم الذي تحمله حبيبته جوليت، قد أصبح بلسمًا يأسو جراح صدور الأسرتين الوغرة، وكان من قبل يستثير غلها الدفين؛ فتقدم إلى تيبلت يريد أن يجادله بالحسنى، وحياه ببشاشة، ودعاه باسم كيبلت الكريم كانه وهو من أسرة منتجيو يجد لذة خفية في النطق بذلك الاسم، ولكن تيبلت كان يبغض هذا الاسم الأخير ولا يطيق سماعه، فلم يصغ إلى شيء من أقوال روميو، بل استل سيفه، ولم يكن مر كوتيو يعلم السبب الخفي الذي يبعث في نفس روميو الرغبة في مصافاة تيبلت، بل كان يعد امتناعه عن القتال خضوعًا منه واستسلامًا مزريًا، فأخذ يستثيره بشتى الألفاظ القبيحة، ويذكره بما جرى بينهما قبل ذلك من نزاع وتقاتل تيبلت ومر كوتيو حتى جرح ثانيهما جرحًا مميتًا خر على أثره صريعًا، بعد أن حاول روميو وبنفليو عبثًا أن يفرقا بينهما، فلما قتل مر كوتيو لم يستطع روميو أن يكظم غيظه، ورد على قول تيبلت بأنه «نذل» ردًا يماثله، ثم تقاتلا حتى قتل تيبلت بطعنة من يد روميو، حدث هذا القتال العنيف في وسط المدينة وفي رائعة النهار، فاجتمع حول المتقاتلين حي غفير من أهلها، ومن بينهم زعيما أسرتي كبيلت ومنتجيو وزوجتاهما، وجاء الأمير بعد ذلك بقليل، وكان يمت بصلة القرابة إلى مر كوتيو الذي قتله تيبلت، ووجد أن هذه النزاعات بين آل كبيلت وآل منتجيو طالما أقلقت بال حكومته، فصمم على أن ينفذ القانون بصرامة ويأخذ من تثبت منهم إدانته بأشد أنواع العقاب، وكان بنفليو قد شاهد الواقعة بعينه، فدعاه الأمير لأن

يقص عليه سببها، فأجابه إلى ما طلب وحاول أن يكون قريبًا من الحقيقة بقدر ما يستطيع، دون أن يسيء بشيء إلى روميو، وأخذ يلطف من نصيب صديقه في هذا الشجار، وحزنت زوجة لورد كبيلت أشد الحزن على ما أصاب قريبها تيبلت، وأرادت أن تقتص له من قاتليه، فأخذت تحرض الأمير على أن يقسو على القاتل، وألا يلتفت إلى شهادة بنفليو الذي كان يميل إلى روميو لما بين الاثنين من الصداقة وصلة القرابة، ثم شرعت توغر قلب الأخير على زوج ابنتها الجديد، دون أن تعرف أنه قد أصبح زوجًا لجوليت، ووقفت كذلك زوجة لورد منتجيو تدافع عن ولدها وتقول، ولها بعض الحق في قولها، إن روميو حين قتل تيبلت لم يرتكب جرمًا يستحق عليه العقاب، لأن تيبلت قد خرج على القانون بقتله مركوتيو، ولكن الأمير لم تؤثر فيه أقوال السيدتين المهتاجتين وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه، ثم قضى بنفي روميو من مدينة فيرونا.

ووقع هذا الخبر وقوع الصاعقة على قلب جوليت التي لم يمض على زواجها إلا بضع ساعات والتي خيل إليها الآن أنها قد طلقت من زوجها طلاقًا أبديًا، وغضبت أول الأمر من روميو أشد الغضب، وثار ثائرهما عليه لأنه قتل ابن عم لها عزيز عليها، وأخذت تدعوه ظالمًا جميلًا وملاكًا شيطانيًا، وقطاة جارحة، وحملًا له طبيعة ذئب، وقلبًا كالأفعى بوجه كالزهر، وما إلى ذلك من الأضداد التي تكشف عن الثورة القائمة في نفسها بين عاطفتي الحب والغضب، ثم تغلبت عاطفة الحب في آخر الأمر واستحالت الدموع التي ذرفتها حزنًا على مقتل ابن عمها على يد روميو دموع فرح لنجاة زوجها من القتل الذي كان يريده له تيبلت، ثم انهمرت من عينيها دموع أخرى حزنًا على نفي روميو، وكان هذا النفي أشد وقعًا عليها من موت تيبلت وكثير من أمثاله.

ولجأ روميو بعد الشجار إلى صومعة الراهب لرونس، وهناك بُلِّغ نص الحكم الذي أصدره عليه الأمير؛ وبدا له هذا الحكم أشد هولًا من الموت، ولاح له أن لا عالم خارج أسوار فيرونا، ولا حياة بعيدًا عن جوليت، فحيثما تكن تكن الجنة، وحيث لا تكون تكون الجحيم والعذاب الأليم، وكان الراهب الصالح يود لو يستطيع أن يخفف بفلسفته حزنه ولوعته، ولكن هذا الشاب الهائج الذي لم يكن ليستمع نصحًا أخذ يقتلع بيديه شعره كمن به جنة، ثم ألقى بنفسه على الأرض ليقيش على حد قوله سعة قبره.

وأفاق من هذه الحالة الموئسة على صوت رسول جاءه من قبل زوجته العزيزة، فبعث فيه شيئًا من الحياة، وانتهز الراهب هذه الفرصة السانحة ليبين له ما في عمله هذا من ضعف لا يليق بالرجال، فقال له إنه قد قتل تيبلت ويريد الآن أن يقتل نفسه ويقتل الفتاة التي لا تحيا إلا بحياته، وإن هذه الصورة البشرية النبيلة يصبح شأنها كشأن دمية من الشمع إذا أعوزتها شجاعة الرجال، لقد كان القانون رحيمًا به فلم يقض عليه بالموت الذي يستحقه، بل قضى، على لسان الأمير، بنفيه من البلاد، لقد قتل تيبلت وكان من الجائز أن يقتل هو بيد تيبلت نفسه، وفي هذا ما فيه من السعادة، ثم إن جوليت لا تزال حية وهي الآن زوجة له، وكان هذا مطلبًا عزيز المنال، وتلك سعادة ليس بعدها زيادة لمستزيد، هذه هي النعم — كما يقول الراهب — التي يريد روميو أن يحرمها على نفسه كما تفعل الفتاة النكدة السيئة السلوك، ثم حذره من الاستسلام لليأس لأن اليائسين يموتون أشقياء بائسين، فلما هدأ روميو قليلًا أشار عليه أن يذهب في تلك الليلة ويودع جوليت سرًا ثم يسافر من فوره إلى منتوا Mantua ويقيم فيها حتى تسنح الفرصة للراهب فيعلن زواجه بجوليت، ولعل هذا الزواج يكون وسيلة للتوفيق بين الأسرتين وإزالة ما بينهما من شقاق،

وقال إنه لا يشك في أن الأمير سيشفق عليه وقتئذ ويعفو عنه، فيعود إلى بلده وفي قلبه من الغبطة أضعاف ما كان فيه من الحزن حين خرج منه منفيًا طريدًا، واقتنع روميو بهذه النصائح السديدة واستأذن الراهب في الذهاب إلى زوجته، واعتزم أن يقيم معها تلك الليلة ثم يخرج من عندها في مطلع الفجر ويسافر وحده إلى منتوا؛ ووعده الراهب الرحيم أن يبعث إليه من حين إلى حين برسائل يبلغه فيها ما يحدث في موطنه.

وقضى روميو تلك الليلة مع زوجته المحبوبة بعد أن وصل إلى حجرتها خفية من الحديقة التي سمع فيها حديث الحب في الليلة الماضية، لقد كانت تلك الليلة مفعمة بالسرور الخالص الذي لا يشوبه ما يكدر صفوه، أما سرور هذه الليلة واغتباط الحبيبين بهذا اللقاء فقد كان يعكر صفوهما تفكيرهما في الفراق، وما وقع في اليوم السابق من حوادث أليمة، وأحزنهما طلوع الفجر الذي ظناه قد لاح قبل الأوان؛ ولما سمعت جوليت سجع القبرة في الصباح حاولت أن تقنع نفسها أنها تسمع شدو العندليب الذي لا يغني إلا في الليل، ولكنها كانت تخدع نفسها، فقد كان هذا صوت القبرة، وقد بدت لها نغماتها متنافرة كئيبة، ولاحت تباشير الصباح في الشرق تنذر الحبيبين بأن د آن وقت الفراق.

وودع روميو زوجته العزيزة وهو مكتئب حزين، ووعدها أن يكتب إليها من منتوا في كل ساعة من ساعة النهار، ولما نزل من نافذة غرفتها ووقف من تحتها على الأرض بدا لها في حزنها كأنه ميت في قبره، ولم يكن روميو نفسه أقل منها جزعًا، ولكنه اضطر وقتئذ إلى مغادرة المكان، فقد كان الموت جزاءه إذا وجد داخل أسوار المدينة بعد مطلع الفجر.

على أن هذا لم يكن إلا بداية مأساة هذين المحبين المنحوسي الطالع، ذلك أنه لم يمض على نفي روميو إلا بضعة أيام حتى عرض لورد كبيلت الزواج على جوليت، وكان الزوج الذي اختاره لها أبوها هو الكنت باريس، وهو شاب مهذب شهم كريم، جدير بأن يكون زوجًا لها لو أنها لم تكن قد رأت روميو من قبل، ولم يكن يدور بخلد هذا الشاب أن جوليت قد تزوجت بغيره.

وتحيرت جوليت في أمرها حيرة ممزوجة بالحزن والأسى حين عرض أبوها الزواج عليها، فاحتجت أولًا بصغر سنها ثم بمقتل تيبلت الذي لم يمض عليه إلا القليل، والذي أحزنها وآلم قلبها، وتركها عاجزة عن أن تقابل زوجًا لها بوجه باش وثغر باسم، ثم قالت إنه لا يليق بآل كبيلت أن يحتفلوا بالزفاف وهم لم يفرغوا بعد من الحداد على فتى من فتيان أسرتهم؛ وجملة القول أنها أدبت كل ما تستطيع أن تبديه من الأعذار إلا العذر الصحيح، وهو أنها قد تزوجت من قبل، ولكن لورد كبيلت أصم أذنيه عن سماع هذه المعاذير كلها، وأمرها أمرًا لا رجوع فيه أن تستعد للزواج بالكنت باريس في يوم الخميس الآتي، وكان مما قاله إنه وقد وجد لها زوجًا ثابًا ثريًا نبيلًا، يسر أعز فتيات فيرونا نفسًا وأكثرهن شممًا أن تتخذه لها زوجًا، فإنه لا يرضى منها أن تقيم العراقيل في سبيل هناءتها بسبب حيائها المتصنع، وهو ما حسبه هذا الأب سببًا لامتناعها عن الزواج.

ولجأت جوليت في هذه المحنة إلى صديقها الراهب، الذي كانت ترجع إليه كلما ألمت بها ملمة، فسألها هل أوتيت من قوة العزيمة ما تستطيع معه أن تلجأ في موقفها هذا إلى علاج المستيئسين؟ فأجابته بأنها تفضل أن تدفن نفسها حية على أن تتزوج بباريس وزوجها العزيز على قيد الحياة، فأشار عليها

أن تعود إلى بيتها وتتظاهر بالبشر والسرور، وتجيب أباها إلى رغبته في الزواج بباريس؛ ثم أعطاها زجاجة وطلب إليها أن تشرب ما فيها في الليلة التالية، وهي الليلة السابقة ليوم الزفاف، وقال إنها إذا شربته برد جسمها وبدت كأنها قد فارقت الحياة، وظلت كذلك اثنتين وأربعين ساعة كاملة، فإذا جاء الزوج ليأخذها إلى داره في الصباح ظن أنها قد ماتت، فيحملونها عارية في نعشها كما جرت بذلك عادة هذا البلد ليدفنوها في مدافن أسرتها، وأعاد عليها قوله إنها إذا طرحت ضعف النساء وقبلت أن تجرب هذه التجربة الرهيبة، فإنها تصحو من نومها لا محالة بعد اثنتين وأربعين ساعة من شرب الدواء الذي له هذا الأثر الأكيد، ووعدها فوق ذلك أن يطلع زوجها على هذا السر قبل أن تصحو من نومها ليأتي إليها في ظلام الليل ويحملها إلى منتوا، ووافقت جوليت على هذا الرأي، وكان حبها لروميو وخوفها من زواج باريس كافيين لأن يبعثا في قلبها من الشجاعة ما تستطيع به أن تجازف هذه المجازفة الرهيبة، وأخذت زجاجة الدواء من الراهب وعاهدته على أن تفعل ما أمرها به.

ثم خرجت من الدير، وقابلت الكنت باريس، ووعدته في حياء متكلف أن تكون زوجة له، وسر ذلك النبأ لورد كبيلت وزوجته، وكأنه قد أعاد إلى هذا الشيخ شبابه أيضًا، وما من شك في أنه أعاد حب جوليت إلى قلبه، لأنها وعدته أن تطيع أمره بعد أن آلمته من قبل أشد الألم برفضها الزواج بالكنت، وأصبح القصر كله في هرج ومرج استعدادًا للزفاف القريب، وبذل المال عن سعة ليكون الاحتفال أفخم ما شهدته فيرونا في تاريخها كله.

وفي ليلة الأربعاء شربت جوليت الدواء جميعه، وكانت تخشى أن يكون الراهب قد أعطاها سمًا لينجو مما عساه أن يصيبه من اللوم لأنه زوجها بروميو، وإن كان قد عُرف بين الناس طول حياته بالتقى والورع، وماذا يكون

أمرها لو أنها أفاقت قبل أن يجيء روميو لأخذها؟ ألا يحتمل أن يذهب بعقلها هول المكان، ذلك القباء الذي تكدست فيه عظام آل كبيلت، ورقد فيه تيبلت مضرجًا بدمه، وقد أخذ جسمه يتحلل في كفنه؟ ثم تذكرت كلم ما سمعته من القصص عن الأرواح، وما قيل من أنها تأوى إلى المكان الذي دفنت فيه أجسامها، لكن حب روميو وكره باريس عاد إليها فابتلعت الجرعة وغابت عن الوجود.

ولما عاد باريس في الصباح الباكر ليوقظ عروسه من نومها بأنغام الموسيقى الشجية، رأى في حجرتها منظرًا رهيبًا، رأى جثة هامدة لا حراك فيها، وعرف أن جوليت قد قضت نحبها وقُضي معها على آماله، وساد الاضطراب القصر كله، وأخذ باريس بندب سوء حظه ويبكي عروسه التي اختطفها الموت الممقوت وطلقها منه قبل أن تزف إليه، وكان أشد من هذا وقعًا وأكثر منه إيلامًا، أن تسمع بكاء لورد كبيلت الكبير وبكاء زوجته، وهما اللذان لم يكن لهما إلا هذه الفتاة المسكينة العزيزة، التي كانت قوة أعينهما وبهجة حياتهما، فإذا بالموت الغادر يختطفها من بين أيديهما، بعد أن بذلا عنايتهما في تربيتها، وبعد أن حسبا أن الحظ قد بدأ يبسم لها بهذا الزواج الموفق السعيد، وجيء بكل ما كان قد أعد لحفلة الزفاف واستخدم في موكب الجنازة الأسود، فانقلبت فرحة العرس ترحة مأتم، وبُدِّلت أناشيد الزواج السارة بمراثي الموت الحزينة، ودقت الأجراس المحزنة بدلًا من الآلات الموسيقية المطربة، ووضعت على جثتها الأزهار التي أعدت لتنثر في طريق موكب الزفاف، وجيء بالقسيس ليضعها في لحدها لا ليعقد لها على زوجها، حملت إلى الكنيسة لتزيد في عدد سكان القبور لا لتبعث الأمل قويًا في قلوب الأحياء.

ووصل النبأ المحزن، نبأ موت جوليت، إلى روميو في منتوا قبل أن يصل إليها رسول الراهب لورنس ليبلغه أن ما حدث فيها من مراسم المأتم والدفن مراسم صورية، ليست إلا ظلًا من الحقيقة، وأن زوجته العزيزة لن تظل في قبرها إلا زمنًا قصيرًا، تترقب فيه قدومه ليخرجها من مثواها الرهيب، حدث هذا لأن النذر المحزنة أسرع انتشارًا على الدوام من البشائر السارة، وكان روميو قبل وصول النبأ فرحًا مستبشرًا فوق عادته، فقد رأى في منامه تلك الليلة أنه قد مات — وما أغرب هذه الرؤيا التي حملت هذا الرجل الميت على التفكير في أمره — وأن زوجته العزيزة قد جاءته ورأته على هذه الحال فبعثت فيه الحياة بتقبيل شفتيه، فانتعش وأصبح ملكًا كبيرًا، فلما جاءه رسول من فيرونا لم يخامره شك في أنه جاء يزف إليه بشرى تحقق ما رآه من قبل في حلمه، فلما أخبره بما يناقض هذه البشرى، وبأن زوجته هي التي ماتت، وأن ليس في مقدوره أن يعيد إليها الحياة بقبلاته، أمر أن تسرج له الخيل، وقرر أن يسافر إلى فيرونا في تلك الليلة، ويمتع نظره برؤية زوجته في قبرها، وسرعان ما وجدت أفكار السوء سبيلها إلى عقله، لأن أفكار السوء أسرع الأفكار إلى البائسين، فتذكر أنه رأى في منتوا من زمن قريب صيدليًا فقيرًا تبدو عليه علائم الذلة والفاقة، وعلى حانوته مظاهر البؤس الشديد، فلم يكن فيه إلا صناديق فارغة على رفوف قذرة؛ ولعله قد دار بخلده في تلك الساعة أن حياته البائسة قد تصل إلى حال من الذلة شبيهة بحال هذا الرجل المسكين، فقال في نفسه: «إذا احتاج إنسان إلى سم، وهو ما يحرم قانون منتوا بيعه ويقضي بالإعدام على بائعه، فإن هذا الرجل البائس قد يبيعه من هو في حاجة إليه»، وعادت هذه الألفاظ وقتئذ إلى ذاكرته، فذهب يطلب الصيدلي، وعرض عليه طلبته، وتظاهر الرجل بالرفض أول الأمر، فعرض عليه روميو مقدارًا من الذهب لم يقو على رده لشدة فقره، وباعه سمًا قال إنه إذا تجرعه

قضى عليه لساعته، ولو كانت له قوة عشرين رجلًا.

وأخذ روميو السم معه وتوجه نحو فيرونا ليلقي نظرة على زوجته في قبرها، حتى إذا ما متع عينه برؤيتها تجرع السم ودفن إلى جوارها، ودخل المدينة في منتصف الليل، وجاء إلى المقابر التي كان يقوم في وسطها قبر آل كبيلت من عهد بعيد، وجاء معه بفأس وأزميل من حديد، وهم أن يفتح بهما القبر، وإذا بصوت يقطع عليه عمله ويدعوه باسم «المنتجيو النذل» ويأمره أن يمتنع عن إجرامه، وكان هذا الصوت صوت باريس، جاء إلى قبر جوليت في هذا الوقت من الليل، الذي لم يكن مجيئة فيه يخطر ببال، لينثر عليه الزهر ويبلل بدموعه قبر الفتاة التي كان يود أن تكون له زوجة، ولم يكن يدري سبب اهتمام روميو بهؤلاء الموتى، ولكنه وهو يعرف أنه من بيت منتجيو، وأنه في ظنه من ألد أعداء آل كبيلت كلهم، أيقن أنه جاء في ظلمة الليل ليفعل بجثث الموتى فعلًا ذميمًا أثيمًا، ولذلك ناداه في غضب أن يمتنع عن فعله، وهم أن يقبض عليه لأنه مجرم أباحت شريعة فيرونا دمه إذا وجد في داخل أسوارها، وألح عليه روميو أن يتركه وشأنه، وذكره بما أصاب تيبت وحذره أن يثير غضبه أو أن يضطره إلى قتله، فيكسب بذلك إثمًا فوق إثمه؛ ولكن باريس سخر منه ولم يستمع إلى تحذيره، وأخذ بتلابيبه بحجة أنه مجرم، وقاومه روميو وتقاتلا وخر باريس صريعًا، واستعان روميو بمصباحه ليتبين شخصية القتيل، فلما عرف أنه باريس الذي أريد أن يكون زوجًا لجوليت — وكان النبأ قد بلغه وهو عائد من منتوا — أمسك بيد الشاب، وكأن البؤس قد جمع بينهما، وقال إنه سيدفنه في مقبرة النصر، يقصد بذلك في قبر جوليت، وفتح باب القبر فرأى فيه زوجته، وكأن الموت لم يقو على تغيير شيء من ملامحها، أو التأثير في جمالها البارع المنقطع النظير، أو كأن القدر الرهيب عاشق شغف بها،

فاحتفظ به ليمتع نفسه بمرآها.

لقد وجدها روميو مشرقة الوجه ناضرة كما كانت حين غشيها النوم بعد أن تناولت الجرعة المخدرة، وكان تيبلت إلى جانبها في كفنه المضرج بالدماء، فلما رآه روميو أخذ يعتذر له ويطلب إليه المغفرة، ودعاه ابن عمه إكرامًا لجوليت، وقال إنه سيحسن إليه الآن بقتل عدوه.

وودع روميو جوليت الوداع الأخير، وقبلها من شفتيها، ثم ألقى عن كاهله المنهوك عبء حياته التعسة المشئومة، وتجرع السم الذي ابتاعه من الصيدلي، وكان سمًا زعافًا لا كالدواء الخادع الذي شربته جوليت، والذي كان أثره في هذه الساعة قد زال أو كاد يزول، وأوشكت جوليت أن تصحو من نومها لتعيب على روميو تأخره عن موعده أو تعجله.

وحلت الساعة التي قال الراهب إنها ستفيق فيها، وكان هو قد عرف أن الرسول الذي بعث معه رسائله إلى منتوا قد عاقه عائق في الطريق فلم يوصل رسائله إلى روميو، فجاء بنفسه ومعه فأس ومصباح ليخرج جوليت من قبرها، وأشد ما كانت دهشته حين أبصر ضوءًا في مقبرة آل كبيلت، ورأى إلى جانب القبر سيفين وجثتين هامدتين هما جثتا روميو وباريس.

وقبل أن يجول بخاطره سبب من أسباب هذه الحوادث المشئومة استيقظت جوليت من سباتها، ورأت الراهب إلى جانبها فذكرت مكانها وسبب وجودها فيه، وسألت عن روميو، ولكن الراهب سمع أصواتًا مقبلة فأمرها أن تخرج من ذلك المكان مكان الموت والنوم المخالف لسنن الخلق، وقال إن قوة كبرى لا يستطيع أحد أن يقف في وجهها قد حالت بينهم وبين أمانيهم، واقتربت الأصوات وخشى الراهب عاقبة الأمر فولى هاربًا، ورأت جوليت

الكأس في يد حبيبها فلاح لها أن السم هو الذي قضى عليه، وودت لو كانت في الكأس ثمة تتجرعها، ولكنها بحثته فلم تجد فيه شيئًا؛ ولم تكن شفتا روميو قد ذهبت حرارتهما، فأخذت تقبلهما لعل بقية من السم لا تزال عالقة بهما، ثم اقترب القادمون وعلت أصواتهم، فاستلت من فورها خنجرًا كان معها، وطعنت به نفسها فخرت صريعة بجوار روميو حبيبها، وكان الحراس وقتئذ قد جاءوا إلى المكان؛ وذلك أن خادمًا من خدم الكنت باريس شاهد القتال الذي وقع بين روميو وبين سيدة فنقل الخبر إلى المدينة؛ وسرعان ما انتشر بين أهلها فأهرعوا من بيوتهم مذعورين ينادون: «باريس، وروميو، وجوليت»؛ لأنهم لم يعرفون إلا طرفًا مما حدث، وأيقظ ضجيجهم وصخبهم لورد منتجيو ولورد كبيلت، فخرجا ومعهما أمير المدينة ليتبينوا سبب هذا الذعر، وكان بعض الحراس قد شاهدوا الراهب وهو خارج من المقبرة يرتعد ويبكي ويتأوه، فارتابوا في أمره وقبضوا عليه، واجتمع حول آل كبيلت جم غفير من الناس، وطلب الأمير إلى الراهب أن يفضي إليه بما يعلمه عن هذه الحادثات المروعة الغريبة.

ووقف الراهب أمام الشيخين لورد منتجيو ولورد كبيلت، وسئل عما يعلم، فقص عليهما قصة حب روميو وجوليت، وما كان له من يد في زواجهما، وأمل في أن يقضي هذا الزواج على ما بين الأسرتين من شقاق قديم، وبين لهم كيف كان روميو هذا الذي يرونه جثة هامدة زوجًا لجوليت، وكيف كانت جوليت هذه الفتاة المنتحرة زوج روميو الأمينة، وكيف أن زواجًا آخر قد دبر لجوليت قبل أن تتاح لها الفرصة لإعلان زواجها الأول، وكيف أرادت جوليت أن تتجنب جريمة الزواج برجلين فشربت الدواء المنيم عملًا بنصيحته، فظن الناس كلهم أنها ماتت، وكيف كتب هو إلى روميو يطلب إله

أن يحضر ويأخذ زوجته عندما ينتهي مفعول الدواء، ولكن سوء الحظ صادف الرسول فمنعه من توصيل الرسائل إلى روميو.

ولم يستطع الراهب أن يقص عليهم ما جرى بعد ذلك، فقد كان كل ما يعرفه بعده أنه جاء ليخرج جوليت من قبرها، فوجد فيه الكنت باريس وروميو قتيلين، أما بقية القصة فقد رواها الخادم الذي شاهد باريس وروميو يقتتلان، والخادم الذي جاء مع روميو من فيرونا، والذي حمَّله المحب الوفي رسائل إلى أبيه يوصلها إليه إذا أصابه الموت، وفيها ما يؤيد أقوال الراهب، فقد اعترف فيها روميو بزواجه جوليت، وطلب إلى أبيه أن يصفح عنه، وأقر أنه ابتاع السم من الصيدلي المسكين وأنه جاء إلى المقبرة ليموت ويرقد إلى جانب جوليت، وهذه الظروف مجتمعة نفت عن الراهب مظنة الاشتراك في هذه الحوادث المفجعة المحيرة، وأكدت أن كل ما كان له من يد فيها هو أنها جاءت نتيجة غير مقصودة لتدبيره المفرط في الحذق والتكلف، والذي لم يرد به مع ذلك إلى الخير.

والتفت الأمير وقتئذ إلى الشيخين لورد منتجيو ولورد كبيلت، وعاب عليهما ما بينهما من عداوة وحشية ينكرها كل عاقل، وأخبرهما بما أعد لهذه الجرائم من عقاب، وبأن العدالة قد اتخذت حب ولديهما سبيلًا إلى عقابهما على هذه الضغائن التي لا تليق ببني الإنسان، وتعاهد العدوان القديمان بعد أن زال ما بينهما من أحقاد على أن يدفنا عداءهما القديم في قبر ولديهما، ومد لورد كبيلت يده إلى لورد منتجيو ودعاه أخاه، كأنه يريد أن يعترف بأن زواج روميو وجوليت قد ألف بين قلوب الأسرتين، وقال إنه يكفيه مهرًا لابنته أن يمد له لورد منتجيو يده دليلًا على صفاء قلبه، فأجابه لورد منتجيو بأن يعطيه أكثر مما طلب، وأنه سيقيم لابنته جوليت الصادقة الوفية تمثالًا من

الذهب الخالص لا يضارعه في قيمته ولا دقة صنعه تمثال جوليت الصادقة والوفية تمثالًا من الذهب الخالص لا يضارعه في قيمته ولا دقة صنعه تمثال آخر في فيرونا ما بقيت هذه المدينة قائمة، ورد عليه لورد كبيلت بأنه سيقيم تمثالًا مثله لروميو؛ وهكذا أخذ هذان الشريفان يتباريان في التلطف والمجاملة بعد فوات الأوان، وبعد أن استعرت نيران العداوة والبغضاء في قلبيهما وقلوب سائر أفراد الأسرتين الشريفتين، حتى لم يقو شيء على إطفائها ونزع سخائم تلك القلوب إلا هذه الفاجعة المروعة التي أصابتهما في ولديهما فجعلت منهما ضحيتين بريئتين لهذه المنازعات والأحقاد.

هملت أمير دنمرك

أصبحت جرترود Gertrude ملكة دنمرك أرملة بعد أن توفي زوجها الملك هملت فجأة، ولكنها لم تلبث أرملة بعد وفاته إلا أقل من شهرين ثم تزوجت بأخيه، وعد الناس كلهم وقتئذ هذا الزواج أمرًا غريبًا ينطوي على الطيش وبلادة الحس، أو على ما هو شر منهما، ذلك أن كلوديس هذا لم يكن يشبه زوجها الأول في خَلْقه أو خُلقه، بل كان دميمًا في مظهره وحقيرًا دنيئًا في مخبره، وارتاب بعض الناس في أمره فقالوا إنه عمل في الخفاء على التخلص من أخيه الملك السابق، لتتاح له فرصة الزواج بأرملته، والجلوس على عرش دنمرك مكان وارثه الشرعي الأمير الصغير ابن الملك السابق.

ولم يؤثر هذا العمل الطائش الذي أقدمت عليه المكلة في أحد تأثيره في الأمير الشاب، الذي كان يحب أباه الميت ويحل ذكراه إجلالًا يكاد يبلغ حد العبادة، وكان هذا الشاب مرهف الحس، دقيق الشعور بالشرف، جم الأدب، كثير اتجمل واظرف في سلوكه، فآلمه وحز في قلبه مسلك أمه جرترود الشائن، وأثر فيه حزنه على أبيه وما لحقه من المهانة بزواج أمه، فاستسلم للهم والكآبة، وفقد بشره ومرحه وجمال منظره، ولم يبق له شيء من ولعه السابق بكتبه، وكره كل ما يلائم شبابه من ضروب الرياضة والألعاب، وسئم العالم الذي خال أن الشر طغى عليه حتى لم يبق فيه موضع للخير.

ولم يكن ذلك الذي أحزنه وأمر عيشه أنه سيحرم حقه الموروث في الجلوس على العرش، وإن كان هذا الحرمان في ذاته مما يفت في عضد أمير شاب عزيز النفس ويسقط منزلته، ولكن الذي آلم قلبه، وأكسف باله، وقضى

على ما كان له من مرح وبهجة، هو ما أظهرته أه من الاستخفاف بذكرى أبيه، ذلك الأب الذي كان لها زوجًا محبًا، لين الجانب، دمث الأخلاق، مع أنها كانت تبدو دائمًا زوجة محبة مطيعة، تتعلق به كأن عواطفها قد نبتت عليه، والآن بعد شهرين من وفاته، أو بعد أقل من شهرين كما بدا للأمير الشاب، تزوجت من جديد، وكان زوجها عمه أخا زوجها المتوفى، وهو زواج تأباه الكرامة ولا تجيزه الشرائع لما بين الزوجين من قربى؛ ويزيده بعدًا عن الكرامة تلك السرعة المعيبة التي تم بها وما يتصف به الرجل الذي اختارته زوجًا لها وشريكًا في ملكها من أخلاق هي أبعد ما تكون عن أخلاق الملوك، هذا هو الذي فت في عضد هذا الأمير الشاب النبيل وحطم قلبه أكثر مما لو كان قد خسر عشر ممالك لا مملكة واحدة.

وحاولت أمه جرترود وحاول الملك دون جدوى أن يسلياه ويذهبا عنه الحزن، وظل لا يُرى في القصر إلا في ثياب حالكة السواد حزنًا على موت أبيه الملك، ولم يبدل هذا اللون في يوم من الأيام حتى ولا في اليوم الذي تزوجت فيه والدته مجاملة لها، ولم يستطع أحد أن يقنعه بالاشتراك في حفلات ذلك اليوم الشائن في نظره ولا في مسراته.

وكان أشد ما يكربه ما خامره من الشك في موت أبيه، وقد قال كلوديس إنه مات من لدغة أفعى، ولكن هملت الشاب الفطن كان يظن أن هذه الأفعى لم تكن إلا كلوديس نفسه، وأن عمه قد قتله ليرث ملكه، وأن الأفعى التي لدغت أباه تتربع الآن على عرشه.

وتحير هملت في أمره فلم يدر ما هو نصيب هذا الظن من الصواب أو الخطأ، أو ما يقول في أمر والدته، فهل كانت مطلعة على سر هذا القتل؟

وهل حدث برضاها أو علمها أو بعدم رضاها وعلمها؟ هذه هي الظنون التي ما فتئت تقلق بال هملت وتنغص عليه حياته.

وترامت إلى عملت إشاعة فحواها أن بعض الجنود شاهدوا في أثناء حراستهم في منتصف الليل طيفًا شبيهًا كل الشبه بأبيه الملك المتوفى واقفًا على الطوار أمام القصر ليلتين متواليتين أو ثلاث ليال متوالية، وقالوا إن الطيف كان في كل مرة يأتي مدرعًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كما كان يفعل الملك، ولم يختلف أحد ممن رأوه، ومن بينهم هراشيو Horatio صديق هملت الحميم، عن سائر زملائه في وصف هيئته أو ساعة مجيئه، فقالوا إنه كان يقبل عليهم حين تدق الساعة الثانية عشرة، وإنه كان يبدو شاحب اللون ينم وجهه عن الحزن أكثر مما ينم عن الغضب، وكانت لحيته مربدة سوداء تتخللها شعرات فضية كما كانوا يرونها في حياته؛ وقالوا إنهم لما خاطبوا الطيف لم يرد عليهم، وخيل إليهم مرة أنه رفع رأسه وتحرك حركة كأنه يريد أن يخاطبهم، ولكن ديك الصباح صاح في تلك اللحظة فتراجع الطيف مسرعًا واختفى عن أنظارهم.

ودهش الأمير الشاب من هذه القصة التي لم يكن فيها شيء من التناقض يحمله على إنكارها، واعتقد أن الطيف الذي رأوه طيف أبيه، واعتزم أن يشترك مع الجند في الحراسة في تلك الليلة حتى تتاح له فرصة رؤيته، وقال في نفسه إن اللطيف لم يجيء عبثًا وإنما جاء لأن لديه سرًا يريد أن يفضي به وإنه سوف يتحدث به إليه وإن ظل صامتًا حتى ذلك الوقت، وأخذ يترقب مجيء الليل وهو على أحر من الجمر.

فلما جن الليل وقف مع هراشيو وحارس آخر يدعى مرسلس

Mercellus على الطوار الذي اعتاد الطيف أن يمشي عليه؛ وكانت الليلة قرة وكان الهواء قارس البرد فوق عادته، وشرع عملت وهراشيو وزميلهما الثالث يتحدثون عن بردها حتى قطع عليهم هراشيو حديثهم بقوله إن الطيف مقبل عليهم.

فلما رأى هملت روح أبيه ارتاع ودهش لرؤيته، ثم أهاب بالملائكة وأهل السموات أن يقوه الشر هو ومن معه، لأنه لم يك يعرف هل هذا الروح طيب أو خبيث؟ وهل جاء يبغي شرًا أو شرًا؟ ثم سكن روعه شيئًا فشيئًا، وخيل إليه أن أباه ينظر إليه نظرة الحزن والأسى، وكأنه يريد أن يتحدث إليه، وبدا له أن الطيف لا يختلف في شيء عما كان عليه والده قبل موته، فلم يستطع هملت أن يظل صامتًا بل تقدم إليه وناداه باسمه قائلًا: «هملت! مليكي! أبي!» واستحلفه أن ينبئه عن سبب خروجه من قبره، وقد رأوه يواري مطمئنًا فيه، وعودته إلى هذا العالم مرة أخرى ليرى الأرض ونور القمر، وتوسل إليه أن يخبره هل يستطيع هو ومن معه أن يفعلوا شيئًا يريحه ويهدئ روحه المضطرب، وأشار الطيف إلى هملت أن يصحبه إلى مكان منعزل لا يراهما فيه أحد؛ وحاول هراشيو ومرسلس أن يقنعا الأمير الشاب بألا يسير وراءه لئلا يكون من الأرواح الخبيثة، فيذهب به إلى البحر القريب أو إلى قمة صخرة عالية، ثم ينقلب شبحًا مرعبًا يرتاع منه الأمير ويفقد صوابه، ولكن نصحهما ورجاءهما لم يثنيا من عزم الأمير، فقد كانت الحياة لديه هينة رخيصة، لا يعبأ بها ولا يخشى فقدها، أما روحه فماذا يستطيع الطيف أن يفعل به وهو شيء خالد أبدي كالطيف نفسه؟ وأحس هملت بأنه قد أوتي شجاعة الأسود فانتزع نفسه من صاحبيه وهما يبذلان جهدهما في أن يمسكا به، وأخذ يتبع الطيف حيث أراد.

ولما انفرد الطيف به نطق وقال له إنه طيف أبيه هملت الذي اغتيل ظلمًا وغدرًا، ووصف له طريقة اغتياله، فقال إن الذي فعل به ذلك هو أخوه كلوديس، عم هملت الصغير، الذي حامت حوله ظنونه من قبل، لكي يجلس على عرشه وينام في فراشه؛ فبينا هو نائم في حديقته، كما كان يفعل دائمًا وقت الظهيرة، إذ تسلل إليه هذا الأخ الغادر وصب في أثنيه عصير الشيكران السام، وهو نبات بينه وبين الحياة عداء، فإذا وصل شيء منه إلى جسم الإنسان انساب في عروقه انسياب الزئبق، وجمد دمه، ونشر على جلده كله طبقة شبيهة بالجذام، وهكذا جاءه هذا الأخ وهو مطمئن في نومه وانتزعه في غمضة عين من تاجه وملكه وحياته، ثم استحلف الطيف هملت، إن كان في قلبه حب لأبيه، أن يثأر به ويقتص من قاتله الأثيم، وأظهر الأب شديد أسفه لولده لأن أمه حادت عن سبيل الفضيلة، فلم تستمسك بحبها لبعلها الأول وتزوجت بقاتله؛ ولكنه حذره من أن يسلك سبيل العنف مع والدته، مهما كانت الوسائل التي يتخذها للقصاص من عمه الشرير، وطلب إليه أن يترك هذه الأم للعدالة الإلهية ولعذاب الضمير؛ ووعد هملت أن يطيع الطيف في كل ما أمره به ثم اختفى الطيف عن الأنظار.

ولما خلا هملت إلى نفسه أقسم أن ينسى لساعته كل ما انطبع في ذكرته، وكل ما عرفه من كتبه أو مشاهداته، وألا يحتفظ في عقله إلا بما نبأه به الروح وما أمره بتنفيذه، ولم يفض هملت بتفاصيل ما دار بينه وبين روح أبيه إلا لصديقه العزيز هراشيو، وحذره هو ومرسلس من أن يبوحا بشيء مما شاهداه في تلك الليلة.

وكان من أثر الرعب الذي استولى على مشاعر هملت من مرأى الطيف أن كاد يجن لهول ما رأى وتختل موازين عقله، وذلك لأنه كان من قبل ضعيفًا

منهوك القوى مشتت البال، وخشى أن يبقى هذا الأثر في نفسه فيلفت إليه الأنظار، ويأخذ عمه منه حذره إذا ظن أنه يدبر له شرًا، أو أنه يعرف عن موت أبيه أكثر مما يتظاهر به، فاتخذ في تلك الساعة ذلك القرار العجيب وهو أن يتصنع الجنون لاعتقاده أن عمه إذا رآه على هذه الحال أيقن أنه عاجز كل العجز عن أن يفكر في أي أمر جدي، فضلًا عن أن هذا الجنون المتصنع هو خير ما يخفي به اضطرابه الحقيقي.

وبدا هملت من ذلك الحين غريبًا في زيه وحديثه وتصرفه، وأتقن تصنع الجنون إتقانًا خدع به الملك والملكة، وكانا يظنان أن حزنه على أبيه لا يكفي لاضطراب عقله – لأنهما لا يعرفان ظهور الطيف – فلم يشكا في أن الحب هو منشأه، وخالا أنهما عرفا الفتاة التي تعلق بها قلبه.

وذلك أن هملت كان قبل أن يستكين للحزن الذي سلف ذكره قد أحب فتاة حسناء تدعى أفليا Gphelia ابنه يلونيس Polonius كبير مستشاري الملك في شئون الدولة، وكان قد أرسل إليه رسائل وخواتم وأظهر لها مرارًا تعلقه بها، وطلب إليها بإلحاح وبوسائل طاهرة شريفة أن تعطف عليه وتحبه، وصدقت هي توسله وإيمانه، ولكن الكآبة التي استولت عليه أخيرًا صرفته عنها، ولما اعتزم أن يتصنع الجنون تكلف أيضًا بعض القسوة والخشونة في معاملتها، ولكن هذه الفتاة الطيبة لم تتهمه بالغدر وعدم الوفاء، بل أقنعت نفسها بأن الذي صرفه عنها وجعله أقل اكتراثًا بها هو اضطراب عقله لا قسوة عليها متأصلة في قلبه، وشبهت ما كان له من مواهب شريفة وذكاء مفرط أفسدهما ما طغى عليهما من حزن شديد، شبهت هذه المواهب وهذا الذكاء بالأجراس الموسيقية التي ترسل أعذب النغمات وأشجاها، ولكنها إذا عبثت بها الأيدي أو دقت بغير يد صناع أحدثت نشازًا وأصواتًا منكرة تؤذي السمع.

ولم يكن العمل الصعب الذي هو مقدم عليه، وهو القصاص من قاتل أبيه، مما يتفق مع الغزل وما فيه من عبث، أو مما يسمح له بأن تجيش في صدره عاطفة الحب التي بدت له الآن غاية في السخف، ولكن هذا العمل نفسه لم يكن ليمحو من عقله كل تفكير في أفليا، بل ظلت ذكراها تعاوده الفينة بعد الفينة؛ وفي ساعة من هذه الساعات ظن أنه قد قسا على هذه الفتاة الحسناء لغير سبب معقول، فكتب إليها رسالة وصف فيها عواطف الحب التي كانت تجيش في صدره بعبارات شاذة غريبة نتفق مع ما يدعيه من جنون، ولكنها مع ذلك كان يمتزج بها شيء من العواطف الحقة، تبينت منها هذه الفتاة النبيلة أنه لا يزال يكن لها في أعماق قلبه حبًا خالصًا قويًا، وقد أمرها في هذه الرسالة أن تشك في أن النجوم من نار، وأن الشمس تجري في فلكها، وأن تشك في الصدق نفسه وترميه بالكذب، ولكن عليها ألا تشك قط في أنه يحبها، إلى غير ذلك من العبارات الشاذة الغريبة، ورأت أفليا أن من حق أبيها عليها أن تطلعه على هذا الخطاب، ورأى الشيخ أن من واجبه أن يطلع عليه الملك والملكة، وظن الاثنان من ذلك الحين أن الحب هو الذي سلب عقله، وتمنت الملكة أن يكون جمال أفليا البارع هو الذي يدفعه إلى هذه الأطوار الغريبة، لأن هذا يقوي أملها في أن جمالها وفضائلها قد يرجعان به إلى سابق عهده، فتعود له ولها كرامتها الأولى.

ولكنها قدرت فأخطأت التقدير، فلقد كان مرض هملت أعمق مما تظن، وأشد من أن يشفيه هذا العلاج، لقد ظل طيف أبيه الذي شاهده من قبل ينتاب خياله، ولم يكن ليطمئن له بال حتى ينفذ ما أمره به من الانتقال لوالده القتيل، وكان يرى أن كل ساعة تمر به إثم لا يغتفر له وعصيان لأمر والده؛ ولكن قتل الملك ومن حوله حراسه وجنده لم يكن بالأمر الهين،

ووجود أمه مع الملك في معظم الأوقات عقبة في سبيله لا يستطيع التغلب عليها، وفوق هذا وذاك فإن هذا المغتصب زوج أمه وهذا في حد ذاته يقلق باله بعض القلق ويوهن من عزيمته، وفضلًا عن هذا كله فإن اعتداء الإنسان على حياة أخيه الإنسان جرم شنيع بغيض لا يطيقه شخص أوتي من رقة الطبع ودماثة الخلق ما أوتى هملت، ومر عليه زمن طويل وهو حزين مكتئب منقبض الصدر، فأوهني ذلك عزمه ومنعه أن يحزم أمره ويسير في قصده إلى غايته؛ وكان لا يزال يخامره بعض الشك في أن هذا الطيف الذي رآه هو روح أبيه حقًا، وليس هو الشيطان الذي قيل له إن في استطاعته أن يتخذ لنفسه أية صورة يريدها، فاتخذ صورة أبيه ليستفيد من ضعفه وحزنه عليه، ويدفعه إلى التورط في هذا العمل الجريء العنيف، وهو الفتك بعمه، ولهذا كله اعتزم أن يتريث في الأمر حتى تتجمع لديه أسباب أقوى من حديث الطيف الذي ربما كان الوهم هو الذي صوره له.

وبينا هو في هذه الحال من التردد إذ وفد إلى بلاط الملك جماعة من الممثلين كان هملت فيما مضى يسر بتمثيلهم؛ وكان يعجبه بنوع خاص أن يسمع أحدهم يلقي خطابًا محزنًا يصف فيه موت الشيخ بريام Priam ملك طروادة وحزن الملكة هكيبا Hecuba عليه، واحتفى هملت بالممثلين أصدقائه الأقدمين، وتذكر أن هذا الخطاب كان يطربه من قبل فطلب إلى ملقيه أن يعيده على مسامعه، فألقاه هذا الممثل إلقاءً بارعًا أظهر فيه ما ارتكب من القسوة في قتل الملك الشيخ الضعيف، وما حل بشعبه وبلده من كوراث حين التهمت النار المدينة، وما أصاب الملكة العجوز من حزن ذهب بعقلها، فأخذت تعدو في القصر عارية القدمين، وفي مكان التاج من رأسها خرقة بالية، وعليها بدل الملابس الملكية قطعة من لحاف حول وسطها

اختطتها على عجل، وقد أجاد الممثل تمثيل هذا الدور وأتقنه إتقانًا أثر في جميع الحاضرين، فبكوا أسى وحسرة حتى إن الممثل نفسه قد أثر فيه الموقف فألقى خطابه بصوت أجش ودمع منهمر.

ورأى هملت هذا فقال في نفسه إنه إذا كان في وسع هذا الممثل أن يظهر هذا الانفعال الشديد وهو يلقي خطابًا موضوعًا، فيبكي من فرط حزنه على سيدة لم تقع عليها عينه – على هكيبا التي مضى على موتها مئات السنين – إذا كان في وسع الممثل أن يفعل هذا فما باله هو يبقى خاملًا بليدًا، ولديه من الأسباب الحقة ما يثيره ويلهب نفسه؟ لديه ملك حق وأب عزيز قتل غيلة ولم يتأثر هو بذلك إلا قليلًا، وقد ظل غله خامدًا ونسى ثأر أبيه حتى ليكاد دمه يذهب هدرًا.

وبينا هو يفكر في التمثيل والممثلين والأثر الذي تتركه في النظارة رواية جيدة الوضع متقنة التمثيل، تذكر قصة قاتل رأى في يوم من الأيام مقتلًا يمثل على المسرح فتأُر من إتقان التمثيل وانطباقه على الحقيقة، فلم يسمعه إلا أن يقر من فوره بجرمه، واعتزم هملت أن يدعو الممثلين أن يمثلوا أمام عمه رواية شبيهة بمقتل أبيه، وأن يراقب هو عمه عن كثب ليرى ما يحدثه التمثيل من الأثر في نفسه، فيعرف عن يقين من ملامح وجهه أكان هو قاتل أبيه أم لم يكن؟ وأمر أن توضع لذلك رواية دعا إلى مشاهدة تمثيلها الملك والملكة.

وكان موضوع الرواية جريمة قتل ارتكبت في ويانة، وذهب ضحيتها الدوق، وكان هذا الدوق جنزاجو Gonzago واسم زوجته بيتستة Baptista، وقد اغتيل الدوق في حديقته مسمومًا بيد أحد أقربائه الأدنين المسمى ليسانس Lucianus طمعًا في أملاكه، وبعد زمن قليل من موته أحب القاتل زوجة الدوق جنزاجو.

وشهد الملك تمثيل الرواية وهو لا يعلم بالشرك الذي نصب له، وشهدتها معه الملكة وحاشية القصر كلها؛ وجلس هملت إلى جانب الملك ليرقب منظره، وبدأت الرواية بحديث بين جنزاجو وزوجته أعربت فيه الزوجة عما تكنه لزوجها من حب خالص، وعن اعتزامها ألا تتخذ لها زوجًا غيره إذا عاشت بعده، واستنزلت على نفسها اللعنات إذا ما فعلت غير هذا، وقال إن اللاتي يتزوجن بعد موت أزواجهن هن اللاتي يقتلن بعولتهن الأولين، وشاهد هملت عمه الملك يمتقع لونه عندما سمع هذه العبارة، ورأى أنها كان لها أسوأ الوقع في نفسه ونفس الملكة؛ فلما أن هم لسيانس أن يسم جنزاجو وهو نائم في حديقة قصره، رأى الملك شبهًا شديدًا بين هذا العمل وبين الجرم الذي ارتكبه هو حين سم أخاه الملك السابق في حديقته، فآلم ذلك ضميره ولم يقو على البقاء إلى آخر الرواية، بل طلب على حين غفلة أن تضاء الأنوار، وتظاهر أنه قد أصابته فجأة نوبة من المرض، أو لعله قد شعر ببعض المرض حقيقة، فترك التمثيل مسرعًا، ولما غادر الملك المكان لم يتم الممثلون الرواية؛ وكان فيما رآه هملت بعينه ما يكفي لإقناعه بأن ما حدثه به الطيف حقيقة ولا هم، وابتهج كما يبتهج الرجل إذا رفع عنه وزر كان ينقض ظهره، أو أيقن من أمر كان يشك فيه، وأقسم لصديقه هراشيو أنه يراهن بألف جنيه على أن ما حدث به الطيف حق لا مراء فيه، ولكنه قبل أن يضع الخطة التي يتبعها للأخذ بثأره بعد أن ثبت له أن عمه هو الذي قتل أباه، بعثت إليه والدته تدعوه لتتحدث إليه حديثًا خاصًا في مخدعها.

وكان طلبها له إجابة لرغبة الملك، فقد أراد أن تنبه الأم ولدها إلى أن تصرُّفه الأخير قد أغضبهما جميعًا؛ وأراد الملك أن يعرف كل ما يدور بينهما من الحديث، وظن أن عاطفة الأمومة قد تغري الملكة بالتحيز لولدها فتخفي

عن الملك بعض ما يهمه أن يعرفه من أقوال هملت، فأمر بلونيس مستشار الدولة الكبير أن يقف خلف الستائر في مخدع الملكة ليسمع ما يدور بينهما من غير أن يراه أحد، وكان هذا الاحتيال مما يلائم طبع بلونيس كل الملاءمة، فقد قضى هذا الرجل عمره منغمسًا في أساليب السياسة ومبادئها الملتوية، وكان يسره أن يعرف الأشياء بطريق الاحتيال المعوج البعيد.

وجاء هملت إلى والدته فشرعت تعنفه بأقسى الألفاظ على تصرفاته وأعماله، وقالت له إنه قد أغضب أباه كثيرًا — تريد بذلك أنه أغضب عمه الملك الذي سمته أباه لأنه تزوج بها، واغتاظ هملت أشد الغيظ حين سمع أمه تدعو هذا النذل، الذي لا يعرف عنه أكثر من أنه قاتل أبيه الحق، بهذا الاسم الكريم المحبب إليه، فأجابها في شيء من الحدة: «أمي، لقد أسأت أنت كثيرًا إلى أبي»؛ فقالت له أمه: «إن هذا رد سخيف»؛ فأجابها بقوله: «إنه خير رد يستحقه السؤال»، وسألته أمه هل نسي من هي التي يحدثها؟ فأجابها بقوله: «ليتني أستطيع أن أنسى أنك الملكة التي تزوجت بأخي زوجها، وأنك أمي، ألا ليتك كنت غير ما أنت»؛ فقالت له: «إذا كان هذا مبلغ احترامك لي فسأدعو من يستطيعون أن يتحدثوا إليك»، وهمت أن ترسل في طلب الملك أو بلونيس.

ولكن هملت وقد سنحت له فرصة الاجتماع بها منفردة لم ير أن يتركها تفلت من يده حتى يحاول أن يشعرها بما في حياتها من إثم، فقبض على معصمها قبضة قوية وأرغمها على الجلوس، وارتاعت الملكة لما شاهدته عليه من مظاهر الجد، فخشيت أن يدفعه جنونه إلى إيذائها، فصرخت صرخة عالية، وسمع من وراء الستار صوت ينادي: «وا غوثاه! أدركوا الملكة»، وسمع هملت الصوت فظنه صوت الملك نفسه مختبئًا وراء الستار، فاستل

سيفه وأخذ يطعن به المكان الذي جاء منه كأنه يطعن فأرًا يجري فيه، وما زال يوالي الطعن حتى انقطع الصوت وظن أن صاحبه قد مات، فلما أخذ بعدئذ يقلب جسم القتيل لم يجده الملك بل وجده الشيخ بلونيس المستشار المتطفل الذي وقف يتجسس عليه من وراء الستار، وصرخت الملكة قائلة: «وا حسرتاه! أي جرم شنيع ارتكبته بطيشك»؛ فأجابها هملت: «حقًّا، إنه لجرم شنيع يا أماه، ولكنه لم يبلغ ما بلغه جرمك أنت التي قتلت ملكًا وتزوجت بأخيه!».

وكان هملت قد قطع في طريقه إلى غرضه شوطًا لا يستطيع معه أن يقف عندما وصل إليه، وكان الآن في حالة عقلية يستطيع فيها أن يفصح عما في قلبه لوالدته، فواصل حديثه إلى غايته، نعم إن الأبناء يجب ألا يغلظوا القول لآبائهم إذا ما حدثوهم عن أخطائهم، لكنه لا حرج على الابن أن يخاطب أمه نفسها بشيء من الغلظة إذا ما ارتكبت جريمة شنيعة، وكان غرضه من هذه الغلظة إصلاح حالها لا مجرد تأنيبها، ولذلك أخذ هذا الأمير الطاهر يصف لأمه بعبارات قوية مؤثرة ما ارتكبته من جرم شنيع بنسيانها ذكرى أبيه المليك الميت، وزواجها بعد موته بقليل بأخيه الذي اشتهر بين الناس بأنه قاتله، وقال إن هذه الفعلة التي فعلتها بعد الإيمان المغلظة التي أقسمتها بأن تكون وفية لزوجها الأول تكفي وحدها لأن تزعزع ثقة الناس في إيمان جميع النساء، وتحملهم على أن يعدوا الفضائل كلها كذبًا ونفاقًا، وعقود الزواج أقل شأنًا من إيمان اللاعبين، والدين نفسه لهوًا ولعبًا وألفاظًا تلوكها الألسنة، وكان مما قاله لها إنها قد فعلت فعلة تنفطر منها السموات وتنشق الأرض؛ ثم أخرج لها صورتين إحداهما للملك المتوفى زوجها الأول والأخرى لزوجها الثاني الملك الحالي وطلب إليها أن تتأمل ما بين الصورتين من فوارق، لقد

كان لأبيه وجه سمح جميل كوجه الملائكة الأبرار، وكانت له غدائر كغدائر أبلو Apollo وجبهة كجبهة جيتر Jupiter، وعينان كعيني المريخ Mars؛ وكان إذا جلس كأنه عطارد نزل حديثًا على جفل شامخ يناطح السماء، وقال لها إن هذا هو الرجل الذي كان لها زوجًا، ثم أراها صورة الرجل الذي تزوجت به بعده وقال إنه رجل سقيم، بل هو السقام مجسم لأنه أصاب أخاه السليم، وخجلت الملكة أشد الخجل حين كشف لها عن خبيئة نفسها، وأدركت ما هي عليه من ضلال وفساد، وسألها كيف تستطيع أن تعيش بعد الآن مع هذا الرجل وتكون زوجة لمن قتل بيده زوجها الأول وأخذ منه التاج أخذ اللصوص؟ وبينا هو في حديثه إذ دخل الحجرة طيف أبيه في صورته التي كان عليها أيام حياته والتي رآه عليها من قبل، وسأله هملت في رعب شديد ماذا يريد؟ وقال الطيف إنه جاء ليذكره بالثأر الذي عاهده عليه، والذي يلوح أنه نسيه، وطلب إليه أن يحدث أمه لئلا يقضي الحزن والرعب على حياتها، ثم اختفى ولم يره أحد غير هملت، وإن كان قد أشار لأمه إلى موضعه ووصفه لها، ولكنها لم تره وظنت أن هملت يحدث نفسه، فاستولى عليها الرعب وعزت ما تشاهده منه إلى اضطراب عقله، ولكن هملت طلب إليها ألا تحسن الظن بنفسها الخبيثة، فتحسب أن السبب الذي جاء بروح أبيه إلى هذه الأرض هو جنون ولدها لا شناعة جرمها، ورغب إليها أن تجس نبضة لتعرف أن قلبه يدق دقًا منتظمًا لا كما تدق قلوب المجانين، ثم رجاها والدمع يفيض من عينيه أن تستغفر لذنبها وتندم على ما فات، وأن تتجنب في مستقبل أيامها صحبة الملك فلا تكون له كما تكون الأزواج؛ فإذا ما فعلت ذلك وحفظت عهد أبيه وأظهرت أنها أم له حقًا، طلب إليها وقتئذ أن تدعو له بخير كما يطلب الأبناء دعاء أمهاتهم لهم؛ وعاهدته أمه على أن تطيع أمره وانتهى اجتماعها به.

وكان في وسع هملت وقتئذ أن يتبين من هو الشخص الذي قضى على حياته باندفاعه وتهوره المشئوم؛ فلما رأى أنه قد قتل بلونيس والد محبوبته أفليا نقل الجثة من مكانها، وكانت نفسه قد هدأت قليلًا فأخذ يبكي حسرة على ما فعل.

واتخذ الملك هذا الحادث المشئوم، وهو مقتل بلونيس، حجة تذرع بها لإخراج هملت من المملكة، وكان يود لو استطاع أن يقتله لأنه يرى في وجوده خطرًا عليه، ولكنه كان يخشى الشعب الذي يحب هملت، ويخشى الملكة التي كانت رغم أخطائها مولعة بولدها الأمير، ولذلك أمر هذا الملك الماكر أن يحمل هملت على ظهر سفينة مسافرة إلى إنجلترا بحجة إنقاذه من تبعة قتل بلونيس، وعهد بحراسته إلى رجلين من حاشيته، وأرسل معهما رسائل إلى بلاط إنجلترا التي كانت في ذلك الوقت خاضعة لمملكة دنمرك تؤدي لها الجزية، وطلب في هذه الرسائل أن يقتل هملت عندما تطأ قدماه أرض تلك البلاد لأسباب خاصة مختلفة ادعاءها في رسائله، وارتاب هملت في الأمر وظن فيه غدرًا، فحصل على الرسائل في أثناء الليل بطريقة خفية، واستطاع بمهارته أن يمحو منها اسمه ويضع بدله اسمي الرجلين اللذين كانا يرافقانه في رحلته، ثم ختم الرسائل كما كانت وأعادها إلى موضعها، وبعد أن سارت السفينة قليلًا هجم عليها جماعة من لصوص البحار، ونشبت بينها وبينهم معركة بحرية، أراد هملت أن يبرهن فيها على شجاعته وشدة بأسه فهجم بمفرده على سفينة الأعداء وترك سفينته تفر من القتال فرار الجبان، وتركه الحارسان تتصرف فيه الأقدار، واتخذا طريقهما في البحر إلى إنجلترا، سالكين إليها خير سبيل يستطيعان سلوكه، ومعهما الرسائل التي بدل هملت معناها فأوقعهما في شر أعمالهما، ووقع هملت أسيرًا في يد اللصوص ولكنهم

كانوا أعداء راحمين، وعرفوا أسيرهم فأنزلوه إلى البر عند أقرب ثغر من ثغور دنمرك، لعل الأمير يستطيع أن يجزيهم على حسن صنيعهم بأن يشفع لهم عند الملك، وكتب هملت من مكانة رسالة إلى الملك، قص عليه فيها ما وقع له من الحادثات الغريبة التي عاد بسببها إلى بلاده، وأبلغه أنه يمثل بين يدي جلالته غدًا، فلما جاء وقعت عينه أول ما وقعت على منظر أحزنه أشد الحزن.

وكان المنظر الذي رآه جنازة أفليا الفتاة الحسناء التي كان من قبل يهيم بحبها؛ وكان سبب موت هذه الفتاة أن موازين عقلها بدأت تختل بعد موت أبيها، فقد أثر في قلب هذه الفتاة الرقيق أن يُغتال أبوها وأن يغتاله الأمير الذي تحبه، فلم يمض على موته إلا القليل من الوقت حتى ذهب عقلها كله، وأخذت تطوف الطرقات تقدم الأزهار إلى سيدات البلاط، وتقول لهن إنها أعدت تلك الأزهار لجنازة أبيها، ثم تنشد أناشيد الحب تارة وألحان الموت أخرى، ومنها ما ليس له معنى على الإطلاق، كأنها لا تذكر شيئًا مما أصابها، وكانت صفصافة تنمو مائلة على ضفة غدير، وتنعكس صورة أوراقها على صفحة الماء، فجاءت يومًا إلى هذا الغدير حين غفلت عنها أعين الرقباء تحمل تيجانًا صنعتها بيدها من الأقحوان والقريض والزهر والعشب مختلطًا بعضه ببعض، وتسلقت الصفصافة لتعلق تاجها على أغصانها، فانكسر الغصن وهوت الفتاة الحسناء هي والتاج وكل ما جمعته من الأزهار في مياه الغدير، وحملتها ملابسها فوق الماء برهة من الزمن أخذت تغني في أثنائها قطعًا من ألحان قديمة كأنها لا تعي ما حل بها، أو كأنها من الخلائق التي تعيش في الماء، ولكنها لم تلبث إلا قليلًا حتى امتلأت ملابسها ماء فثقلت وجذبتها إلى قاع الغدير، فقطعت عليها غناءها وماتت في الطين أشنع ميتة، وكانت

جنازة هذه الفتاة الحسنا هي التي يشيعها أخوها ليرتس Leartes ويحضرها الملك والملكة وحاشيتهما حين أقبل هملت على المدينة.

ولم يدر هملت شيئًا مما حدث، فوقف على جانب الطريق لا يقطع على المحتفلين احتفالهم، ورأى الأزهار تنثر على القبر كما يفعل الناس عندما يدفنون الفتيات الأبكار، ونثرت الملكة هذه الأزهار بيدها وقالت وهي تنثرها: «إن الحسان تهدى إليهن أحسن الأشياء؛ لقد كنت أظن أيتها الغانية أني سأزين سرير عرسك، فإذا بي أنثر الأزهار على قبرك أنت يا من كنت أرجو أن تكوني زوجة لولدي هملت، وسمع هملت أخاها يدعو ربه أن ينبت البنفسج على قبرها، ورآه يقفز مهتاجًا إلى القبر وقد ذهب الحزن بعقله، ويأمر الخدم أن يهيلوا عليه جبالًا من الثرى حتى يدفن معها، وعاد حب الفتاة الحسناء إلى قلبه ولم يطق أن يرى أخًا يظهر من الحزن ما أظهره هذا الأخ، لأنه كان يظن أن حبه لأفليا يعدل حب أربعين ألفًا من الإخوة، وحينئذ أظهر هملت نفسه وقفز إلى القبر وراء ليرتس؛ وكأنه مجنون مثله أو أشد منه جنونًا، وعرف ليرتس أنه هملت الذي يحمل وزر قتل أبيه وأخته، فقبض قبضة العدو الألد على عنقه، ولم يتركه حتى فرق بينهما الخدم، ولما فرغوا من تشييع الجنازة اعتذر هملت عن طيشه وتسرعه في إلقاء نفسه في القبر، كأنه يريد قتال ليرتس، وقال إنه لم يطق أن يرى أحدًا من الخلق أشد منه حزنًا على أفليا، وظن الناس حينًا من الدهر أن العداوة قد زالت من قلب هذين الشابين النبيلين.

ولكن الملك الأثيم عم هملت أراد أن يتخذ من غضب ليرتس وحزنه على أبيه وأخته حجة يتذرع بها لهلاك الأمير؛ وأخذ يحرض ليرتس على أن يتدرع بما تم بينهما من صلح فيدعو هملت إلى مباراة حبية يظهران فيها

براعتهما في البراز بالسيف، وقبل هملت الدعوة، وحدد يوم المباراة، وشهده جميع رجال البلاط، وأعد ليرتس بأمر الملك سيفًا مسمومًا، وتراهن رجال الحاشية بمبالغ طائلة لأنهم كانوا يعرفون براعة هملت وليرتس في البراز؛ وأخذ هملت السيوف القلفاء واختار واحدًا منها دون أن يرتاب في أمر ليرتس أو يعني بتفقد سيفه الذي لم يكن أقلف مثلها كما تقضي بذلك شريعة البراز، بل كان حادًا مسمومًا.

وأخذ ليرتس أول الأمر يداعب هملت، وسمح له أن تفوق عليه؛ وبالغ الملك المنافق في هذا الفوز وأخذ يطنب في مدحه، وشرب نخب هملت وفوزه، وراهن على نتيجة المباراة رهانًا كبيرًا، ثم ازداد ليرتس حماسة بعد بضع جولات، وهجم على هملت هجمة عنيفة وطعنه طعنة قاتلة بحد سيفه المسموم، واهتاج هملت، ولم يكن يعرف كل ما دبره له ليرتس من غدر، واستبدل بسيفه العادي سيف ليرتس المسموم، وهجم به على خصمه وطعنه طعنة نجلاء ذاق بها وبال أمره، وصرخت الملكة في هذه اللحظة وقالت إنها سمت، وذلك أنها شربت وهي غافة من إناء أعده الملك ليشرب منه هملت إذا ما خرج من البراز حران في حاجة إلى الماء، وكان هذا الملك الغادر قد دس في هذا الماء سمًا زعافًا ليضمن به القضاء على هملت إذا ما نجا من سيف ليرتس، ونسى أن ينبه الملكة إلى حقيقة ما في الماء فشربته وماتت لساعتها، ونادت وهي تلفظ آخر أنفاسها أنها قضت نحبها مسمومة.

وتوقع هملت أن يكون في الأمر خيانة، فأمر أن تغلق الأبواب، وشرع يفحص عن الحقيقة، وطلب إليه ليرتس ألا يطيل البحث لأنه هو الخائن الغادر، وأحس هذا الشاب بدنو أجله من أثر الجرح الذي أصابه به عملت فأقر بجرمه وبما جناه على نفسه، ولم يخف عن عملت أمر السيف

المسموم، وأخبره أنه لن يعيش أكثر من نصف ساعة بعد ذلك الوقت، لأن هذا السم لا يرجى منه شفاء، ثم سأله أن يغفر له ذنبه، وقضى نحبه، وقال وهو في سكرة الموت إن الملك أصل هذا البلاء كله، ورأى هملت أجله يتصرم، ورأى في السيف بقية من السم، فهجم به فجأة على عمه الغادر وطعنه بسنه في صدره، وبر بما وعد به روح أبيه، فنفذ أمره، وانتقم له من قاتله الأثيم، وشعر هملت بدنو أجله وانقضاء أنفاسه المعدودة فالتفت إلى صديقه العزيز هراشيو الذي كان طوال الوقت يشاهد هذه المآسي المروعة، وطلب إليه يبقى على نفسه ليقص على العالم قصته، فقد بدت من هراشيو في ذلك الوقت إشارة تنم عن عزمه على الانتحار ليقضي نحبه مع الأمير، وعاهده هراشيو على أن يروي هذه القصة في صدق وأمانة، لأنه مطلع على جميع اسرارها، فلما أرضى هملت ضميره وتم له ما أراد تحطم قلبه النبيل، وانهمر الدمع من عيني هراشيو ورفاقه الذين شاهدوا هذه المأساة، ودعوا الملائكة الكرام أن يرفقوا بروح هذا الأمير الطيب النفس اللين العريكة، وفي الحق أن هملت كان أميرًا لين العريكة محبًّا للناس، رفيقًا بهم، محببًا إليهم جميعًا لنبله وكرم سجاياه؛ وما من شك في أنه لو عاش لكان أعظم من جلس من الملوك على عرش دنمرك.

عطيل

كان لشيخ من شيوخ البندقية الأثرياء يدعى برابنتو Brabanto ابنة حسناء تسمى دزدمونا Desdemona، تقدم إلى خطبتها كثير من الشبان لما كانت تتصف به من جميل الخلال، وما كان يرجى أن تناله من ثروة طائلة؛ ولكنها لم تجد بين من تقدم إليها من أهل بلدها ولونها من هو جدير بحبها، وذلك لأن هذه الفتاة النبيلة كانت تعجب بعقول الرجال أكثر من إعجابها بوجههم، وهي خلة امتازت بها عن بنات جنسها، يعجب الناس بها ولكنهم لا يتخلقون بها؛ ومن أجل ذلك اصطفت لنفسها من بين خطابها مغربيًا أسود اللون، كان أبوه يحبه ويدعوه في كثير من الأوقات لزيارته في منزله.

وليس من حقنا أن نقسو في الحكم على دزدمونا لأنها لم توفق في اختيار الشخص الذي تعلق به قلبها؛ ذلك أننا إذا غضضنا النظر عن سواد لون عطيل فإن هذا الشريف المغربي لم يكن ينقصه شيء من الصفات التي تحببه إلى أكرم العقائل، فقد كان جنديًا باسلًا سمًا على أقرانه في الحروب العوان التي دارت بين البنادقة والأتراك، حتى بلغ مرتبة القواد في جيش البندقية، وكان إلى ذلك موضع إجلال رجال الدولة وتقديرهم.

وكان عطيل جواب أفاق، وكان يسر دزدمونا كما يسر جميع النساء أن تستمع إليه وهو يقص أخبار مخاطراته من أقدم ذكرياته وأبعدها عهدًا، وأخبار الحروب والحصار والوقائع التي خاض غمارها، والأخطار التي تعرض لها برًا وبحرًا، والمآزق التي نجا منها حين نفذ من ثلمة حصن أو وقف أمام فوهة مدفع، ويصف لها كيف وقع أسيرًا في يد الأعداء الطغاة فباعوه بيع الرقيق،

وكيف كان مسلكه في هذه الحال، وكيف نجا من الرق، وكان يقص عليها هذه المغامرات كلها، ويصف لها معها ما شاهده من عجائب البلاد البعيدة وفلواتها الشاسعة المترامية الأطراف، وكهوفها البديعة ومقالع أحجارها وصخورها، وجبالها الشم التي تناطح رءوسها السحاب، والشعوب المتوحشة وأكلة اللحوم البشرية، وسكان مجاهل إفريقية الذين تنمو رءوسهم تحت أكتافهم، وكان حديث هذه الأسفار يستغرق انتباه دزدمونا ويأخذ بمجامع قلبها فكانت إذا دُعيت لشأن من شئون البيت فرغت منه على عجل وعادت لتلتهم حديث عطيل التهامًا، وقد رآها في ساعة لينة العريكة سلسة القياد، فاستدرجها حتى طلبت إليه أن يقص عليها تاريخ حياته كلها مفصلًا، بعد أن سمعت منه الشيء الكثير متقطعًا غير متصل الحلقات، ووافقها هو على ذلك وأخذ يقص هذا التاريخ، وكثيرًا ما كان يستدر الدمع من عينيها وهو يصف لها كارثة من الكوارث التي حلت به في عهد صباه.

ولما فرغ من قصته جازته على جهوده بآلاف الحسرات والتنهدات، وأقسمت جهد أيمانها أن تاريخه يثير العجب ويبعث في القلوب الرحمة، وقالت إنها كانت تود لو أنها لم تسمعه ولكنها تتمنى لو أن الله قد خلقها من هذا الصنف من الرجال، ثم شكرته وقالت له إنه إذا كان له صديق علق قلبه بفتاة يحبها، فما عليه إلا أن يعلمه كيف يقص عليها قصته، وحسبه هذا سببًا يوصله إلى قلبها، ولم يخف على عطيل معنى هذه الإشارة التي كان فيها من الصراحة بقدر ما فيها من التواضع، والتي صحبتها نظرات ساحرة توردت لها وجنتاها من شدة الخجل، فأفصح لها عن حبه بعبارات أوضح وأصرح، وفي تلك الساعة الموفقة السعيدة وعدته هذه السيدة الكريمة أن تتزوج به سرًا.

ولم يكن لون عطيل وثروته مما يبعث الأمل في قلبه بأن برابنتوا يرضى

به زوجًا لابنته، نعم إنه ترك لابنته حرية الاختيار، ولكنه كان ينتظر منها أن تفعل ما تفعله كرائم الفتيات بنات البندقية، فتختار لنفسها زوجًا من سراة المدينة أعضاء مجلس الشيوخ، أو ممن يرجى أن يكونوا أعضاء فيه، ولكنه قد فأخطأ التقدير، فقد أحبت دزدمونا هذا المغربي على سواد لونه فاستحوذ على قلها وثروتها بما كان يتصف به من جرأة وإقدام وخلال عالية كريمة، وشغفت بحب هذا الرجل الذي اختارته زوجًا لها وأخلصت له إخلاصًا حبب إلى هذه الفتاة النافذة البصيرة سواد لونه الذي كان يبدو لغيرها عقبة كأداء لا يمكن التغلب عليها، فأصبح في نظرها أجل من جميع الذين تقدموا لخطبتها من البندقية أبناء الأسر الكريمة، ذوى الوجوه البيضاء والبشرة الصافية، وتم زواجهما خفية، ولكنه لم يبق سرًا مكتومًا إلى امد طويل، فقد تساقط إلى مسامع الشيخ برابنتو، وحضر هذا الشيخ أمام مجلس من شيوخ الدولة واتهم عطيلًا المغربي بأنه استطاع بسحره أن يخدع دزدمونا الحسناء ويسلب قلبها، ويتزوج بها من غير رضاء أبيها، ومن غير أن يرعى واجبات الضيافة.

واتفق أن كانت دولة البندقية في ذلك الوقت في أشد الحاجة إلى خدمات عطيل؛ فقد ترامت الأنباء بأن الأتراك أعدوا عمارة بحرية وسيروها إلى جزيرة قبرص ليستردوا هذا الموقع الحصين من البنادقة الذين كانوا يمتلكونه وقتئذ، ولجأت دولة البندقية في ذلك الوقت الحرج إلى عطيل لاعتقادها أنه وحده الذي يستطيع أن يقود القوات اللازمة لصد الأتراك عن جزيرة قبرص، وكذلك وقف عطيل أمام مجلس الشيوخ مطالبًا بمنصب من أعظم مناصب الدولة، ومذنبًا متهمًا بجرائم تجزي عليها شرائع البندقية بالإعدام.

وكان مقام الشيخ برابنتو في مجلس الشيوخ وكبر سنه مما يدعو هذا

المجلس الموقر لأن يستمع إلى دعواه بصبر، ولكن الرجل كان محنقًا مغيظًا، فكان وهو يعرض قضيته ثائرًا محتدًا، فلم يتقدم لإثبات دعواه بغير المزاعم والاحتمالات، فلما أن دعى عطيل ليدافع عن نفسه لم يكن عليه إلا أن يقص على الجمع قصة حبه، فألقاها بفصاحة خالية من الصنعة والتكلف، وأخبرهم بتفاصيل خطبته كما سردناها على القارئ من قبل، وكان يتكلم بصراحة نبيلة هي في ذاتها دليل على صدقه، فلم يسع الدوق رئيس الجلسة إلا أن يقر بأن مثل هذه القصة كفيلة وحدها بكسب قلب ابنته أيضًا، وتبين له أن الرقى والتعاويذ التي استعان بها عطيل في خطبته لا تخرج قط عن الوسائل الشريفة التي يستعين بها المحبون في غزلهم، وأن كل ما استخدمه من فنون السحر هو حذقه وقدرته على أن يقص القصة بحيث تسترعى انتباه السيدات.

وأيدت دزدمونا نفسها أقوال عطيل، فقد جاءت إلى المحكمة واعترفت بما لأبيها عليها من حقوق، لأنه ولدها ورباها، ثم طلبت إليه أن يأذن لها أن تعترف أيضًا بما عليها لزوجها وسيدها من واجبات أعظم قيمة من واجباتها لأبيها، وهي تلك التي من أجلها فضلته أمها على أبيها.

وأدرك الشيخ عجزه عن إقامة الحجة على عطيل، فدعاه إليه واعتذر له عما فرط منه، ورأى أن لا مفر له من أن يسلمه ابنته، وقال إنه لو كان في وسعه أن يمنعها عنه لفعل هذا راضيًا مغتبطًا، وإنه يحمد الله على أن ليس له بنات غيرها، وإلا لأصبح بعد هذه الخطيئة رجلًا جبارًا قاسيًا، ولأبقاهن إلى جانبه لكيلا يخرجن عن طاعته كما خرجت هي.

ولما ذللت هذه الصعوبة قبل عطيل مغتبطًا أن يتولى إدارة دفة الحرب في قبرص، وكان قد تعود صعاب الحياة العسكرية حتى أصبحت له من

الضروريات، شأنها شأن الطعام والراحة لغيره من الناس، ورأت دزدمونا أن الشرف الذي ناله زوجها، مهما كان فيه من الخطر عليه، خير وأبقى من حياة اللهو والملاذ التي ينفق فيها الأزواج الجدد أوقاتهم بعيد الزواج، فوافقت وهي راضية منشرحة الصدر أن يسافر زوجها إلى ميدان القتال.

ولم يكد عطيل وزوجته ينزلان بأرض قبرص حتى تناهت إليه الأنباء بأن عاصفة هوجاء قد شتت أسطول الأتراك، فأمنت الجزيرة بذلك شر هجوم عاجل عليها؛ ولكن الحرب التي كان عطيل يخوض غمارها كانت في هذا الوقت في بدايتها، وكان الأعداء الذين آلَّبَهم الحقد على زوجته الطاهرة الشريفة أعظم كيدًا من جيوش الأجانب وأعداء الدين.

ولم يكن بين أصدقاء القائد أحد يثق به ويأتمنه أكثر من كاسيو، وكان ميكل كاسيو Michael Cassio شابًا محاربًا من مدينة فلرنس، وكان مرحًا محبًا ظريفًا حلو الكلام، وكلها صفات محببة إلى النساء: وكان إلى ذلك بهي الطلعة فصيح اللسان، متصفًا بجميع الخلال التي تثير الغيرة في قلب رجل تقدمت به السن، كما كان عطيل إلى حد ما، إذا تزوج شابة جميلة، لكن عطيلًا كان رجلًا نبيلًا ليس للغيرة موضع في قلبه، بعيدًا عن سوء الظن بعده عن سوء الفعال، وكان قد استعان بكاسيو في شئون حبه لدزدمونا، فكان هو الرسول بينه وبينها في خطبته، وذلك لأن عطيلًا كان يخشى ألا تكون له من رقة اللفظ وعذوبة الحديث ما يستطيع به أن يتملك قلوب النساء، ورأى هاتين الصفتين على أتمهما في صديقه فكان من أجل ذلك ينيبه عنه — على حد قوله — في مغازلة دزدمونا، ولم تكن هذه السذاجة البريئة عيبًا في المغربي المقدام يستحق عليه اللوم، بل كانت فضيلة خليقة بالثناء، فلا عجب بعد هذا أن تحب دزدمونا الحسناء كاسيو هذا وتثق به، وأن يكون أدنى الناس

منزلة إليها بعد عطيل، وإن كان البعد بين المنزلتين شاسعًا شأن الزوجات الطاهرات، ولم يتغير مسلك الزوجين نحو ميكل كاسيو بعد زواجهما، فكان الرجل يتردد على دارهما، وكان في ثرثرته الطلقة من التنويع ما يشرح صدر عطيل، الذي كان بطبيعته جادًا رزينًا، وذلك أن أصحاب هذه الطباع يسرون عادة مما يناقضها، لأنها تروح عنهم وتخفف من وطأتها عليهم، وكان كاسيو ودزدمونا يتحادثان ويضحكان كما كانا يفعلان أيام أن كان يأتي إليها ليغازلها نائبًا عن صديقه.

وكان عطيل من عهد قريب قد رقى كاسيو إلى رتبة مساعده، وهي أقرب الرتب إلى شخص القائد، وصاحبها موضع ثقته، وأساءت هذه الترقية إياجو Iago أحد الضباط الأقدمين لأنه كان يظن أنه أحق بها من كاسيو، وكثيرًا ما كان يعير كاسيو هذا بأنه شخص لا يصلح إلا لصحبة السيدات، ولا يعرف من فنون الحرب وحشد الجيوش للقتال أكثر مما تعرف البنات، وكان إياجو يحقد على كاسيو، ويحقد على عطيل لأنه يعز كاسيو، ولأنه كان يرتاب فيه بعض الريبة، ويظن خطأ أنه يحب إمليا Emilia زوجته هو، وامتلأ قلب إياجو غيظًا لهذه الأسباب الباطلة، وهداه تدبيره إلى مكيدة يقضي بها على كاسيو والمغربي ودزدمونا جميعًا.

وكان إياجو رجلًا مختالًا بارعًا في حفر الحفائر، درس الطبائع البشرية درسًا عميقًا، وعرف أن داء الغيرة أشد الأدواء وأكثرها تعذيبًا للقلوب، وأن عذاب الجسم يتضاءل بالقياس إلى عذابها، وقال في نفسه إن خير ما يستطيع أن يفعله للانتقام من كاسيو أن يوقد نيران الغيرة في قلب عطيل، وقد يكون في ذلك هلاك كاسيو أو عطيل أو هما معًا، وسواء عليه أهلك أحدهما أم هلك كلاهما لأن ذلك أمر لا يعنيه.

وجاء القائد وزوجته إلى قبرص على أثر ورود الأخبار بتشتت أسطول الأعداء، فكان يوم مجيئهما عيدًا في الجزيرة، وخرج أهلها على بكرة أبيهم يقصفون ويمرحون، ودارت الكؤوس وأخذ الناس يشربون نخب عطيل الأسود وزوجته دزدمونا الحسناء.

وكان كاسيو يشرف على الحراسة في تلك الليلة، وقد أمره عطيل أن يمنع الجند من الإسراف في الشراب حتى لا يحدثوا في الجزيرة شغبًا يزعج أهلها أو يبغضهم في الجنود الذين نزلوا في ارضهم من عهد قريب، وفي هذه الليلة دبر إياجو تدبيره المحكم الخبيث، فتظاهر بشدة حبه وإخلاصه للقائد العام، وأخذ يغري كاسيو بالإفراط في الشراب، وهي غلطة من أكبر الأغلاط التي يمكن أن يرتكبها ضابط يتولى الحراسة، وقاوم كاسيو إغراءه أول الأمر، ولكن هذه المقاومة لم تطل، وتغلب عليها إياجو بما تصنعه من حب شريف للتحرر من القيود الموضوعة، وأخذ كاسيو يتجرع الزجاجة تلو الزجاجة، وإياجو يقدم له الشراب ويطربه بالغناء، حتى انطلق لسانه بالثناء على دزدمونا، فشرع يشيد يذكرها ويشرب نخبها آنًا بعد آن، ويؤكد أنها سيدة كاملة رائعة الحسن، وما زال كذلك حتى ذهب عقله من كثرة ما تجرعه من الشراب عدو الإنسان الألد؛ وحدث أن استفزه رجل أغراه به إياجو، فاستل كل منهما سيفه، وتقدم ضابط من خيرة الضباط يدعى منتانو Montano لحسم النزاع فجرح؛ واتسعت دائرة الشغب واشترك فيه الحرس كله، وكان إياجو الذي استثاره أنشط عامل على نشر الذعر في الجزيرة، فأمر بدق جرس الحصن كأنما قامت في البلاد فتنة حماء، لا مجرد هرج ضعيف أحدثه قوم لعبت بعقولهم الخمر، واستيقظ عطيل على صلصلة جرس الخطر، وارتدى ملابسه على عجل، وجاء إلى مكان الحادثة وسأل كاسيو عن جلية الأمر، وكان كاسيو

قد عاد إلى صوابه بعد أن ذهب عنه بعض أثر الخمر، ولكن الخجل عقد لسانه فلم يحر جوابًا، وأظهر إياجو كثيرًا من التردد في اتهام كاسيو، ولكنه أمام إلحاح عطيل وإصراره على معرفة الحقيقة سرد الواقعة كلها إلا نصيبه منها، ولم يكن كاسيو منتبهًا له فيذكره به، وتظاهر بأنه يخفف من ذنب كاسيو ولكنه كان في الحقيقة يزيد جرمه شناعة، وكان عطيل شديد الحرص على حسن النظام فجرد كاسيو من رتبته.

وهكذا نجحت المكيدة الأولى من مكائد إياجو نجاحًا تامًا، فقضى على منافسه الممقوت وأبعده عن منصبه، ولكننه لم يكتف بهذا بل عمل على أن يستفيد فائدة أخرى من مغامرته في هذه الليلة المشئومة.

وأفاق كاسيو من سكرته بعد هذه الكارثة التي نزلت به، فجاء إلى صديقه المخاتل آسفًا على حمقه الذي انحط به إلى منزلة البهائم، وقضى على مستقبله، وماذا يفعل الآن؟ هل يستطيع أن يرجو القائد أن يعيده إلى مكانه الأول؟ أيقول إنه سكر؟ إنه لو فعل لاحتقر نفسه، وتظاهر إياجو بتهوين الأمر عليه، وقال إنه هو وغيره من الناس يسكرون أحيانًا، وإن عليه الآن أن يعمل للخروج من هذه الورطة على خير وجه، وكان مما قاله له إن زوجة القائد هي الآن صاحبة الكلمة العليا، وإن أمرها نافذ عليه، وإن خير ما يفعله أن يطلب إلى دزدمونا أن تتوسط له عند زوجها، وإنها سيدة صريحة جبلت على فعل الخير، ويسرها أن تقوم بهذه المهمة، فتعيد كاسيو إلى منزلته الأولى عند القائد الكبير، ويزول ما بينهما من نفور، وتصبح روابط الصداقة بينهما أقوى مما كانت قبل؛ نصيحة ما أحسنها لولا أن إياجو كان يبغي بها السوء كما سيظهر للقارئ فيما بعد.

وعمل كاسيو بنصيحة إياجو ولجأ إلى دزدمونا، وهي التي لم تكن تخيب رجاء من يسعى إليها في طلب الخير، ووعدت كاسيو أن تشفع له عند زوجها، وقالت إن الموت خير لها من أن تتخلى عنه، وبدأت من فورها تسعى سعيًا حثيثًا ظريفًا، لم يستطع معه عطيل أن يردها خائبة على الرغم من سخطه الشديد على كاسيو، فطلب إليها أول الأمر أن تتريث قليلًا لأن الوقت لم يحن بعد للعفو عن مثل هذا الذنب، ولكنها لم تقبل طلبه وأصرت على ألا يتأخر هذا العفو عن الليلة التالية أو عن صباح اليوم الذي بعدها، أو صباح اليوم الذي يليه على أبعد تقدير، ثم أظهرت له ندم كاسيو وما أصابه من مذلة وقالت إنه لا يستحق أن يجازي على ذنبه ذلك الجزاء الشديد، ولما طال تردد عطيل قالت له: «ما هذا يا سيدي؟ أيليق بي أن أبذل هذا الجهد كله للدفاع عن كاسيو؟ ميكل كاسيو الذي جاء يخطبني نائبًا عنك والذي كان يثني عليك وينحاز إلى جانبك إذا ما نطقت بكلمة نابية عنك؛ وفي اعتقادي أن هذا الطلب هين عليك، وأنى إذا ما أردت أن أختبر حبك لي وجب على أن أطلب إليك أمرًا أصعب منه أو أعظم شأنًا، ولم يكن في وسع عطيل أن يرد طلبًا لمن يتقدم إليه بمثل هذا الدفاع القوي، فوعدها أن يرد ميكل كاسيو إلى سابق منزلته عنده، وكل ما طلبه إليها أن تترك أمر تحديد الوقت له.

وحدث أن دخل عطيل وإياجو الحجرة التي كانت فيها دزدمونا في اللحظة التي كان فيها كاسيو يخرج من باب آخر لها، مقابل للباب الذي دخل منه، بعد أن فرغ من رجائه لها بأن تشفع له عند زوجها، وكان إياجو ماكرًا خبيثًا فقال في صوت خافت كأنما كان يتحدث إلى نفسه: «هذا شيء لا أحبه»، ولم يعر عطيل هذا القول كثيرًا من العناية وقتئذ، وكان اجتماعه بعيد هذا بزوجته كفيلًا بأن ينسيه إياه كل النسيان؛ لكنه تذكره فيما بعد، فقد

سأل إياجو عطيلًا بعد أن خرجت دزدمونا من عنده هل كان ميكل كاسيو يعرف حب عطيل لها عندما كان يخطبها لنفسه! وتظاهر إياجو وهو يلقي هذا السؤال بأنه إنما يلقيه لمجرد العلم به لا لغرض آخر سواه؛ وأجاب القائد عن هذا السؤال بأن كاسيو كان عارفًا بهذا الحب، وزاد عليه أنه كثيرًا ما توسط بينهما في أثناء الخطبة، وقطب إياجو جبينه كأن ضوءًا جديدًا قد ألقى على أمر مهول يشغل باله، وصاح قائلًا «حق!»، وتذكر عطيل ساعتئذ ما نطق به إياجو من الألفاظ عندما دخل الحجرة ورأى كاسيو مع دزدمونا، وبدأ يظن من تلك الساعة أن لهذا كله معنى، فقد كان يعتقد أن إياجو رجل عادل محب شريف، وأن الذي يبدو في غيره من سفلة الناس وأدنيائهم مكرًا واحتيالًا، إذا ما بدا منه هو كان مظهرًا طبيعيًا لما يدور في عقله النبيل من أفكار أخطر من أن ينطق بها اللسان، ورجاه عطيل أن يطلعه على ما يعرف، وأن يفصح عما يجو في خاطره مهما بلغ من السوء.

وقال إياجو: «وماذا يكون لو أن أفكارًا خبيثة قد اتخذت سبيلها إلى قلبي؟ وهل في العالم كله صرح لا تصل إليه الخبائث والآثام؟ وأضاف أنه يأسف كل الأسف إذا ما نغصت عليه حياته ملاحظات يبديها ولا تقوم على أساس متين، وأن ليس من مصلحة عطيل أن يعرف ما يدور في فكره ليظل له هدوؤه وراحة باله، وأن سمعة الناس الطيبة لا ينبغي أن تذهب بها الشبهات الواهية، وتاقت نفس عطيل لمعرفة الحقيقة بعد هذه الإشارات والعبارات المتفرقة، واشتدت رغبته في ذلك حتى كاد يذهب عقله، فتقدم إليه إياجو كمن يحرص على هدوء باله وحذره من عواقب الغيرة، وكذلك استطاع هذا الرجل الدنيء بدهائه أن يثير الشك في قلب عطيل وهو غافل لم يأخذ منه حذره، وذلك بنفس الألفاظ التي ادعى أنه يحذره بها من سوء الظن، ورد عليه

عطيل بقوله: «إني أعرف أن زوجتي جميلة تحب الحفلات والمجتمعات، ولا تتحرج في الكلام، وتحب الغناء واللعب وتجيد الرقص، ولكن هذه الصفات تعد من الفضائل إذا زانتها الفضيلة، ولهذا فإني لا أستطيع أن أتهمها بالخيانة إلا إذا قام لدى على خيانتها الدليل القاطع، وحينئذ أعلن إياجو في صراحة أن ليس لديه على ذلك دليل، وتظاهر بأنه قد سره من عطيل أنه لم يتسرع في سوء الظن بزوجته، ولكنه طلب إليه أن يراقبها عندما يكون كاسيو قريبًا منها وألا يكون في ذلك غيورًا عليها ولا واثقًا بها أكثر مما يجب، وذلك لأنه هو (إياجو) يعرف طبائع الإيطاليات بنات وطنه أكثر مما يعرفها عطيل، ولأن الزوجات في البندقية يطلعن السماء على كثير من ضروب العبث التي لا يجرؤن على أن يطلعن عليها أزواجهن، ثم أشار إشارة خفيفة إلى أن دزدمونا قد خدعت أباها بزواج عطيل، وأنها كتمت أمر هذا الزواج عنه حتى ظن الشيخ المسكين أن عطيلًا استعان بالسحر على الوصول إلى غرضه، وأثر هذا القول في نفس عطيل لأنه جلا له الأمر، واتقد أن دزدمونا التي استطاعت أن تخدع أباها، لا يبعد عليها أن تخدع أيضًا زوجها.

واعتذر إياجو لعطيل لأنه أثار غضبه، وتكلف عطيل عدم المبالاة ولكه كان في حقيقة أمره يمزق الحزن قلبه بعدما سمعه من أقوال إياجو، وطلب إليه أن يواصل قوله، وتابع إياجو حديثه بعدما قدم له كثيرًا من المعاذير كأنه لا يريد أن ينطق بكلمة سوء عن كاسيو، الذي وصفه بأنه صديقه، ثم ترك اللف والدوران وتكلم في الصميم، وذكَّر عطيلًا بأن دزدمونا قد رفضت كثيرًا من الأزواج الحليقين بها والذين كانوا من أهل بلدها ومن لونها، وتزوجت به وهو مغربي، وذلك زواج غير طبيعي يدل على عنادها واستبدادها برأيها، وأكبر الظن أنها إذا ما عاد إليها صوابها بدأت تنظر بإحدى عينيها إلى عطيل

وبالعين الأخرى إلى الشبان الإيطاليين أبناء بلدها ذوي الوجوه البيضاء الصافية، ثم ختم حديثه بإسداء النصح إلى عطيل أن يؤجل الصلح مع كاسيو بعض الوقت، وأن يلاحظ في تلك الأثناء حرص دزدمونا على الشفاعة له، وقال إنه سيتبين من هذه الشفاعة الشيء الكثير، وبهذه الطريقة الأثيمة دبر هذا الوغد الماكر مكائده، ليتخذ من وداعة هذه السيدة الطاهرة وسيلة يقضي بها عليها، وينصب لها من طيبة قلبها شركًا يوقعها فيه، فقد حرض كاسيو أول الأمر على أن يطلب إليها الشفاعة له عند زوجها، ثم اتخذ هذه الشفاعة نفسها وسيلة للكيد لها والقضاء عليها.

وانتهى الحديث برجاء تقدم به إياجو لعطيل أن يظل على اعتقاده ببراءة زوجته، حتى يقوم لديه الدليل القاطع على جرمها، ووعده عطيل أن يتريث في الأمر، ولكن هذا الرجل المخدوع لم يذق لراحة البال من هذه الساعة طعمًا، ولم يكن في مقدور جميع المخدرات التي في العالم أن تعيد إليه تلك الراحة اللذيذة التي كان يتمتع بها في الأمس القريب؛ وشعر بأن أعباء منصبه ثقيلة عليه، ولم يعد للقتال في نفسه تلك اللذة التي كان يجدها فيه من قبل، وبعد أن كان في سابق أيامه يستثيره مرأى الجنود والبنود، والجيوش وهي مصطفة للقتال، ويذكي حماسته صوت الطبول والأبواق وصهيل الجياد، بدا وكأنه قد فقد العزة والطموح، وهما أفضل صفات الجندي، ولم يعد يتوق لخوض غمار الحرب أو التمتع بشيء من مسراته الأولى، وكان في بعض الأحيان يظن زوجته شريفة، وفي بعضها الآخر يراها خائنة، وتارة يعتقد أن إياجو صاعق، وطورًا يراه كاذبًا، ثم يتمنى لو أن هذا السر قد بقي خافيًا عليه، لأن حبها كاسيو لا يضجره ما دام هو لا يعرفه، وأخذت هذه الأفكار المضطربة تعذبه وتمزق قلبه، حتى قبض مرة على عنق إياجو وأنذره بأنه سيقتله لساعته

لافترائه على دزدمونا إن لم يثبت له خيانتها بالدليل القاطع، وتظاهر إياجو بالغضب لأن أمانته أصبحت رذيلة في نظر عطيل، وسأله ألم ير في يد زوجته أحيانًا منديلًا منقوشًا عليه ثمر التوت الأرضي؟ وأجاب عطيل أنه أعطاها هذا المنديل، وأنه أول ما قدمه لها من الهدايا، فرد عليه إياجو قائلًا: «إني رأيت كاسيو اليوم يمسح وجهه بهذا المنديل نفسه»، فقال له عطيل: «إذا صح هذا فإني لن أستريح حتى أنتقم منهما جميعًا شر انتقام، وأريد منك أن تبرهن على إخلاصك بأن تقتل كاسيو في خلال ثلاثة أيام، أما هذا الشيطان الجميل (يريد زوجته) فدعني الآن أدبر له ميتة سريعة».

إن الذين تأججت نيران الغيرة في صدورهم يتخذون من الأشياء التافهة أدلة قوية كأنها آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ألم تر أن منديلًا لدزدمونا رآه إنسان في يد كاسيو قد كفى في نظر عطيل المخدوع لأن يدين زوجته ويحكم عليها هي وكاسيو بالموت، ولا يرى حاجة إلى أن يعرف كيف وصل هذا المنديل إلى يده؟ إن دزدمونا لم تهد إلى كاسيو هذا المنديل، وليس من شيمة هذه السيدة الوفية أن تسيء إلى زوجها بهذا العمل القبيح فتقدم لغيره هداياه، ولم يقترف كاسيو ولا دزدمونا جرمًا في حق عطيل، غير أن إياجو الماكر الأثيم الذي لا ترتاح نفسه إلا إذا دبر الجرائم قد أغرى زوجته — وهي سيدة طيبة القلب لكنها ضعيفة الإرادة — بالتحايل على أخذ هذا المنديل من دزدمونا لتنقل ما عليه من الزخرف في الظاهر، ولتلقيه في الحقيقة في طريق كاسيو لعله يعثر عليه، فيؤيد ذلك ما ادعاء إياجو من أن دزدمونا أهدته له.

وقابل عطيل زوجته بعد ذلك بقليل، وادعى أنه يشكو الصداع — ولعله كان مصدوعًا حقًا — وطلب إليه أن تعيره منديلًا ليربط به صدغيه، فأعطته

منديلًا ولكنه قال له: «لا أريد هذا بل أريد المنديل الذي أهديته إليك، ولم يكن هذا المنديل مع دزدمونا لأنه فقد منها كما قلنا من قبل، فقال لها عطيل: «كيف يكون هذا؟ إنه لخطأ عظيم، إن هذا المنديل قد أهدته إلى أمي امرأة مصرية ساحرة تقرأ أفكار الناس، وقالت لأمي إنها إذا احتفظت به مالت إليها القلوب وأحبها أبي، وإنها إذا فقدته أو فرطت فيه تغير قلب والدي عليها، وكرهها كرهًا يعادل في شدته حبه السابق لها، واعطته لي أمي وهي على فراش الموت وأمرتني أن أهديه إلى زوجتي إذا ما تزوجت وقد فعلت، فاحرصي عليه وأعزِّيه إعزازًا لناظريك».

وقالت دزدمونا وهي ترتعد فرقًا: «أحق ما تقول؟» فأجابها عطيل: «إنه لحق، فهو منديل مسحور نسجته عرافة عمرت مائتي عام كاملة في نوبة من نوبات تنبؤاتها، وأخرجت حريره ديدان مباركة، وصبغ المنديل بعد صنعه في قلوب العذارى المحنطة»، وسمعت دردمونا بخواص المنديل العجيبة، فارتاعت وهالها الأمر، لعلمها أن المنديل قد فقد، وخوفها أن تفقد بفقده حب زوجها، وهم عطيل بالوقوف كأنه يوشك أن يندفع إلى فعل طائش، وكرر طلب المنديل، ورأت دزدمونا أنها عاجزة عن إجابة طلبه فحاولت أن تصرفه عن التفكير الجدي، وقالت له في لطف وانشراح إنها تعرف أنه لم يقصد بحديثه عن المنديل إلا أن يحول بينها وبين شفاعتها لميكل كاسيو، وأخذت تثنى عليه كما تنبأ بذلك إياجو، حتى جن عطيل فاندفع من الحجرة، وعندئذ بدأت الظنون تساور دزدمونا واعتقدت على الرغم منها أن عقارب الغيرة تدب في قلب عطيل.

ولم تكن تدري أنها فعلت ما يستثير هذه الغيرة، فأخذت تلوم نفسها على سوء ظنها بزوجها الكريم، وخيل إليها أن أنباء سيئة جاءته من البندقية،

أو متاعب خطيرة حدثت فيها فأقلقت باله وغيره طبعه الحلو الرقيق، وقالت في نفسها: «إن الرجال ليسوا آلهة ولا يحق لنا أن ننتظر منهم إذا ما تزوجوا تلك الرعاية التي كنا نستمتع بها يوم الزفاف»، وأخذت تعنف نفسها على ارتيابها في عطفه وحنوه.

وتقابل عطيل ودزدمونا مرة أخرى، وكان في هذه المقابلة أكثر صراحة في اتهامها بالخيانة وبحب رجل غيره، وإن لم يسم لها هذا الرجل، وبكى عطيل وقالت دزدمونا: «ما أشقاني وما أشأم هذا اليوم! لم تبكي؟» وأجابها عطيل بقوله إن في وسعه أن يحتمل كل أنواع الأذى وهو صابر، يحتمل الفقر والمرض وفقد المنصب والجاه، ولكن غدرها قد حطم قلبه، ثم سماها نبتة ذات رائحة عطرة قوية تُؤذي الحواس بشدتها، وتمنى لو أنها لم تُخلق. ولما غادر عطيل حجرتها ذهلت هذه السيدة الطاهرة وعجبت أشد العجب من ارتياب زوجها فيها ومن سوء ظنه الذي لا مُبرر له، فثقل جفناها وطلبت إلى خادماتها أن يهيئن لها فراشها، وأن يضعن على سريرها ملاءة عرسها، وقالت إن الناس إذا رغبوا في تعليم أطفالهم علموهم بالحسنى وكلفوهم بأسهل الأعمال، وإنه كان في وسع عطيل أن يتبع معها هذه الطريقة نفسها، ففي أقل اللوم مزدجر لها، كما يزدجر بأقل اللوم الأطفال. وهذا كل ما شكت منه هذه السيدة الكريمة.

وآوت دزدمونا إلى فراشها وهي تنتظر أن يقبل عليها زوجها، فغلبها النعاس لشدة ما كانت تُعاني من اضطراب فكري. ودخل عطيل مخدعها وهو ينتوي تنفيذ قصده الذي لم يعد يجول غيره في خاطره، وهو قتل زوجته، فلما أبصرها وهي نائمة رأى ألَّا يريق دمها أو يشوه إهابها الناصع البياض، ولكنه كان قد عقد النية على قتلها؛ لأن نفسه كانت تُحدثه بِأَنها إذا عاشت خانت

غيره من الرجال كما خانته هو. ثم انحنى عليها ليُقبلها القبلة الأخيرة على حد قوله، وأحس لهذه القبلة بلذة أغرته بِأَن يُقبلها مرة أُخرى، ثم بكى، ولكنه قال إِن الدموع التي يذرفها دموع قسوة لا رحمة.

وأيقظت قبلاته دزدمونا، وتأملت وجهه فوجدته يعض على ناجذه ويقلب عينيه، وكان هذا الفعل منه على الدوام نذيرًا بالشر المستطير، ثم أمرها أن تستعد للموت وأن تتلو صلواتها لأنه لا يريد أن يقتل منها روحها، وتوسلت إِليه هذه الزوجة الطاهرة، وهي بين يديه وتحت رحمته، أن يرأف بها وأن يخبرها بذنبها، فذكر لها كاسيو وذكر المنديل الذي قال إِنه أعطته إياه، ولما حاولت أن تُبرئ نفسها من هذه الوصمة، أصم أُذنه فجأة عن سماع قولها، ثم لفها في ملاءة فراشها وأماتها خنقًا.

وفي هذه اللحظة جيء بكاسيو إِلى القصر مجروحًا ينزف الدم من جسمه؛ لأن إياجو أغرى أحد صنائعه باغتياله، ولكن الرجل لم يفلح في قتله وإِن كان قد أصابه بجرح غير مُميت، وقَتل إياجو المعتدىَ حتى لا يفتضح أمره. ووجدت مع القتيل رسائل اتضحت منها براءة كاسيو، ولم تترك مجالًا للشك في جرم إياجو. وجاء كاسيو يرجو الصفح من عطيل ويسأله عمَّا ساءه منه حتى يحرض إياجو على قتله.

وكان هذا شديد الوقع على قلب عطيل، وتبين له الآن أنه مُجرم قاتل، وأن زوجته الطاهرة المسكينة كانت إِلى آخر لحظة من حياتها وفية له. وآلم ذلك قلبه فلم يطق عليه صبرًا، وكره الحياة فارتمى على حد سيفه وألقى بنفسه على جسم زوجته العزيزة المظلومة، وفاضت روحه لساعته.

واستولى الرعب على قلوب من شاهدوا هذه الأعمال الطائشة وأخذ

منهم العجب كل مأخذ، فقد اشتهر عطيل بينهم بحُسن السيرة، وكان طوال حياته زوجًا مُحبًا لزوجته، حتى ابتلى بدسائس ذلك الرجل الدنيء الذي كان هو لنبله لا يرتاب في أمره. لقد ضل عطيل سبيل الرشاد في حبه، ولكنه كان مُخلصًا فيه، ولما تبين له خطؤه في قتل زوجته تحدرت الدموع من عينيه كالمطر المنهمر، وهو الذي لم يتعود من قبل البكاء لصغائر الأُمور. ولما مات ذكر الناس شدة بأسه ونُبل أخلاقه. ولم يبقَ على من تولى قيادة الجيش من بعده إِلَّا أن يأخذ إياجو بذنبه، فينُفذ فيه حُكم القانون من غير رحمة، ويقضي بإِعدامه وتعذيبه، وأن يرسل بعد ذلك إِلى دولة البندقية يبلغها فجيعتها في قائدها العظيم الذائع الصيت.

بركليز أمير صور

خرج بركليز Pericles أمير صور من ملكه منفيًا باختياره ليدرأ عن بلاده شر النكبات المروعة التي كان أنتكيس Antiochus عاهل الإغريق الأثيم يريد أن ينكب بها مدينة صور وأهلها انتقامًا من هذا الأمير؛ لأنه كشف عن فعل قبيح فعله هذا العاهل سرًا. وبذلك تحقق مرة أُخرى ما كان قد ثبت مرارًا من قبل وهو أن الخطر كل الخطر في أن يفحص الإنسان عن الجرائم التي يرتكبها العُظماء خفية. وأبحر بركليز من صور وترك أزمة الحكم في يدي وزيره القدير هلكينس Helicanus مُعتزمًا أن يغيب عن بلده حتى يهدأ غضب أنتيكس ذي البطش الشديد.

وكانت مدينة طرسوس أول بلد يممه، وكان قد سَمِعَ أن هذه المدينة حل بها وقتئذ قحط شديد، فأخذ معه مقادير عظيمة من الطعام ليدفع عن أهلها غائلة الجوع. ولما دخلها وجد أهلها في أشد حالات البؤس والفاقة، فكان كأنه ملك من السماء جاء لها بهذا العون الذي لم يكن في الحسبان. ورحب به كليون Cleon حاكم طرسوس وشكر له حُسن صنيعه. ولم يمض على بركليز في هذا المكان إلا بضعة أيام قليلة حتى جاءته رسائل من وزيره الأمين يُحذره فيها من الخطر الذي يتهدده إذا ظل في مدينة طرسوس؛ وذلك لأن أنتيكس عَرِفَ مكانه وأرسل إليه في الخفاء رُسلًا ليقتلوه، فلما تسلم بركليز هذه الرسائل عاد إلى البحر مرة أُخرى تُشيعه دعوات جميع الشعب الذي أسبع عليه نعمه وأطعمه من جوع.

ولكنه لم يبعد عن البر إلا قليلًا حتى ثارت في البحر عاصفة هوجاء،

هلك فيها كل من في السفينة إلا بركليز، فقد ألقته الأمواج عاري الجسد على شاطئ مجهول، التقى عليه بعد أن جاس خلاله بعض الوقت بجماعة من الصيادين الفقراء. ودعاه أُولئك القوم إلى بيوتهم وقدموا له المأكل والملبس وأخبروه أن بلادهم تُدعى بنتبلس Pentapolis، وأن مليكهم هو سمنيدس Simonides، ويسميه القوم سمنيدس الصالح لأن البلاد تتمتع في عهده بالسلم الشامل والحكم الرشيد. وعَرِفَ منهم كذلك أن لمليكهم هذا بنتًا حسناء في مُقتبل العمر، يُوافق غدًا عيد ميلادها، وأن احتفالًا فخمًا سيُقام بهذه المناسبة في قصر الملك، يحضره جم غفير من الأُمراء والفرسان، أقبلوا من جميع الأنحاء ليتباروا في ألعاب الفروسية حُبًا في تيسا Thaisa أميرتهم الحسناء. وبينا كان الأمير يستمع إلى هذا الحديث وهو آسف كل الأسف على ضياع درعه المتينة، وحرمانه بذلك من الاشتراك مع هؤلاء الفرسان الأبطال إذ أقبل عليهم صياد ومعه درع كاملة الأجزاء أخرجها من البحر بشبكته، وكانت هي الدرع التي فقدها بركليز، فلما رآها قال: «أحمد الأقدار التي بعثت إلي بعد متاعبي كلها شيئًا أستعين به على صلاح حالي. لقد ورثت هذه الدرع عن أبي بعد وفاته، ومن أجل أبي أعزها وأحتفظ بها معي أينما ذهبت. وقد فرق البحر الهائج بيني وبينها، فلما سكن ردها إليَّ وأنا شاكر له حُسن صنيعه، وما دامت هدية أبي قد رُدت إليَّ فإني لا أرى في تحطيم سفينتي كارثة حلت بي».

وفي اليوم التالي جاء بركليز إلى بلاط الملك سمنيدس وعليه دروع أبيه البطل الشجاع، وأظهر في المباراة العجب العجاب، فلم يجد أدنى صعوبة في التغلب على الأُمراء البواسل أمام الملوك ليفوزوا بحب بناتهم، فإن الأميرة العظيمة التي تُقام تلك الحفلات تكريمًا لها تخلص الفائز وحده باحترامها.

ولم تخرج تيسا على هذه القاعدة، فإنها صرفت من فورها جميع الأُمراء والفرسان الذين غلبهم بركليز وميزته عنهم بحبها وتقديرها ووضعت على جبينه إكليل النصر. فكان في ذلك اليوم السعيد صاحب الحظ الأوفر، وهام بحب الأميرة الحسناء من ساعة أن وقعت عينه عليها.

وأُعجب الملك الصالح سمنيدس بشجاعة بركليز ونُبل خلاله، فقد كان رجلًا مُهذبًا يحذق كل الفنون العُليا التي يزدان بها الأُمراء، ولهذا فإن سمنيدس حينما رأى ابنته مشغوفة بحبه لم يستنكف أن يقبله زوجًا لها، وإن لم يكن يعرف شيئًا عن أصل هذا الفتى الغريب؛ لأن بركليز كان يحرص على أن يخفي أمره لشدة خوفه من أنتيكس، فأذاع أنه شاب عادي من أبناء صور.

ولم يمضِ على زواج بركليز بتيسا إلا أشهر قلائل حتى تناهت إليه الأخبار بِأَن عدره أنتيكس قد مات. وأن رعاياه أهل صور ملوا طول غيابه، فهددوا بالثورة عليه، وأخذوا يتحدثون جهرة بخلعه وإجلاس هلكينس على عرشه الشاغر. وكان الذي بعث إليه بهذا النبأ هو هلكينس نفسه؛ لأنه وهو التابع الأمين لمولاه لم يقبل هذا المنصب السامي الذي عُرِضَ عليه، وأرسل إلى بركليز يُنبئه بنية رعاياه حتى يعود إلى بلده ويستعيد حقه المشروع. ولشد ما دهش سمنيدس وسر حين عَرِفَ أن الفارس المجهول الذي تزوج ابنته هو أمير صور الذائع الصيت، ولكنه مع ذلك أسف ألَّا يكون هذا الزوج الذي يجله ويعجب به رجلًا من عامة الشعب كما كان يظن؛ وذلك لأنه يوشك الآن أن يُفارقه ويُفارق ابنته المحبوبة التي كان يخشى أن يُسلمها إلى أهوال البحار. وكان بركليز نفسه يرغب أن تبقى زوجته مع أبيها، ولكن هذه الزوجة المسكينة أصرت على أن تصحب زوجها، فلم يسعه إلا أن يُوافق على ذهابها، وهو يرجو أن يصلا بعد قليل من الوقت إلى مدينة صور.

ولم يكن البحر الصديق المسالم للأمير التعس بركليز، فقد هبت عليه وهو لا يزال بعيدًا عن بلده عاصفة أُخرى رهيبة انخلع لها قلب تيسا فمرضت، وجاءت مربيتها لكريدا Lychorida بعد قليل من الوقت إلى الأمير تحمل بين ذراعيها طفلة صغيرة، وتبلغه ذلك النبأ المحزن وهو أن زوجته فارقت هذا العالم حين خرجت الطفلة الصغيرة إليه. وقربت الطفلة من أبيها وقالت: «ذلك شيء أصغر من أن يعيش في هذا المكان، هذه ابنة الملكة الميتة». وليس في مقدور الإنسان أن يصف ما قاساه بركليز من الألم والحسرة حين نقل إليه نبأ موت زوجته. ولما ذهب عنه الروع واستطاع النُطق قال: «أيها الأرباب لم تبعثون في قلوبنا حب عطاياكم ثم تختطفونها بعد ذلك منا؟». وأجابته لكريدا بقولها: «صبرًا يا مولاي! دونك هذه البنية وهي كل ما بقى لك من زوجتك الميتة، أشفق على نفسك من أجلها، ولتكن أكثر مما أنت رجولة، اصبر يا مولاي على بلواك من أجل هذه الوديعة الثمينة». وأخذ بركليز الطفلة المولودة في يديه وقال: «أرجو أن تكون حياتك سهلة، فلم يلق طفل في مولده من الهول ما لقيت، ولم يتجهم العالم لمولد كفل كما تجهم لك، فليتك تحيين حياة طيبة هينة، وليتك تسعدين في أيامك المقبلة، فقد لقيت في مولدك من العذاب كل ما تستطيع أن تصبه عليك النار والهواء والماء والتراب والسماء، وإن الخسارة التي أصابتك في أول ساعة من حياتك – يريد موت أُمها – لأفدح من أن تعوضها لك جميع المسرات التي سوف تجدينها في هذا العالم الذي جئت اليوم لزيارته».

وظلت الريح تعصف بالسفينة، وجاء البحارة يطلبون إليه أن يأذن لهم بإلقاء جثة الملكة في اليم لأن من الأوهام التي تُسيطر على عقول الملاحين أن العاصفة لا تسكن ما دام في السفينة جثة ميتة، وقالوا له: «اصبر أيها

الأمير لعل الله يُنجيك». فأجابهم بقلب مُنفطر: «إن لدي من الشجاعة ما يكفيني، ولستُ أرهب العواصف فقد فعلت بي شر ما تستطيع، ولكنني أرجو أن تهدأ ثائرتها حُبًا في هذه الطفلة المسكينة جوابة البحار». وقال له الملاحون: «يجب أن تلقى الملكة في اليم، إن البحر هائج والريح تعصف، ولن يسكن الإعصار حتى تُزال الجثة التي على ظهر السفينة». وكان بركليز يعرف أن ذلك كله حديث خرافة، ولكنه أذعن لِما طلبوه وقال لهم: «ليكن ما تريدون، ولتلق الملكة التعسة في اليم».

وذهب هذا الأمير البائس ليلقي على زوجته المحبوبة نظرته الأخيرة، فلما وقعت عينه عليها قال: «لقد متِ شر ميتة أيتها الزوجة العزيزة، وليس إلى جانبكِ نار ولا نور، ونسيتك عناصر الطبيعة القاسية كل النسيان، وليس في الوقت مُتسع لأحملكِ مُكرمة إلى قبرك، بل لابُد أن ألقيكِ في البحر مهلهلة الأكفان تُجاورين الأصداف وتقيم مياه البحر دون غيرها نصبًا فوق عظامك. أي لكريدا! مري نسطر Necander يأتني بالعطر والورق والمداد وآنيتي وجواهري، ومري نكندر Necander يأتني بالتابوت الحريري، هيَّا ضعي الطفلة على الوسادة وافعلي من فوركِ ما آمركِ به، واتركيني أُصلي على تيسا صلاة الوداع».

وجاءوا لبركليز بصندوق كبير وضع فيه الملكة بعد أن لفها في كفن من الحرير، ونثر عليها توابل ذات رائحة عطرة، ووضع إلى جانبها جواهر ثمينة وورقة ذكر فيها حقيقة أمرها، وطلب إلى من عساه يعثر على الصندوق الذي يحتويها أن يُعنى بدفنها، ثم ألقى الصندوق في الماء بيديه. ولما سكن البحر أمر الملاحين أن يُوجهوا السفينة نحو طرسوس وقال: «إن الطفلة لا تستطيع العيش حتى تصل إلى صور، وسأتركها في طرسوس في يدي من يُعنى بأمرها».

وفي الصباح الباكر، بعد الليلة التي ثارت فيها هذه العاصفة الهوجاء، جاء إلى شاطئ البحر كرمون Cerimon وهو طبيب ماهر من أطباء إفسوس Ephesus ومن خيرة أبنائها وأجلهم قدرًا. وبينا هو واقف هُناك إذ جاءه خدمه بصندوق قالوا إن الأمواج ألقته على البر، وقال له أحدهم: «إني لم أرَ في حياتي موجة في حجم الموجة التي قذفت بهذا الصندوق إلى أرضنا». وأمر كرمون أن يحمل الصندوق إلى داره، وما كان أشد دهشته حين فُتِحَ أمامه وأبصر فيه سيدة حسناء في مُقتبل العمر، ورأى إلى جانبها توابل ذكية، وآنية مملوءة بالجواهر، فاستدل من ذلك على أن الذي وُضِعَ في الصندوق على هذا النحو العجيب إنسان جليل القدر. ثم أخذ يبحث في الصندوق فعثر فيه على ورقة فهم منها أن الجثة التي يراها أمامه كالميتة جثة ملكة كانت زوجة بركليز أمير صور. ودُهِشَ أيمادهشة من هذه الحادثة العجيبة وأخذته الحسرة على هذا الزوج الذي فقد زوجته المحبوبة فقال: «إذا كنت حيًا يا بركليز فإن قلبك الآن يتمزق من شدة الحزن». وأخذ ينعم النظر في وجه تيسا فرأى فيه نضرة لا يراها في وجوه الموتى، فلم يصدق أنها ميتة، وقال: «إن الذين ألقوا بكِ في اليم قد تعجلوا». ثم أمر أن تُوقد النار، وأن يُؤتى له بأدوية مُنعشة، وأن تعزف بعض الأنغام الموسيقية الهادئة، حتى إذا ما عادت إليها الحياة هدأت روعها ودهشتها، وقال للذين تجمعوا حولها مُندهشين مما رأوا: «أرجو أيها السادة ألَّا تمنعوا عنها الهواء؛ إن هذه الملكة ستحيا، وهي لم تفقد حواسها مُنذ أكثر من خمس ساعات. انظروا ها هي ذي قد أخذت تنتعش فهي حية من غير شك. إن جفنيها يتحركان، وستحيا هذه السيدة الجميلة لتستدر الدمع منأعيننا حين نستمع إلى مأساتها».

وحقيقة الأمر أن تيسا لم تمت، بل أصابتها نوبة شديدة بعد أن ولدت

طفلتها، وظن كل من رآها أنها ماتت، وبفضل عناية هذا السيد الرحيم أبصرت عيناها الضوء وعادت إليها الحياة، وفتحت عينيها وقالت: «أين أنا وأين زوجي؟ وأي عالم هذا». وأنبأها كرمون على مهل وفي رفق وهدوء بما جرى لها، ولما ظن أنها قد أفاقت بالقدر الذي تقوى به على الرؤية أظهر لها الورقة التي كتبها زوجها والحلى التي كانت معها، فتأملتها وقالت: «تلك كتابة زوجي، أما أنني كنت في البحر على ظهر سفينة فهذا ما أذكره جيدًا، وأما أن طفلتي قد وُلِدَتْ هُناك فأقسم بالآلهة المقدسين أنني لا أذكره، وبما أنني لن أرى زوجي فسألبس ثياب الكاهنات، ولن يدخل السرور قلبي بعد اليوم». وأجابها كرمون بقوله: «سيدتي! إذا كانت هذه نيتك حقًّا، فإن معبد ديانا غير بعيد عن هذا المكان، وفي وسعك أن تكوني كاهنة وتقيمي فيه، وإن شئتِ فإن لي ابنة أخ تقوم فيه على خدمتك». وقبلت تيسا هذا العرض شاكرة، ولما ذهبت عنها كل آثار النوبة أدخلها كرمون معبد ديانا فصارت من كاهنات هذه الإلهة، وقضت فيه أيامها تندب زوجها الذي ظنت أنها لن تراه بعدئذ، وتقوم بأقدس الواجبات الدينية التي كان يقوم بها الكاهنات في تلك الأيام.

وحمل بركليز طفلته الصغيرة إلى طوسوس وسماها مرينا Marina لأنها وُلِدَتْ في البحر، وعقد النية على أن يتركها عند كليون Cleon حاكم المدينة وزوجته دينيزيا Dionysia ظنًّا منه أنهما سيشفقان على تلك الطفلة اليتيمة جزاء ما له عليهما من يد في أيام القحط الذي حلَّ بالمدينة. ولما رأى كليون الأمير بركليز وسمع بالفاجعة التي حلت به، قال له: «أسفي على زوجتك العزيزة! ليت الآلهة قدرت أن تأتي بها إلى هذه البلدة لأُمتع عيني بمرآها». وأجابه بركليز: «إن علينا أن نرضى بما تحكم به آلهة السماء، ولو أنني غضبت وثرت كما يثور البحر الذي يضم رفات تيسا لما بدل ذلك من الأمر

شيئًا، وهذه ابنتي الصغيرة مرينا أرجو أن تُعنى بها وتعطف عليها، وأتوسل إليك أن تُربيها كما يُربى أبناء الملوك». ثم التفت إلى دينيزيا زوجة كليون، وقال لها: «أرجو أن تعني بتربية ابنتي فتسعديني أنا بهذه العناية». فأجابته قائلة: «إن لي أنا نفسي ابنة مثلها، ولن تكون هذه الابنة نفسها أعز عليّ من ابنتك هذه». وقطع كليون على نفسه مثل هذا العهد فقال: «إني سأرد إليك يا أمير بركليز في شخص ابنتك ما قدمت لي من خير حين أطعمت شعبي كله بقمحك، ومالك على هذا الشعب من يد يذكرها كل يوم في صلواته. ولو أنني أهملت ابنتك لاضطرني إلى أداء هذا الواجب شعبي الذي أنقذته من الهلاك، ولتنزل نقمة الآلهة عليّ وعلى أبنائي، ما دام لي أبناء، إذا احتجت إلى من يحثني على الوفاء بهذا الدين».

ولما أكد كليون وزوجته دينيزيا لبركليز أنهما سيعنيان بابنته، تركها في كنفهما وترك معها مربيتها لكريدا. ولم تكن مرينا الصغيرة تدرك ما أصابها من خسارة حين فارقها بركليز، ولكن لكريدا بكت بُكاءً مُرًا لفراق سيدها الملك، وقال لها بركليز: «لا تذرفي الدمع يا لكريدا. لا تذرفي الدمع واعتني بسيدتكِ الأميرة التي قد ترعاكِ في مستقبل الأيام».

ووصل بركليز سالمًا إلى صور، وجلس مرة أُخرى على عرشه آمنًا مُطمئنًا؛ أما زوجته التي ظن أنها ماتت فكانت تقيم في إفسوس، وأما ابنته الصغيرة التي لم ترها هذه الأُم البائسة فكانت تنشأ على يدي كليون تنشئة تليق بكرم محتدها، فقد رباها أحسن تربية حتى إذا ما بلغت الرابعة عشرة من عمرها لم يكن أحد من كبار العُلماء أدرى منها بعلوم تلك الأيام. وكانت تُغني وترقص كأنها من إلهات السماء المخلدات، وبرعت في أعمال التطريز براعة مكنتها من مُحاكاة الطبيعة في تصوير الطير والفاكهة والأزهار، ولم يكن الورد

الطبيعي أكثر شبهًا بعضه ببعض منه بورد مرينا.

فلما نالت بفضل العلم هذه المزايا العظيمة، وأصبحت موضع إعجاب الناس جميعًا، حسدتها دينيزيا زوجة كليون، وأصبحت من أشد الناس عداوة لها؛ لأن ابنتها التي كانت بليدة العقل بطيئة الفهم لم تنبغ كما نبغت مرينا؛ ولأنها وجدت هذه الفتاة تستأثر وحدها بثناء الناس وابنتها مهملة بالنسبة إليها، مع أنها قد عنيت بتربيتها عنايتها بتربية مرينا نفسها، ولكنها لم تُوفق في عملها كما وفقت في تربية ابنة بركليز. ولذلك عولت على أن تبعد مرينا من طريقها ظنًا منها أنها إذا غابت عن أعين الناس لقيت منهم ابنتها السيئة الحظ أكثر مما كانت تلقاه وقتئذ من الإجلال. وكانت في هذا الظن مُخطئة، ولكنها صممت على الوصول إلى غرضها؛ فسخرت رجلًا لقتل مرينا، واختارت لتنفيذ جرمها الساعة التي ماتت فيها لكريدا الوفية مُربية هذه الفتاة.

وأخذت دينيزيا تتحدث إلى الرجل الذي أمرته بقتل مرينا حين كانت هذه الفتاة تبكي لموت لكريدا، ولم تفلح في أول الأمر في إقناع لينين Leonine الذي اختارته لتنفيذ جريمتها بالإقدام عل هذه الفعلة الشنعاء؛ لأن مرينا كسبت عطف الناس جميعًا وحبهم، وقال لها هذا الرجل: «إنها مخلوقة طيبة». فأجابته هذه العدوة التي خلا قلبها من الرحمة والحنان: «وهي لهذا أجدر بِأَن تكون إلى جوار الآلهة، ها هي ذي آتية والدمع يفيض من عينيها حُزنًا على موت مُربيتها لكريدا، فهل أنت عازم على أن تطيع أمري؟». وخشى لينين عاقبة عصيانه فقال: «سأطيع أمركِ». وبذه العبارة القصيرة قُضي على تلك الفتاة التي سمت على جميع أترابها أن تموت قبل الأوان.

وأقبلت مرينا وفي يدها سلة ملئت أزهارًا، وقالت إنها ستنثرها كل يوم

على قبر لكريدا الوفية، وتجعل من البنفسج الأرجواني والأقحوان بساطًا فوق هذا القبر طوال أيام الصيف، ثم تنهدت وقالت: «وا حسرتاه! ما أشقاني من فتاة! لقد وُلدت في عاصفة هوجاء قضت على حياة أُمي، ولا يزال هذا العالم يعصف بي ويختطف مني أصدقائي». وقالت دينيزيا المخاتلة: «عجبًا لكِ يا مرينا! أتبكين وحدك؟ وكيف لا تكون ابنتي معك؟ لا تحزني على لكريدا فسأكون أنا مُربيتك بعدها، إن هذا الحزن الذي لا خير فه قد أثر في جمالك، أعطيني هذه الأزهار فإن هواء البحر يذهب بنضرتها، وروحي عن نفسك بالسير مع لينين. إن هواء البحر عليل وسينعشك ويفيدك كثيرًا. تعالي إليَّ، خذ بيدها يا لينين وسر معها». فأجابتها مرينا: «لا يا سيدتي! أرجو ألَّا أكون سببًا في إبعاد خادمك عنك». وكان لينين من خدم دينيزيا، وكانت هذه المرأة الخبيثة تتلمس سببًا لترك مرينا وحدها معه، فقالت لها: «تعالي يا مرينا، تعالي! إني أحب أباكِ الأمير وأحبكِ أنتِ، ونحن في كل يوم نتوقع قدومه، فإذا ما جاء ورأى أن الحزن قد بدل جمالك الذي لا يُضارعه جمال، والذي طالما وصفناه في رسائلنا له، ظن أننا لم نعن بكِ العناية الحقة، ولهذا أرجو أن تروحي عن نفسكِ وتسيري مع لينين وتحرصي على هذا الوجه الجميل الذي سلب عقول الناس كبيرهم وصغيرهم». وتأثرت مرينا بهذا الإلحاح، فقالت: «سأذهب، وإن كنت غير راغبة في الذهاب». وقالت دينيزيا للينين وهي تبتعد عنها: «تذكر ما قلته لك». ألفاظ رهيبة معناها تذكر أن تقتل مرينا.

ونظرت مرينا إلى البحر مسقط رأسها، وقالت: «هل الرياح التي تهب علينا دبور[١٤]». فأجابها لينين: «بل هي نكباء[١٥] جنوبية غربية». وقالت

[١٤] تهب من جهة الغرب.

[١٥] النكباء كل ريح انحرفت فوقعت بين ريحين.

مرينا: «لقد كانت الريح شمالية حين وُلدت». ثم عادت إلى ذاكرتها كل العواصف والزعازع وأحزان أبيها وموت أُمها، وقالت: «لقد حدثتني لكريدا أن أبي لم يخف قط، بل قال للبحارة (الشجاعة الشجاعة أيها الملاحون البواسل)، وأن الحبال قد سحجت يديه الناعمتين، وأنه تعلق بالسارية في هذا البحر المتلاطم الذي كاد يشق السفينة شقًّا». وسألها لينين: «ومتى كان ذلك؟». فأجابته مرينا: «كان ذلك حين وُلِدت. ولم يكن البحر والأمواج في يوم من الأيام أشد منهما في تلك الساعة». ثم أخذت تصف العاصفة وأعمال البحارة وصفير الرقيب ونداء الربان «الذي ضاعف من اضطراب السفينة». وكانت هذه الصورة ماثلة في مخيلتها على الدوام؛ لأن لكريدا كانت لا تفتأ تقص عليها قصة مولدها المشئوم. وهنا قطع لينين عليها حديثها بِأَن طلب إليها أن تتلو صلواتها. وبدأ الخوف يدب في قلب مرينا لسبب لا تعلمه، فقالت له: «ومذا تقصد بهذا؟». فأجابها: «إذا كنتِ في حاجة إلى بعض الوقت تُصلين فيه فإني أمنحكِ إياه، على ألَّا تكوني في ذلك بطيئة مُملة، لقد أقسمت أن أُسارع إلى القيام بعملي وإن آذان الآلهة لمرهفة». وسألته مرينا: «أتريد أن تقتلني؟ ولأي سبب؟». وأجابها لينين: «لأرضي سيدتي». وسألته مرينا: «ولِمَ تُريد سيدتك أن تقتلني ولستُ أذكر أنني أسأت إليها مرة في حياتي؟ إنني لم أُوذِ مخلوقًا قط بكلمة سيئة أو فعل ذميم، وأُؤكد لك أنني لم أقتل فأرًا ولم أُوذِ ذُبابة. لقد وطئت قدمي على الرغم مني في يوم من الأيام دودة كانت تدب على الأرض، ولكنني تألمت لذلك وبكيت، فأي ذنب جنيت؟». وأجابها الرجل المكلف بقتلها: «إنني مأمور بِأَن أُنفذ القتل لا أن أُجادل فيه». وهمَّ أن يقتلها ولكن جماعة من لصوص البحر نزلوا إلى الأرض في تلك اللحظة، ورأوا مرينا فاختطفوها وذهبوا بها أسيرة إلى سفينتهم.

وأخذ أحد القرصان مرينا لنفسه، وذهب بها إلى متلين Mitylene وباعها فيها بيع الرقيق. وسرعان ما اشتهرت في المدينة كلها بجمالها الرائع وأخلاقها الكريمة رغم حقارة مركزها. وأثرى الرجل الذي اشتراها مما كانت تكسبه من المال، فقد شرعت تُعلم الموسيقى والرقص والتطريز وتعطي ما تكسبه من هذه الدروس إلى سيدها وسيدتها. وتناهت أخبار علمها وجدها إلى مسامع ليسمكس Lysimachus، وهو فتى نبيل كان يحكم المدينة في تلك الأيام. وذهب ليسمكس بنفسه إلى المنزل الذي كانت تقيم فيه ليرى هذه الفتاة التي هي آية من خلق الله، والتي يشيد أهل المدينة كلهم بذكرها. وسر ليسمكس من حديثها غاية السرور، وكان قد سمع الشيء الكثير عن هذه الفتاة التي يُعجب الناس كلهم بها، ولكنه لم يكن يظن أنه سيجد فيها ما وجد من رقة الشعور وطهارة الخلق وطيبة القلب. ولما همَّ بمغادرة الدار قال لها إنه يرجو أن تظل مُحتفظة بجدها ونُبل خلالها، وإنها إذا سمعت منه شيئًا بعد هذه المرة فسيكون ذلك لخيرها. وظن ليسمكس أن مرينا قد أُوتيت من رقة الشعور وجميل الخلق وكمال الخَلْق ونُبل الصفات ورائع الجمال ما لم يُؤت أحد من الناس، وتمنى أن تكون له زوجة، وكان يرجو أن تكون كريمة المحتد على الرغم من حقارة شأنها؛ لأنها كانت إذا سُئِلَتْ عن أبويها ظلت صامتة وذرفت عيناها الدموع.

وعاد لينين إلى دينيزيا في طرسوس وأخبرها لخوفه منها أنه قتل مرينا، فأعلنت هذه المرأة الخبيثة أن الفتاة قد ماتت، وأقامت لها مأتمًا وشيدت لها قبرًا فخمًا. وبعد قليل من ذلك الوقت سافر بركليز من صور إلى طرسوس ومعه وزيره الأمين هلكينس ليُشاهد ابنته ويعود بها إلى بلده. وما كان أشد سرور هذا الأمير الكريم وهو يُفكر في أنه سيرى ابنته العزيزة التي هي قطعة

من زوجته الميتة، والتي لم يرها قط من يوم أن عهد بها إلى كليون وزوجته ليعنيا بها. فلم نُبيء أن مرينا ماتت، ورأى القبر الذي شيدوه لها، آلم الحزن قلب هذا الأب البائس وفت في عضده، ولم يطق رؤية هذا البلد الذي أودع فيه آخر آماله وذكرى زوجته العزيزة تيسا، فركب سفينته وغادر مدينة طرسوس. واستولى الحزن على قلب الأمير من يوم أن ركب السفينة فلم يكلم قط أحدًا، وكان كأنه لا يدرك شيئًا مما يحدث حوله.

ومرت السفينة في رحلتها من طرسوس إلى صور بمدينة متلين، حيث كانت مرينا. ورأى ليسمكس حاكم المدينة هذه السفينة الملكية مُقبلة وأراد أن يعرف من بها، فجاء إليها في زورق. وأحسن هلكينس استقباله، وأخبره أن السفينة آتية من صور وأن على ظهرها أميرهم بركليز، وزاد على ذلك أن هذا الأمير لم يُكلم أحدًا من ثلاثة أشهر، ولم يذق طعامًا إلَّا بالقدر الذي يمسك عليه حياته ليطيل أحزانه، وأن قصة هذا الحزن طويلة مُملة، ولكن أهم أسبابه أنه فقد ابنة له وزوجة عزيزتين عليه. ورجا ليسمكس أن يرى هذا الأمير المحزون، فلما وقعت عينه على بركليز أدرك أنه كان من قبل رجلًا وسيمًا، وقال له: «مرحبًا بك أيها الملك ولترعك الآلهة، مرحبًا بك أيها الملك مرحبًا». ولكن بركليز ظل صامتًا ولم يرد على ليسمكس بكلمة، كأنه لا يرى أحدًا مُقبلًا نحوه. وفكر ليسمكس في الفتاة الحسناء مرينا، وظن أنها تستطيع بلسانها العذب أن تنطق الأمير الصامت بكلمة. ورضى بذلك هلكينس وأرسل في طلب مرينا. وجاءت الفتاة إلى السفينة التي جلس فيها أبوها صامتًا جامدًا لا يتكلم من شدة الحزن، فأحسنوا استقبالها كأنهم كانوا يعرفون أنها ابنة مليكهم، وقالوا إنها فتاة رائعة الحسن. وسرَّ ليسمكس أن يسمعهم يثنون عليها، وقال: «إنها لكذلك حقًا، ولو أنني كنت مُوقنًا بِأَنها من أصل طيب لما

تمنيت لنفسي زوجة غيرها، ولاعتقدت أنني أسعد الناس بزواجها». ثم خاطبها بأرق الألفاظ كأنه يعلم أن هذه الفتاة الوضيعة في الظاهر هي السيدة الكريمة الأصل التي يتمناها لنفسه، وسماها مرينا الحسناء الجميلة، وقال لها إن أميرًا جليل القدر على ظهر تلك السفينة قد استولى عليه الحزن فعقد لسانه عن الكلام، وطلب إليها أن تشفي هذا الأمير الغريب من حزنه، كأن في قدرتها أن تهب الناس الصحة والهناءة. وأجابته مرينا: «مولاي! سأبذل كل ما أُوتيت من حذق لأشفيه من علته، على ألَّا يُسمح لأحد بالاقتراب منه إلَّا أنا وخادمتي».

وكانت هذه الفتاة وهي في متلين تحرص كل الحرص على أن تخفي عن الناس نشأتها الملكية؛ لأنها تستحي أن يعرف أحد أنف تاة من بنات الملوك تُباع بيع الرقيق، ولكنها الآن شرعت تقص على بركليز كل ما صادفته من النوائب وصروف الأيام وأخبرته بالمنزلة الرفيعة التي هوت منها إلى الحضيض. وكأنها كانت تعرف أنها واقفة بين يدي أبيها الملك، فجعلت حديثها كله يدور حول أحزانها. ولكن الحقيقة أنها لم تفعل هذا إلَّا لعلمها أن لا شيء يسترعى انتباه البائسين أكثر من الحديث عن مصائب شبيهة بمصائبهم. ونبه صوتها العذب الأمير المحزون من غفلته فرفع عينيه اللتين ظلتا زمنًا طويلًا ثابتتين لا تتحركان، وكانت مرينا صورة من أُمها لا تفترق عنها في شيء، فرأت عيناه الحائرتان في وجهها ملامح الملكة الميتة، وسُمع صوت هذا الأمير الذي ظل صامتًا زمنًا طويلًا يقول: «ما أشبه زوجتي العزيزة بهذه الفتاة التي قد تكون هي ابنتي، فهي مثلها في اتساع جبهتها، وطولها، واعتدال قامتها، وصوتها العذب الرقيق، وعينيهاالشبيهتين بالجوهرتين.. أين تسكنين أيتها الفتاة؟ ومن هما أبواكِ؟ ألم تقولي إنكِ تقلبتِ بين الظُلم والأذى، وإنكِ تعتقدين أن أحزانكِ قد تكون شبيهة بأحزاني إذا ما رفع القناع عنهما؟». فأجابته مرينا قائلة: «لقد

نطقت بما يشبه هذا، ولم أنطق إلَّا بما ظننت أنه قد يكون صحيحًا». ورد عليها بركليز بقوله: «قصي عليّ قصتكِ، فإذا رأيت أنكِ قد قاسيتِ جُزءًا من ألف جُزء مما قاسيت، فإنك تكونين قد صبرتِ على بلواكِ صبر الرجال، وأكون أنا قد جزعت جزع النساء! إن الذي يراكِ ليظنك تمثالًا للصبر يحدق بعينيه إلى قبور الملوك، ويبسم للشدائد فيسلبها قوتها ويتركها ضعيفة عاجزة.. كيف فقدتِ اسمك يا أرحم من رأيت من العذارى؟ أتوسل إليكِ أن تقصي عليّ قصتك، تعالي واجلسي إلى جانبي».

وما كان أشد دهشة بركليز حين قالت إن اسمها مرينا، فقد كان يعرف أن ليس هذا اسمًا عاديًا، بل كان اسمًا اخترعه هو لابنته ليدل على أنها وُلِدَتْ في البحر. وقال عند سماعه: «إني ليُستهزأ بي! لقد بعث بكِ إلى هذا المكان إله غاضب ليضحك العالم عليّ». وردت عليه مرينا قائلة: «صبرًا يا مولاي وإلَّا وقفت عند هذا الحد». فقال لها بركليز: «سأصبر، ولكنكِ لا تعرفين كيف تدهشينني حين تُسمين نفسك مرينا». فأجابته: «لقد سماني بهذا الاسم رجل كان له بعض السلطان وهو أبي ومليكي». فصاح بركليز مُندهشًا: «أأنتِ ابنة ملك؟ وتُسمين مرينا؟ أأنتِ من لحم ودم؟ ألستِ من بنات الجن؟ واصلي حديثك وقولي أين وُلدتِ؟ ولِمَ سُميتِ مرينا؟».

فأجابته: «لقد سُميت مرينا لأني وُلدت في البحر، وكانت أُمي ابنة ملك تُوفيت في اللحظة التي وُلدت فيها، هكذا حدثتني مُربيتي الطيبة لكريدا وهي تبكي. وقد تركني أبي الملك في طرسوس حتى سعت زوجة كليون القاسية إلى قتلي، وجاء جماعة من لصوص البحر فأنجوني وأتوا بي هُنا إلى متلين. ولكن أي شيء يُبكيك أيها السيد الكريم؟ لعلك تظنني مُدعية، غير أني أُؤكد لك يا مولاي أنني ابنة الملك بركليز إذا كان الملك بركليز الصالح لا يزال حيًا».

وكأن بركليز قد ارتاع من سروره المفاجئ العظيم، ولم يُصدق أن ما سمعه حق، فصاح بأعلى صوته مُناديًا خدمه. وسرّ هؤلاء حين سمعوا صوت مليكهم المحبوب، وقال هو لهلكيس: «أي هلكيس! اضربني، واجرحني، واعمل من فورك على إيلامي لكيلا يكتسحني هذا السيل الجارف من السرور فيقضي على حياتي. تعالي إليّ يا من وُلدتِ في البحر ودُفنتِ في طرسوس، ولقيتك في البحر مرة أُخرى. أي هلكينس! أجث على ركبتيك شكرًا للآلهة المقدسين، هذه مرينا، بوركتِ يا ابنتي. ائتني بثياب جديدة يا وزيري هلكينس. إنها لم تمت في طرسوس كما كانت تريد دينيزيا المتوحشة، وستخبرك هي بكل شيء حين تركع أمامها وتدعوها أميرتك».

وفي هذه اللحظة أبصر ليسمكس لأول مرة، فقال: «من هذا؟». فأجابه هلكينس: «هذا حاكم متلين سمع بحزنك فجاء ليراك». فقال بركليز: «إني أضمك يا سيدي إلى صدري. إيتوني بملابسي، لقد شفيت حين نظرت.. ولتبارك السماء ابنتي. انصتوا! ما هذه الأنغام الموسيقية؟». قال هذا وقد خُيل إليه في تلك الساعة أنه يسمع نغمات موسيقية عذبة قد تكون موسيقى حقة بعث بها إله رحيم، وقد تكون من خلق خياله حين أفعم قلبه غبطة وسرورًا. وأجابه هلكينس: «مولاي! إني لا أسمه شيئًا». فقال بركليز: «ألا تسمع شيئًا؟ إنها إذن موسيقى الأفلاك». ولم يكونوا في ذلك الوقت يسمعون أصواتًا موسيقية، فاعتقد ليسمكس أن سرور الملك قد ذهب بعقله، وقال: «ليس من الحكمة أن نُعارضه، فليكن ما يريد». ثم قالوا له إنهم يسمعون موسيقى حقيقية. وقال الملك إن النعاس يُغالبه فنصح له ليسمكس أن يستريح على أريكة، ووضع تحت رأسه وسادة. ونام الملك لفرط سروره نومًا عميقًا، وجلست مرينا إلى جانب أبيها وهو نائم لتُعنى به.

ورأى بركليز في منامه حلمًا لم يسعه معه بعد أن استيقظ إلَّا أن يُصمم على السفر إلى إفسوس. فقد رأى هذا الملك أن ديانا إلهة الأفسوسيين جاءته وأمرته أن يأتي إلى معبدها في إفسوس ويقف أمام المذبح ويقص تاريخ حياته وأحزانه عليها، وأقسمت بقوسها الفضية أنه إذا فعل ما تأمره به، نال خيرًا كثيرًا لم يكن يتوقعه. فلما استيقظ الملك مُنتعشًا مسرورًا أخبر من حوله بما رأى في نومه وبعزمه على أن يطيع أمر الإلهة.

ثم دعا ليسمكس بركليز أن ينزل إلى البر ليمتع نفسه بما يجده في متلين من تسلية. وقبل بركليز هذه الدعوة الكريمة، واتفق أن يقيم معه يومًا أو يومين، أُقيمت فيهما المآدب والاحتفالات الفخمة، ولقى فيهما من كرم الضيافة والبهجة ما كان في وسع حاكم متلين أن يقيمه للملك العظيم. ولم يُمانع بركليز قط في خطبة ليسمكس لابنته، حين علم ما لقيته عنده من الإكرام يوم كانت فتاة صغيرة الشأن، وأيقن أن مرينا نفسها لم تُعارض في هذه الخطبة. وكل ما اشترطه عليه قبل أن يُوافق على الزواج أن يحجا إلى مزار ديانا في إفسوس. وبدأ ثلاثتهم رحلتهم إلى هذا المعبد بعد وقت قصير، وأرسلت الإلهة نفسها ريحًا طيبة ملأت بها شراع السفينة، فوصلوا إلى مدينة إفسوس سالمين بعد رحلة استغرقت بضعة أسابيع.

وكان الرجل الصالح كرمون الذي أعاد الحياة إلى تيسا زوجة بركليز يقف إلى جوار مذبح الإلهة ديانا عندما دخل المعبد بركليز ومن معه، وكان في هذا الوقت قد تقدمت به السن كثيرًا.

وكانت تيسا إحدى كاهنات المعبد واقفة أمام المذبح، فلما رأت بركليز اعتقدت انها ترى فيه ملامح زوجها، وإن كانت السنون الطوال التي قضاها

حزينًا عليها قد بدلت مظهره كثيرًا. ولما قرب من المذبح وبدأ يتكلم، تذكرت صوته وأصغت إلى حديثه في دهشة وذهول تُخالطهما الغبطة الشديدة. وهذه هي الألفاظ التي فاه بها: «أي ديانا! هأنذا قد أتيت طوعًا لأوامركِ العادلة، وأقر أمامك أنني أنا أمير صور الذي خرج خائفًا من بلده وتزوج في بنتبلس الحسناء، ثم ماتت زوجته في عرض البحر، ولكنها خلفت له طفلة أُنثى تُدعى مرينا رُبيت في طرسوس عند دينيزيا. ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها دبرت هذه السيدة قتلها، ولكن حظها الحسن ساقها إلى متلين، ثم جاء بها بعدئذ إلى السفينة التي كنت أركبها حين مرت بهذا البلد، واستطاعت بفضل ذاكرتها القوية الصافية أن تُعَرفني بأنها ابنتي».

ولم تستطع تيسا أن تتحمل نشوة الفرح التي تملكتها حين سمعت هذه العبارات، فصاحت قائلة: «إنك أنت، إنك أنت مليكي بركليز!». ثم وقعت مغشيًا عليها. وقال بركليز: «ماذا تقصد هذه المرأة؟». وقال كرمون: «إنها تموت أيها السادة، فساعدوني أعد الحياة إليها، وإذا كنت يا سيدي صادقًا فيما حدثت به معبد ديانا فهذه زوجتك». وأجابه بركليز: «كلا أيها السيد المبجل، لقد ألقيتها في البحر بيدي هاتين». وأخذ كرمون يقص عليه كيف قذفت أمواج البحر على شاطئ إفسوس بهذه السيدة في صباح أحد الأيام العاصفة، وكيف فتح التابوت، فوجد فيه جواهر ثمينة وورقة مكتوبة، وكيف أسعده الحظ بإعادة الحياة إليها ووضعها في معبد ديانا. وأفاقت تيسا من نوبتها في تلك الساعة فقالت: «سيدي! ألست أنت بركليز؟ إنك مثله في حديثك وفي هيئتك.. ألم تذكر عاصفة ومولدًا ومماتًا؟».

وقال بركليز في دهشة شديدة: «ذلك صوت تيسا الميتة». وقالت هي: «وأنا تيسا هذه التي ظننتموها غرقت وماتت». وصاح بركليز وقد تملكته

نشوة من التقى ممزوجة بالدهشة: «ما أصدقكِ يا ديانا!». وقالت تيسا: «والآن قد زاد علمي بك؛ إن هذا الخاتم الذي أراه في إصبعك أعطاك إياه والدي الملك حين افترقنا عنه في بنتبلس والدموع تفيض من عيوننا». وصرخ بركليز قائلًا: «حسبك هذا أيتها الآلهة! إن هذه الرحمة قد ذهبت بجميع آلامي الماضية وجعلتها كلها لهوًا وعبثًا، تعالي إلى يا تيسا لأضمك إلى صدري مرة ثانية». وقالت مرينا: «إن قلبي يكاد يقفز من بين جنبي شوقًا إلى أُمي لتضمني إلى صدرها». ثم أخذ بركليز ابنته إلى أُمها وهو يقول: «انظري يا من تركعين هنا إلى فلذة كبدك، إلى ابنتكِ التي وُلِدَتْ على سطح الماء وسُميت مرينا لأنها خرجت إلى الدنيا في البحر». وقالت تيسا: «سعدتِ يا ابنتي». وبينا كانت هي تُعانق مرينا كان بركليز راكعًا أمام المذبح يُناجي ديانا بقوله: «أي ديانا الطاهرة! إني أحمد لكِ رؤياكِ، وسأُقدم لك من أجلها النذور في كل ليلة». وفي هذه الساعة أعلن بركليز رسميًا زواج ابنته مرينا بليسمكس أجدر الناس بها، ووافقت تيسا على هذا الزواج.

وهكذا يضرب بركليز وزوجته وابنته أروح الأمثال للفضيلة التي نابتها خطوب الزمن بإذن من آلهة السماء لتعلم بني الإنسان الصبر والثبات. لقد خرجت الفضيلة آخر الأمر ظافرة بهدي هذه الآلهة نفسها فانتصرت على نوائب الدهر وصروف الزمان. ولقد كان هلكينس خير مثال للصدق والإخلاص والوفاء، فقد كان في وسع هذا الوزير أن يجلس على العرش، ولكنه آثر أن يدعو إليه صاحبه الشرعي على أن يرتفع إليه بإيذاء غيره. وفي كرمون الرجل الكريم الذي أعاد الحياة إلى تيسا نرى كيف تُحسن الأخلاق الكريمة إلى الناس إذا اهتدت بنور العلم فتسمو بأصحابها إلى مصاف الآلهة العظام! ولم يبقَ من قصتنا إلَّا أن نقول إن دينيزيا الأثيمة زوجة كليون قد

لاقت جزاء ما جنت يداها. ذلك أن أهل طرسوس، لما عَلِموا بما دبرته من الشر لمرينا، ثاروا عليها انتقامًا منها لابنة الأمير الذي أحسن إِليهم، وأضرموا النار في قصر كليون وأحرقوه هو وزوجته وأهل بيتهم جميعًا. وكأن الآلهة قد سرَّها أن تلقي هذه الجريمة الشنيعة ما تستحقه من العقاب الصارم، وإِن لم تخرج من دور التفكير إِلى دور التنفيذ.

الفهرس